

«منذ سنوات قلتُ إن
مارياس هو أفضل كاتب إسباني،
ما زال على قيد الحياة، ولم يحصل
أي شيء لأغيِّرَ رأيي هذا»
إدواردو مندوثا

غراميات

رواية

خابيير
مارياس

ترجمة : صالح علماني



(غراميات)

«خابيير ماریاس»

خابيير مارياس

غراميات

رواية

ترجمة

صالح علماني

إلى ميرثيديس لوبيث بايستيروس،
لأنها زارتني وروت لي

وإلى كارمن لوبيث ميركادير،
لمواصلتها الضحك في مسمعي
والاستماع إليّ

I

آخر مرة رأيتُ فيها ميغيل ديسفيرن أو ديفيرني هي المرة الأخيرة أيضًا التي رأتْهُ فيها امرأته لويسا، وهو ما ظل يبدو مُستغرَبًا وربما جائرًا، لأنها كانتْ، هذا الذي قلتُه: امرأته، وكنتُ أنا بالمقابل امرأة مجهولة لم أتبادل معه كلمة واحدة قطّ. بل إنني لم أكن أعرف اسمه، ولن أعرفه إلا بعد فوات الأوان، عندما ظهرتْ صورته في الجريدة مطعونًا وبلا قميص تقريبًا وعلى وشك التحوّل إلى شخص ميت، إن لم يكن قد صار كذلك فعلًا في غياب وعيه الذي لم يَعُدْ للحضور بعدها قطّ: آخر ما يجب أن يكون قد انتبه إليه هو نفسه أنه يُطعن بطريق الخطأ وبلا سبب، هذا يعني بغباء، فضلًا عن إعادة طعنه مرة بعد أخرى، دون أن يبقى له أي أمل في النجاة، وليس طعنة واحدة، بنية إزاحته من الدنيا وحذفه دون إبطاء عن وجه الأرض، هناك وآنذاك. بعد فوات الآوان على أي شيء، أتساءل. والحقيقة أنني أجهل ذلك. المسألة فقط أنه حين يموت أحدهم، نفكّر في أن الأوان قد فات لعمل أي شيء، كل شيء - وبصورة خاصة انتظاره -، ونكتفي باعتباره مفقودًا. وكذلك نفعل بالمقرَّبين منا، حتى وإن كلَّفنا ذلك أكثر بكثير وبكيناهم، ورافقتنا صورتهم في الذهن ونحن نمشي في الشوارع وفي البيت، ونظن لوقت طويل أننا سنعتاد. لكننا نعرف منذ البدء - منذ لحظة موتهم - أنه علينا عدم الاعتماد عليهم، ولو في أدنى الأمور، في مكالمة عابرة أو سؤال أبله («هل تركتُ هناك مفاتيح السيارة؟»، «في أي ساعة يخرج الطفلان من المدرسة اليوم؟»)، لا يمكن الاعتماد عليهم في أي شي. لا شيء من أي شيء. الأمر غير مفهوم في الواقع، لأنه يفترض امتلاك يقين، وهذا مخالف لطبيعتنا: طبيعية أن أحدهم لن يأتي بعد اليوم، ولن يقول شيئًا إضافيًا، ولن يخطو أي خطوة أخرى أبدًا - لا من أجل التقدّم ولا من أجل التنحّي جانبًا -، ولا النظر إلينا، ولا صرف النظر عنا. لا أدري كيف نتحمّل ذلك، ولا كيف نتعافى منه. لا أدري كيف ننسى للحظات، حين يكون الزمن قد مضى وأبعدنا عنهم، وظلّوا ساكنين خامدين.

لكنني كنت قد رأيته في صباحات كثيرة، وسمعته يتكلّم ويضحك، في تلك الصباحات كلها تقريبًا، وعلى امتداد بضع سنوات، في وقت مبكّر من الصباح، ليس مبكِّر جدًا، فمن عادتي في الواقع أن أصل إلى العمل متأخرة قليلًا كي تتاح لي فرصة التصادف مع ذلك الثنائي للحظات، ليس معه هو - كيلا يُساء فهمي - وإنما مع كليهما، فقد كان الاثنان يُشعرانني بالطمأنينة ويمنحانني فرحًا، قبل البدء بيوم العمل. لقد تحولا إلى ما يشبه الأمر الإجباري. لا، فكلمة إجباري غير مناسبة لشيء يمنحنا بهجة وطمأنينة. ربما هي كلمة طِيرة. لا، ليست هذه هي الكلمة أيضًا: فالمسألة ليست في أنني سأؤمن بأن يومي سيكون سيئًا إذا أنا لم أتناول الفطور معهما، أعني معهما عن بُعد؛ فما سيحدث هو أنني سأبدأ اليوم بمعنويات منخفضة، أو بقدر أقل من التفاؤل، دون تلك الرؤية التي يقدّمانها لي يوميًا، وقد كانت رؤيتهما هي الدليل على أن العالم يمضي بانتظام، أو بانسجام إذا شئت. حسنًا، إنه انسجام جزء ضئيل جدًا من العالم الذي نتأمّله قليلًا جدًا، مثلما يحدث في كل جزء أو حياة، حتى أشدها عمومية أو عرَضية. لم يكن يروق لي الاعتكاف في مكان العمل لساعات طويلة دون أن أكون قد رأيتهما وراقبتهما، ليس خلسة ولكن بتكتّم، فآخر ما كنت أريده هو

إزعاجهما. وما كنت لأغفر لنفسي دفعهما إلى الهرب، لأن ذلك سيكون مؤذيًا لي. كنت أرتضي تنفّس الهواء نفسه الذي يتنفّسانه أو تشكيل جزء من مشهدهما في الصباحات - جزء غير مرئي -، قبل أن يفترقا إلى أن يحين موعد تناولهما الوجبة التالية، والتي من المحتمل، ربما، أن تكون وجبة العشاء، في أيام كثيرة. وفي ذلك اليوم الأخير الذي رأيناه فيه، امرأته وأنا، لم يستطيعا العشاء معًا. ولا حتى تناول الغداء. لقد انتظرَتْهُ امرأته عشرين دقيقة وهي جالسة إلى منضدة في المطعم، مستغربة تأخّره، ولكن دون أية مخاوف من أي نوع، إلى أن رنّ الهاتف وانتهى عالمها، ولم تعد تنتظره بعدها قطّ.

منذ اليوم الأول تبين لي بوضوح أنهما زوجان، هو في حوالى الخمسين من العمر، وهي أقل ببضع سنوات، لم تصل بعد إلى الأربعين. وكان ألطف ما فيهما هو رؤية الوئام الذي يعيشانه معًا. ففي وقت لا يكاد يكون هناك من هو راغب في الاهتمام بأي شيء تقريبًا، ناهيك عن الاحتفال والضحك، كانا يتكلّمان بلا توقف ويستمتعان ببثّ الحماسة وبتشجيع كل منهما الآخر، كما لو أنهما قد التقيا أو حتى تعارفا للتو، وليس كمن خرجا معًا من البيت، وأوصلا الطفلين إلى المدرسة، وتهندما معًا في الوقت نفسه - وربما في غرفة الحمام نفسها -، وكانا قد استيقظا في السرير نفسه، وأول ما رآه كل منهما كان هيئة القرين غير المكتملة، وهكذا يومًا بعد يوم، منذ سنوات عديدة، وهي سنوات عديدة لأن الابنين اللذين رافقاهما في مناسبتين اثنتين، يجب أن يكون عمر الطفلة منهما الآن حوالى ثمانية أعوام والطفل في حوالى الرابعة، وهو يشبه أباه بصورة هائلة.

هذا الأب يلبس بطريقة تأنّق قديمة بعض الشيء، دون الوصول إلى الظهور بمظهر مضحك، أو بأنه من زمن مضى بأي حال. أعني أنه يمضي على الدوام ببدلة وبهندام حسَن التناسق، بقميص على المقاس، وربطات عنق غالية الثمن ووقورة، ومناديل تُطلّ من جيب الجاكيت، وبأزرار خاصة بمعصمَيْ القميص، وأحذية ملمعة ذات رباط - سوداء أو بُنية اللون من جلد الغزال، وهذا النوع الأخير من الأحذية ينتعله في أواخر الربيع فقط، عندما يبدأ بارتداء بدلات فاتحة الألوان -، له يدان معتنى بها، تُشذّبهما خبيرة مانيكور. وعلى الرغم من ذلك كلّه، لم يكن يعطي الانطباع بأنه مدير مزهوّ بنفسه ولا قميء متجاوز للحدود. بل كان يبدو أقرب إلى رجل لا تسمح له تربيته بأن يظهر في الشارع وهو يلبس بغير هذه الطريقة، في أيام العمل على الأقل؛ ويبدو طبيعيًا عليه ذلك النوع من الملابس، كما لو أن أباه قد علّمه أن هذا هو ما يناسبه أن يلبسه ابتداء من مرحلة عمرية معيّنة، بغض النظر عن صرعات الموضة التي تُولد منتهية الصلاحية، وعن أزمنة الثياب الرّثّة الحالية التي يجب ألا يكون لها أي تأثير عليه. كان شديد التقليدية إلى حدّ لم أكتشف معه قطّ أي تفصيل غير طبيعي فيه: لا يريد التظاهر بالأصالة، وإن انتهى به الأمر إلى أن يبدو كذلك في أجواء تلك الكافتريا التي اعتدت رؤيته فيها دومًا، وكذلك في أجواء مدينتنا المهمِلة. مفعول التلقائية يُرى متحقِّقًا من خلال طبعه الذي لا ريب في حميميته وبشاشته، لكنه غير منفتح وودود (فهو ليس كذلك مع النُدل، على سبيل المثال، إذ يتوجّه إليهم بـ«حضرتك» وبلطف لم يعد شائعًا، دون الوقوع في التكلّف): والواقع أن ما كان يستدعي بعض الانتباه هي قهقهاته المتواترة وشبه الفضائحية بصخبها، وإن لم تكن مزعجة أبدًا. كان يعرف كيف يضحك، يفعل ذلك بقوة وبساطة وخفّة ظل، ولكن ليس كمن يتملّق بأي حال، ولا بتصرّف استرضائي، وإنما كمن يتجاوب على الدوام مع أمور تروق له حقًا وتكون كثيرة تلك الأمور، إنه رجل كريم، لديه استعداد لتلمس ما هو ساخر في المواقف والتصفيق للممازح، اللفظي منه على الأقل. وربما تكون امرأته هي من تفعل ذلك، بمشاركته، فهنالك أشخاص يُضحكوننا مع أنهم لا يتعمّدون ذلك، ويتوصّلون إليه بصورة خاصة لأنهم يمنحوننا السعادة بحضورهم، وهكذا يكفينا القليل منهم كي نفلت الضحكة، بمجرد رؤيتهم ومرافقتهم وسماعهم، وإن كانوا لا يقولون شيئًا استثنائيًا، أو أنهم يتعمّدون التفوه بمتوالية من البلاهات وعبارات المزاح المتداولة، ومع ذلك نجد لطفًا في ذلك كله. ويبدو لنا أن كلًّا منهما واحد من أولئك الأشخاص؛ وإن تبيّن بوضوح أنهما متزوجان، لم ألمح فيهما قطّ إيماءة تجمُّل أو نفاق،

ولا مجرّد حركة مدروسة مسبقًا، كتلك التي يبديها بعض الأزواج، ممن أمضوا سنوات من المعايشة ويستعرضون باحتفالية كيف أنهم ما زالوا عاشقين مغرَمين، باعتبار ذلك مزيّة تعيد تقويمهم، أو زينة تُجمّلهم. كان تصرّفهما أقرب إلى الرغبة في أن يبدوَا لطيفين ومثيرين للإعجاب قبل مغازلة محتملة؛ أو كما لو أن لديهما الكثير من التقدير والشوق منذ ما قبل زواجهما، أو حتى ما قبل لقائهما، وأنهما قد اختارا بصورة تلقائية - وليس كواجب زوجي، ولا بدافع الراحة أو العادة، أو حتى الوفاء - أن يكون كلٌّ منهما رفيقًا أو مرافقًا، أو صديقًا، محاورًا أو متواطئًا، بضمانة أنه مهما يكن ما يمكن أن يحدث أو يجري، أو ما يتوجب قوله أو سماعه، سيكون على الدوام أقل أهمية أو متعة مع شخص ثالث. دونها هي في حالته، ودونه هو في حالتها. كانت هنالك رفاقية، وقبل ذلك قناعة.

لميغيل ديسفيرن أو ديفيرني ملامح لطيفة جدًّا، وتقاطيع رجولية محببة، وهو ما يجعله جذّابًا من بعيد، ويحملني على افتراض أنه شخص لا يُقاوَم في التعامل معه. من المحتمل أنني كنت أمعن النظر إليه أكثر مما أفعل مع لويسا، ومن المحتمل أنه هو من سيجبرني على إمعان النظر إليها أيضًا، لأنني إذا كنت أرى المرأة دون زوجها بكثرة - إذ إنه يغادر الكافتريا قبلها بينما تبقى هي بضع دقائق إضافية على الدوام تقريبًا، في بعض الأحيان وحدها، وهي تدخّن. وفي أحيان أخرى مع واحدة أو اثنتين من زميلات العمل، أو أمهات المدرسة، أو صديقات، ممن ينضممن إليهما في بعض الصباحات في اللحظة الأخيرة، عندما يكون هو على وشك الوداع والمغادرة -، إلا أنني لم أتوصّل قطّ إلى رؤية الرجل دون امرأته إلى جانبه. فصورته وحده لم يكن لها وجود بالنسبة إليَّ، وإنما معها (وكان هذا هو أحد أسباب عدم تعرفي عليه في الجريدة أول الأمر، لأن لويسا لم تكن موجودة معه). ولكن سرعان ما صار كلاهما يشغل اهتمامي، إذا كان هذا هو الفعل المناسب.

شَعْرُ ديسفيرن قصير، كثيف وشديد السواد، مع بعض الشيب عند الصدغين فقط، حيث يبدو الشَّعر أكثر تجعدًا من بقية الأمكنة (ولو أنه ترك سالفيه ينموان، فمن يدري إن كانت لن تظهر فيهما بعض التجعدات الحلزونية غير اللائقة). كانت له نظرة حيوية، هادئة وسعيدة، مع بريق سذاجة أو صِبيانية عندما يستمع، ونظرة شخص تمتعه الحياة بصورة عامة، أو أنه غير مستعدٍّ للمرور فيها دون أن يستمتع بألف مظهر لطيف تتضمّنه، حتى وسط المصاعب والنكبات. صحيح أنه لم يعان إلا القليل منها بالمقارنة مع ما يخص به القدر بني البشر عادة، وهذا ما يساعده على الحفاظ على تينك العينين الواثقتين والباسمتين. إنهما رماديتان ويبدو أنهما تسجّلان كل شيء كما لو أن كل الأشياء مستجدّة، حتى ما هو تافه ويتكرّر لهما يوميًا، مثل تلك الكافتريا في الجزء العلوي من شارع برينثيبي بيرغارا ونادلَيْها، وهيئتي الصامتة. له نُقرة في أسفل الذقن. تجعلني أتذكّر حوارًا في أحد الأفلام، حيث تتوجّه الممثلةُ إلى روبرت ميتشوم أو كاري غرانت أو كيرك دوغلاس، لم أعد أتذكّر أي واحد منهم، وتسأله كيف يتدبر أمر حلاقة ذقنه في ذلك الموضع، تقول ذلك وهي تلمس الموضع بإصبعها السبابة بخفة. وهو يمضي دائمًا بذقن حليقة جيدًا، بما في ذلك تلك النقرة في أسفل الذقن.

لقد أمعنا النظر إليَّ أقل بكثير، أقل بصورة لا متناهية من إمعاني النظر إليهما. كانا يطلبان فطورهما على منضدة الكونتوار وعندما يُقَدّم إليهما يحملانه إلى منضدة محاذية للنافذة الكبيرة المطلة على الشارع، بينما كنتُ أتّخذُ مجلسي وراء منضدة في عمق المحل. أما في الربيع والصيف فنجلس جميعنا إلى مناضد الرصيف ويقوم النادلان بتقديم الطلبات عبر النافذة المفتوحة على مستوى منضدة الكونتوار، وهو ما يفسح المجال لذهاب وإياب أولئك أو هؤلاء ولمزيد من التواصل البصري، لأنه لم يكن ثمة وجود لتواصل من نوع آخر. وقد تقاطعت نظرة ديسفيرن وكذلك لويسا مع نظرتي، لمجرد الفضول، دون أية نوايا ودون إطالة على الإطلاق. هو لم ينظر إليّ قط بطريقة موحية، متسلّطة، متبجّحة، لأنه يمكن لذلك أن يتحوّل إلى خيبة، ولم تُبدِ هي كذلك نحوي قطّ أي نوع من الريبة أو الفوقية أو الجفاء، لأن مثل ذلك الفعل سيسبب لي الاستياء. كانا يروقان لي، كلاهما معًا. لم أكن أراقبهما بحسد، لم أفعل ذلك مطلقًا، بل كنت أتأمّلهما براحة التأكّد من أنه

يمكن في الحياة الواقعية وجود ما يمكن تسميته، حسب تصوّري، الثنائي الكامل. بل إنهما كانا يبدوان لي كذلك على الرغم من أن مظهر لويسا غير متوافق مع مظهر ديفيرني، من ناحية الأسلوب والملبس. فإلى جانب رجل شديد التأنق مثله ينتظر أحدنا رؤية امرأة لها مواصفاته نفسها، كلاسيكية وأنيقة، وأن لا تكون بالضرورة متوقَّعة، بتنانير وأحذية ذات كعوب عالية في معظم الأحيان، أو بملابس ماركة سيلين، على سبيل المثال، وأقراط وأساور جيّدة، تنمّ عن ذوق حسن. لكنها بالمقابل تناوب في ملبسها ما بين أسلوب رياضي وآخر لا أدري إن كان يعبّر عن صفاقة أم عدم مبالاة، لا شيء من الفجاجة على أي حال. طويلة القامة مثله، سمراء البشرة، مع شعر يصل حتى الكتفين، كستنائي شديد القتامة، أقرب إلى السواد، مع قليل جدًا من المكياج. وعندما ترتدي بنطالًا - يكون في الغالب بنطال كاوبوي -، ترفقه بسترة عادية وجزمة أو حذاء بلا كعب؛ وحين تلبس تنورة، يكون الحذاء بنصف كعب وبلا أصالة، مطابق تقريبًا لما كانت تنتعله كثير من النساء في سنوات الخمسينيات، أو صندل ناعم في الصيف، يكشف عن قدمين صغيرتين، بالمقارنة مع طول قامتها، وحساستين. لم أرها قط تضع مجوهرات، كما أن حقائبها اليدوية من النوع الذي يُعلّق على الكتف. وهي تبدو شديدة اللطف والسعادة مثله، وإن كانت ضحكتها أقل صخبًا؛ لكنها ضحكة سهلة كضحكته وربما أكثر دفئًا، وبأسنانها اللامعة التي تضفي عليها ملامح طفولية إلى حدّ ما - ربما ضحكتْ بالطريقة نفسها وهي في الرابعة من عمرها، ولم تعد تستطيع تغيير ذلك -، أو أن خدَّيها هما اللذان يستديران متكوّرَيْن. كانا كمن اكتسبا عادة منح نفسَيهما استراحة معًا، قبل ذهاب كل منهما إلى عمله، وبعد إنهاء الانشغال الصباحي للأسر التي لديها أبناء صغار. إنها لحظات لهما وحدهما، كيلا ينشغل أحدهما عن الآخر وسط الجلبة وتبادل الحديث بحماسة، أتساءل ما الذي يتحدّثان فيه أو ما الذي يرويانه - كيف يكون لديهما الكثير ليقولاه، إذا كانا ينامان وينهضان معًا ويطّلعان يوميًا على أفكارهما وتنقّلاتهما -، محادثتهما كانت تصلني متقطعة فقط، أو في كلمات متفرقة. في إحدى المرات سمعته يناديها «أميرتي».

وبسبب قوله ذلك، صرت أتمنّى لهما كل ما في الدنيا من خير، كما لشخصيات رواية أو فيلم يتحزّب لها أحدنا منذ البدء، على الرغم من معرفته بأن شيئًا سيّئًا سوف يحدث، وأن شيئًا ما سيلويهما في لحظة ما، أو لن يكون هنالك رواية أو فيلم. ومع ذلك، فالأمر يجب ألا يكون على هذا النحو في الحياة الواقعية، وأنا أنتظر مواصلة رؤيتهما كل صباح مثلما هما، دون اكتشافهما ذات يوم في انفصال من طرف واحد أو مشترك، ودون معرفة ما يمكن قوله، متلهّفَين للاختفاء عن النظر بإيماءة غيظ متبادل أو بلا مبالاة. كان ذلك المشهد المقتضب والمتواضع هو ما يمنحني طيب المزاج قبل الدخول إلى دار النشر للكدِّ وبذل الجهد مع رئيسي المصاب بجنون العظمة ومؤلفيه المُمِلّين. إذا ما غابت لويسا وديسفيرن بضعة أيام، فسوف أفتقدهما وأشتاق إليهما، وسأواجه يوم عملي بمزيد من الضيق والغَم. فأنا أشعر بأنني مدينة لهما بطريقة ما، لأنهما، دون أن يدريا ودون أن يسعيا إلى ذلك، يساعدانني يوميًا ويتيحان لي أن أصوغ تخيّلات عن حياتهما التي أتصوّرها بلا أية شائبة، إلى حدّ شعوري بالسعادة لعدم قدرتي على التحرّي، أو التأكّد من وجود أي شيء في هذا الشأن، وهذا يعني عدم الخروج من افتتاني العابر (أما أنا فكانت لديَّ لطخات، والحقيقة أنني لم أكن أعود إلى تذكّرهما حتى صباح اليوم التالي، بينما أنا ألعن نفسي في الحافلة لأني استيقظت مبكِّرة، لأن هذا يقتلني). كنت أرغب في أن أقدّم إليهما شيئًا مشابهًا، ولكن ذلك غير ممكن. فهما

ليسا بحاجة إليّ، وربما ليسا بحاجة إلى أحد، فأنا غير مرئية تقريبًا، ممحوّة بسعادتهما. في مرتين اثنتين فقط، عند مغادرته، وبعد تقديمه القبلة المعهودة على شفتي لويسا - ولم تكن هي تنتظر تلك القبلة جالسة، بل تنهض واقفة كي تردّها إليه -، أومأ لي بحركة من رأسه، ما يشبه الانحناءة تقريبًا، بعد أن يكون قد مطّ رقبته ورفع يده نصف ارتفاع كي يودّع النادلَين، كما لو أنني أحد هؤلاء، ولكن مؤنثة. وامرأته، دقيقة الملاحظة، أومأت لي بإيماءة مشابهة عندما غادرتُ - فدائمًا أغادر بعده وقبل أن تغادر هي - في المرتين اللتين قام بهما زوجها بحركة الاحترام تلك. ولكنني عندما أردتُ الردّ عليهما بانحناءة أخف من انحناءتَيْهما، كان هو، وكذلك هي، قد التفتا بنظرهما ولم يرياني. لقد كانا سريعَين وحذرَين على هذا النحو.

عندما كنت أراهما، لم أكن أعرف من هما ولا ماذا يعملان، وإن كان الأمر يتعلّق، دون شك، بأناس من أصحاب الأموال. ربما ليسا بالغي الثراء، لكنهما في وضع مادي مريح بالتأكيد. ما أريد قوله هو لو أنهما من النوع الأول لما أخذا طفليهما إلى المدرسة بنفسيهما، وهو ما أنا متأكدة من أنهما يفعلانه قبل مجيئهما إلى الكافتريا، ربما يوصلان الطفلين إلى المدرسة النموذجية، وهي قريبة جدًا، وإن تكن هناك عدة مدارس في المنطقة، منطقة شاليهات إلفيسو معادة التأهيل، أو الأوتيلات، كما كانوا يسمونها قديمًا، أنا نفسي ذهبت إلى واحدة منها في طفولتي المبكرة، بشارع أوكيندو، غير بعيد جدًا؛ ولَمَّا تناولا فطورهما بصورة يومية تقريبًا في ذلك المحل في الحي، ولمَّا ذهب كل منهما إلى عمله في حوالى الساعة التاسعة، هو يذهب قبل قليل من هذه الساعة، وهي بعد قليل منها، حسب ما أكده لي النادلان عندما استعلمت عنهما، وكذلك فعلت زميلة لي في دار النشر، علَّقتُ معها على الحدث الفظيع، وعلى الرغم من أن معرفتها بهما لا تزيد عن معرفتي، إلا أنها كانت قد تدبّرت الأمر لمعرفة بعض التفاصيل، أعتقد بأن الأشخاص النمّامين وسيئي الظن يجدون على الدوام طريقة للتحرّي عما يريدون، ولا سيما إذا كان الأمر سلبيًا، أو كانت هنالك نكبة، حتى لو لم تكن لهم أية مصلحة في ذلك.

ذات صباح في أواخر شهر حزيران/يونيو لم يظهرا، ولم يكن هنالك أي شيء خاص في ذلك، فهو يحدث أحيانًا، توقعتُ أن يكونا في رحلة أو أنهما مشغولان جدًا ولا متسع لديهما لنيل استراحة التنفس تلك التي لا بد أنهما يستمتعان بها كثيرًا. بعد ذلك تغيبتُ أنا لمدة أسبوع تقريبًا، حيث أرسلني رئيسي في العمل إلى بلاهة معرضٍ للكتاب في الخارج، من أجل إقامة علاقات عامة وتفاهات باسمه قبل أي شيء آخر. عند عودتي لم يكونا قد عادا للظهور بعد في أي يوم من تلك الأيام، فأثار ذلك قلقي، ليس عليهما وإنما على نفسي بالذات، لأنني سأفقد فجأة حافزي الصباحي. «كم يبدو سهلًا تلاشي أحدهم»، كنتُ أفكر. «يكفي أن يُغيّر عمله أو بيته حتى لا يعود أحدنا يعرف عنه أي شيء أو لا يعود يراه في الحياة. بل يكفي أن يعدّل مواعيده. كم هي هشّة الروابط القائمة على الرؤية البصرية وحدها». ودفعني ذلك إلى التساؤل عما إذا كنت لم أتبادل معهما ولو بضع كلمات ذات مرة، لتزويدها بعد كل ذلك الوقت بمعنى بهيج. ليس بهدف المضايقة ولا إفساد لحظة رفقة مشتركة، ولا لبدء تعامل خارج الكافتريا بالطبع، فمثل هذا لم يخطر للبال؛ وإنما لمجرد أن أبدي لهما تعاطفي وتقديري، وتوجيه تحية الصباح إليهما منذ ذلك الحين وما بعده، ولأشعر بذلك أنني مجبرة على وداعهما إذا تركت ذات يوم العمل في دار النشر ولم أعد إلى تلك المنطقة، وعلى إجبارهما قليلًا على عمل شيء مماثل إذا ما كانا هما من سينتقلان أو سيبدّلان عاداتهما، بالطريقة نفسها التي ينبهنا بها عادة تاجر في حينا إلى أنه سيغلق متجره أو سينقله، أو أن نخبِرَ نحن أنفسنا الجميعَ تقريبًا حين نكون على وشك الانتقال من إلى بيت آخر. أن نعي على الأقل أننا سنتوقّف عن رؤية أناس اعتدنا عليهم كل يوم، على الرغم من أننا كنا نرى بعضنا على الدوام عن بُعد أو بطريقة نفعية ودون أن نكاد ندقّق في وجوههم. أجل، هذا ما يحدث عادة.

وهكذا انتهى بي الأمر إلى سؤال نادليّ المقهى. فأخبراني بأن الزوجَين، حسب ما علما، قد سافرا في إجازة. وقد كان لذلك في نفسي وقع الافتراض أكثر من كونه معلومة. الأمر مبكر على الإجازة بعض

الشيء، ولكنْ، هنالك أشخاص يفضّلون عدم قضاء شهر تموز/يوليو في مدريد، حين يكون الحر أشد من نار، أو ربما يمكن للويسا وديفيرني أن يسمحا لنفسيهما بالخروج طوال الشهرين، فهما من أصحاب الأموال كما يبدو، ولديهما ما يكفي من الحرية (ربما يحصلان على راتبَيْهما من عمل خاص بهما بالذات). ومع أنني حزنت لأني لن أستعيد محفّزي الصباحي الضئيل حتى شهر سبتمبر/أيلول، فقد شعرت بالطمأنينة كذلك لمعرفتي أنهما سيرجعان إذًا، وأنهما لم يختفيا عن وجه الأرض إلى الأبد.

أتذكر أنني وقعت، في تلك الأيام، على عنوان في الصحيفة يتحدّث عن موت رجل أعمال مدريدي بطعنات سكين، وأنني قد تجاوزت الصفحة بسرعة، دون أن أقرأ النص كاملًا، بسبب الصورة التوضيحية المرافقة للخبر: صورة رجل ملقى على الأرض وسط الشارع، على الرصيف، بلا سترة ولا ربطة عنق ولا قميص، أو أنه بقميص مفتوح وأذياله مفلتة خارجًا، بينما رجال الإسعاف السريع يحاولون إنعاشه، إنقاذه، وسط بركة دم تحيط به وذلك القميص الأبيض المضمَّخ والملوَّث، أو هذا ما تصورته حين لمحته. فوجهه لم يكن يظهر واضحًا من الزاوية التي التقطت منها الصورة، ولم أتوقّف على أي حال لإمعان النظر إليه، فأنا أمقت تلك النزوة الحالية في الصحافة التي لا توفّر على القارئ، أو على المشاهد، أشد الصور فظاعة - أم ترى أن هؤلاء القراء والمشاهدين يطلبونها... كائنات مختلة ومشوَّشة بمجموعها؛ ولكن لا أحد يطلب أبدًا أكثر مما يعرفه مسبقًا ومما مُنح له -، كما لو أن الوصف بالكلمات لا يكفي وبلا أدنى اعتبار للشخص الذي تعرّض لتلك الوحشية، والذي لم يعد قادرًا على الدفاع عن نفسه ولا حمايتها من النظرات التي لم يخضع لمثلها قطّ من قبل، حين كان وعيه متيقظًا، لأنه لم يظهر أمام مجهولين ولا حتى معروفين ببُرنس أو بيجاما، مقدّرًا أن ذلك غير لائق. فما بالك بتصوير رجل ميت أو محتضر، أضف إلى ذلك أنه في هذا الوضع بسبب فعل عنف. يبدو لي ذلك تعسّفًا وأقصى إساءة احترام لمن تحول للتو إلى ضحية أو إلى جثة - إذا كان بالإمكان رؤيته فإنه يبدو كمن لم يمت تمامًا بعد، أو لم ينتقل بالكامل، ولا بد من تركه يموت فعلًا ويخرج من الزمان بلا شهود غير لائقين وبلا جمهور -، لست مستعدة للمشاركة في هذه العادة التي تُفرض علينا، لا أشعر برغبة في النظر إلى ما يجري الإلحاح علينا للنظر إليه أو إجبارنا تقريبًا، وضم عينيّ الفضوليتين والمرتعبتين إلى عيون مئات آلاف من تفكّر رؤوسهم بينما هي تراقب، بنوع من الافتتان المكبوح أو الطمأنينة المؤكدة: «لستُ أنا بل شخص آخر، هذا الذي أمامي. لستُ أنا لأنني أرى الوجه وهو ليس وجهي. أقرأ اسمه في الصحف وهو ليس اسمي أيضًا، بل إنه لا يتوافق مع اسمي، فأنا لا أدعى هكذا. لقد كان الحدث من نصيب شخص آخر، ما الذي فعله يا ترى، في أية مشاكل أو ديون ورَّط نفسه أو أية أضرار رهيبة تسبب بها ليمزّقوه بطعنات السكاكين على هذا النحو. أنا لا أتدخّل في أي شيء ولا أخلق لنفسي أعداء، إنني أنأى بنفسي عن أي تدخّل. أو أنني أتدخّل وقد أتسبب بأذى لنفسي، ولكنهم لم ينالوا مني. لحسن الحظ أنه شخص آخر، وليس أنا، هذا الميت الذي يعرضونه لنا هنا ويدور الحديث عنه، إنني بمنجى أكثر مما كنته بالأمس، فقد أُفلَتُّ ونجوتُ يوم أمس. أما هذا البائس بالمقابل، فوقع واصطادوه». لم يخطر لي في أي لحظة أن أربط بين ذلك الخبر الذي تركته يمر عَرَضًا وبين الرجل اللطيف والحالم الذي اعتدت رؤيته يتناول فطوره يوميًا، والذي كان له هو وزوجته، دون أن يدركا ذلك، فضل اللطف اللامتناهي في رفع معنوياتي.

خلال بضعة أيام، بعد عودتي من رحلتي، أحسستُ بافتقاد الزوجين على الرغم من معرفتي أنهما لن يأتيا. صرت أصل الآن إلى دار النشر في الموعد الدقيق (فأنا أتناول فطوري وأغادر الكافتريا دون مبرر للتلكؤ)، ولكن بشيء من انحطاط الهمّة ومزيد من الاشمئزاز، كم هو مفاجئ الاستياء الذي يتقبل به روتينُنا التبدّلات، حتى تلك التي نحو الأفضل، أما هذا التبدل فهو ليس كذلك. أشعر بمزيد من الكسل في مواجهة مهامي، وفي رؤية رئيسي في العمل ينتفخ، وفي تلقّي مكالمات الكتّاب شديدة السماجة وكذلك زياراتهم، وقد انتهى هذا الأمر - دون أن أدري السبب - لأن يصبح أحد واجباتي، ربما لأني أبدي اهتمامًا بهم أكثر مما يفعل زملائي الذين يتهرّبون منهم بسرعة، وبصورة خاصة من أشدّهم عجرفة وتطلّبًا من جهة، وأكثرهم سماجة وتشوّشًا من جهة أخرى، ممن يعيشون وحدهم، متفجّعين، ومن يتغزلون بأنفسهم بصورة لا تُصدَّق، ويديرون أرقام هواتفنا كي يبدأوا يومهم مستخدمين أي ذريعة ليخبروا أحدًا بأنهم ما زالوا موجودين. إنهم أناس غريبو الأطوار في معظم الحالات. يستيقظون بالطريقة نفسها التي ينامون بها، يفكّرون في أمورهم المتخيَّلة التي تشغل، مع ذلك، معظم وقتهم. فهم يعيشون على الأدب وتخومه، وبالتالي لا وظيفة أخرى لهم - لم يبقَ منهم سوى عدد قليل، وتوجد في هذه التجارة أموال، على خلاف ما يُعلَن، بصورة أساسية للناشرين والموزّعين - لا يتحركون من بيوتهم والشيء الوحيد الذي عليهم عمله هو العودة إلى الحاسوب أو إلى الآلة الكاتبة - إذ ما زال هنالك غريب أطوار منهم يواصل استخدام هذه الوسيلة الأخيرة، ولا بد بعد ذلك من تصوير نصوصه بالماسح الضوئي، عندما يسلّمها - بانضباط ذاتي غير مفهوم: لا بد للمرء من أن يكون غير طبيعي قليلًا كي يعمل في شيء لم يطلبه أحد منه. وهكذا، أشعر مع كثيرين منهم بقدر أقل بكثير من طيب المزاج والصبر لمساعدتهم في ملبسهم، مثلما أفعل كل يوم تقريبًا لروائي يدعى كورتيثا يتّصل بي متعلّلًا بأي عذر سخيف كي يسألني بعد ذلك «منتهزًا فرصة وجودكِ على الهاتف»، إن كان يبدو لي مناسبًا أن يرتدي لباس تهريج أو زي أنتيكا قديم يفكر بأن يرتديه، ويبدأ بالوصف لي.

«أتظنّين أن هذا البنطال المخطط والحذاء البني ذا العقدة، كما تعلمين، على سبيل تزيينه، يتناسب مع جراب مُعيّنات؟».

أحاذر من القول له إنني أشعر بالفظاعة من الجوارب ذات المعيَّنات، والبناطيل المخطّطة والأحذية البنية ذات العقدة، لأن ذلك سيقلقه كثيرًا وتتحوّل المكالمة إلى أبدية لا تنتهي.

«ما هو لون المعيَّنات في الجراب؟»، سألته.

«بُنيٌّ وبرتقالي. ولكن لديَّ جراب آخر أحمر وأزرق، وأخضر وبيج، ما رأيك؟».

«من الأفضل بُنّي وأزرق، مثلما قلتَ في البدء»، أجبته.

«لا يوجد لدي مزيج هذين اللونين. أتظنين أنه عليّ أن أخرج لشرائه؟».

أحسست بقدر ضئيل من الأسى، بالرغم من شعوري بغضب شديد لسماحه لنفسه بطلب هذه الاستشارات مني، كما لو أنني أرملته الاستباقية[1] أو أمه، وكما لو أنه الشخص المزهو بكتاباته التي

يمتدحها النقد بينما أبدو أنا مجرد بلهاء. ولكنني لم أشأ أن أرسله إلى المدينة بحثًا عن مزيد من الجوارب المخزية التي لن تُحَسّن أي شيء فيه.

«لا يوجد ما يستحق الخروج يا كورتيثو. لماذا لا تقصّ بعض المعينات الزرقاء من أحد الجوارب وبعض البنية من جورب آخر وتوصل بعضها ببعض؟ قم بعمل أشغال يدوية أو patchwork مثلما صار يُقال بالاسبانية هذه الأيام. عمل فني من الترقيع».

كان يتأخّر في الانتباه إلى أنني أمزح.

«ولكنني لا أعرف كيف أعمل ذلك يا ماريا، بل إنني لا أعرف كيف أخيط زرًا، إضافة إلى أنه لديَّ موعد بعد ساعة ونصف الساعة. آه، لقد عرفت. إنك تسخرين مني».

«أنا؟ أبدًا، ولا بأي حال. ولكن من الأفضل أن تستخدم جوربَيْن بلون واحد وبلا مُعيّنات. لون أزرق بحري، إذا كان لديك، وفي هذه الحالة أنصحك بحذاء أسود». وهكذا أساعده قليلًا في النهاية، ضمن ما هو متاح.

لقد صار مزاجه الآن أسوأ، فكنت أصرفه على الفور، بنفور وبخداع خبيث إلى حدّ ما: فإذا قال لي إنه سيذهب لحضور حفل كوكتيل في السفارة الفرنسية ببدلة رمادية غامقة، أوصيه دون تردد بأن يلبس معها جوربًا نيليًا، وأؤكّد له أن هذه هي آخر صرعة جريئة وأن الجميع سيدهشون، ولم يكن هذا زيفًا كله.

لم أكن أستطيع الظهور بمظهر اللطيفة مع روائي آخر، يوقع باسم غاراي فونتينا - هكذا، اسمَيّ شهرة دون اسم أول، لا بد أنه يظن بأن في ذلك أصالة وأحجية، ولكن كان للاسم وقع اسم حكم في كرة قدم - وهو يُقدّر أنه على دار النشر أن تحلّ له كافة المصاعب أو العراقيل، حتى لو لم يكن لها أدنى علاقة بكتبه. يطلب منا أن نذهب إلى بيته لأخذ معطف وإيصاله إلى المصبغة، أو أن نرسل إليه تقني معلوماتية أو بعض الدهانين، أو أن نبحث له عن مكان إقامة في ترينكومالي أو في باتيكالوا وأن نرتّب له التحضيرات لرحلة خاصة سيقوم بها إلى هناك، إجازة مع زوجته الطاغية التي تتّصل بنا بين حين وآخر أو تظهر بنفسها ولا تطلب، بل تأمر. كان رئيسي يكنّ تقديرًا كبيرًا لغاراي فونتينا ويسعى لإرضائه من خلالنا، ليس لأن هذا الكاتب يبيع الكثير من النسخ بقدر ما هو بسبب إقناعه له بأنهم يدعونه بكثرة إلى ستوكهولم - كنت أعرف، بطريق الصدفة، أنه يذهب إلى هناك على نفقته الشخصية دومًا، ليدبّر الدسائس غير المجدية ويتنفس هواء ستوكهولم - وأنهم سيمنحونه النوبل، على الرغم من أن أحدًا لم يرشّحه للجائزة بصورة علنية، لا في إسبانيا ولا في أي مكان آخر. ولا حتى في مدينة مسقط رأسه، مثلما يحدث عادة مع كثيرين. أما هو فكان يعتبر المسألة أمرًا ناجزًا، ومع ذلك، أمام رئيسي وموظفيه، وكنا نحمرّ خجلًا حين نسمع عبارات من نوع: «يقول لي جواسيسي الاسكندينافيون إن دوري سيكون في هذه السنة أو السنة القادمة»، أو «لقد حفظت عن ظهر قلب بالسويدية ما سأقوله لكارل غوستاف في الحفل الرسمي. سوف أحوله إلى فوسفاتين، من المؤكد أنه لم يسمع شيئًا بمثل هذه القسوة في حياته، وفوق ذلك بلغته التي لا يتعلّمها أحد»، «وما هو الذي ستقوله؟»، يسأله رئيسي باستثارة مسبقة. «ستقرأونه في الصحافة العالمية في اليوم التالي»، يجيبه غاراي فونتينا بزهو. «لن تكون هنالك صحيفة لا تنشره، وسيكون عليها جميعها أن

تترجمه من السويدية، حتى الصحف هنا، أليس هذا ظريفًا؟». (يبدو لي أمرًا مثيرًا للحسد أن يعيش المرء واثقًا كل هذه الثقة بهدف محدّد، على الرغم من أن كلا الأمرين مجرد خيال: الهدف والثقة). كنت أحاول أن أكون دبلوماسية جدًّا معه، فأنا لن أصل إلى اللعب بوظيفتي، لكنني الآن أجد صعوبة لا توصف، حين يتّصل بي باكرًا بمطالبه غير المعقولة.

«ماريا»، قال لي عبر الهاتف ذات صباح: «إنني بحاجة لأن تحصلي لي على غرامين من الكوكائين، من أجل مشهد في الكتاب الجديد. وأن يوصلهما أحدكم إليّ في البيت بأسرع ما يمكن، ولكن قبل حلول الغروب بأي حال. أريد رؤية لون ضوء النهار، كيلا أخطئ في ما بعد».

«ولكن، يا سيد غاراي...».

«غاراي فونتينا يا عزيزتي، ولاحظي أنني قد قلتُ لك هذا من قبل؛ غاراي وحدها قد تعني أي شخص، في بلاد الباسك، أو في المكسيك أو في الأرجنتين. بل ويمكن له أن يكون لاعب كرة قدم». إنه يصرّ كثيرًا على هذا اللقب الثاني الذي أنا على قناعة بأنه لقب مختلق (لقد تفحّصت دليل هاتف مدريد ذات يوم ولم أجد فيه أي فونتينا، وكل ما وجدته هو شخص يدعى لورانس فونتينوي، وهو اسم أكثر غرابة وبُعدًا عن التوقّع، كما في مرتفعات ويذرينغ)، أو ربما كانت كذلك رابطة التقاء الأسماء المعطوفة الكاملة، وتسمّى في الواقع غوميث غوميث أوغارثيا غارثيا أو أي زيادة لفظية لا تضيف للمعنى ما يغضبه. فإذا كان الأمر يتعلّق باسم مستعار، وأنه عندما اختاره كان يجهل بكل تأكيد أن فونتينا هو نوع من الأجبان الإيطالية، لا أدري إذا كان جبن بقر أم ماعز، يصنع في وادي أوستا، على ما أظن، والناس يعكفون على تصنيعه أكثر من أي شيء آخر. ولكنْ، حسنًا، فهنالك في نهاية المطاف أيضًا فول سوداني يسمونه بورخيس، ولا أظن أن ذلك قد أقلقه.

«أجل يا سيد غاراي فونتينا، المعذرة، قلتُ ذلك من أجل الإيجاز قليلًا. ولكن انظر»، لم أستطع تجنب قول ذلك له، وإن لم يكن هذا هو الأهم بأيّ حال، «لا تقلق بالنسبة للون. لأنني أستطيع أن أؤكد لك أنه أبيض، تحت ضوء الشمس وتحت الضوء الكهربائي، الجميع تقريبًا يعرفون ذلك. فهو يظهر كثيرًا في الأفلام، ألم ترَ أفلام كوينتن تارانتينو في أيامها؟ وذلك الفيلم الآخر لآل باتشينو الذي يصنع فيه أكوام حجارة؟».

«إلى هناك أصل يا عزيزتي ماريا»، ردّ عليّ ملسوعًا. «إنني أعيش على هذا الكوكب القذر، وإن كنت لا أبدو كذلك حين أكون منهمكًا بالإبداع. ولكن اعملي معروفًا بعدم الاستهانة بقيمتك، فأنت لا تقتصرين على صناعة كتب، مثل زميلتك بياتريث وآخرين كثيرين، وإنما أنت تقرئينها كذلك، وبتعقّل شديد». كان يقول لي عبارات من هذا النوع بين حين وآخر، وأفترض أنه كان يفعل ذلك كي يكسبني: فأنا لم أعطه رأيًا قطّ حول أي من رواياته، من أجل هذا يدفعون لي أجري. «ما أخشاه هو ألا أكون دقيقًا في استخدام الصفات. فلننظر في الأمر، هل يمكنكِ أن تحدّدي إذا ما كان بياضًا حليبيًا أم إنه بياض كلسيّ؟ وبنيته. هل هي أشبه بالطبشور المطحون أم مثل السكر؟ أم كالملح، أو كدقيق القمح أو كبودرة التالك؟ فلنر، أخبريني».

وجدت نفسي متورّطة في جدل عبثي وخطير، نظرًا لحساسية الفائز الوشيك بجائزة نوبل. أنا نفسي كنت قد تورَّطت في الأمر.

«هذا أشبه بالكوكائين يا سيد غاراي فونتينا. وعند هذا المستوى لا حاجة لوصفه، فمن لم يجرّبه قد رآه. باستثناء المتقدّمين في السنّ، ربما، ممن سيكونون على أي حال قد رأوه أيضًا في التلفزيون ألف مرة».

«أتقولين لي كيف يجب أن أكتب يا ماريا؟ وإذا ما كان عليّ أن أضع صفات أو لا أضعها؟ وما الذي عليّ أن أصفه وما الذي يتوجب إهماله؟ أتقدّمين دروسًا لغاراي فونتينا؟». «لا يا سيد فونتينا...». لم أكن قادرة على مناداته في كل مرة باللقبين كليهما، قد أتأخّر قرونًا وتظل المواءمة غير متوافقة صوتيًا ولا تروق لي. ويبدو أن تجنّبي لفظ غاراي لا يزعجه كثيرًا.

«إذا كنت قد طلبت منكم غرامَيْ كوكا لهذا اليوم، فإن هنالك سببًا لهذا. وأن الكتاب سيكون بحاجة إليهما هذه الليلة، وأنتم يهمكم أن يوجد كتاب جديد وأن يكون بلا أخطاء، أليس كذلك؟ الشيء الوحيد الذي عليكم عمله هو الحصول لي على الغرامين، وليس مجادلتي. أم إنه عليّ أن أتكلّم شخصيًا مع أوجيني؟».

عندئذ تجمّدتُ، مع بعض المجازفة، وخرج معي تعبير كتلاني. عبارات انتقلت عدواها إليّ من رئيسي، فهو كتلاني الأصل ويستخدمها بوفرة، على الرغم من أنه أمضى حياته كلها في مدريد. وإذا ما وصل مطلب غاراي إلى مسمعه، فإنه لن يتورع عن إطلاقنا جميعنا في الشوارع للحصول على المخدّر (إلى الأحياء الخبيثة والمناطق السكنية التي يرفض سائقو سيارات الأجرة الدخول إليها)، لمجرد إرضائه. فهو يأخذ على محمل الجد كلام مؤلفه المغرور، ومن غير المفهوم كيف يمكن لهذا النوع من الناس أن يقنع كثيرين بقيمته، إنها ظاهرة كونية لُغْزيّة غامضة.

«هل تعتبرنا مروّجي مخدرات يا سيد فونتينا؟»، قلت له. ثم تابعت: «أنت تطلب منا مخالفة القانون، لا أدري إذا ما كنت تنتبه إلى ذلك. الكوكائين لا يُشترى من الأكشاك، وأنت تعرف هذا، ولا من البار الذي عند الناصية. وفوق هذا تريد غرامين، لماذا تريدهما. ألديك فكرة عما يعنيه غرامان من الكوكائين، وكم جرعة تخرج منهما؟ فلنر إذا ما كنت ستتجاوز في الجرعات وتحل بنا خسارة فادحة. خسارة لزوجتك وللأدب. يمكن أن يسبب ذلك لحضرتك ولعًا، أو أن تتحوّل إلى مدمن غير قادر على التفكير في أي شيء آخر، وتتوقّف عن الكتابة وعن كل شيء، مجرّد فضلة بشرية عاجز عن السفر، لأنه من غير الممكن اجتياز الحدود مع مخدرات. ما رأيك، والتخلّي عن الاحتفالية السويدية وعن عباراتك المتهورة لكارل غوستاف».

ظل غاراي فونتينا صامتًا للحظات، كما لو أنه يُقدِّر إذا ما كان قد تجاوز الحدود في طلبه أم لا. ولكنني أظن بأن ما كان يُثقل عليه أكثر هو التهديد بأنه لن يطأ في نهاية الأمر سجاجيد ستوكهولم. «يا رجل، لستم مروّجي مخدرات»، قال أخيرًا. أنتم ستشترونها فقط، ولن تبيعوها».

انتهزت فرصة تردّده كي أوضح تفصيلًا مهمًّا من العملية التي يسعى إليها:

«آه، وبعد ذلك، عندما نوصلها إليك؟ سوف نسلّمك الغرامين وسوف تعطينا النقود، أليس كذلك؟ أليس هذا هو ما سيحدث؟ أليس هذا إتجار بالمخدرات؟ إنه كذلك في نظر الشرطي، ويجب ألا يكون لديك شك في هذا». لم تكن قضية كلمة عابرة، لأن غاراي فونتينا لا يسدد لنا

دومًا ما ندفعه للمصبغة، ولا أجور عمال الدهان، ولا نفقات الحجوزات في باتيكالوا، أو أنه يتأخر عن تسديدها في أفضل الحالات، فيخاف رئيسي ويصير عصبيًا عندما يصبح من الواجب مطالبته بتلك النقود. لم يعد ينقصنا إلا أن نموّل رذائل روايته الجديدة غير المكتملة والتي لم يجرِ التعاقد عليها بعد.

لاحظت أنه صار أكثر ترددًا. ربما لم يكن قد توقّف للتفكير في التبذير، لأنه معتاد بصورة سيئة على طلباته. ومثله مثل كتّاب كثيرين، كان طفيليًا، بخيلًا وبلا كبرياء. يخلف ديونًا كثيرة في الفنادق حين يذهب لإلقاء محاضرات في هذه العوالم أو هذه الأقاليم بعبارة أدق. يطالب بجناح سويت وبأن تكون كافة النفقات الإكسترا مدفوعة. ويُشاع عنه أنه يحمل معه من البيت ملاءات السرير القديمة كلها وملابسه المتّسخة، ليس كتصرّف شاذ أو كنزوة، وإنما ليستغل الفرصة ويغسلها في الفنادق، بما في ذلك الجوارب التي لا يستشيرني بشأنها. لا بد أن تكون هذه الإشاعات زائفة - فتنقّله مع كل ذلك الوزن سيكون عقبة متعبة بصورة لا تُصدق -، ولكن لا أحد يجد تفسيرًا لكيف كان على منظّمي إحدى ندواته، ذات مرة، أن يدفعوا فاتورة مصبغة الفندق الضخمة (حوالى ألف ومائتي يورو، وقد انتقل الخبر من فم لفم).

«أتعرفين بكم يباع الكوكائين الآن يا ماريا؟»

لم أكن أعرف السعر جيدًا، كنت أتصور أنه ستون يورو، ولكنني وجّهت رميتي إلى الأعلى، كي أستثير ذعره وأثنيه عن طلبه. وكنت قد بدأت أفكر بأنني أستطيع تحقيق ذلك، أو أن أتملّص على الأقل من التظاهر بذهابي في طلبها، ومعرفة في أي أوكار قمار أو مناطق نائية.

«يخيل إليَّ أنه بحوالى ثمانين يورو للغرام الواحد».

«عجيب». ثم استغرق بعد ذلك في التفكير. افترضتُ أنه يجري حسابات فأرية. «ربما تكونين على صواب. ربما أكتفي بغرام واحد، أو حتى بنصف غرام. أيمكن شراء نصف غرام؟».

«أجهل ذلك يا سيد غاراي فونتينا. فأنا لا أتعاطى. ولكنني أتوقّع أن لا». من المناسب ألا يرى أي إمكانية محتملة للتوفير. «مثلما لا يمكن شراء نصف قارورة كولونيا، كما أفترض. ولا نصف إجاصة». وفور نطقي بهذه الجملة الأخيرة انتبهت لمدى سخافة المقارنات. «أو نصف أنبوب معجون أسنان». هذه المقارنة الأخيرة بدت لي مناسبة أكثر. ولكن كان عليَّ أن أواصل كي أنتزع الفكرة من رأسه بالكامل، أو أتوصّل إلى جعله هو نفسه يتولّى شراء المخدر بنفسه، من دون أن يجعلنا نرتكب جنحة أو ندفع سلفة نقدية مقدمًا. فمعه لا يمكن استبعاد إمكانية عدم العودة لرؤيته، كما أن دار النشر ليست موجودة للتبذير. «ولكن اسمح لي بالسؤال، هل تريدها لاستخدامها أم لمجرّد رؤيتها ولمسها؟».

«ما زلتُ لا أعرف ذلك. فالأمر مرتبط بما سيطلبه مني الكتّاب هذه الليلة».

أنا أرى أنه من المضحك أن يطلب كتابٌ أي شيء سواء في الليل أو في النهار، ولا سيما إذا كان الكتاب لم يُكتب بعد، وهو يعكف على كتابته. أخذت كلامه على أنه تعبير شاعري، وتركته يمر دون تعليق.

«انظر في الأمر، إذا كان المطلوب هو الحالة الثانية وما تريده هو وصف الكوكائين، فإنني لا أدري كيف أشرح لك ذلك. حضرتك تتطلّع إلى أن تكون كاتبًا عالميًا، أعرف هذا، وأن يكون لك في هذه الحالة قراء من كافة الأعمار. ولا أظنك تريد أن يفكر القراء الشباب بأن هذا المخدر هو أمر جديد على حضرتك، وفي وقت لم تحسب له حسابًا، في لحظة سهو تسقط عن شجرة الكرز، إذا كنت ستروي كيف هو المخدّر وتأثيراته. فيصابون بصدمة في النتيجة. لأن اكتشاف لكوكائين اليوم سيكون أشبه بالاستغراق في اكتشاف إشارة ضوئية. أتتخيّل الصفات؟ أخضر، عنبري، أحمر؟ ثابتة، منتصبة، لا تتأثر، معدنية؟ سيكون شيئًا مضحكًا».

«أتعنين إشارة مرور، من تلك التي في الشارع؟»، سألني مُستنْفَرًا.

«هي نفسها». لا أعرف إن كانت هناك معانٍ أخرى للإشارة الضوئية في اللغة الدارجة على الأقل.

احتفظ بالصمت للحظات.

«استهزاء، أليس كذلك؟ سقوط عن شجرة الكرز»؟ كرّر. انتبهتُ إلى أن استخدامي لهذه الكلمات كان صائبًا، وأنني قد أثّرت فيه.

«ولكن في هذا الجانب فقط يا سيد فونتينا، هذا مؤكد».

رؤية أنه يمكن لبعض الشبان أن يستهزؤوا ولو بسطر واحد من كتابته، بدا له أمرًا لا يُطاق.

«حسنًا، دعيني أفكر في الأمر. لن يحدث أي شيء إذا ما تأخرتُ يومًا. سأخبرك غدًا بما سأقرره».

عرفت أنه لن يخبرني بأي شيء، وأنه سيتخلّى عن الاختبارات والتجارب البلهاء وأنه لن يأتي، إلى أبد الآبدين، على ذكر تلك المحادثة الهاتفية. ولكنه في أعماقه كان مثل إميل زولا وكاتب ما آخر: يفعل المستحيل من أجل أن يعيش ما يتخيّله، ولهذا يكون لكل ما كتبه وقعًا مصطنعًا ومشغولًا.

عندما أغلقت الهاتف، فوجئت بأنني قد رفضتُ طلبًا لغاراي فونتينا، وأقدمت على الفعلة، فوق ذلك، دون التشاور مع رئيسي، وبتصرّف شخصي مني. لقد حدث ذلك بفضل سوء مزاجي وخمود همّتي، لأنني لم أعد أستمتع بتناول فطوري في غياب الثنائي الكامل، لم يكونا موجودَيْن كي ينقلا إليّ عدوى التفاؤل. لقد رأيت في افتقادهما هذه المنفعة على الأقل: إنها تجعلني أكثر تسامحًا مع حالات الضعف، والزهو والتباهي والبلاهات.

كانت هذه هي الفرصة الوحيدة، وهي لا تستحق العناء بكل تأكيد. فقد كان النادلان مخطئين، وعندما لم يعودا كذلك لم يخبراني. ديسفيرن لن يعود أبدًا، ولن يعود كذلك الزوجان المرحان، لأنهما قد حُذفا، بصفتهما هذه، من العالم. فزميلتي بياتريث، كانت تتناول الفطور أحيانًا وحدها في الكافتريا، فلَفَتُّ أنا نفسي نظرها إلى استثنائية ذينك الزوجين، وكانت هي من ألمحت ذات صباح إلى ما حدث، وهي تعتقد دون شك بأنني على علم بالأمر، وأنني قد علمت به بنفسي، هذا يعني من الصحف أو من العاملين في المحل، ولأننا كنا فوق ذلك قد علّقنا على الموضوع، ناسية أنني كنت في الخارج خلال تلك الأيام، وهي الأيام التالية للحادثة. وبينما كنت وإياها نتناول فنجان قهوة بسرعة على رصيف المقهى، توقفَتْ ساهمة، تحرّك الملعقة في فنجانها بحركات دائرية غير مجدية، ثم دمدمت وهي تنظر نحو المناضد الأخرى، وكانت جميعها ممتلئة:

- يا للهول الذي يسبّبه وقوع ذلك، الحقيقة... ما حدث لزوجَيْكِ... أن تبدأ يومك مثلما تفعل في أي يوم آخر، دون أن تكون لديك أدنى فكرة عن أن حياتك ستنتهي، وسوف تنتهي فوق ذلك بطريقة وحشية. لأنني أتوقع أنهم قد قضوا عليها هي أيضًا، وإن يكن بطريقة أخرى. ولوقت طويل على الأقل، ستكبر سنوات، وأشك في أنها ستتمكّن من الشفاء إلى الأبد. مِيتة بالغة البلاهة، وبالغة سوء الحظ، من تلك التي يمكن لأحدنا أن يقضي حياته مفكرًا: لماذا يحدث ذلك له هو، لماذا أنا، في مدينة يوجد فيها ملايين؟ لست أدري. ولاحظي أنني لا أحب سافيريو إلا قليلًا، ولكن إذا ما حدث له شيء كهذا، لا أظن أنني سأتمكن من المواصلة قُدُمًا. ليس بسبب الفقدان فقط، إذ إنني سأشعر كما لو أنني مرصودة، كما لو أن أحدهم قد حدد لي البداية ولن يتوقّف، أتدركين ما أقول لك؟ - إنها متزوجة من إيطالي سُوقي وطفيلي، لا تكاد تتسامح معه، تتحمّله من أجل الأطفال ولأن له عشيقة تشغله طوال الأيام بمكالماتها الهاتفية الشبقة وبالأمل في لقاء بين حين وآخر، ويفتقدان فرص اللقاء، فكلاهما متزوج وله أطفال. وهناك مؤلف من دار النشر يحتجز تخيلاتها الليلية، وهو ليس كورتيثو الغليظ ولا مثير الاشمئزاز غاراي فونتينا، المقزّز أيضًا بمظهره.

- ولكن، ما هذا الذي تتحدّثين عنه؟

عندئذ أخبرتني أو أنها، بتعبير أدق، بدأت تخبرني، متفاجئة من جهلي، وبكثير من الارتباك والتعجب، لأن الوقت بدأ يتأخّر، ووضعها في دار النشر أقل استقرارًا من وضعي، وهي لا تريد المجازفة، إذ يكفيها أن فونتينا يكنُّ لها الحقد وكثيرًا ما يشكوها إلى أوجيني.

- ولكن... ألا ترين حتى الصحف؟ لقد نشرتْ الصحف كلَ شيء بما في ذلك صورة الرجل المسكين، نازفًا ومطروحًا على الأرض. لا أتذكر التاريخ بالضبط، ولكن ابحثي في الانترنت، وستجدين الخبر بكل تأكيد. اسمه ديفيرني، وقد تبيّن أنه من أصحاب شركة التوزيع السينمائي، أتتذكّرين: «ديفيرني فيلم تقدّم»، لقد رأينا هذه العبارة في دور السينما مئة ألف مرة. ستجدين في الانترنت كل شيء. شيء مرعب. أمر يدفع أحدنا إلى شدّ شعره واقتلاعه حتى آخر شعرة منه، بسبب سوء الطالع. لو أنني امرأته لما استطعت رفع رأسي. لكنت أهيم على وجهي مصابة بالجنون. - وكان أن عرفتُ آنذاك اسمه، أو اسمه الفني إذا صح القول.

في تلك الليلة كتبت على الكمبيوتر: «موت ديفيرني»، وظهر لي الخبر فعلًا، بقسم الأخبار المحلية في جريدتين أو ثلاث جرائد مدريدية. كان اسمه الحقيقي ديسفيرن، وخطر لي أنه يمكن أن تكون أسرته قد عدّلت الاسم في أيامها، حين كانت أعمالها مطروحة أمام الجمهور، وأنها فعلت ذلك لتسهيل نطقه على متكلمي الإسبانية وربما من أجل تجنيب المتكلّمين بالكتلانية ربطه ببلدة سانت فوست ديسفيرن، والتي كنت معتادة عليها لأن عدة دور نشر برشلونية تملك مستودعاتها هناك. أو ربما أنهم اختاروا تعديل الاسم كي تبدو شركة توزيع الأفلام فرنسية: فلا شك في أنها عندما تأسست - في سنوات الستينيات أو حتى قبلها - كان العالم بأسره ما زال يعرف جول فيرن، وكان كل ما هو فرنسي يتمتّع بالشهرة، وليس مثلما هي الحال الآن، بهذا النوع من لويس دو فونيس، ولكن بشَعر، كرئيس للجمهورية. عرفتُ كذلك أن آل ديفيرني كانوا يملكون عدة دور سينما في مركز المدينة، تُقدم العروض الافتتاحية، وربما بسبب الاختفاء المتزايد لدور السينما وتحوّلها إلى مساحات لمحلات تجارية فسيحة، تنوعت أعمال الشركة وصارت تهتم الآن، بصورة خاصة، بالأعمال العقارية، ليس في العاصمة وحدها، وإنما في كل الأنحاء. وهكذا فإن ميغيل ديسفيرن لا بد أن يكون أكثر ثراء مما كنت أتصوره. وصرت أجد صعوبة أكبر في فهم تناوله الفطور كل يوم تقريبًا في كافتريا في متناول يدي وتتناسب مع إمكانياتي. جرت الوقائع في اليوم الأخير الذي رأيته هناك، ولهذا عرفت أنني أنا وزوجته قد تودّعنا منه في الوقت نفسه، هي ودّعته بالشفتين، وأنا ودعته بالعينين فقط. وشاءت السخرية القاسية أن يكون ذلك في يوم عيد ميلاده، وهكذا يكون قد مات أكبر بسنة مما كان عليه في اليوم السابق، إذ كان في الخمسين.

روايات الصحف للوقائع تختلف في بعض التفاصيل (من المؤكد أن ذلك يعتمد على الجيران أو عابري السبيل الذين تحدث معهم كل مراسل صحافي، ولكنها تتفق في المجمل. كان ديفيرني قد أوقف سيارته، مثلما يفعل عادة كما يبدو، في بداية أحد الشوارع الجانبية المتقاطعة مع جادة كاستيانا، في حوالى الساعة الثانية بعد منتصف النهار - ومن المؤكد أنه كان ذاهبًا للقاء مع لويسا من أجل تناول الغداء في المطعم -، على مقربة من بيتهما وأقرب أكثر من موقف للسيارات في الهواء الطلق، له قدرة استيعاب ضئيلة، يتبع المدرسة التقنية العليا للهندسة الصناعية. ولدى خروجه من السيارة، اقترب منه معوز يقوم بأعمال ترتيب إيقاف السيارات في المنطقة، مقابل ما تقدمه له مشيئة السائقين - ما يسمّى مدبر المواقف للسيارت -، وبدأ يعنّفه بكلام غير مترابط وبهذر واتهامات غير معقولة. وحسب بعض الشهود - بالرغم من أنهم جميعهم لم يفهموا سوى القليل -، كان يتّهمه بأنه أدخل ابنتيه في شبكة دعارة أجنبية. وبحسب قول آخرين، كان يصرخ بسلسلة عبارات غير مفهومة لم يستطيعوا أن يلتقطوا منها سوى عبارتين: «تريد تركي بلا ميراث!». و«أنت تنتزع مني قوت أبنائي!». حاول ديفيرني التخلّص منه ودفعه إلى التعقل خلال بضع ثوانٍ، بالقول له إنه لا علاقة له بابنتيه ولا يعرفهن وأنه مخطئ بالشخص. ولكن المعوز، لويس فيليبه باثكيث كانييّا حسب الخبر الصحافي، تسعة وثلاثون عامًا، يطلق لحية كثة وهو طويل القامة جدًا، تأجج بمزيد من الغضب وواصل صب الشتائم واللعنات بطريقة غير متماسكة. وقد سمعه بوّاب إحدى البنايات يصرخ به، وهو خارج عن طوره: «ستموتُ اليوم إذًا وستنساك زوجتك غدًا!». بينما جريدة أخرى تستنسخ تنويعًا جارحًا أكثر: «ستموتُ هذا اليوم بالذات إذًا، وستكون زوجتك مع آخر غدًا!». أبدى ديفيرني إيماءة اعتباره شخصًا من المحال التفاهم معه،

وتقدّم باتجاه جادة كاستِيّانا، متخليًا عن أي محاولة لتهدئته، لكن مدبر مواقف السيارات، كمن صمَّم على عدم انتظار إكمال لعناته والتحوّل إلى أداتها، أخرج سكينًا من نوع الفراشة، طول نصلها سبعة سنتمترات، وانقضّ عليه من الخلف وطعنه بصورة متكرّرة، موجّهًا طعناته إلى القفص الصدري وإلى إحدى الخاصرتين، حسب أحد الصحافيين، وإلى الظهر والبطن بحسب صحافي آخر، وإلى الظهر والصدر والخاصرة بحسب ثالث. كما أنهم يختلفون في عدد الطعنات التي تلقاها رجل الأعمال: تسع طعنات، عشرًا، ست عشرة، والذي قدّم هذا الرقم الأخير - وربما الأكثر موثوقية، لأن المحرر يشير إلى «معلومات من التشريح الجنائي» - ويضيف أن «جميع الطعنات أثرت على أعضاء حيوية»، وأن «خمس طعنات منها قاتلة، حسب استنتاج الطب الشرعي».

حاول ديسفيرن التملّص والهروب في اللحظات الأولى، لكن الطعنات كانت غاضبة جدًا، وحانقة ومتتالية جدًا - وكانت صائبة جدًا كما يبدو - بحيث لم تُتح له إمكانية الهروب منها وخارت قواه سريعًا جدًا، وتهاوى منهارًا على الأرض. عندئذ فقط توقّف قاتله. أحد الحراس الأمنيين في شركة قريبة «انتبه لما يحدث وتمكن من احتجازه إلى أن وصلت الشرطة البلدية»، بالقول له: «لا تتحرّك من هنا إلى أن تأتي الشرطة!». لا وجود لتفسير كيف تمكن ذلك الحارس من إبقاء شخص مسلح، وخارج عن طوره وانتهى للتو من هدر دم غزير، وجعله يبقى واقفًا دوندون حراك - ربما فعل ذلك بإشهار مسدس، ولكنْ، أيٌّ من الروايات لم تأتِ على ذكر سلاحه الناري ولا على أنه أخرجه من قرابه أو وجهه إليه -، لا سيما وأن مدبر مواقف السيارات، حسب مصادر عديدة، كان لا يزال يحمل سكينه في يده عندما أعلن رجال الشرطة عن وصولهم، وكانوا هم من أجبروه على إفلاتها. رماها ذلك المعوز عندئذ على الأرض، ووُضعت الأصفاد في يديه ونقله إلى مفوضية شرطة المنطقة. «حسب القيادة العليا لشرطة مدريد» - هذا الكلام أو شيء مماثل له تقريبًا، ظهر في جميع الصحف - «وُضع القاتل المفترض تحت تصرف العدالة، ولكنه رفض الكلام». كان لويس فيليبه باثكيث كانييّا يعيش في سيارة مهجورة منذ بعض الوقت في المنطقة، وتعود شهادات الجيران لتكون متباينة، مثلما يحدث دومًا حين تُطلب أو توثق قصة من أكثر من شخص واحد. فهو في نظر البعض شخص هادئ جدًا ومستقيم لا يتدخل أبدًا في مشاكل: ينكبّ على البحث عن أمكنة خالية من أجل إيقاف السيارات وتوجيهها إلى تلك الأمكنة بالحركات الخبيرة أو الخدمية المعهودة في المهنة - أحيانًا دوندون حاجة وبلا رغبة، ولكن جميع مدبّري مواقف السيارت يعملون هكذا - ويحصلون على بعض الإكراميات. يصل في منتصف النهار تقريبًا، يترك جعبتيه الزرقاوين عند جذع شجرة ويبدأ مهمته المتقطّعة. لكنَّ مقيمين آخرين في المنطقة أشاروا إلى أنهم قد ضجروا «من نوبات عنفه ومن اختلالاته»، وأنهم حاولوا عدّة مرات طرده من مسكنه الآلي الثابت وإبعاده عن الحي، ولكن دوندون أن يحالفهم النجاح حتى ذلك الحين. لم تكن لباثكيث كانييّا أية سوابق لدى الشرطة. ولكنه في مرة سابقة تعرّض لسائق ديفيرني بالذات، قبل شهر من ذلك. فقد توجه المتسوّل إليه بعبارات سيئة، وانتهز فرصة أن زجاج نافذة السيارة كان مفتوحًا، ووجه إليه لكمة على وجهه. وحين أُخبرت الشرطة، احتجزته مؤقتًا بتهمة الاعتداء، ولكن السائق، على الرغم من «تضرره»، لم يشأ الإضرار به ولا تقديم أية شكوى ضده. وفي اليوم السابق لمصرع رجل الأعمال، كان الضحية والجلاد قد عرفا أول صدام. كان مدبّر المواقف للسيارات قد عنّفه بهرائه. «كان يتكلّم عن ابنتيه وعن نقوده، ويقول إنهم يريدون انتزاعها منه»، كما أفاد بواب في الشارع

الجانبي المتفرع عن جادة كاستيّانا الذي جرت فيه عملية الطعن بالسكين، وهو الأكثر كلامًا بالتأكيد. «حاول المتوفّى أن يوضح له أنه مخطئ في الشخص وأنه ليس له أية علاقة بأموره»، تواصل إحدى الروايات. «ابتعد المعوز كمن غشي بصره من الغيظ، وكان يتكلم وحده، من بين أسنانه». وبشيء من الترنّم القصصي وليس قليلًا من الثقة تجاه المتواجدين أضاف: «ما كان يمكن لميغيل أن يتخيّل أنه يمكن لاختلال لويس فيليبه أن يكلفه حياته بعد مرور أربع وعشرين ساعة. السيناريو الذي كان مكتوبًا له، بدأ الترنّم به قبل شهر بطريقة غير مباشرة»، وهذا الكلام الأخير فيه تلميح إلى الحادث العارض مع السائق، والذي يرى بعض الجيران أنه الهدف الحقيقي للغضب: «من يدري، يمكن أن يكون قد غضب من السائق»، كما وُضع على لسان أحدهم، «وخلط بين السائق وسيده». ويجري التلميح إلى أن مدبر مواقف السيارات كان يمضي معكّر المزاج منذ شهر تقريبًا، إذ لم يعد قادرًا على الحصول على نقود من عمله الظرفي بسبب إقامة مواقف نظامية في المنطقة. إحدى الصحف تذكر، بصورة عابرة، معلومة محيرة لم تذكرها الصحيفتان الأخريان: «حين رفض القاتل المفترض تقديم شكوى، لم يكن ممكنًا التأكيد إذا كان هذا وضحيته أقارب بالنسب، مثلما يشاع في الحي».

وصلت سيارة إسعاف سريع بأقصى سرعة إلى موقع الحوادث. وقام أفرادها «بإجراء إسعافات أولية» لديسفيرن، لكن خطورة حالته القصوى، دفعتهم بعد «تشخيص حالته» إلى نقله بصورة مستعجلة إلى مستشفى لالوث - وإلى مستشفى الأميرة حسب ما أوردت صحيفتان، فحتى في هذا الأمر لم يكن ثمة إجماع -، حيث أُدخل فورًا إلى غرفة العمليات، وهو في حالة توقّف قلبي وتنفسي وفي وضع حرج. جاهد خلال خمس ساعات بين الحياة والموت، دونْدون أن يستعيد الوعي في أي لحظة، وأخيرًا «توفي في آخر ساعات المساء، دونْدون أن يتمكّن الأطباء من عمل أي شيء لإنقاذه»؟

هذه المعلومات كلّها كانت موزّعة على يومين. اليومان التاليان للاغتيال. بعد ذلك اختفى الخبر نهائيًا من الصحف، مثلما يحدث عادة لجميع الأخبار حاليًا: الناس لا يريدون معرفة سبب حدوث أي شيء، يريدون ما حدث فقط والعالم مملوء بالتهور، وبالمخاطر، وبتهديدات وحالات سوء حظ تقترب وتلامسنا قليلًا ولكنها بالمقابل تصل وتُميت أشباهنا غير المتنبّهين، أو ربما غير المختارين. يجري التعايش بلا مشكلة مع ألف لغز بلا حلّ تشغلنا عشر دقائق في الصباح، وبعد ذلك تُنسى دونْدون أن تترك لنا لسعة ألم أو أي أثر. نحاول عدم التعمّق في أي شيء وعدم البقاء لوقت طويل في أي حدث أو قصة، وحرف انتباهنا من شيء إلى آخر، وإلى تجدّد نكبات الغير، كما لو أننا بعد كل واحدة منها نفكّر: ياه، يا للرعب. وماذا أكثر. من أية أهوال أخرى قد نجَوْنا؟ نحتاج إلى الشعور بأننا أحياء وخالدون كل يوم، وبالمقابل، يقصّون علينا قصص فظائع مختلفة، لأننا استهلكنا فظاعات يوم أمس».

المثير للفضول أن القليل قد قيل في هذين اليومين عن الميت، قيل فقط أنه كان ابن أحد مؤسسي شركة التوزيع السينمائية المعروفة، وأنه كان يعمل في شركة العائلة، وأن الشركة قد تحوّلت تقريبًا إلى مؤسسة تجارية ضخمة بفضل نموها الدائم خلال عقود، وتفرّعها المتنوع الذي يتضمّن حتى شركات طيران مخفّضة التكاليف. في الأيام التي تلت لا يبدو أنه قد نُشر أي خبر عن موت ديفيرني

في أي مكان، لا وجود لأي تذكير أو أي ذكر كتبه صديق أو رفيق أو زميل، ولا أي موجز لسيرة حياته يتحدّث عن طبيعته وعن إنجازاته الشخصية، وهذا شيء غريب جدًا. فأي رجل أعمال ثري، لا سيما إذا كان له ارتباط بالسينما، حتى لو لم يكن مشهورًا، تكون له علاقات مع الصحافة، أو يكون له أصدقاء لديهم صداقات، ولا يبدو صعبًا أن يقوم أحد هؤلاء، بأفضل طيب نية، بنشر بضع عبارات تكريم وإطراء في صفحة الوفيات بإحدى الصحف، كما لو أنه يمكن لعمل ذلك أن يعوّض قليلًا عن المتوفّى أو أن يكون عدم فعله أذى إضافيًا (في مرات كثيرة نعلم بوجود أحدهم فقط عندما يكون قد زال من الوجود، وعمليًا لأنه قد زال).

الصورة الوحيدة التي يمكن رؤيتها على أي حال، هي التي التقطها له صحافي متسرّع وهو مرمي على الأرض، قبل أن يأخذوه، وبينما هم يحاولون إسعافه على الأرض. لحسن الحظ أن الصورة تبدو سيئة على الانترنت، إنها استنساخ سيئ النوعية وصغيرة جدًا، لأن هذه الصورة بدت لي أنها نذالة رديئة بالنسبة لرجل مثله، كان سعيدًا على الدوام ولا تشوب حياته شائبة. لم أكد أمعن النظر إليها، لم أشأ فعل ذلك، ولأنني كنت قد ألقيت الصحيفة جانبًا حين لمحت الصورة فيها يومذاك، وكانت صورة أكبر حجمًا، ولم أنتبه صورة من هي ولم أكن أريد إمعان النظر فيها كذلك. لو أنني عرفت يومذاك أنه ليس شخصًا مجهولًا تمامًا، وإنما شخص أراه يوميًا بسعادة وبنوع من الامتنان، لكانت غواية التمعّن أقوى بكثير من أن أقاومها، ولكنت بعد ذلك أشحت بصري بقدر من السخط والرعب أكبر مما أشعر به وأنا لا أتعرّف عليه. إنهم لا يقتلون أحدنا في الشارع فقط، وبأسوأ طريقة وبصورة مفاجئة، حتى دون تخويفه، ولأنه في الشارع تحديدًا، «في مكان عام»، كما يقال بكل توقير وبلاهة، يُسمح بعد ذلك بعرض ما ألحقوه به من أذى مريع أمام العالم قاطبة. الآن، في الصورة مختزلة الحجم التي يعرضها الانترنت، يمكن التعرف عليه بصورة سيئة، أو لمجرد أن النص المكتوب يؤكد لي أن ذلك الميت، أو ما قبل الميت هو من كان ديسفيرن. هو نفسه كان سيستفظع الأمر، بأي حال، رؤية نفسه أو معرفة أنه معروض على هذا النحو، بلا سترة ولا ربطة عنق، وحتى بلا قميص أو بهذا الشيء المفتوح - لا يمكن التمييز جيدًا، وأين ذهبت أزرار المعصمَيْن إذا كانوا قد نزعوا عنه القميص -، مغطى بأنابيب ومحاطًا بعامِلين صحيِّين يحركونه، بجراحه المكشوفة، في وسط الطريق فوق بركة من الدم ويلفتون اهتمام المارة العابرين وسائقي السيارات، وهو غائب عن الوعي وخائر القوى. لا بد أن زوجته قد استفظعت أيضًا هذه الصورة، إذا كانت قد رأتها: لم تجد الوقت ولا الرغبة في قراءة صحف اليوم التالي، هذا هو الاحتمال الأكبر. بينما هي تبكي وتسهر وتدفن دوندون أن تفهم، سيكون عليها، فضلًا عن ذلك، تقديم تفسيرات للطفلَيْن، لن تكون قادرة على المزيد، لأن ما تبقى لا وجود له. ولكن ربما تكون قد رأتْ الصورة في ما بعد، ربما راودها الفضول نفسه الذي راودني بعد أسبوع، ودخلتْ إلى الانترنت لتعرف ما الذي عرفه الناس الآخرون في تلك اللحظات، ليس الأشخاص المقربون وحدهم وإنما كذلك غير المعروفين مثلي. أي تأثير أحدثه عليهم. أصدقاؤهم غير المقربين الذين علموا من خلال الصحف، من خلال ذلك الخبر المدريدي المحلي أو من نعي، لا بد من أن يكون قد ظهر نعي ما في إحدى الصحف، أو نعوات عديدة، مثلما هي العادة كلما توفّي أحد الأثرياء. هذه الصورة، على أي حال، بصورة أساسية هذه الصورة - وكذلك طريقة الموت المشينة والعبثية، أو المصبوغة أيضًا بالبؤس، كما يقال - كان ذلك هو ما سمح لبياتريث بالاشارة إليه باعتباره «الرجل المسكين». ما كان يمكن أن يخطر لأحد أن

يقول عنه ذلك وهو حي، ولا حتى قبل دقيقة واحدة من ترجّله من السيارة في منطقة هادئة وفاتنة، بجوار حدائق مدرسة الهندسة الصناعية العليا، هناك توجد أشجار وارفة وكشك مشروبات مع بضع مناضد وكراسٍ، جلستُ عليها أكثر من مرة مع أبناء أختي الأطفال. ولا حتى قبل ثانية واحدة من فتح باثكيث كانيّا مطواة الفراشة، لا بد أن يكون المرء خبيرًا كي يفتح واحدة من تلك السكاكين ذات المقبض المزدوج، وقد علمتُ أنها لا تباع في أي مكان أو أنها شبه محظورة. والآن بالمقابل، سيبقى مثلما هو إلى الأبد، دوندون احتمالات قلب الصفحة: مسكين ميغيل ديفيرني غير المحظوظ. يا للرجل البائس.

- أجل، كان يوم عيد ميلاده، أيمكنك تصديق ذلك؟ هذا العالم يسمح بإدخال الأشخاص وإخراجهم منه بكثير من الفوضى، بحيث لا يمكن تصوّر أن يولد أحدهم ويموت في التاريخ نفسه، مع فاصل خمسين عامًا بينهما. خمسون عامًا بالضبط. ليس لهذا أي مغزى، وإن بدا أنه قد حدث لمغزى ما. كان يمكن ألا يكون هكذا، وكان من السهل ألا يحدث. كان يمكن أن يكون قد حدث في أي يوم، أو ألا يكون قد حدث.

مرت عدة شهور قبل أن أعود لرؤيتها، لويسا ألداي، وشهر آخر حتى عرفت اسمها، هذا الاسم، وقالت لي هذه الكلمات إضافة إلى كلمات أخرى كثيرة. لم أعرف آنذاك إن كانت تتكلّم باستمرار عما حدث لها، مع كل من هو مستعد لسماعها، أم إنها قد وجدت فيّ شخصًا ترتاح للتفريج عن نفسها معه. شخص مجهول ولا يروي ما يسمعه لأحد قريب منها، وتعاملها المستجد معه يمكن قطعه في أي لحظة دوندون تفسيرات أو نتائج، فضلًا عن أنه شخص مشفق ووفيّ وفضولي، وجهه جديد عليها مع أنه مألوف بصورة غامضة ومرتبط بأزمنة عدم الضباب، مع أنني كنت أظن طوال صباحات كثيرة أنها لم تكن تنتبه إليّ، ولو أقل من انتباه زوجها.

عادت لويسا للظهور ذات يوم مع انقلاب الصيف، ودخول شهر أيلول/سبتمبر، في الساعة المعهودة وبرفقة صديقتين أو زميلتَيْ عمل، كانت مناضد الرصيف لا تزال موضوعة وقد رأيتُ وصولها من منضدتي ورأيتها تجلس أو بكلمة أدق، تلقي بنفسها على كرسي، إحدى صديقتيها أمسكت ذراعها باهتمام آلي، كمن تخشى عليها من أن تفقد توازنها. كانت شديدة النحول وشاحبة، بنوع من ذلك الشحوب العميق، الحيوي، والذي ينتهي إلى محو كل الملامح، كما لو أنه ليس البشرة وحدها هي التي فقدت اللون والبريق، وإنما الشعر كذلك، والحاجبان، والرموش، والعينان، والأسنان والشفتان، كل شيء كامد ومكحوت. يبدو أنه موجود هناك بصورة مستعارة، أعني هنا في الحياة. لم تعد تتكلّم بحيوية، مثلما كانت تفعل مع زوجها، وإنما بتلقائية زائفة تنمّ عن شيء من الإكراه والاشمئزاز. فكّرتُ في أنها ربما تتلقى علاجًا. كنَّ قد جلسن قريبًا جدًا مني، بوجود منضدة شاغرة وحيدة بيننا، وهكذا استطعتُ سماع فتاتٍ من حديثهن، ومن صديقتيها أكثر منها، لأن نبرة صوتها بدت منطفئة. كانت تستشيرهن أو تسألهن عن تفاصيل مأتم ما، لا شك أنه مأتم ديسفيري، لم أعرف إذا ما كانت ستقيم مأتمًا لإحياء ذكرى مرور ثلاثة شهور على موته (إنها على وشك الاكتمال، حسب تقديري) أو أنه المأتم الأول، لم يُقَمْ في يومه المحدّد، بعد مرور أسبوعين أو ثلاثة أسابيع مثلما هي العادة التي لا تزال شائعة، في مدريد على الأقل. ربما لم تجد في نفسها القوة اللازمة آنذاك، أو أن الظروف القاسية جعلت ذلك الأمر غير مناسب - فالناس لا يمتنعون أبدًا عن التدخل في هذه الحوادث الاجتماعية، ولا عن محاولة كسرها - وما زالت معلّقة مسألة إذا ما كانت العائلة تقليدية. وربما يكون أحد حُمَاتِها - أخٌ على سبيل المثال، أو أبواها، أو صديقة - قد أخذتها من مدريد فورًا بعد الدفن، كي تبدأ بالاعتياد على الغياب في البعد، دوندون أن تزداد وطأة وحدّة المشاهد الزوجية، والحقيقة أنه تأجيل غير مجدٍ للهول الذي ينتظرها. أكثر ما يُسمع أنها تقوله: «أجل، هكذا يبدو لي جيدًا»، أو «مثلما تقولون، فأنتم ذهنكم صافٍ»، أو «فلتكن كلمة الكاهن

موجزة، لأنه لا فرق فيها لدى ميغيل، وتجعله عصبيًا بعض الشيء»، أو «لا، شوبرت لا، إنه مسكون جدًا بالموت، ولدينا ما يكفي مما نحن فيه».

رأيتُ أن نادلَيّ الكافتريا، وبعد أن تداولا للحظات عند منضدة الكونتوار، يقتربان معًا من المنضدة بخطوات متصلّبة أكثر مما هي وقورة، وعلى الرغم من أنهما تحدّثا إليها بخجل وبصوت خافت جدًا، سمعتُ أنهما يعبران لها عن تعازيهما باقتضاب: «أردنا أن نقول إننا حزنّا كثيرًا بشأن زوجك، لقد كان بالغ اللطف على الدوام»، قال لها أحدهما. وأضاف الآخر الصيغة القديمة والبالية: «نرافقك بالمشاعر. إنها نكبة». شكرتهما بابتسامتها التي فقدت نضارتها دوندون أن تقول شيئًا، بدا لي مفهومًا أنها لا تريد الدخول في تفاصيل ولا التعليق أو التوسّع. حين نهضتُ كان لديَّ الدافع لأفعل مثلهما، لكنني لم أتجرّأ على إضافة مقاطعة أخرى لمحادثتها عديمة الأهمية مع صديقتيها. فضلًا عن أن الوقت قد تقدّم ولا أريد الوصول إلى العمل متأخّرة كثيرًا، بعد أن أصلحت وضعي الآن وصرت أصل في الموعد الدقيق إلى موقع عملي.

مرّ شهر آخر قبل أن أعود لرؤيتها، وعلى الرغم من أن أوراق الشجر بدأت تتساقط وصار الهواء باردًا، إلا أنه ما زال هناك من يفضلون تناول الفطور خارج الكافتريا - فطور سريع، لأناس متعجّلين يظلّون محبوسين لساعات طويلة ولا يُمنحون وقتًا للشعور بالبرد؛ معظمهم يتناولون الفطور بصمت وفي شبه نعاس، مثلي أنا بالذات - ولم تكن مناضد الخارج قد سُحبت بعد عن الرصيف. وصلتْ لويسا ألداي هذه المرة مع طفليها وطلبت مثلجات لهما. تخيلتُ - ذكرى قديمة من طفولتي - أنها قد خرجت بهما دوندون أن يتناولا فطورهما من أجل إجراء تحليل دم وأنها تكافئهما بعد ذلك بنزوة تناول المثلجات بدل الجوع السابق ووخزة سحب الدم، فضلًا عن أنها تسمح لهما بالتغيب عن ساعة الدروس الأولى. كانت الطفلة متعلّقة جدًا بأخيها، وهو أصغر منها بنحو أربع سنوات، وقد أعطتني الانطباع بأنها تهتم كذلك بلويسا على طريقتها، كما لو أنهما تتبادلان الأدوار للحظات، أو أنهما، إذا لم يكن ذلك دقيقًا، تتنازعان كلتاهما قليلًا دور الأم، في المجالات القليلة التي يمكن لهذا الأمر أن يكون ممكنًا. ما أريد قوله هو أن الطفلة التي تتناول مثلجاتها في كأس، ببراعة طفولية في استخدام الملعقة، كانت تراقب كيف أن قهوة لويسا يجب ألا تبرد، وتحثّها على تناولها. كما كانت تراقبها بطرف عينها، كمن ترصد حركاتها وملامحها، فإذا ما رأت أن نظراتها شاردة أكثر مما يجب، أو أنها مستغرقة في أفكارها، تتوجّه إليها على الفور معلّقة بعبارة ما أو بتوجيه سؤال أو ربما بإخبارها بأي شيء، كما لو أنها تريد الحيلولة دون ضياعها بالكامل، وتُحزنها نوبات استغراقها في التأمل. وعندما ظهرتْ سيارةٌ وتوقفت بطريقة موازية لنا وسُمع نفيرها خافتًا، نهض الطفلان، وحملا حقيبتَيْهما، ثم قبّلا أمهما بسرعة وتوجّها نحو السيارة، وكل منهما يمسك بيد الآخر، واثقَيْن من أن تلك السيارة آتية من أجلهما، وقد شعرتُ بأن الطفلة تبتعد بقلق عن لويسا بدل العكس (فكانت هي من وجّهتها بحركة سريعة كما لو أنها توصيها بحسن التصرف وعدم الدخول في مشاكل، أو أنها تحاول أن تترك مواساة لمسية إلى أن تحين لحظة العودة للقاء). تلك السيارة آتية بلا شك لتوصيلهما إلى المدرسة. نظرتُ إلى من يقودها، ولم أستطع تجنّب تسارع فوري في النبض، فعلى الرغم من أنني لا أفهم في شؤون السيارات وتبدو لي جميعها متشابهة، إلا أنني تعرّفت على هذه السيارة من النظرة الأولى: إنها السيارة نفسها التي اعتاد ديفيرني أن يركبها عند ذهابه إلى العمل، عندما كان يترك امرأته للحظات أخرى في الكافيتريا، وحدها أو مع صديقة ما.

ولا بد أنها السيارة نفسها التي كان قد قادها وركَنَها بنفسه بجانب مدرسة الهندسة الصناعية، والتي ترجّل منها في ساعة نحس، يوم عيد ميلاده. رأيتُ أن هناك رجلًا وراء المقود، وفكّرت في أنه قد يكون ذلك السائق الذي كان يتبادل معه قيادة السيارة نفسها، والذي كان يمكن له أن يحل مكانه في ذلك اليوم المشؤوم، وأن يموت بدلًا منه، وربما يكون هو من أراد القاتل أن يقتله حقًّا أو أن القتل كان موجَّهًا إليه، وأنه قد نجا بفارق ضئيل في النتيجة - بفعل الحظ، من يدري، ربما كان عليه الذهاب إلى الطبيب في ذلك اليوم -. إذا كان هو نفسه، فإنه لا يلبس زيًّا خاصًّا. لم أره جيدًا، فقد كان شبه مغطى بالسيارات الأخرى التي في الصف الأول؛ ومع ذلك بدا لي رجلًا جذّابًا. هذا لا يعني أنه يشبه ميغيل ديسفيري، ولكنْ، هنالك شيء مشترك بينهما أو أنه على الأقل ليس شخصًا نقيضًا لذاك، اختلاط قابل للتفسير، لا سيما بالنسبة لشخص مختل عقليًا. لقد قالت له لويسا وداعًا بيدها، من منضدتها، أم إنها كانت مرحّبًا ووداعًا متوافقين، منذ وصوله حتى مغادرته. أجل، رفعت يدها وأنزلتها ثلاث أو أربع مرات، بشيء من العبثية، خلال توقّف السيارة. وكرّرت الحركة بعينين ذاهلتين ربما لا تريان سوى الشبح. أم إن تلويحة الوداع كانت للابنين. لم أتمكّن من رؤية إذا ما كان السائق قد ردّ على إحدى تحيَّتيها.

وكان أن قررتُ عندئذ الاقتراب منها. فقد اختفى الطفلان في سيارة الأب القديمة، وظلّت وحدها، ليس معها أية زميلة في العمل ولا أم من أمهات أطفال المدرسة ولا صديقة. كانت تحرّك بالملعقة الطويلة الملطخة بالكريما بقايا المثلجات التي تركها ابنها الصغير في كأسه، كما لو أنها تريد تحويلها إلى سائل على الفور دوندون أن تفكّر في ما تفعله، فتسرّع ما سيكون عليه مصير تلك المثلّجات على أي حال. «كم من اللحظات الأبدية ستتوافر لها في عدم معرفة كيفية المساعدة في تقدم الزمن»، فكرتُ، «إذا كان الأمر يتعلّق بهذا، وهو ما لا أظنه. أتنتظر أن ينقضي الوقت في الغياب العابر للآخر - للزوج، للعشيق -، وفي اللانهائية، وفي ما هو غير نهائي وحاسم بالرغم من أنه يبدو كذلك وتهمس لنا به الغريزة بإلحاح، فنقول لها: «صمتًا، صمتًا، أخمدي هذا الصوت، ما زلت لا أريد سماعك، ما زالت تنقصني القوّة، لستُ جاهزة». حين يكون أحدهم قد تُرك وهُجر، يمكن تخيّل الحلم بعودة ما، بأن يأتي النورُ للمهاجر ذات يوم ويرجع إلى وسادتنا، حتى إذا كنا نعرف أنه قد استبدلنا وأنه قد دُمج بامرأة أخرى، في قصة أخرى، ولن يتذكّرنا إلا إذا ساءت أموره فجأة مع الجديدة، أو إذا ألححنا وأكدنا حضورنا رغم مشيئته وحاولنا إقلاقه أو تليينه أو إشعاره بالإشفاق أو انتقمنا منه، وجعلناه يشعر بأنه لن يتحرّر منا بالكامل أبدًا، وأننا لا نريد التحوّل إلى ذكرى متناقصة، وإنما سنبقى شبحًا ثابتًا يطوف حوله ويترصّده دومًا؛ لجعل حياته مستحيلة، وجعله يكرهنا حقًّا. أما الميت فلا سبيل للتخيّل معه، إلا إذا كنا قد فقدنا العقل، وهنالك من يقررن فقدانه، ولو بصورة مرحلية مؤقتة، يرضين بذلك ريثما يتمكّنَّ من إقناع أنفسهن بأن ما حدث قد حدث، وإن ما لا يُصدَّق، وحتى ما هو محال، ما لا متسع له حتى في حساب الاحتمالات الذي نستسلم له كي ننهض يوميًا دوندون أن تلحَّ علينا غمامة رصاصية ومشؤومة بإغماض أعيننا من جديد، والتفكير: «ياه، إذا كنا جميعنا محكومين. فلا شيء في الواقع يستحق العناء. ولنفعل ما نفعل، سنظل ننتظر وحسب؛ مثل أموات في إجازة، كما قال أحدهم ذات يوم». ما لا أفهمه مع ذلك هو كيف أن لويسا فقدت العقل هكذا، ليس هذا سوى تخمين، فأنا لا أعرفها. وإذا كانت لم تفقده، فلتنتظر إذًا، ومثلما انقضت الساعات، والأيام، والأسابيع، وحتى الشهور، من أجل أي هدف يمكن لها أن تدفع الزمن أو تهرّب منه، وتسرق نفسها؛ وبأي طريقة ستبعده عنها الآن بالذات، في هذه اللحظة. إنها لا تعرف أنني سأدنو منها وأتكلّم معها، مثلما فعل نادلَا المقهى في المرة الأخيرة التي رأيتها فيها في هذا المكان، ولم أرها قطّ في أي مكان آخر. لا تدري أنني سأمد لها يدًا وأمحو من وقتها دقيقتين بكلماتي التقليدية المعهودة في هذه الحالات، ربما ثلاث أو أربع كلمات سأقولها، ما لم ترد عليّ بما هو أكثر من «شكرًا». وستبقى لها مئات أخرى ما لم يهرع لنجدتها النعاس ويعكّر وعيها الذي يَعُدّ، فالوعي هو الذي يواصل دومًا العدّ: واحد، اثنان، ثلاثة وأربعة؛ خمسة، ستة، وسبعة وثمانية، وهكذا بصورة لا نهائية بلا توقف إلى أن لا يعود هنالك ثمة وعي».

- المعذرة لتدخّلي - قلت لها وأنا واقفة؛ لم تنهض هي فورًا -. اسمي ماريا دولث وأنتِ لا تعرفينني. ولكنني تصادفت هنا طوال سنوات مع حضرتك وزوجك في موعد تناول الفطور. أريد أن أعبّر لك فقط عن أسفي الشديد لما حدث، لما حدث له ولما يحدث لحضرتك منذ ذلك الحين. لقد قرأتُ الخبر في الصحف، وفي وقت متأخر، بعد أن افتقدتكما طوال صباحات كثيرة. وبالرغم من أنني لم

أعرفكما إلا بالرؤية، كان يبدو واضحًا أنكما كنتما سعيدين، وكنتما تبدوان لي لطيفَيْن جدًّا. حقًّا لقد حزنت كثيرًا.

انتبهت إلى أنني في جملتي ما قبل الأخيرة قد قتلتها هي أيضًا، فقد استخدمت فعل الزمن الماضي للإشارة إلى كليهما، وليس إلى المتوفى وحده. بحثت عن طريقة لإصلاح الخطأ، ولكن لم تخطر لي أية طريقة لا تعقّد الأمور بصورة لا لزوم لها، أو لا تكون خرقاء جدًا. أظن أنها قد فهمتني: فكلاهما كثنائي كانا يبدوَان لي لطيفين، ولم يعودا موجودين كثنائي مثلما كانا. وفكّرت عندئذ بأنني ربما أكون قد أكّدت على ما تحاول هي إلغاءه أو استبعاده إلى نوع من الليمبوس في كل لحظة، إذ سيكون من المحال نسيانه أو إنكاره: فهما لم يكونا اثنين بأي حال، وهي لم تعد تشكّل جزءًا من أي ثنائي. وكنت على وشك أن أضيف: «لا شيء أكثر، لن أشغلك، أردتُ فقط أن قول لكِ هذا الذي قلته»، وأستدير لأنصرف، عندما نهضت لويسا ألداي واقفة ومبتسمة - كانت ابتسامة مفتوحة لا يمكن تجنّبها، لم يكن في تلك المرأة أية ازدواجية أو خبث، بل يمكن أن تكون ساذجة - وأمسكتني بمودة من كتفي وقالت:

- أجل، بالطبع، نحن أيضًا كنا نعرفك بالرؤية. - كلّمتني برفع الكلفة ودون تردّد على الرغم من تعاملي الأوَّلي معها، لقد كنا في السن نفسها تقريبًا، ربما تكبرني بنحو سنتين؛ تكلَّمَتْ بصيغة الجمع وبالزمن الحاضر، بصيغته الدلالية، كما لو أنها لم تكن قد اعتادت بعد على أن تكون وحدها في الحياة، أو ربما أنها تعتبر نفسها في الجانب الآخر، ميتة مثل زوجها وبالتالي في البُعد والمكان نفسه: كما لو أنها لم تنفصل عنه بعد على أي حال، ولا تجد أي مبرر للتخلّي عن تلك الـ«نحن» التي رسّخاها خلال ما يقارب عشر سنوات والتي لن تتمكن من التحلّل منها خلال ثلاثة شهور بائسة مضت. وعلى الرغم من أنها تحوّلت بعد ذلك إلى الماضي غير الكامل، ربما كان الفعل هو الذي تطلّب ذلك -. كنا نسميكِ الشابة الرصينة. أترين، لقد كان لكِ اسم عندنا. أشكرك على ما قلتِه لي، ألا تريدين الجلوس؟ - وأشارت إلى أحد الكرسيين اللذين كان يشغلهما ابناها، بينما هي تستبقي يدها على كتفي، وقد راودني الآن إحساس بأنني مسند أو دعامة. كنت واثقة من أنني لو قمت بأي حركة تَقَرّب لكانت عانقتني بصورة طبيعية. بدت لي هشّة، مثل شبح حديث يترنّح ولم يصبح شبحًا بالكامل بعد.

نظرتُ إلى الساعة، كان الوقت قد تأخّر. أردت أن أسألها عن ذلك اللقب الذي أطلقاه عليّ، شعرت بالمفاجأة وبأنني حظيتُ بشيء من التملّق. لقد انتبها إلى وجودي إذًا، وتحدّثا عني، وكانت لي هويتي لديهما. ابتسمتُ رغم إرادتي، ابتسمنا كلتانا بسعادة خجولة، خجل شخصين يتعارفان في وسط ظروف شديدة الحزن.

- الشابّة الرصينة؟ - قلت.

- أجل، هكذا كنتِ تبدين لنا. - وعادت من جديد إلى فعل الزمن الحاضر الدلالي، كما لو أن ديفيرني موجود في البيت وما زال حيًّا أو أنها لا تستطيع انتزاع نفسها منه إلا في بعض المفاهيم -. ألا تكونين قد انزعجت، أرجوكِ، آمل ذلك؟ ولكن اجلسي.

- لا، كيف يمكن لهذا أن يزعجني، وأنا أيضًا كنت أسميكما بلقب في ذهني. - لم تكن المسألة أنني لا أريد بدوري أن أرفع الكلفة معها، ولكنني لم أكن أجرؤ على فعل ذلك مع الزوج، وقد عدت إلى تضمينه في هذه الجملة. لا يمكن لأحدنا كذلك أن يشير بالاسم الأول إلى شخص ميت لم يعرفه. أو أنه لا يجب ذلك، فاليوم لا أحد ينتبه إلى هذه التلوّنات الدقيقة، والجميع يتعامل بثقة وبرفع للكلفة -. لم يعد بإمكاني البقاء الآن، كم أنا متأسفة، يجب أن أذهب إلى العمل. - أعدت النظر إلى الساعة بصورة آلية لأؤكد تعجلي، مع أنني كنت أعرف كم هي الساعة.

- طبعًا. إذا رغبتِ يمكننا اللقاء مساء، مرّي على بيتي، في أي ساعة تخرجين من العمل؟ أين تعملين؟ وماذا كنت تسميننا؟ - كانت لا تزال تضع يدها على كتفي، لم ألحظ أي تهديد، بل ما هو أقرب إلى التوسّل. توسّل سطحي، أجل، هذا صحيح، ابن لحظته. إذا ما قلت لها لا، ربما تكون في المساء قد نسيت لقاءنا هذا.

لم أجب على سؤالها الأخير - لم يكن هنالك وقت - وخاصة للردِّ على السؤال الأخير: فالقول إنهما كانا في نظري الثنائي الكامل يمكن أن يسبب لها مزيدًا من الألم والمرارة، فهي سوف تبقى في نهاية المطاف وحيدة من جديد، فور ذهابي. ولكنني قلت لها أجل، سوف أمرُّ عليها بعد خروجي من العمل إذا كان هذا يناسبها، في منتصف المساء، حوالى السادسة والنصف أو السابعة. سألتها عن العنوان، فأعطتني إياه، إنه قريب نوعًا ما. ودّعتها بوضع يدي على يدها للحظة، يدها التي على كتفي، وانتهزتُ فرصة التلامس كي أضغط عليها وأسحبها بعد ذلك. الحركتان كلتاهما بنعومة؛ فبدت كما لو كانت ممتنّة لذلك، ملامسة ما. وكنتُ على وشك اجتياز الشارع عندما انتبهت، وكان عليّ أن أرجع على خطواتي.

- كم أنا بلهاء، لقد نسيت - قلت لها -. لا أدري ما هو اسمك. عندئذ فقط عرفت، فاسمها لم يظهر في أي صحيفة، وأنا لم أكن قد رأيت إشعارات ونعوات الوفاة.

- لويسا ألداي - ردتْ عليّ -. لويسا ديسفيرن - صوّبت. في إسبانيا لا تفقد المرأة عند الزواج كنيتها وهي عازبة، تساءلتُ عما إذا كانت قد قرّرت أن تُسمّى الآن هكذا، كتصرف وفاء أو تكريم -. حسنًا، أجل، لويسا ألداي - صححتْ، مكرّرة. من المؤكد أنها فكرت على هذا النحو دومًا -. أحسنتِ صنعًا بتذكّرك، لأن اسم ميغيل لا يرد ذكره على الباب، وإنما اسمي أنا فقط. - ظلتْ ساهمة، وأضافت: - لقد كان إجراء حذرًا منه، فاسم أسرته مرتبط بالأعمال. وانظري ما الذي نفعه ذلك الحذر.

- أغرب ما في الأمر كلّه أن تغييرًا قد طرأ على تفكيري - هذا ما قالته لي أيضًا في ذلك المساء أو عندما كان الليل قد حلّ في صالون بيتها، كانت لويسا تجلس على الصوفا وأنا على أريكة قريبة، وكنت قد قبلت منها كأس نبيذ أبورتو، وهو الشراب الذي قررتْ هي نفسها أن تتناوله؛ كانت تشربه في رشفات صغيرة ولكنها متقاربة، وراحت تسكب المزيد ووصلت إلى ثلاث كؤوس صغيرة، ما لم أكن مخطئة؛ إنها تعرف كيف تقاطع ساقَيْها بصورة طبيعية، وتبدوان أنيقتين دومًا، تبدل وضعهما، الساق اليمنى الآن فوق الأخرى، والآن اليسرى، إنها ترتدي تنورة هذا المساء، وتنتعل حذاء أسود لامعًا يكشف القدمين، كعبه قصير لكنه رفيع جدًا، يضفي عليها مظهر أمريكية شمالية مهذبة، بينما نعل الحذاء السفلي فاتح جدًا، يكاد يكون أبيض، وكأنه حذاء لم يُستخدم من قبل؛ وبين حين وآخر كان الطفلان يدخلان، أو يدخل أحدهما ليخبرا عن شيء أو ليسألا أو ليُسوّيا خلافًا، كانا يشاهدان التلفزيون في حجرة مجاورة، هي أشبه بامتداد للصالون الذي بلا أبواب، وقد أوضحتْ لي لويسا أن لديهما جهاز تلفزيون آخر في غرفة الطفلة، ولكنها تفضل ألا يكونا بعيدين عنها، بل حيث يمكنها سماعهما، تحسبًا لحدوث أي شيء أو وقوع شجار بينهما، ومن أجل الرفقة أيضًا، أي أنها تجبرهما على البقاء بالقرب منها، إن لم يكن تحت نظرها ففي متناول سمعها، ولا يحوْلان في نهاية المطاف دون تركيزها، لأنه من المحال أن تتمكّن من التركيز على أي شيء، لقد تخلت عن ذلك إلى الأبد، تظن أن هذا الحال سيستمر إلى الأبد، تخلت عن قراءة كتاب أو رؤية فيلم كامل، وتحضير درس بطريقة أخرى لا تكون فوضوية وبلا تخطيط أو في سيارة الأجرة وهي في طريقها من الكلية، وتستطيع سماع الموسيقى فقط للحظات، مقطوعات مقتضبة أو أغنيات أو حركة واحدة من سوناتا، فأي شيء طويل يتعبها ويُفقدها الصبر؛ وتتابع أيضًا بعض المسلسلات التلفزيونية، فالحلقات لا تدوم طويلًا، وهي تشتريها الآن بنسخ DVD كي تتمكّن من الرجوع إلى الوراء عندما تسهو، لأنها تجد صعوبة في الحفاظ على تركيزها، ويشرد ذهنها إلى مكان آخر، أو إلى المكان نفسه دائمًا، إلى ميغيل، إلى المرة الأخيرة التي رأته فيها حيًّا، وهي المرة الأخيرة التي رأيتُه فيها أنا أيضًا، وإلى الحديقة الصغيرة الهادئة التابعة لمدرسة المهندسين في كاستيانا، والتي بجوارها طعنوه وطعنوه وطعنوه بمطوى من نوع الفراشة التي يبدو أنها محظورة - لا أدري، كما لو أن لي رأسًا آخر، تخطر لي على الدوام أمور لم أفكر بها قطّ من قبل - تقول باستغراب ساذج، وبعينين مفتوحتين جدًّا، وهي تحكّ إحدى ركبتيها بأطراف أصابعها كما لو أنها تشعر بوخز فيها، من المؤكّد أنه قلق معنوي وحسب -. كما لو أنني شخص آخر منذ ذلك الحين، أو نمط آخر من الأشخاص، بتكوين ذهني غير معروف وغريب، تكوين من هو معتاد على تداعيات وتهيؤات ترافقها اختلاجات مفاجئة. أسمعُ صفارة سيارة إسعاف أو شرطة أو مطافئ فأفكر بمن يحتضر أو يحترق أو ربما يختنق، وعلى الفور تخطر لي فكرة الغم بأن كل من سمعوا صفارة الحراس الذين حضروا هناك لاعتقال المتشرد مدبّر مواقف السيارات، أو وحدة الإسعاف السريع المتحرّكة التي حضرت وسحبت ميغيل من الشارع، يفعلون ذلك وهم ساهون أو متضايقون، يا لها من طريقة في الصفير، أنت تعرفين ذلك، ما نقوله جميعنا عادة، يا للمبالغة، يا للضوضاء، من المؤكّد أن الأمر لا يتطلّب كل هذا الضجيج. لا نكاد نتساءل بأي مصيبة محدّدة يرتبط ذلك الصفير، إنه ضجيج مألوف في المدينة، فضلًا عن أنه صوت بلا مضمون محدَّد، مجرد إزعاج فارغ أو بلا معنى. في السابق، حين

لم تكن هذه الصفارات كثيرة، ولم تكن تدوي بهذه القوة، لم يكن هناك من تخامره الريبة بأن السائقين يستخدمونها بلا مبرر، كي ينطلقوا بسرعة أكبر ويفتح الآخرون لهم الطريق، ويطلّ الناس من الشرفات ليعرفوا ما الذي يحدث، بل إنهم يثقون بأن الصحف ستروي ذلك في اليوم التالي. أما الآن فلم يعد أحد يطل من الشرفات، ننتظر أن يبتعدوا ويُبعِدوا عن مجال سمعنا ذلك المريض، أو الحادث، أو الجريح، أو شبه الميت، كيلا يكون موضوعًا يهمنا، وكيلا يستنفروا أعصابنا. لم أعد الآن أطل من الشرفة، ولكنني خلال الأسابيع الأولى التي تلت موت ميغيل لم أكن قادرة على تجنب الإسراع للإطلال من الشرفة أو النافذة ومحاولة رؤية سيارة الشرطة أو الإسعاف لمتابعة مسارها بالنظر إلى حيث أستطيع، ولكن أحدنا لا يراها في أحيان كثيرة من البيت، بل يسمعها فقط، لذا تخليت عن الإطلال بعد وقت قصير. ومع ذلك، كلما سمعت صفارة منها، أقطع ما أقوم به وأمط رقبتي وأصغي إلى أن يتلاشى الصوت، أسمعها كما لو أنها حشرجات حسرة وتوسلات، كما لو أن كل واحدة منها تقول: «أرجوكم، إنني رجل في حالة صراع بين الحياة والموت، كما أنني لستُ مذنبًا، لم أفعل شيئًا يطعنوني بسببه، ترجّلت من سيارتي مثلما أفعل كل يوم وأحسستُ فجأة بوخزة في الظهر، ثم أخرى وأخرى وأخرى في أمكنة مختلفة من جسدي، لم أعد أعرف عددها، انتبهت إلى أنني أنزف من الجهات الأربع وأنني أموت دون أن أستوعب الفكرة أو أن أكون قد سعيت إليها. اتركوني أمرّ، أتوسل إليكم، أنتم لا تحتاجون ولو لنصف السرعة التي أحتاج إليها، وإذا كان هنالك احتمال لنجاتي فإنه يعتمد على الوصول في الوقت المناسب. اليوم عيد ميلادي وزوجتي لا تعرف شيئًا، لا بد أنها ما زالت جالسة تنتظرني في المطعم ومستعدة للاحتفال بيوم ميلادي، لا بد أن لديها هدية لي، مفاجأة، لا تسمحوا بأن تجدني ميتًا».

توقّفت لويسا وتناولت رشفة أخرى من كأسها، كانت حركة أقرب إلى أن تكون آلية منها إلى أي شيء آخر، لم يكن قد تبقّى في الكأس عمليًا سوى قطرة واحدة. لم تكن عيناها ساهيتين، بل متأججتان، كما لو أن التخيلات، بدل أن تشتت تفكيرها، تُنبّهها أكثر وتستنفرها وتمنحها قوة آنية، تجعلها تشعر أكثر بأنها في العالم الواقعي الحقيقي، حتى لو كان عالمًا واقعيًا وحقيقيًا قد مضى وانقضى. كنت لا أكاد أعرفها، لكنني بدأت أشعر بأن حاضرها يسبب لها تشوّشًا كبيرًا هي فيه أشد هشاشة ووهنًا مما تكون عليه حين تستقر في الماضي، وحتى في اللحظة الأشد إيلامًا ونهائية من الماضي، مثلما فعلت الآن بالذات. كانت عيناها الكستنائيتان جميلتين، مشرقتين، بذلك البريق، وتبدو إحداهما بصورة جلية أكبر من الأخرى دوندوندون أن يؤثر ذلك عليهما بأي حال، ويتبدى فيهما زخم وحيوية بينما هي تضع نفسها في مكان ديسفيرن المحتضر. مما لا شك فيه أنها كانت امرأة جميلة تقريبًا، حتى وهي وسط مراراتها؛ وتبدو أكثر جمالًا حين تكون سعيدة، مثلما رأيتها في صباحات كثيرة.

- ولكنه لم يستطع التفكير في أي شيء من هذا، ما لم أكن قد أسأت فهم ما جاء في الصحيفة - تجرأتُ على الملاحظة. لم أكن أدري ما أقول أو أنه لم يكن عليّ قول أي شيء، ولكن لم يبدُ لي كذلك مناسبًا أن أظل صامتة.

- لا، بالطبع لا - ردتْ عليّ بتسرع وبنبرة تحدٍ خفيفة.. لم يستطع التفكير في هذا بينما هم ينقلونه إلى المستشفى، لأنه لم يكن بوعيه آنذاك ولم يستعد الوعي بعدها. ولكن أجل، ربما قال شيئًا

مشابهًا، قبل ذلك، حين كانت الطعنات تسدّد إليه. لم تتوقف عن تمثّل تلك اللحظة، تلك الثواني، الوقت الذي استمر فيه الهجوم إلى أن توقف عن الدفاع عن نفسه ولم يعد يعي أي شيء، إلى أن فقد الإحساس ولم يعد يشعر بأي شيء، لا يأس ولا ألم ولا... - بحثتْ هنيهة عن مزيد مما شعر به قبل سقوطه شبه ميت بالضبط -. ولا وداع. أنا لم أفكر قطُ بأفكار أحد، بما يمكن أن يفكر فيه شخص آخر، حتى هو نفسه، هذا ليس أسلوبي، إنني أفتقر إلى المخيلة، لا متسع في رأسي لهذا. أما الآن، بالمقابل، فإنني أفعل ذلك في كل لحظة. وأقول لكِ، لقد تغيّر دماغي، وصرت كما لو أنني لا أتعرف على نفسي؛ أو ربما يخطر لي أيضًا، كما لو أنني لم أتعرف على نفسي طوال حياتي السابقة، وما كان بإمكان ميغيل أيضًا أن يعرفني آنذاك: الحقيقة أنه ما كان قادرًا وكان ذلك خارج متناول قدراته، أليس غريبًا؟ إذا كانت الحقيقة هي هذه التي تربط الآن أمورًا باستمرار، تربط بين أمور كانت ستبدو لي مختلفة وغير اجتماعية. إذا كنتُ أنا الآن من أنا بسبب موته، فإنني كنت بالنسبة إليه على الدوام أخرى مختلفة، ولكنت واصلت أن أكون من لست أنا، بصورة نهائية، لو أنه ظل حيًا. لا أدري إذا كنتِ تفهمينني - أضافت مدركة أن ما تشرحه كان تجريديًا.

بالنسبة لي كان ذلك أشبه بتلعثم، لكنني استطعت فهمه بصورة تقريبية. فكرتُ: «هذه المرأة في حالة سيئة جدًا، وليس هذا مستغربًا. إذ يمكن لحزنها أن يكون فسيحًا لا يمكن الإحاطة به، ولا بد أنها تُمضي النهار والليل في تقليب ما حدث، متخيلة لحظات وعي زوجها الأخيرة، ومتسائلة ما الذي يمكن أن يكون قد فكر به، بعد أن لم يعد لديه بكل تأكيد مزيد من الوقت لمحاولة تفادي طعنات السكين الأولى ومحاولته الهروب والإفلات، لا يبدو لي محتملًا أن يكون قد كرّس لها فكرة أو حتى نصف فكرة، ولا بد أنه كان يركّز فقط على موته الماثل أمامه وعلى محاولة عمل أقصى ما يستطيع لتجنّبه، وإذا كان شيء آخر قد مرّ في ذهنه فلا بد أن يكون ذهوله وعدم تصديقه وعدم فهمه غير المتناهي، ولكن ما هذا الذي يحدث وكيف يكون ممكنًا، ما الذي يفعله هذا الرجل ولماذا يطعنني، لماذا اختارني أنا من بين ملايين، وبيني وبين أي لعين اختلط عليه الأمر وأخطأ، ألا ينتبه إلى أنني لست أنا المتسبب في أذيته، وكم هو مضحك ومحزن وغبي الموت على هذا النحو، بفعل خطأ أو عمى بصيرة أو بسبب شخص ثانوي جدًا في حياتي لم أكد أعره أيّ اهتمام وبطلب منه فقط، وبسبب تدخلاته واحتداد غضبه، لقد تسبب له بإزعاج واعتدى ذات يوم على بابلو، وهذا شخص أقل أهمية من الصيدلي الذي على الناصية، أو من نادل الكافتيريا التي أتناول فيها الفطور، شخص طريف، تافه، كما لو أن من تقتلني فجأة هي الشابة الرصينة التي تكون هناك أيضًا كل صباح، والتي لم أتبادل معها كلمة واحدة قطّ، أشخاص ليسوا سوى أشكال ضبابية أو حضورات هامشية، يسكنون في ركن من اللوحة أو في عمقها البعيد القاتم، وإذا ما اختفوا لا نفتقدهم ولا نكاد نلحظ ذلك، لا يمكن لهذا الذي يحدث أن يحدث لأنه شديد العبثية ولأنه سوء حظ لا يمكن فهمه، ولن أتمكن فوق ذلك من روايته لأحد، وهذا هو الشيء الوحيد الباهت جدًّا الذي يعوّضنا عن النكبات الكبرى، أحدنا لا يعرف أبدًا ماذا أو من سيتولى إضفاء التنكر، أو الطريقة المحددة لموته الفردي والوحيد، وحيد على الدوام حتى لو ترك أحدنا الدنيا في اللحظة نفسها مع آخرين كثيرين في كارثة جماعية، ولكن ستكون له تقديرات معيّنة خاصة، مرض متوارث، جائحة، حادث سيارة، أو حادث جوي، استهلاك أحد الأجهزة العضوية، اعتداء ارهابي، انهيار بناء، خروج قطار عن السكة، سكتة قلبية، حريق، لصوص عنيفون يقتحمون بيتك ليلًا بعد أن يكونوا

قد خططوا للهجوم، أو شخص يجمعك به القدر في حي خطير توغّلت فيه دون انتباه بمجرد الوصول إلى مدينة لم تكتشفها بعد. لقد وجدت نفسي في أمكنة مثل هذه خلال أسفاري، لا سيما حين كنت أكثر شبابًا وكنت أتجوّل كثيرًا وأغامر، وقد لاحظت أن شيئًا قد يحدث لي بسبب عدم الحذر والجهل في كاراكاس وبوينس آيرس ومكسيكو، في نيويورك وموسكو وهامبورغ وحتى في مدريد نفسها، ولكن ليس هنا وإنما في شوارع أخرى أكثر مشاكسة أو مَذَلَّة أو قتامة، ليس في هذه المنطقة الهادئة، المضيئة والمرفَّهة التي هي منطقتي تقريبًا وأعرفها بكل تفاصيلها، ليس لدى نزولي من سيارتي كما في أيام كثيرة أخرى، لأن هذا اليوم وليس أمس ولا الغد،، لماذا اليوم ولماذا أنا، كان يمكن أن يحدث لأي شخص آخر وحتى لبابلو نفسه بكل سهولة، فقد حدثت لبابلو مشادّة أكثر جدية مما جرى معي، ولو أنه قدّم ضده شكوى حين أقدم هذا البهيمة على توجيه لكمة إليه، لكن كنت أنا نفسي من نصحته بتركه، يا لي من أبله، كنت أشعر بالأسى على هذا الرجل الذي لا أعرف حتى ما هو اسمه، وكنا استطعنا بالمقابل أن نزيحه من أمامنا، وقد وصلني تحذيره يوم أمس بالذات، إنني أتذكّر ذلك الآن، فيوم أمس انتهرني ورفضت إبداء أي اهتمام به وسارعتُ إلى نسيانه، كان عليّ أن أخشاه وأن أكون أكثر حذرًا، وألا أظهر في المكان لعدة أيام، بل كان عليّ أن أتوارى عن نظره، وألّا أظهر اليوم أمام عيني هذا المعتوه الغاضب الذي خطر له أن يطعنني مرة بعد أخرى بسكينه التي لا بد أن تكون فوق ذلك وسخة جدًا، ولكن هذا لم يعد مهمًا، لن أحتاج إلى التهاب من أجل موتي، سيميتني بسرعة أكبر رأس السكين وحدِّه وهو يغوص في جسمي ويتراجع، رائحة كريهة تنبعث من كل ما في هذا الرجل، إنه قريب جدًا مني، منذ قرون لم يغتسل، ليس لديه مكان لعمل ذلك، فهو محشور دومًا في سيارته المهجورة، لا أريد الموت مع هذه الرائحة، لا يستطيع أحدنا أن يختار، لماذا يجب أن يكون آخر ما تلقّني به الأرض قبل أن أودّع هذه الرائحة، ورائحة الدم التي بدأت تداهمني، رائحة حديد وطفولة، اللحظات الأكثر نزفًا، هذه هي رائحتي، لا يمكن أن تكون أخرى، لا يمكن أن تكون رائحته، فأنا لم أجرح هذا المجنون، إنه قوي جدًا وعصبي ولم أستطع معه، ليس لدي ما أجرحه به، أما هو فقد شق الجلد وتجاوزه إلى اللحم، ومن هذه الأفواه المفتوحة تغادرني الحياة وأواصل النزف، كم من الدم يذهب، لا يمكن عمل أي شيء، كم يذهب، لقد نضبت وانتهت». وبعد ذلك فكّرت أيضًا: «ولكنه هو لم يستطع التفكير بأي شيء من هذا. أو ربما أجل، إنني أركّز».

- لستُ ممن يستطيعون إسداء النصائح لأحد - قلتُ عندئذ للويسا، بعد صمتي الطويل -، لكنني أظن بأنه عليكِ عدم التفكير بما دار في ذهنه في تلك اللحظات. وقد كانت لحظات قصيرة جدًا في نهاية المطاف، تكاد لا تُذكر ولا وجود لها ضمن مجمل حياته، ربما لم يُتح له الوقت للتفكير في أي شيء. ولا مغزى لأن تستمر لديك، بالمقابل، خلال هذه الشهور كلها ومن يدري إذا ما كانت ستستمر أكثر، ما الذي تكسبينه بهذا. وهو أيضًا لن يكسب شيئًا. فما لن تتوصلي إليه، مهما قلّبتِ الأمر، هو أن تكوني قد رافقته في تلك اللحظات، ولم تموتي معه، ولا بدلًا منه، ولم تستطيعي إنقاذه. فأنت لم تكوني هناك، أنت لم تعلمي، وهذا لا يمكنك تغييره مهما بذلتِ من جهد. - انتبهتُ إلى أنني أنا من توسّعت لوقت أطول في هذه الأفكار المستعارة، صحيح أنني فعلت ذلك بعدوى وتشجيع منها، فمن المجازفة الدخول في عقل أحد بصورة تخيلية، لأن الخروج يصبح صعبًا أحيانًا، وأتوقع أن هذا هو السبب في أن قلة من الناس يُقدِمون على عمل ذلك، وأن الجميع تقريبًا يتجنّبونه ويفضّلون القول لأنفسهم: «أنا لست من هناك، أنا لا يمكن أن يصيبني ما حلّ بذلك الشخص، وبأي ذريعة سأُحمّلُ نفسي معاناته. هذه الجرعة الخبيثة ليست من نصيبي، كل امرئ يشرب ما له» -. أضف إلى ذلك أنه مهما يكن الأمر، فقد مضى وانقضى، ولم يعد موجودًا، لم يعد يروي. وهو نفسه لم يعد يفكر ولم يعد ذلك يحدث.

ملأتْ لويسا الكأس مجددًا، إنها كأس صغيرة جدًا، ورفعت يديها إلى خدَّيْها، حركة نصف تأملية ونصف مفاجئة. يداها قويتان وطويلتان، بلا أية زينة سوى خاتم زواجها. وبمرفقيها المستندَيْن إلى فخذَيْها، بدت كمن تضيق أو تتقلّص. تكلمتْ قليلًا مع نفسها، كما لو أنها تفكّر بصوتٍ عالٍ.

- أجل، هذه هي الفكرة السائدة عادة. إن ما انقضى أقل خطورة مما يحدث الآن، وإن التوقّف يجب أن يريحنا. وأن ما مضى وانقضى يجب أن يؤلمنا أقل مما يحدث الآن، أو أن تَحمُّل الأمور يكون أسهل بعد انتهائها، مهما كانت فظيعة. لكن هذا يعادل الاعتقاد بأن حالة شخص ميت هي أقل خطورة من حالة شخص آخذ بالموت، وهذا له معنى، ألا ترين ذلك؟ فما لا سبيل إلى إصلاحه والأكثر إيلامًا هو ما قد مات؛ وكون سكرات الموت قد انتهت لا يعني أن الشخص لم يمرّ بها. كيف لن تكون حشرجة الموت هذه حاضرة للمرء ما دامت هي الشيء الأخير الذي تقاسمه معنا، نحن من لا زلنا أحياء. ما تلا لحظته تلك يصبح خارج متناولنا، لكنه عندما حدث، بالمقابل، كنا لا نزال جميعنا هنا، في البُعد نفسه، هو ونحن، نتنفس الهواء نفسه. وكنا لا نزال نتوافق في الزمان، وفي العالم. لست أدري، لا أعرف كيف أشرح ذلك. - توقفتْ قليلًا وأشعلتْ سيجارة، إنها السيجارة الأولى؛ كانت السجائر في متناول يدها منذ البدء ولكنها لم تشعل أيًا منها حتى تلك اللحظة، كما لو أنها قد تخلّت عن عادة التدخين، ربما تكون قد تركته لفترة ثم عادت إليه الآن، أو أنها لم تتركه تمامًا: تشتري السجائر لكنها تحاول تجنّبها -. أضف إلى ذلك أن لا شيء يحدث بالكامل، هنالك الأحلام، وفيها يظهر الموتى أحياءً والأحياء يموتون في أحلامنا أحيانًا. إنني أحلم في ليالٍ كثيرة بتلك اللحظة، وأكون عندئذ حاضرة، أجل، أكون هناك، أعرف، أكون في السيارة معه وننزل كلانا، فأحذّره لأنني أعرف ما الذي سيحدث له ومع ذلك لا يستطيع الهرب. حسنًا، أنت تعرفين كيف تمضي هذه الأمور، الأحلام تكون في الوقت نفسه مشوَّشة ودقيقة. وأنا أنفضها عني فور استيقاظي، وخلال

دقائق قليلة تتلاشى من ذاكرتي، أنسى تفاصيلها؛ لكنني أدرك على الفور أن الحدث يبقى، وأنه حقيقي، وأنه قد وقع، وأن ميغيل قد مات وأنهم قتلوه بطريقة مشابهة للطريقة التي حلمت بها، على الرغم من أن مشهد الحلم قد تحلل وذاب فورًا. - ظلّت متوقّفة، أطفأتِ السيجارة وهي في منتصفها، كم هي مستغربة حقًّا من رؤية سيجارة في يدها -. أتدرين ما هو أحد أسوأ الأمور؟ عدم قدرتي على الغضب وعلى إلقاء اللوم على أحد. عدم القدرة على كراهية أحد على الرغم من أن ميغيل قد لقي ميتة عنيفة، وأنه قُتل في وسط الشارع. لو أنهم قتلوه لسبب ما، لو أنهم توجّهوا إليه وهم يعرفون من يكون، لأن هناك من يرى فيه عقبة أو يريد الانتقام منه، وما أدراني أنا، من أجل سرقته على الأقل. لو أنه كان أحد ضحايا منظمة إيتا لكان بإمكاني الاجتماع مع أهالي ضحايا آخرين حيث نكره جميعنا الإرهابيين أو حتى جميع الباسكيين، فكلما كانت المشاركة وتوزيع الحقد أكبر تكون النتيجة أفضل، أليس كذلك؟ وهو أفضل كلما كان توزيع الحقد أكثر اتساعًا. أتذكّر عندما كنت فتيّةً جدًا أن محبًّا لي قد تركني من أجل فتاة من جزر الكناري. لم أكرهها هي وحدها، وإنما قررت أن أكره جميع أهالي جزر الكناري. أمر سخيف، نزوة. فإذا كانت هناك في التلفزيون مباراة يلعب فيها فريق تينريفي، أو فريق لاس بالماس، كنت أتمنّى خسارته في مواجهة أي فريق آخر، مع أن كرة القدم لا تهمني ولا فرق عندي فيها ومن يتابعها إن كان أخي أو أبي. وإذا كانت هناك مسابقة ملكات جمال من أولئك البلهاوات، كنت أتمنّى ألا تكسب ممثلات جزر الكناري، وكان الغضب يستحوذ عليّ لأنهن اعتدن أن يكسبن، لأنهن في الغالب جميلات جدًا. - وضحكتْ من نفسها بشهية، دون أن تتمكّن من تجنّب ذلك. فما يروق لها، يروق لها حقًا، حتى وهي وسط غمّها -. وبلغ بي الأمر أن عاهدت نفسي ألا أعود لقراءة روايات غالدوس: فمهما تظاهر بأنه مدريدي، سوف يظل كناريَّ الأصل، وقد حظّرته بصورة قاطعة لفترة طويلة. - وضحكتْ مجددًا، وكانت ضحكتها الآن منفتحة وحتى معدية، فضحكتُ أنا أيضًا لفكرة محكمتها التفتيشية -. إنها ردود أفعال صبيانية غير عقلانية، ولكنها تساعد آنيًا، تأتي بشيء من التغيير المعنوي. لم أعد الآن شابة فتية، بل لا تتوافر لي تلك الوسيلة لقضاء جزء من اليوم غاضبة، بدل البقاء حزينة طيلة الوقت.

- وماذا عن متشرّد موقف السيارات؟ - قلت - ألا تستطيعين كرهه؟ أو كره كل المتشردين؟

- لا - ردّتْ دون أن تفكّر في الأمر، كما لو أنها كانت قد قدّرت ذلك مسبقًا - لم أشأ معرفة المزيد عن ذلك الرجل، أعتقد بأنه رفض الاعتراف، وأنه اعتصم بالصمت منذ اللحظة الأولى وما زال على ذلك، ولكن من الواضح أنه أخطأ في الشخص، وأن عقله ليس سليمًا. في البدء كانت له ابنتان متورّطتان في الدعارة، ابنتان شابتان، وخطر له أن ميغيل وبابلو، السائق، لهما علاقة بذلك. مجرّد بلاهة. قَتَلَ ميغيل مثلما كان يمكن له أن يقتل بابلو أو أي شخص من الجيران في المنطقة. أفترض أنه هو أيضًا كان بحاجة إلى أعداء، إلى أشخاص يلقي عليهم تبعة نكبته. مثلما يفعل الجميع، الطبقات الدنيا مثل المتوسطة والعليا وغير المصنّفة: لا أحد يتقبّل حدوث الأمور أحيانًا دون أن يكون هنالك مذنب، أو أن يوجد سوء الحظ، أو أن الأشخاص ينحرفون ويضيعون ويبحثون بأنفسهم عن التعاسة والدمار. - «أنت نفسك صغت سعادتك»، فكَّرتُ متذكّرة ثربانتس، ومستشهدة بكلماته، وهي بالفعل، لم تعد تؤخذ في الحسبان -. لا، لا يمكنني أن أغضب ممن قتله من أجل لا شيء، ممن حدّده مصادفة، كأن نقول، هذا هو السيّئ؛ إنه مجنون، مختل، لم يكن في الحقيقة يكرهه لكونه هو، مع أنه لا يعرف حتى اسمه، وإنما رأى فيه تجسيدًا لسوء حظه، أو رأى

أنه المتسبب في وضعه المرير. حسنًا، ما أدراني أنا بما رآه، لا يهمّني ذلك، فلستُ في رأسه ولا أريد أن أكون هناك. في بعض الأحيان يحاول أن يحدثني في الأمر أخي أو المحامي أو خابيير، وهذا واحد من أفضل أصدقاء ميغيل، ولكنني أوقفهم وأقول لهم إنني لا أرغب في تفسيرات افتراضية إلى هذا الحد أو ذاك، ولا تحريات بالتلمّس في العماء، فما حدث شديد الخطورة بحيث لا يهمني السبب، لا سيما أنه سبب غير مفهوم، لا وجود له ولا يمكن أن يوجد خارج ذلك العقل الهذياني أو المقيت، الذي لا أجد سببًا للتغلغل فيه. - لويسا تتكلّم بطريقة جيّدة، بمفردات غير محدودة وباستخدام أفعال ليست كثيرة التواتر في الحديث العام، مثل «التغلغل» أو «مقت»؛ فهي في نهاية المطاف أستاذة جامعية، تُدَرِّس علوم اللغة الإنكليزية، لقد قالت لي إنها تُدرّس اللغة؛ ولا بد بالتالي من أنها تقرأ وتترجم كثيرًا -. وبقليل من المبالغة، ليس لهذا الرجل في نظري من قيمة أكبر من طنف شرفة تفلت فجأة وتسقط على رأسك في اللحظة التي تمر تحتها، كان يمكن لك ألا تمر في تلك اللحظة: قد تمر قبل دقيقة ثم لا تعلم شيئًا عن ذلك. أو أن رصاصة طائشة آتية من حفلة صيد، أطلقها شخص غير خبير أو أحمق، يمكن ألا تكونَ قد ذهبتَ في ذلك اليوم إلى الريف. أو أن زلزالًا يصادفك في أثناء سفر، وكان يمكن لك ألا تكون قد ذهب إلى ذلك المكان. لا، الكراهية لا تنفع، لا توفّر عزاء ولا تمنح قوة، لا يريحني انتظار أن يحكموا عليه ولا الرغبة في أن يتعفّن في السجن. ولكنني لا أشفق عليه أيضًا، طبعًا، لا يمكنني الإشفاق عليه. ولا يهمّني أي شيء بشأنه، فلن يعيد إليَّ ميغيل أي شيء أو أحد. أفترض أنه سيُرسل إلى مؤسسة نفسانية، إذا كانت هذه المؤسسات لا تزال موجودة، لا أدري ما الذي يفعلونه بالمختلّين عقليًا الذين يرتكبون جريمة دموية. أظن أنهم يمنعونهم من التجوال لأنهم يشكّلون خطرًا، ولتجنّب أن يكرّر ما فعله. ولكنني لا أبحث عن عقاب له، لأن ذلك سيكون أشبه بالوقوع في بلاهة الجيوش في السابق، إذ كانت تلك الجيوش تعتقل حصانًا، بل وتحكم عليه بالإعدام لأنه أطاح بضابط وأوقعه أرضًا متسببًا بذلك في موته، عندما كان العالم أكثر سذاجة. ولا يمكنني عمل ذلك مع جميع المتسوّلين أو من هم بلا سقف. إنهم يخيفونني الآن، هذا صحيح. عندما أرى أحدهم أحاول الابتعاد أو الانتقال إلى الرصيف الآخر، إنه ردّ فعل مسوَّغ، سيستمر معي إلى الأبد. لكن هذا شيء مختلف. ما لا أستطيعه هو أن أتفرّغ لكراهيتهم بفعالية، كما لو أنني أستطيع كراهية بعض رجال الأعمال المنافسين الذين أرسلوا قاتلًا مأجورًا، لا أدري إذا كنت تعلمين أن هذا الأمر يصبح أكثر فأكثر شيوعًا، في إسبانيا أيضًا؛ هنالك أشخاص يطلبون إحضار قاتل من الخارج، كولومبي، أو صربي، أو مكسيكي، كي يزيح من الطريق من يشكّل منافسة كبيرة لهم ويمنعهم من التوسّع. يأتون بشخص، فيقوم بعمله، يدفعون له ويغادر، كل ذلك في يوم واحد أو يومين، لا يلتقون بهم قطّ، إنهم قتلة متكتّمون ومحترفون، وهم معقّمون، لا يخلّفون أي أثر، وحين تُرفع الجثة يكونون قد صاروا في المطار أو يحلّقون في الجو عائدين إلى المكان الذي جاؤوا منه. ولا تكون هنالك على الدوام تقريبًا طريقة لإثبات أي شيء، وأقل من ذلك التوصل إلى من تعاقد معهم، ومن أغراهم أو أعطاهم الأوامر. لو أن شيئًا من هذا قد حدث، لما استطعت أن أكره كثيرًا ذلك القاتل المأجور المجرَّد، إذ يمكن للقرعة على العملية أن تكون قد رست عليه وكانت من نصيبه، مثلما كان يمكن لها أن تكون من نصيب قاتل آخر، من هو غير مشغول؛ ولن يكون قد عرف ميغيل وليس لديه، شخصيًا، أي شيء ضده. ولكنْ، هنالك شيء ضده لدى مشغّليه، ويمكن الشك بهؤلاء أو أولئك، بأي منافس أو مستاء أو متضرّر، فكل رجل أعمال يكون له ضحايا دون علمه أو بعلمه؛ وحتى من زملائه الأصدقاء، مثلما قرأتْ قبل أيام مرة

أخرى، في «الكوباروبياس». - رأت لويسا في وجهي ملامح معرفة غامضة فقط -. ألا تعرفينه؟ كنز اللغة القشتالية أو الإسبانية، إنه أول معجم، يعود إلى العام ١٦١١، كتبه سيباستيان دي كوباروبياس. - نهضت وجاءت بكتاب ضخم أخضر اللون في يدها وبحثت في صفحاته -. كان عليَّ البحث عن كلمة «حسد» لأقارنها مع التعريف الإنكليزي لها، وانظري كيف ينتهي شرحه للكلمة - وقرأتْ لي بصوت عال -. «والأسوأ أن هذا السُّم يتولّد عادة في صدور من هم أقرب الأصدقاء إلينا، ومن نعتبرهم كذلك ونثق بهم؛ بينما هم أشد ضررًا من الأعداء المعلنين». وهذا العرفان يأتي من مرجعية أقدم، إذ انظري ماذا يضيف: «هذه المادة متداولة، وقد شرحها كثيرون؛ ولن أحاول نقل ما جمعه آخرون. أتوقّف هنا». - وأغلقتِ الكتاب وعادت للجلوس واضعة الكتاب في حِرجها، وكانت تبرز قصاصات ورقية بين عدد غير قليل من صفحاته -. سيكون ذهني مشغولًا بأمور أخرى، وليس في التحسّر والحنين فقط. سأشتاق إليه بلا توقّف، أتعلمين؟ إنني أشتاق إليه عندما أستيقظ وعندما أنام وعندما أحلم وطوال النهار، وكأنني أحمله معي بلا توقف، كما لو أنه مُتَضمّن في جسدي. - نظرَتْ إلى ذراعيها، وكأنَّ رأس زوجها يستريح عليهما -. هنالك أناس سيقولون لي: «احتفظي بالذكريات الطيبة وليس الأخيرة، فكّري في كم أحب كل منكما الآخر، فكري في اللحظات الكثيرة الرائعة التي لم يتوصّل آخرون لمعرفتها». إنهم طيبو النوايا، لا يمكنهم أن يدركوا أن جميع الذكريات قد اصطبغت الآن بهذه النهاية الحزينة والدامية. في كل مرة أتذكّر شيئًا طيبًا، تظهر لي على الفور الصورة الأخيرة، صورة موته المجاني والقاسي، موته الذي كان يمكن تجنّبه بسهولة، وبالغ الحماقة. أجل، هذا هو أسوأ ما أحمله: موت بلا ذنب وبحماقة بالغة. والذكرى تتشوّش وتصبح سيئة. الحقيقة أنه لم تعد لدي أية ذكرى طيبة. الذكريات جميعها تبدو لي مخادعة. جميعها أصابها التلوث.

ظلّت صامتة ونظرت باتجاه الحجرة المجاورة حيث كان الطفلان. صوتُ التلفاز يُسمع في الخلفية، لا بد أن كل شيء على ما يرام. إنهما طفلان مهذّبان، حسب ما رأيت، وأكثر بكثير مما هو متعارف عليه هذه الأيام. المثير للفضول أنني لم أفاجأ بأن لويسا تحدّثني بكل تلك الثقة، كما لو أنها صديقة. ربما لا يمكنها الحديث في أي أمر آخر، وخلال الشهور التي انقضت منذ موت ديفيرني استنفدت في ذهولها وغمّها جميع المحيطين بها، أو أنها كانت تخجل من الإلحاح على الموضوع نفسه معهم وتنتهز الفرصة لتفرّج عن نفسها من الحالة المستجدة التي أفترضُها. ربما لا فرق لديها من أكون، يكفيها أن تجد فيّ مستمعًا غير مُستهلَك، يمكنها البدء معه من البداية. وهذه عقبة أخرى لدى من يعاني نكبة: فمن يعاني التأثيرات تستمر معاناته أكثر بكثير مما يستمر صبر من يُبدون استعدادًا لسماعه ومرافقته، وعدم المشروطية ليست طويلة جدًا بأي حال إذا ما اصطبغت بالرتابة. وهكذا، عاجلًا أو آجلًا، يظل الشخص المحزون وحده قبل أن يكون قد أنهى حديث أساه أو لم يعد يتقبّل التحدّث عمَّ لا يزال عالمه الوحيد، لأن عالم الكروب ذاك منفّر ولا يُطاق. يدرك أن لكل تعاسة تاريخ صلاحية اجتماعية محدّد في نظر الآخرين، وأن لا أحد مخلوقًا من أجل تأمّل الحزن وحسب، وأنه يمكن التسامح مع هذا الاستعراض لوقت قصير فقط، بينما لا تزال فيه صدمة تأثر شديد ومؤلم وبعض من احتمال بطوليّ لمن ينظرون ويحضرون، يشعرون أنه لا بد منهم، كمنقذين، نافعين. ولكن لدى التأكد من أن شيئًا لا يتبدل وأن الشخص المتأثر لا يتقدم ولا يحاول الطفو، يشعرون بأنهم باهتون وزائدون على الحاجة، فيرون في ذلك نوعًا من الإهانة ويتنحّون جانبًا: «أوَليس يكفيه؟ كيف لا يخرج من البئر، بينما أنا أقف إلى جانبه؟ لماذا يصرّ على آلامه، فقد مضى بعض الوقت وقدّمتُ إليه بعض التسلية والمواساة؟ فإذا لم يعد قادرًا على رفع رأسه، فليغرق إذًا أو فليختفِ». وعندئذ يُقدِّم المحزون على هذا الأمر الأخير، يعتزل الناس، يغيب عن المشهد، يختبئ. ربما تشبّثت لويسا بي في ذلك المساء لأنها، وهي معي، تستطيع أن تكون ما كانت عليه ولا تختبئ: أرملة بلا عزاء، حسب العبارة الشائعة المكرّسة. ممسوسة، ضجرة، محزونة.

نظرتُ باتجاه حجرة الطفلين، وأومأت برأسي نحوها.

- لا بد أنهما يشكلان عونًا لكِ، ضمن هذه الظروف - قلتُ -. اضطرارِكِ إلى الاهتمام بهما يفرض عليك النهوض كل صباح بشيء من الحماسة، ويفرض أن تكوني قوية وأن تتحمّلي المشقّة، كما أفترض. لمعرفتك أنهما يعتمدان عليك، أكثر من السابق. سيكونان عبئًا ولكنهما سيكونان طوق نجاة إجباري كذلك، سيكونان مسوغًا للبدء كل يوم. أليس كذلك؟ - أضفتُ حين رأيت وجهها يكفهّر أكثر وعينها الكبيرة تنكمش وتتساوى مع الصغيرة.

- لا، كل شيء على العكس تمامًا - ردتْ وهي تتنفّس بعمق، كما لو أنه عليها أن تتموّن بالهدوء لتقول ما قالته -. إنني مستعدة لتقديم أي شيء مقابل ألا يكونا موجودَين الآن، مقابل عدم امتلاكهما. افهميني جيدًا: ليست المسألة أنني نادمة بصورة مفاجئة، فوجودهما يبدو لي حيويًا وهما أكثر من أحب، ربما أكثر من ميغيل، أو أنني انتبهت على الأقل إلى أن خسارته كانت أسوأ، من خسارة أي منهما، لأنني كنت سأموت. أما الآن فلا قدرة لي معهما، أشعر بشدة وطأتهما عليّ. ليتي

أستطيع وضعهما بين معترضتين، أو تنويمهما وإبقائهما في حالة سبات، لست أدري، تنويمهما بحيث لا يستيقظان حتى إشعار آخر. أريد أن يتركاني بسلام، ألا يسألاني ولا يطلبان مني أي شيء، ألا يشدّاني إليهما، ألا يتعلّقان بي مثلما يفعلان، يا للمسكينين. إنني بحاجة لأن أكون وحدي، بلا مسؤوليات، وبلا بذل جهود كبيرة لا أشعر بأنني قادرة عليها، وألا أفكر في ما إذا كانا قد أكلا، أو تدثّرا، أو إذا أصيبا بزكام ولديهما حرارة. أريد تمكّني من البقاء في الفراش طيلة اليوم، أو أن أكون على هواي دون أن أنشغل بأي شيء سوى بنفسي فقط، وهكذا أعيد تكوين نفسي شيئًا فشيئًا بلا تدخّلات ولا واجبات. إذا ما استعدتُ تركيب نفسي ذات يوم، وأظن بأنني سأفعل، وإن كنت لا أرى كيف. لكنني ضعيفة إلى حدّ أن آخر ما أحتاج إليه هو وجود شخصين أشد ضعفًا مني إلى جانبي، لا يستطيعان الاعتماد على نفسيهما وحدهما وما زالا يفهمان أقل مني ما جرى. وهما فوق ذلك يستثيران شفقتي، شفقة ثابتة ودائمة، تصل إلى ما هو أبعد من الظروف. الظروف تزيد حدّتها، ولكنها موجودة منذ الأزل.

- كيف تكون ثابتة؟ وكيف تصل أبعد؟ وكيف توجد منذ الأزل؟

- أليس لك أبناء؟ - سألتني. نفيتُ بحركة من رأسي -. الأبناء يمنحون الكثير من السعادة وكل هذا الذي يقال، ولكنهم يسببون الكثير من الحزن أيضًا، بصورة دائمة، ولا أظن بأن الأمر يتغيّر عندما يكبرون. ترين حيرتهم حيال الأشياء، فيحزنك ذلك. ترين طيب نواياهم، حين ترغبين في مساعدتهم والوقوف إلى جانبهم دون أن تتمكّني من ذلك، فيحزنك هذا أيضًا. وتسبّب لك جديتهم الحزن، ويسببه لك مزاحهم البدائي وأكاذيبهم المثيرة للشفقة، تسبّبه لك خيبة آمالهم وكذلك آمالهم، توقّعاتهم وخيباتهم الصغيرة، سذاجاتهم، عدم تفهّمهم، أسئلتهم بالغة المنطقية، وحتى أفكارهم الخبيثة العارضة. يسبّبه لك التفكير بكم ما زال ينقصهم أن يتعلموا، وبالمسيرة الطويلة التي تواجههم، وبأنه لا يمكن عمل أي شيء من أجلهم، وإن كنا أمضينا قرونًا في عمل ذلك فإننا لا نرى ضرورة أن كل من يولد يجب أن يبدأ مرة أخرى منذ البداية. ما مغزى أن يمر كل واحد منا بالمنغّصات والاكتشافات نفسها، إلى هذا الحد أو ذاك، بصورة أبديّة؟ وطبعًا، كان من نصيب ابنيّ فوق ذلك أمر ليس متواتر الحدوث، وكان يمكن لهما أن يتجنّباه، مأساة عظيمة لم تكن في الحسبان. فليس طبيعيًا في مجتمعاتنا أن يقتلوا والد أحدنا، والحزن الذي يشعران به هو ألم إضافي لي. فلست أنا وحدي من عانيت من الفقدان، وليت الأمر كان كذلك. من واجبي أن أشرح لهما، ولكن ليس لديّ تفسير أقدّمه إليهما. هذا كله يفوق قواي. لا يمكنني أن أقول لهما إن ذلك الرجل كان يكره أباكما، ولا أنه كان عدوّه، وإذا أخبرتهما بأنه قد أصيب بالجنون إلى حدّ القتل، فسوف يجدان صعوبة في فهم ذلك. كارولينا قد تفهم، لكن نيكولاس لن يفهم شيئًا.

- وماذا قلتِ لهما؟ وكيف تلقيا الأمر؟

- الحقيقة، في العمق، أنني متكيّفة إلى هذا الحد أو ذاك. تردّدت في ما إذا كان عليَّ أن أخبر الطفل، إنه صغير جدًّا، ولكن قيل لي إن الوضع سيكون أسوأ إذا ما أخبره بذلك أترابه الصغار في المدرسة. بما أن الخبر ظهر في الصحافة، فإن جميع من يعرفوننا قد عرفوا فورًا، وتصوّري روايات الصغار الذين في الرابعة من العمر، يمكن أن تكون أشد قسوة ومبالغة مما حدث في الواقع. وهكذا أخبرتهما أن ذلك الرجل كان غاضبًا جدًا لأنهم انتزعوا منه ابنتيه، وأنه قد أخطأ في الشخص وهاجم أباهما

بدلًا من ذاك الذي انتزع البنتين. فسألاني من الذي انتزعهما إذًا، فأخبرتهما بأنني لا أعرفه، وأن ذلك الرجل لم يكن يعرفه كذلك، ولهذا كان على تلك الحال، يبحث عمن يتشاجر معه. وأنه لم يكن يميّز جيّدًا بين الأشخاص ويرتاب بالجميع، ولهذا السبب كان قد ضرب بابلو في يوم آخر سابق، لاعتقاده بأنه هو المسؤول. المثير للفضول أنهما يفهمان هذا بسرعة كبيرة، يفهمون أن أحدهم يغضب لأنهم اختطفوا ابنتيه، بل إنهما يسألانني في بعض الأحيان الآن إن كان قد عُرف شيءٌ عن البنتين أو إذا كانتا قد ظهرتا، كما لو أن الأمر قصة معلّقة ينتظران نهايتها، أعتقد بأنهما يتخيلانهما طفلتين. قلت لهما إن كل شيء كان سوء حظ. وإن ما جرى كان أشبه بحادث، أشبه بما يحدث حين تصدم سيارة أحد المشاة أو سقوط عامل بناء ممن يعملون في الأبنية العالية. وأن أباهما لم يكن مذنبًا في أي شيء ولم يفعل شيئًا لأحد. سألني الطفل عمّا إذا كان لن يعود أبدًا. فأجبته أن لا، وأنه الآن بعيد جدًا، مثلما يحدث عندما يغادر في سفر أو أبعد من ذلك، بحيث لم تعد عودته ممكنة، ولكنه من هناك حيث هو موجود، يواصل رؤيتهما ورعايتهما. وخطر لي كذلك أن أقول لهما، كيلا يبدو أن كل شيء قد حُسم نهائيًا بصورة مفاجئة، أنني أستطيع التكلّم معه بين فترة وأخرى، وأنهما إذا كانا يريدان شيئًا مهمًا منه، ما عليهما إلا أن يخبراني به وسوف أنقله إليه. بدا لي أن الطفلة لم تصدّق هذا الجزء من الكلام، لأنها لم تعطني أية رسالة أنقلها إليه، أما الطفل ففعل، وهكذا صار يطلب مني الآن بين حين وآخر أن أخبر أباه بهذا الأمر أو ذاك، حماقات المدرسة التي يعيشها على أنها حوادث مهمّة، ويسألني في اليوم التالي إذا كنت قد أخبرته، وماذا كان رده، أو إذا ما بدا سعيدًا حين علم أنه يلعب كرة القدم. فأردّ عليه بأنني لم أكلّمه بعد، وأنه لا بد من الانتظار، وأن إجراء الاتصال به ليس سهلًا، أنتظر مرور بعض الأيام، فإذا ما تذكّر وألحّ، أختلق له عندئذ شيئًا ما. في كل مرة أترك مرور مزيد من الوقت إلى أن ينسى، ونادرًا ما يتذكّر بعد مرور وقت طويل. يظن أنه يتذكّر، ولا سيما ما نرويه له أنا وأخته. كارولينا أكثر إثارة للقلق. فهي لا تذكر أباها تقريبًا، إنها أكثر جدية وأكثر صمتًا، وعندما أُخبر أخاها بأن أباه قد ضحك حين سمع بالأمور التي تخطر له، على سبيل المثال، أو أنه كلّفني بأن أطلب منه عدم ركل الأطفال الآخرين وإنما ركل الكرة فقط، فإنه ينظر إليَّ بنوع من الأسى شبيه بذلك الذي يوحيان به إليّ، كما لو أن أكاذيبي تستثير شفقته، بحيث تكون هناك لحظات نشعر فيها جميعنا بالأسى، هما يشعران به من أجلي وأنا من أجلهما، أو من أجل الطفلة على الأقل. يريانني حزينة، يريانني كما لم يرياني قطّ، بالرغم من أنني أبذل جهدًا، قد لا تصدّقين، كيلا أبكي وكيلا يظهر عليّ كثيرًا حين أكون معهما. ولكنهما يلحظان ذلك، إنني متأكّدة. لقد بكيت مرة واحدة بحضورهما. - تذكرتُ الانطباع الذي سببته لي الطفلة عندما رأيت ثلاثتهم في الصباح على مقهى الرصيف: كيف تولي اهتمامًا لأمها وتكاد تسهر على راحتها، ضمن إمكانياتها؛ والمداعبة السريعة على خدها التي قامت بها عند الوداع -. كما لو أنها تخاف عليّ - أضافت لويسا وهي تسكب كأسًا أخرى مطلقة زفرة. منذ بعض الوقت لم تشرب، لقد توقّفت، ربما هي من أولئك الأشخاص الذين يعرفون كيف يتوقّفون في الوقت المناسب أو يحدّدون الجرعة حتى حدّ التجاوز، فيصلون إلى حدود الخطر، لكنهم لا يسقطون فيه أبدًا، ولا حتى عندما يشعرون أنه ليس لديهم ما يخسرونه ويصبح كل شيء لديهم سيّان. لم يكن هنالك شك في أنها يائسة جدًا، ولكنني لم أتوصّل إلى تخيّلها في ذروة الخذلان، ولا بأي شكل: لا بالسُّكر بصورة بهيمية ولا بإهمال الطفلين ولا بالتوجه نحو المخدرات ولا بالتغيب عن العمل ولا باستسلامها لرجل بعد آخر (هذا في ما بعد) كي تنسى ما يهمها؛ كان يبدو كما لو أن فيها بقية أخيرة من الرصانة، أو من الإحساس بالواجب، أو من

الصفاء، أو من المحافظة، أو البراغماتية، لم تكن تعرف جيدًا ما هو. وعندئذ رأيت ذلك بوضوح: «سوف تخرج من هذا»، فكّرتُ، «سوف تستعيد عافيتها بأسرع مما تعتقد، سوف يبدو لها غير حقيقي كل ما عاشته في هذه الشهور حتى إنها ستتزوج من جديد، ربما من رجل بالغ الكمال مثل ديسفيرن، أو ممن ستعود لتشكّل معه ثنائيًا مماثلًا، أي شبه كامل» -. لقد اكتشف الطفلان أن الناس يموتون، ويموت كذلك من كانوا يبدون عصيين على التدمير: الآباء. لم يعد ذلك كابوسًا، وقد بدأت كارولينا ترى كوابيس، إنها في السن المناسبة لذلك: ولا بد أنها قد حلمت ذات ليلة بأنني سأموت أنا أو سيموت أبوها، قبل أن يحدث أي شيء مما حدث. وأنها قد نادتنا من غرفتها في منتصف الليل، مغمومة، وقد أقنعناها بأن ذلك مستحيل. لقد رأت أننا كنا على خطأ أو ربما كذبنا عليها؛ وأن لديها أسبابًا للخوف، وأن ما تمثّل لها في الأحلام قد تحقّق. لم تؤنبني على ذلك بصورة سافرة، ولكنها في اليوم التالي لدفن ميغيل، حين رأت أنه لم يكن هنالك قلب للصفحة، وليس هنالك أي شيء آخر لعمله سوى مواصلة العيش دونه، قالت لي مرتين، كمن هي مشحونة بالحق: «أترين؟ أترين؟». فسألتها دون أن أفهم: «ما الذي عليّ أن أراه يا سمائي؟». كنت مشوَّشة الذهن جدًا وغير قادرة على الفهم. عندئذ انسحبتْ، وقد واصلتْ عمل ذلك منذ تلك اللحظة: «لا شيء، لا شيء. فبابا لم يعد في البيت، ألا ترين ذلك؟»، ردتْ عليَّ. افتقدتُ قواي وجلست على حافة السرير، كنا في حجرتي. «إنني أرى ذلك طبعًا يا حبي»، قلت لها، وانفلتت دموعي. لم تكن قد رأتني أبكي من قبل، فشعرتْ بالحزن عليّ، وهي تحزن عليّ منذ ذلك الحين. اقتربت مني وبدأت تمسح دموعي بطرف ثوبها. عندما اكتشف نيكولاس ذلك، بعد وقت قصير جدًا، دون أن يتمكّن بعد من الحلم بالأمر والخوف منه أولًا، حين لم يكن يعي بعد ما هو الموت، وأنا أظن أنه لم يعلم جيدًا ما هو جوهره، وإن كان قد بدأ يدرك أن ذلك يعني أن الأشخاص يتخلّون عن كونهم كذلك، وأنه لا يعود بالإمكان رؤيتهم أبدًا. وإذا كان أبوه قد مات واختفى بين يوم وآخر؛ فإن ما هو أسوأ، أنهم قد قتلوا أباه ضربًا ولم يعد له وجود دون إشعار مسبق، فإذا كان على ذلك القدر من الهشاشة ويمكن له أن يسقط في أول اصطدام مع شقيٍّ تعِس، فكيف يمكن له التفكير في أن الشيء نفسه لن يحصل لي في أي يوم، وأنا التي أبدو أقل قوة؟ أجل، يخافان عليّ، يخافان أن يحدث لي شيء سيّئ وأتركهما وحيدَيْن تمامًا، ينظران إليّ بتوجّس، كما لو أنني أنا التي في مهَبّ المجازفة وعدم الحماية أكثر منهما. الحالة في الطفل تبدو غريزية وأما في الطفلة فتبدو واعية جدًا. ألاحظ كيف أنها تنظر في ما حولي حين نكون في الشارع، وكيف تتّخذ موقفًا متأهبًا حيال أي شخص مجهول، أو بعبارة أدق حيال أي رجل مجهول. ويطمئنها أن يكون هناك من يرافقها، أناس أصدقاء أو نساء. الآن، منذ بعض الوقت هي ليست قلقة، لأنني في البيت ولأنني معكِ، وأنت ترين كيف أنها لا تدخل لتحرس وتراقب بأية ذرائع أو لتزعج. وعلى الرغم من أنها قد تعرفت عليكِ للتو، إلا أنك توحين لها بالثقة، فأنت امرأة ولا ترى فيك خطرًا. بل على العكس، تراكِ كدرع كحماية. هذا يقلقني قليلًا، أن يتملّكها الخوف من الرجال، أن تبدو محترسة وعصبية أمامهم، أمام من لا تعرفهم. آمل أن ينقضي ذلك وتتخلص منه، لأنه لا يمكن المضي قُدمًا في الحياة بشعور بالخوف من نصف الجنس البشري.

- أيعرفان كيف مات أبوهما بالضبط؟ أعني - ترددتُ، لم أعرف إذا ما كنت سأستدعيه مجددًا بذلك -، السكين.

- لا، أنا لم أدخل قطّ في التفاصيل، لقد أخبرتهما فقط بأن ذلك الشخص قد هاجمه. لم أخبرهما بالطريقة أبدًا. ولكن لا بد أن كارولينا تعرف، أنا متأكدة من أنها قد قرأت إحدى الجرائد وأن زملاءها قد علّقوا على الأمر متأثّرين. الفكرة تسبب لها ذعرًا شديدًا إلى حدّ أنها لم تحاول قطّ أن توجّه إليّ أسئلة أو تشير إلى ذلك. بحيث يبدو الأمر كما لو أن هنالك اتفاقًا بين كلتينا على عدم الحديث في هذا الشأن، على عدم تذكّره، على محو هذا العنصر من موت ميغيل (وهو العنصر الحاسم، والذي أدّى إلى موته)، كي يظلّ الموت كحدث معزول ومُطَّهَر. هذا من جهة أخرى هو ما يفعله الجميع بموتاهم. محاولة نسيان «الكيف»، يجري الاحتفاظ بصورة الحي وربما كذلك بصورة الميت، ولكن يتم تجنّب التفكير بالحدِّ الفاصل، بالانتقال، بالاحتضار، بالسبب. فالشخص يكون حيًّا الآن ويصير بعد ذلك ميتًا، وما بينهما لا شيء، كما لو أنه انتقال بلا تحوّل ولا سبب من حالة إلى أخرى. أما أنا فما زلت غير قادرة على تفادي ذلك، وهذا ما لا يسمح لي بالعيش ولا البدء بالتعافي، إذا افترضنا أن هنالك معافاة لهذا الأمر. - «هناك معافاة، هناك معافاة»، عدت أفكّر، «وأقرب مما تتوقّعين. وهذا ما أتمنّاه لك أيتها المسكينة لويسا، من أعماق روحي» -. مع كارولينا أستطيع عمل ذلك، فهو مناسب لها، وهذا يكفيني. ولكن حين أكون وحدي، لا يكون ذلك ممكنًا لي بالمقابل، لا سيما في مثل هذه الساعات، حين لا يكون الوقت نهارًا ولا يكون ليلًا كذلك. أفكر في تلك السكين تنغرس، وفي ما كان يشعر به ميغيل، وفي ما إذا أتيح له الوقت ليفكر في شيء، وإذا ما فكّر بأنه آخذ بالموت. عندئذ يسيطر عليّ اليأس ويصيبني المرض. وليست هذه مجرد طريقة في الكلام: إنني أمرض حرفيًا. ويؤلمني جسدي كله.

رنّ الجرسُ، ودوندون أن أتخيل من سيكون القادم، عرفتُ أن حديثنا وزيارتي قد لامسا نهايتهما. لم تستفسر لويسا أي شيء عني، بل إنها لم ترجع إلى الأسئلة التي وجّهتها إليّ في مقهى الرصيف في الصباح: أين أعمل، وأي تسمية أطلقتُها ذهنيًا على ديفيرني وعليها حين كنت أراقبهما في مكان الفطور المشترك. لم تكن تولي اهتمامًا بعد للأمور المثيرة للفضول، ولم تكن تهتم بأحد ولا بالإطلال على حيوات آخرين، فحياتها تستهلكها وتستحوذ على كل قواها وتركيزها، وربما على مخيلتها أيضًا. أما أنا فلم أكن أكثر من أُذنٍ مصغية تسكب فيها نكبتها وأفكارها الثابتة، أُذن بِكر ولكنها تبادلية، أو ربما ليست هكذا تمامًا، في هذا الشأن الأخير: مثل الطفلة، لا بد من الإيحاء لها بالثقة والإلفة، ربما لم تكن قد تصارحت بالطريقة نفسها مع أحد، ليس مع أي أحد. فأنا في نهاية المطاف كنت قد رأيت زوجها مرات كثيرة وبالتالي كنتُ أصوغ وجهًا لخسارتها، أعرف الغياب الذي كان سبب غمّها، الشخص الذي اختفى من مجالها البصري، يومًا بعد آخر ثم آخر ثم آخر، وهكذا برتابة دون تبديل حتى النهاية. لقد كنتُ أنا، بطريقة ما، «من المرحلة السابقة»، وقادرة بالتالي على الشعور بغياب المتوفّى على طريقتي، على الرغم من أن كليهما كانا يتجاهلانني ومن أن ديسفيرن سيجد نفسه مجبرًا على فعل ذلك على امتداد الأبدية كلها، فأنا وصلت في وقت متأخر بالنسبة إليه، ولن أكون أبدأ أكثر من الشابة الرصينة التي أمعن النظر إليها مرات قليلة جدًّا وبصورة عرَضية فقط. «إن موته، مع ذلك، هو ما سمح لي بأن أكون هنا»، فكّرتُ مستغربة. «فلو لم يحدث لما كنت الآن في بيته، لأن هذا هو بيته، هنا عاش، وهذا صالونه وربما أنا أشغل المكان الذي كان يجلس فيه، والذي خرج منه في الصباح الأخير الذي رأيته فيه، والأخير أيضًا الذي رأته فيه زوجته». من المؤكّد أنها كانت تنظر إليّ بتعاطف، وتراني متعاطفة معها، مشفقة ومحزونة؛ وتلاحظ بصورة غامضة أنه كان يمكن لنا في ظروف أخرى أن نكون صديقتين. أما الآن فهي أشبه بأن تكون داخل بالون، تتكلّم ولكنها في العمق معزولة وغريبة عن كل ما هو خارجي، وهذا البالون سيتأخر طويلًا في إفراغ هوائه. عندئذ فقط ستتمكّن من رؤيتي حقًا، وعندئذ فقط لن أعود تلك الشابة الرصينة زبونة الكافتريا. لو أنني سألتها في تلك اللحظة ما هو اسمي، فربما لن تتذكّره، أو ربما ستتذكّر الاسم الأول دون اللقب. ولن تعرف كذلك إذا ما كنا سنعود للقاء، وإذا ما كانت ستتوافر لنا فرص أخرى: عندما أخرج من هناك سوف أضيع في غمامة.

لم تنتظر إلى أن تردّ عاملة الخدمة، إذ كانت هناك خادمة واحدة على الأقل، هي من ردّت عليّ عند مجيئي. بل نهضتْ بنفسها وذهبت حتى المدخل ورفعت سماعة هاتف البوابة. سمعتها: «نعم؟». ثم قالت بعد ذلك: «أهلًا. سأفتح لك». إنه شخص معروف جيدًا، هي تنتظره أو أنه معتاد على المجيء يوميًا في مثل تلك الساعة، لم تكن هنالك أي نبرة مفاجأة أو تأثر في صوتها، بحيث يمكن للقادم أن يكون صبي متجر البقالة الذي يأتيها بطلباتها. انتظرتْ عند الباب المفتوح أن يجتاز الزائر مقطع الحديقة الذي يفصل بوابة الشارع عن البيت نفسه، إنها تعيش في بيت يشبه ما يسمونه الشاليه أو الأوتيليو، التي توجد منها عدة مستوطنات في مناطق مدريد المركزية، ليس في منطقة البيسو وحدها، وإنما كذلك وراء منطقة كاستييّانا وفي فوينتي دل بيرّو وأمكنة أخرى، مخبأة بصورة إعجازية عن حركة المرور الفظيعة والفوضى العامة الدائمة. انتبهتُ عندئذ إلى أنها لم تكلّمني كذلك عن ديفيرني. لم تأتِ على ذكره، ولم تصف طبعه أو طريقته في العيش، لم تقل كم

تشتاق إلى هذا الملمح أو ذاك من شخصيته، هذه العادة أو تلك من عاداته، أو كم يعذّبها أنه لم يعد حيًّا - على سبيل المثال - وهو الشخص الذي كان يستمتع كثيرًا بالحياة، أو تسألني عن الانطباع الذي أمتلكه أنا عنه. وانتبهتُ إلى أنني لم أعرف عن ذلك الرجل أكثر مما كنت أعرفه عند الدخول. وبدا على نحو ما أن موته بتلك الطريقة غير السوية قد عتَّمت على كل ما سواها أو محته، وهذا يحدث أحيانًا: تكون نهاية أحدهم غير متوقعة أو مؤلمة جدًّا، ملفتة للنظر جدًّا، أو مبكرة جدًّا، أو مأساوية جدًّا - في مناسبات بديعة أو مضحكة أو بالغة النحس -، بحيث يصبح من المحال الإشارة إلى ذلك الشخص دون أن تبتلعه تلك النهاية أو تنتقل إليه عدواها فورًا، دون أن تغطي طريقه موته المروّعة بالسواد حياته السابقة كلها وتحرمه منها بطريقة ما، وهو أمر شديد الظلم. الموت الصارخ يطغى جدًا على مجمل صورة من يعانيه، بحيث يصعب تذكره دوندون أن تحوم حول الذكرى، على الفور، تلك المعلومة الأخيرة التي ألغت وجوده، أو التفكير به من جديد في الأزمنة الطويلة حين لم يكن الشك يخامر أحدًا في إمكانية أن تسقط دونه ستارة شديدة الوعورة والثقل. كل شيء يُرى على ضوء تلك النهاية، أو بعبارة أدقّ، يكون ضوء تلك الخاتمة قويًا ومبهرًا بحيث يحول دون استعادة ما هو سابق والابتسام عند الاستذكار أو الأحلام، ويمكن القول إن من يموتون على هذا النحو يموتون بصورة أكثر عمقًا واكتمالًا، أو ربما يكون موتًا مزدوجًا، في الواقع وفي ذاكرة الآخرين، إنها ذاكرة انبهار إلى الأبد بحدث النهاية الأبله، وربما المسمّم أيضًا.

ويمكن أن يكون الأمر كذلك أن لويسا ما زالت في مرحلة الأنانية القصوى، وهذا يعني أنها غير قادرة على أن ترى شيئًا سوى نكبتها الخاصة، دون الانتباه كثيرًا إلى نكبة ديسفيرن، على الرغم من القلق المعبّر عنه بشأن لحظته الأخيرة، إذ كان عليه هو نفسه أن يدرك لحظة الوداع. العالم هو عالم مخصّص للأحياء، وقلما يكون للموتى حقًّا - على الرغم من أنهم يبقون جميعهم على الأرض، وهم أكثر عددًا من الأحياء بكثير دون شك -، وأن على أولئك أن يفكّروا بأن موت شخص عزيز هو أمر حدث لهم أكثر مما حدث للمتوفّى الذي حدث له ذلك فعلًا. هو من كان عليه أن يودّع، ورغمًا عن إرادته على الدوام تقريبًا، وهو من فقد كل ما كان سيأتي (من لم يرَ نمو أبنائه وتبدلهم، مثلًا، في بيت ديفيرني)، من كان عليه أن يتخلّى عن اندفاعه إلى المعرفة أو عن فضوله، مَنْ ترك مشاريع غير مكتملة وكلمات لم يقلها ظنًا منه على الدوام أنه سيكون هنالك وقت لذلك في ما بعد، مَنْ لم يستطع الحضور؛ إنه هو، إذا كان مؤلِّفًا، من لم يستطع إنهاء كتاب أو فيلم أو لوحة أو نظم، أو من لم يستطع إنهاء قراءة ما هو أول، أو رؤية ما هو ثانٍ، أو سماع ما هو رابع، إذا كان متلقّيًا وحسب. يكفي إلقاء نظرة إلى حجرة الفقيد لإدراك كم ظلت مقاطَعَةً وخاوية، وكم ستتحوّل لتصبح خلال لحظة إلى غير نافعة وبلا فائدة: أجل، الرواية مع مؤشّر تعليم الصفحة الذي لن يتقدم مزيدًا من الصفحات، ولكن الأدوية أيضًا التي تتحوّل فجأة إلى غير مجدية أكثر من أي شيء آخر، ولا بد من رميها سريعًا، أو الوسادة والفراش الخاصّين اللذين لن يستريح فوقهما الرأس أو الجسد؛ كأس الماء التي لن تُشرب منها رشفة أخرى، وعلبة السجائر المحظورة التي لم يبق فيها سوى ثلاث سجائر، والسكاكر التي كانوا يشترونها له ولا يجرؤ أحد على أن ينهيها، كما لو أن فعل ذلك سيبدو سرقة أو انتهاك حرمات؛ والنظارة التي لن تنفع أحدًا آخر، والملابس التي من المتوقع أن تظل في خزانته لأيام أو لسنوات، إلى أن يتجرّأ أحدهم على انتزاعها من أمكنتها، متسلّحًا جيدًا بالشجاعة؛ والنباتات التي كانت الفقيدة تعتني بها وتسقيها باهتمام، ربما لا أحد يريد تحمّل مسؤوليتها، والكريم الذي

يُوضع ليلًا، وآثار أصابعها الناعمة ما زالت ظاهرة على العلبة؛ إذا كان هناك من يريد من الورثة أخذ المنظار المكبر الذي كانت تتسلى به لمراقبة البجعات وهي تبني أعشاشها فوق برج بعيد، ولكن من يدري لأي شيء يمكن للوريث أن يستخدمه، والنافذة التي كانت تنظر من خلالها كلما توقّفت عن العمل، ستبقى بلا متأمّل، أو بلا رؤية كما قد يقال؛ والمفكّرة التي كانت تدوِّن فيها مواعيدها ومشاغلها لن تنقلب فيها أي صفحة إضافية، وسيفتقر اليوم الأخير إلى ملاحظة أخيرة، وهي تعني عادة: «لقد أنجزتُ ما عليّ اليوم». كل الأشياء التي كانت تتكلّم تتحوّل إلى بكماء وبلا معنى، كما لو أن عباءة تسقط عليها فتُخمدها وتُسكتها جاعلة إياها تظن بأن الليل قد حلَّ، أو كما لو أن تلك الأشياء نفسها تتحسر أيضًا على فقدان صاحبها وتنزوي بصورة مؤقتة، بوعي غريب لعدم استخدامها أو عدم جدواها، وتتساءل في كورال: «وما الذي سنفعله هنا الآن؟ سيكون علينا التقاعد. لم يعد لنا سيد. المنفى بانتظارنا أو سلة القمامة. لقد انتهت مهمتنا». ربما أن أشياء ديسفيرن قد أحستْ بهذا منذ شهور. لويسا ليست شيئًا. وبالتالي، لويسا، لا.

وصل شخصان، مع أنها قالت «سأفتح الباب لكَ»، بصيغة المفرد. سمعتُ صوت الأول، من كانت قد حيّته، يخبرها عن الشخص الثاني، ومن الواضح أنه لم يكن مُنتَظَرًا: «مرحبًا، جئتُكِ بالبروفيسور ريكو كيلا أتركه ملقى في الشارع. عليه أن يمرّر الوقت حتى موعد العشاء. لقد وصل إلى هذه المنطقة ولم يبق لديه هامش من الوقت للعودة إلى فندقه والرجوع مرة أخرى. لن تتضايقي، أليس كذلك؟». وبادر على الفور إلى تقديم كل منهما إلى الآخر: «البروفيسور فرانثيسكو ريكو، لويسا ألداي». «طبعًا لا، هذا شرف لي»، سمعتُ صوت لويسا. ثم أضافت: «لديَّ زائرة، تفضلا، تفضلا. ماذا تشربان؟».

أعرف وجه البروفيسور ريكو جيدًا، فقد ظهر كثيرًا في التلفزيون وفي الصحافة، بفمه الرخو، وصلعته النظيفة المعتنى بها، ونظّارته الكبيرة قليلًا، وأناقته المهملة - أناقة إنكليزية بعض الشيء، وإيطالية بعض الشيء -، ونبرته المستخفّة وسلوكه ما بين المتثاقل واللاذع، ربما هي طريقة لموارة كآبة عميقة تُلحظُ في نظرته، كما لو أنه رجل بدأ يشعر بأن الزمن قد تجاوزه، يؤسفه اضطراره إلى مواصلة التعامل مع معاصريه، الجهلة والتافهين في غالبيتهم، ويتحسّر في الوقت نفسه بصورة مسبقة لرؤية نفسه مضطرًا إلى التوقف عن علاجهم ذات يوم - فعلاجهم سيكون راحة أيضًا -، عندما يتوافق شعورهم أخيرًا مع الواقع. وكان أول ما فعله هو تفنيد ما قاله مرافقه:

- انظر يا دياث - باريلا، أنا لم أكن ملقى في الشارع قطّ، حتى لو وجدتُ نفسي في الشارع دوندون معرفتي ما الذي أفعلة حقًا، وهو أمر كثيرًا ما يحدث لي. فكثيرًا ما أخرج في سانت كوغات، حيث أعيش - وقد وجه إلينا هذا التوضيح مع نظرات بطرف العين يوجّهها بالتبادل إلى لويسا وإليّ أنا التي لم أُقدَّم إليه بعد -، وانتبهُ فجأة إلى أنني لا أدري لماذا خرجت. أو أنني أذهب إلى برشلونة وما إن أصير هناك حتى لا أعود أتذكّر سبب انتقالي. عندئذ أظل هادئًا لبرهة لا بأس بها، وليس متشرّدًا هائمًا على وجهي، ودون أن أخطو أي خطوات في المكان، إلى أن يَرِد الهدف إلى ذهني. حسنًا، حتى في هذه المناسبات لا أكون ملقى في الشارع، إنني في الواقع أحد قلّة من الأشخاص الذين يعرفون كيف يكونون معطّلين في الشارع وغير مُرَكّزي الذهن دون أن يستثيروا هذا الانطباع. أعرف تمامًا أن الانطباع الذي أستثيره، على عكس ما تقول، هو أنني في حالة تركيز شديد: كما لو أنني دومًا، كما يقال، على حافة التوصّل إلى اكتشاف حاسم أو على وشك أن أكمل، في ذهني، نظم سوناتا رفيعة المستوى. فإذا ما لمحني أحد معارفي وأنا في مثل هذه الظروف، فإنه لا يتجرّأ على مجرد تحيتي على الرغم من أنه يراني وحيدًا وساكنًا في منتصف الرصيف (لا أستند أبدًا إلى جدار، فهذا يعطي الإنطباع بأنني متروك ومُهمل)، خشية قطع أحد أفكاري العقلانية أو تأمّلاتي العميقة. كما أنني لم أتعرض في أي وقت لأي إساءة، لأن مزاجي الصارم والمستغرق يثني الأشرار عن الاقتراب مني. فهم يلحظون أنني شخص قادر بملكاتي الفكرية المتيقّظة والتي في أوج فعاليتها (في الـ«التوبي» tope كما يقال بالعامية)، ولا يجرؤون على التعرّض لي. ينتبهون إلى أن ذلك سيكون خطرًا عليهم، وأن رد فعلي سيكون بعنف وسرعة لم يعرف لهما مثيل.

أُفلتت من لويسا ضحكة، وكذلك مني على ما أظن. ولسوف تنتقل بسرعة كبيرة من الغم الذي حدّثتني عنه إلى الشعور بالمرح بتأثير شخص تعرّفتْ إليه للتو، مما جعلني أفكر من جديد بأن

لديها قدرة هائلة على الاستمتاع وعلى... - كيف أقول ذلك - على أن تكون سعيدة بصورة يومية أو آنية. لا يوجد كثيرون، ولكنْ هنالك أناس هكذا، أشخاص يفقدون الصبر ويضجرون في السعادة لأن مستقبلها لديهم قصير جدًّا، حتى لو كانوا قد نعموا بها في إحدى الفترات، بكل وضوح وبصورة موضوعية. وحسب ما رأيته منه، لا بد أن ديسفيرن قد كان هكذا، وقد خطر لي، لو أن لويسا هي التي ماتت بينما واصل هو الحياة، فمن المحتمل أن يكون ردّ فعله مشابهًا لرد فعل امرأته الآن. (وفكرت: «لو أنه ظلّ حيًّا، وأرمل، لما كنتُ أنا هنا»)، أجل، هنالك من لا يتحمّلون النكبة. ليس لأنهم غير مبالين، أو نزقين. إنهم يعانون منها عند مجيئها، وهذا واضح، مثل أكثرية الناس بالتأكيد. لكنهم ينفضونها عنهم سريعًا دون بذل جهد كبير، بنوع من اللامقاومة. فمن طبيعتهم أن يكونوا خفيفين وحالمين ولا يرون شهرة في المعاناة، خلافًا لمعظم البشرية السمجة، وطبيعتنا تمنحنا مدى على الدوام، إذ لا يمكن تقريبًا لأي شيء أن يلويها أو أن يكسرها. ربما كانت للويسا آلية بسيطة: تبكي حين يجعلونها تبكي، وتضحك عندما يجعلونها تضحك، ويمكن لأحد الأمرين أن يلي الآخر دون أن يكون مواصلة له، إنها تستجيب للدافع الذي يأتيها. البساطة ليست في نزاع مع الذكاء، إنها إضافة أخرى. لا مجال لديّ للشك في أنها تملك هذه الأخيرة. انعدام الخبث لديها وضحكها السريع لا يقلّلان من ذكائها مطلقًا، إنها أمور لا تعتمد عليها وإنما على الطبع، وهذه مرتبة أخرى ومجال آخر.

كان البروفيسور ريكو يرتدي سترة جميلة ذات لون أخضر نازي، ويضع بإهمال ربطةَ عنق متهدّلة بعض الشيء، ربطة عنق أكثر زخمًا وبريقًا - ربما هي ذات لون أخضر بطيخي - فوق قميص عاجي. حسنَ التلاؤم دون أن يبدو أنه قد درس ذلك الانسجام الصائب، على الرغم من المنديل الأخضر البارز من جيب الصدر، ربما كان هذا المنديل الأخضر زائد الخضرة.

- ولكنهم هاجموك ذات مرة هنا في مدريد يا بروفيسور - اعترض المدعو دياث - باريلا -. حدث ذلك منذ سنوات طويلة، لكنني أتذكر الأمر جيدًا. في منتصف شارع غران بيّا، فور انتهائك من سحب نقود من الصراف الآلي، ألم يجرِ الأمر على هذا النحو؟

لم يبدُ هذا التذكير لائقًا للبروفيسور. أخرج سيجارة وأشعلها، كما لو أن عمل ذلك دون استئذان أحد ما زال اليوم أمرًا عاديًا مثلما كان قبل أربعين عامًا. قدمتْ إليه لويسا منفضة على الفور، فتناولها بيده الأخرى. وبيديه المشغولتين، فتح ذراعيه كصليب تقريبًا وقال كخطيب متضايق من الرياء أو الحماقة:

- لقد حدث ذلك بطريقة مختلفة تمامًا. ليس لها أية علاقة بهذا الذي قلته.

- لماذا؟ لقد كنتَ في الشارع والشرير لم يحترمك.

قام البروفيسور بحركة تنازل من يده التي يمسك بها السيجارة، وحين فعل ذلك سقطت السيجارة من يده. نظر إليها على الأرض باستياء وفضول، كما لو أنها صرصور يتحرّك وليس من مسؤوليته، وينتظر أن يلتقطه أحدهم أو يقتله بالدوس عليه ويبعده بمقدم حذائه. وعندما لم ينحنِ أحد، مدّ يده إلى علبته كي يسحب سيجارة أخرى. لم يبدُ عليه الاهتمام بأنه يمكن للسيجارة التي سقطت أن تحرق خشب الأرضية، لا بد أنه من أولئك الرجال الذين لا وجود لما هو خطير في نظرهم،

ويفترضون دومًا أن هناك آخرين سيعيدون كل شيء إلى مكانه وإصلاح أي خلل. لا ينتظرون فعل ذلك كإيماءة راقية ولا بدافع التهور، وإنما فقط لأن عقلهم لا يسجّل الأمور العملية، أو أحوال العالم في محيطهم. كان ابنا لويسا قد أطلا عند سماعهما الجرس، وقد انسلّا الآن إلى الصالون كي يتأملا الزائرين. وكان الطفل هو من هرع لالتقاط السيجارة عن الأرض، وقبل أن يلمسها بادرت أمه إلى إطفائها في المنفضة التي استخدمتها سابقًا من أجل سجائرها التي لم تُستهلك أيضًا. أشعل ريكو السيجارة الثانية وردّ. لم يكن هو ولا دياث - باريلا مستعدين لقطع جدالهما، ووجودهما أمامنا كان أشبه بحضور عرض مسرحي، كما لو أن ممثِّلَين قد دخلا إلى المشهد وأنهما يتكلمان متجاهلين جمهور الصالة، وكأن واجبهما سيكون في مكان آخر.

- أولًا: كنتُ موليًا ظهري للشارع، أي أنني كنتُ بذلك الوضع غير الوقور الذي يجبرنا الصراف الآلي على اتخاذه، وهو ليس سوى الوقوف ووجهنا إلى الجدار، وبهذا كانت نظرتي الرادعة غير مرئية للمهاجم. ثانيًا: كنتُ مشغولًا بنقر ملامس الجهاز للرد بإجابات كثيرة على أسئلةِ الكثير من الكلام الفارغ. ثالثًا: في الرد على السؤال عن اللغة التي أريد التواصل بها مع الآلة، أجبت بأنها الإيطالية (إنها العادة المكتسبة من رحلاتي الكثيرة إلى إيطاليا، إذ إنني أمضي نصف حياتي هناك)، وكنت ساهيًا أستعيد في ذاكرتي الأخطاء الإملائية والنحوية الفاحشة التي تظهر على الشاشة، فقد قام بتلك البرمجة مهرّج بإيطالية رديئة. رابعًا: كنت قد أمضيت اليوم كله في الرقص مع أناس ولم يكن هنالك مفر من تناول بضع كؤوس متتالية في أمكنة مختلفة؛ وبالتالي لم يكن تأهّبي هو نفسه في تلك الظروف، وذلك الإنهاك مع شيء من النشوة. خامسًا: الوصول متأخّرًا إلى موعد، هو بحدّ ذاته موعد في وقت متأخّر، فكنت أفعل ذلك كله دون تركيز وباضطراب، مع الخشية من أن الشخص الذي ينتظرني بنفاد صبر قد يذهب من المكان الذي سنلتقي فيه، لا سيما أنني قد تكلّفت الكثير في إقناعه بأن يطيل سهره كي نلتقي على انفراد؛ وحذار، من أجل تبادل الحديث فقط. سادسًا: لهذا كلّه، فإن أول إشعار بأنهم سيهاجمونني هو ملاحظتي، بعد أن صارت أوراق النقد في يدي وليس في جيبي، ملامسة رأس سكين لظهري عند الفقرات القطنية، ضغط به المهاجم وتوصّل إلى إحداث وخزة ضئيلة: عندما خلعت ملابسي في آخر الليل في الفندق، وجدت قطرة دم هنا. هنا - وأزاح أذيال سترته، ولامس بسرعة مكانًا فوق الحزام، فعل ذلك بسرعة كبيرة لم يُتح معها لأحد من الحاضرين، دون شك، أن يحدّد بالضبط أين هو المكان -. من لم يجرّب الإحساس بتلك الوخزة الخفيفة، هنا أو في أي منطقة حيوية أخرى، مع الوعي بأنه لا حاجة سوى إلى قليل من الدفع كي يتوغّل رأس ذلك السكين في اللحم دون مقاومة، لم أستطع أن أعرف أن الشيء الوحيد الممكن حيال ذلك هو تسليم ما يطلبونه من أحدنا، أي شيء، وقد اكتفى ذلك الشخص بالقول: «هات هذا هنا». فيشعر أحدنا بتنميل عند أصل الفخذين، والمثير للفضول هو أن التنميل ينتشر من هناك إلى بقية الجسم. لكن المنشأ لا يكون في الموضع الذي يهدّدون فيه أحدنا، وإنما هنا. هنا - وأشار إلى حيث أصل الفخذين بالأصبع الوسطى في كلتا يديه معًا. ولحسن الحظ أنه لم يصل إلى حدّ ملامسة الموضع -. حذار: ليس في البيضات، بل في أصل الفخذين، ولا علاقة ما بين الموضعين، على الرغم من أن الناس يخطئون في هذا الشأن، ولذا يستخدمون تعبير «أوصلوني إلى هنا»، مع الإشارة إلى الحنجرة - ولامس حنجرته بسبابته والإبهام -، لأن التنميل يمتد إلى أعلى. حسنًا، مثلما يعرف الجميع منذ بدأت عجلة العالم الضعيفة بالدوران، يعتبر هذا العمل كمينًا أو هجمة غدر، لا

يمكن مواجهته، وهذا شرطه، لأن تجنّبه أو التمكّن من الدفاع عن النفس أمر مستحيل. لقد قلت ما جرى. أم تريدني أن أواصل التعداد؟ لأن مواصلة التعداد لن تكلّفني شيئًا، حتى العشرة على الأقل. - وحين رأى أن دياث - باريلا لم يردّ عليه، فكّر بأن الجدال قد سُوِّيَ وانتهى بإفحامه، فنظر عندئذ أول مرة في ما حوله وأمعن النظر إليّ، وإلى الطفلين، وإلى لويسا أيضًا بصورة عابرة، بالرغم من أنها كانت قد صافحته. لا بد من أنه لم يكن قد رآنا في الواقع بصورة مؤكّدة، لأنه لو كان قد رآنا لامتنع عن استخدام كلمة «بيضات»، على الأقل بسبب وجود الطفلين -. فلنر، على من يجب أن أتعرّف هنا؟ - أضاف باستهتار.

انتبهتُ إلى أن دياث - باريلا قد صمت وأبدى ملامح جدّية للسبب نفسه الذي جعل لويسا تخطو ثلاث خطوات لتصل إلى الصوفا، وكان عليها أن تجلس دون أن تدعو قبل ذلك الرجلين إلى الجلوس، كما لو أن ساقيها قد تراختا ولم تعد قادرة على الوقوف حقًّا. فمن الضحكة العفوية التي أطلقتها قبل لحظات، انتقلت إلى ملامح الحزن، والنظرة العكرة والبشرة الشاحبة. أجل، لا بد من أن تكون آلية بسيطة جدًا. رفعت يدها إلى جبينها وأخفضت عينيها، خشيتُ أن تبدأ بالبكاء. لا مبرر لأن يعرف الدكتور ريكو ما الذي جرى لها منذ بضعة شهور، وكيف قوَّضت حياتها سكين انغرس حتى الشبع، ربما لا يكون صديقها قد أخبره - ولكن ذلك غريب، فنكبات الآخرين تُروى دون الشعور بذلك تقريبًا -، أو أنه فعل ذلك ونسي هو نفسه الأمر: تقول شهرته (وهي واسعة) أنه يميل إلى استبقاء المعلومات القديمة وحدها، ومعلومات القرون الماضية التي هو مرجع عالمي بها، وسماع ما هو حديث العهد بكثير من التساهل وعدم الانتباه. فهو يهتم بأي جريمة، أو حدث من العصور الوسطى أو العصر الذهبي، أكثر من اهتمامه بما حدث أول أمس.

اقترب دياث - باريلا من لويسا باهتمام، أمسك يديها بين يديه وهمس لها:

- كفى، كفى، لم يحدث أي شيء. إنني آسف حقًّا. لم أنتبه كيف جرى التحوّل إلى تلك الحماقة. - وبدا لي أنني لاحظت أن لديه ميلًا إلى مداعبة وجهها، مثلما يحدث عند مواساة مخلوقة يكون أحدنا مستعدًا لأن يقدم لها حياته؛ ومع ذلك كبح ميله. ولكن مثلما كان همسه مسموعًا لي، كذلك كان همس البروفيسور.

- ماذا جرى؟ ماذا قلتُ؟ أبسبب كلمة «بيضات»؟ يبدو أنكم متكلّفون جدًا هنا. كان يمكن لي أن أستخدم كلمة أسوأ، فكلمة «بيضات» في نهاية المطاف كلمة ملطّفة. عامية وتصويرية وشائعة الاستعمال جدًا، أعترف بهذا، ولكنها تظلّ كلمة ملطفة.

- ما معنى «متكلُّفون»؟ وما هي البيضات؟ - سأل الطفل الذي لم تفته الإيماءة التي أشار بها البروفيسور إلى أصل الفخذين. ولحسن الحظ أن أحدًا لم يلتفت إليه ولم يُجب على سؤاله.

استعادت لويسا السيطرة على نفسها فورًا وانتبهت إلى أنها لم تقدّمني إليهما بعد. لم تتذكر كنيتي بالفعل، لأنها ذكرت اسمَي الرجلين كاملين (البروفيسور فرانثيسكو ريكو؛ خابيير دياث - باريلا)، أما أنا فقدمتني مثلما يُقدَّم الأطفال، باسمي الأول وحده، ثم أضافت إليه بعد ذلك لقبي على سبيل التعويض («صديقتي الجديدة ماريا؛ كنت أنا وميغيل نسمّيها الشابة الرصينة عندما كنا نراها كل يوم تقريبًا في موعد تناول الفطور، ولكننا لم نكن قد تبادلنا الحديث حتى الآن»). قدّرتُ أن

الفرصة مواتية لإصلاح نسيانها («ماريا دولث»، قلتُ محدِّدة). لا بد من أن ذلك المدعو خابيير هو من كانت قد ذكرته قبل قليل، مشيرة إليه على أنه «أحد أفضل أصدقاء ميغيل». لكنه على أي حال الرجل الذي رأيته في الصباح وراء مقود سيارة ديفيريني، الذي أخذ الطفلين من الكافتريا لإيصالهما حسب ما هو متوقّع إلى المدرسة، في وقت متأخّر قليلًا عمّا هو معهود. وبالتالي لم يكن السائق، مثلما ظننت. ربما تكون لويسا قد تخيّلت أنها مضطرة إلى الاستغناء عن السائق، فعندما يصير المرء أرمل يقلّص نفقاته بادئ ذي بدء، كفعل انعكاسي للانكماش على الذات أو التخلي، حتى ولو ورث ثروة كبيرة. لم تكن تدري في أي وضع اقتصادي صارت الآن، تتوقّع أنها في وضع جيّد، ولكن من المحتمل أن تشعر بأنها في وضع مزعزع وغير ّ حتى لو لم تكن كذلك بأي حال، فالعالم بأسره يبدو أنه يتزعزع بعد ميتٍ مهم، لا شيء يبدو متينًا أو راسخًا، والقريب الأشد تأثّرًا يميل إلى التساؤل: «لماذا هذا الأمر ولماذا ذاك الآخر، لماذا النقود، لماذا البيت والمكتبة، لماذا الخروج والعمل ووضع المشاريع، لماذا إنجاب أبناء ولماذا لا شيء. لا شيء يستمر ما يكفي لأن كل شيء ينتهي، وما إن ينتهي حتى يتبيّن أنه لم يكن كافيًا قطّ، حتى لو دام مئة عام. فميغيل لم يدم لي سوى سنوات قليلة، لماذا يجب أن يستمر لا شيء مما خلفه وراءه وسيعيش بعده. لا المال ولا البيت ولا أنا ولا الطفلين. إننا جميعنا في حفرة ومهدَّدون». وهنالك أيضًا اندفاعة: «أريد أن أكون حيث هو موجود، والجو الوحيد الذي أشعر فيه بأننا نتوافق معًا هو الماضي، عدم الوجود الذي كان موجودًا مع ذلك. لقد صار هو ماضيًا أما أنا فما زلت حاضرًا. لو أنني ماضٍ لكنت تماثلت معه في شيء على الأقل، فشيء ما هو شيء، ولما كنت في ظروف الشعور بالشوق إليه وعدم تذكّره. ولكنت بمستواه نفسه في هذا الشأن، أو في البُعد نفسه، أو في زمنه، ولما ظللتُ في هذا العالم غير المستقر الذي ينتزع منا العادات. لا شيء أكثر ينتزعه منا إذا ما انتزعنا من المكان. لا شيء ينهينا إذا كان أحدنا قد انتهى».

كان ذلك المدعو خابيير دياث - باريلا رجلًا شديد الرجولة، حسن المظهر. وعلى الرغم من حرصه على حلاقة ذقنه، إلا أن أثرًا من الشعر يظلّ ملحوظًا، أشبه بظلٍ يميل قليلًا إلى الزرقة، لا سيما عند أسفل الذقن الغائر كذقن بطل في قصة رسوم كوميك (فحسب الزاوية التي يُرى منها وكيفية تلقّيه الضوء، يظهر أسفل الذقن غائرًا أو لا يظهر). على صدره شعر، يُرى قليلًا من خلال القميص الذي يظل زره العلوي مُفلَتًا، وهو لا يضع ربطة عنق. ديسفيرن كان يضع ربطة عنق على الدوام، صديقه أكثر منه شبابًا بقليل. تقاطيعه حساسة، مع عينين مشقوقتين بتعبير أحسر أو حالم، ورموش طويلة وفم لحميّ ممتلئ ومرسوم باتقان، إلى حد تبدو معه شفتاه كأنهما شفتا امرأة مزروعتان في وجه رجل، ومن الصعب عدم التدقيق بهما، أعني إشاحة النظر عنهما، فهما أشبه بمغناطيس جاذب للنظر، سواء عندما تتكلّمان أو عندما تصمتان. تبعثان على الرغبة في تقبيلهما، أو لمسهما، المرور بالإصبع على خطوطهما المحدّدة بدقة متناهية، كما لو أنهما قد رُسمتا بقلم دقيق جدًا، وبعد ذلك المرور بطرف الإصبع وتلمّس الجزء الأحمر المشدود والليّن في الآن نفسه. إنه يبدو رصينًا كذلك، يترك البروفيسور ريكو يتكلّم بإسهاب على هواه دون أن يحاول التغطية عليه ولو بأدنى قدر ممكن (ولن يكون ذلك ممكنًا). إنه يتمتّع دون ريب بحسّ سخرية، لأنه عرف كيف يجاريه بفعالية، حين منحه فرصة للظهور أمام غرباء، أو غريبات بكلمة أدق، ويُلاحظ على الفور أن البروفيسور رجل متغنّج، ممن يرمون شِباكًا نظرية على النساء في جميع الظروف تقريبًا. وما أعنيه بكونها نظرية هو أنها تخلو من أية نية عملية حقيقية، وليست موجهة لاستمالة أحد حقًا أو بصورة جدية (لا أنا ولا لويسا على أي حال)، وإنما لاستثارة الفضول حول شخصيته، أو للإبهار إن كان ممكنًا، بالرغم من أنه لن يعود أبدًا لرؤية المنبهرين ثانية. كان دياث - باريلا يستمتع بزهوه الرجولي ويسمح للبروفيسور بالتوسع أو يحثّه عليه، كمن لا يخشى المنافسة أو أن له هدفًا محددًا جدًّا يتلهّف إليه، وليس لديه شك في أنه سيتوصّل إليه عاجلًا أو آجلًا، بالرغم من كل الاحتمالات الطارئة أو التهديدات.

لم أظل هناك لوقت أطول بكثير مما يجب، لم أكن أخطط لشيء وسط ذلك اللقاء غير المتوقّع في ما يخص ريكو، وربما هو مألوف في حالة دياث - باريلا، إذ إنه يعطي الانطباع بأن حضوره مألوف أو شبه دائم في ذلك البيت أو تلك الحياة، حياة لويسا الأرملة. إنها المرة الثانية التي يظهر في اليوم نفسه، حسب علمي، ولا بد أن هذا يحدث كل يوم تقريبًا، لأنه حين وصل مع ريكو حيَّاه الطفلان بتلقائية مفرطة تُقارب عدم المبالاة، كما لو أن زيارته عند الغروب («وقت مجيء غير متوقَّع») هي أمر عادي ومفروغ منه. وكانا قد رأياه بالطبع أيضًا في ذلك الصباح، وذهبوا ثلاثتهم معًا في مشوار قصير بالسيارة. يبدو أنه أكثر من يهتم بشؤون لويسا، أكثر من عائلتها، فأنا أعرف أن لها أخًا على الأقل، وقد ذَكرَتْهُ في الجملة نفسها التي ذكرتْ فيها خابيير والمحامي. أشبه بأخ ظهر فجأة أو أخ مستعار، هكذا بدا لي أن لويسا تراه، شخص يذهب ويجيء ويدخل ويخرج، شخص يمد يده إلى الصغيرين أو إلى أي شيء آخر عند ظهور أمر طارئ،؛ شخص يمكن الاعتماد عليه في أي وقت تقريبًا، أو دون سؤاله مسبقًا، ويمكن طلب النصح منه حيال أي تردّد كما في تصرّف انعكاسي، يقوم بالمرافقة دون أن يُلاحَظ وجوده تقريبًا، لا هو ولا من يأتي برفقته، إذ يأتي دومًا ويقدّم من هو معه بصورة تلقائية ومجانية، شخص ليس بحاجة لأن يتّصل مسبقًا من أجل أن يأتي، وينتهي به الأمر،

بطريقة تدريجية، ومن غير قصد، إلى تقاسم المكان كلّه والتحوّل إلى شخص لا يمكن الاستغناء عنه. شخص موجود دون الحاجة إلى إيلاء أي اهتمام لوجوده، وشخص يُشتاق إليه، دون قول ذلك، إذا ما انسحب أو اختفى. هذا الأمر الأخير يمكن أن يحدث مع دياث - باريلا في أي لحظة، لأنه ليس أخًا غير مشروط ومخلص لن يبتعد أبدًا بصورة كاملة، وإنما هو صديق للزوج المتوفّى والصداقة غير قابلة للتحويل من شخص إلى آخر. ربما يمكن أن تُنتحل. ربما هو أحد أصدقاء الروح الذين يُعهد إليهم أو يُطلب منهم ذات يوم، في لحظة ضعف أو هاجس قاتم طلبًا من نوع:

«إذا ما حدث لي ذات يوم مكروه ولم أعد موجودًا - يمكن أن يكون قد قالها ديفيرني ذات يوم -، هل يمكنني الاعتماد عليك للاهتمام بلويسا والطفلين».

«ما الذي تريد قوله؟ ماذا تعني؟ هل أصابك شيء؟ ما سبب هذا الكلام؟ أنت لا تعاني من أي شيء، أليس كذلك؟»، سيكون دياث - باريلا قد ردّ عليه بمفاجأة وقلق.

«لا، لستُ أحتاط لحدوث شيء لي، إنني بصحة جيدة وأموري كلها على ما يرام. كل ما هنالك أننا نحن الذين نفكّر بالموت، ونتوقّف لمراقبة التأثير الذي يُحدثه في الأحياء، لا يمكننا تجنّب التساؤل بين حين وآخر: ما الذي سيحدث بعد موتنا، في أي حال سيظلّ الأشخاص الذين نعني لهم الكثير، إلى أي مدى سيؤثّر عليهم ذلك. لست أتحدّث عن الوضع المادي، فهذا أمر مرتَّب إلى هذا الحدّ أو ذاك، وإنما أتحدّث عن بقية الأمور. يخيَّل إليّ أن الطفلين سيمران بظروف سيئة لفترة من الوقت، وستظل ذكراي في ذاكرة ابنتي كارولينا مدى الحياة، وسوف تزداد الذكرى غموضًا وتشوشًا في كل مرة، ولهذا السبب نفسه ستكون قادرة على تحويلي إلى فكرة مثالية، لأن أحدنا يستطيع أن يفعل ما يشاء بما هو غامض ومشوَّش، والتحكّم به على هواه، يحوّله إلى الفردوس المفقود، إلى الزمن السعيد الذي كان فيه كل شيء في مكانه ولم يكن هنالك من ينقصه أي شيء. ولكنها ما زالت صغيرة في نهاية المطاف، ولسوف تتمكّن من التخلّص من ذلك ذات يوم، والاندفاع قُدمًا في حياتها وخلق ألف وهم... أوهام مناسبة لكلّ مرحلة من الحياة. ستكون فتاة عادية، مع أثر من الكآبة بين حين وآخر. وسيكون عليها أن تلوذ بذكراي كلما أحست باستياء أو خرجت الأمور معها على غير ما يرام، ولكن هذا هو ما نفعله جميعنا، بهذا القدر أو ذاك، البحث عن ملاذٍ في ما وُجد يومًا ولم يعد موجودًا. ولسوف يساعدها على أي حال وجود أحد حقيقي وحَيّ يحتلّ مكاني، بقدر ما هو ذلك ممكن، أحد يستجيب لها. أن تكون هنالك صورة أبوية قريبة منها، تراها بكثرة وتكون معتادة عليها. لستُ أرى أحدًا قادرًا أكثر منك على تولّي هذا الدور البديل. أما نيكولاس فقلقي عليه أقل: سوف ينساني بكل تأكيد، إنه صغير جدًا. ولكن سيكون مناسبًا له أيضًا أن تكون متأهبًا دومًا لحل مشكلاته، فطبعه سيجلب له بعض المشاكل، أو ما يكفي منها. ولكن لويسا ستكون أشدهم تشوّشًا وخذلانًا. سيكون بإمكانها الزواج ثانية بالطبع، ولكنني لا أرى أن عمل ذلك سيكون ممكنًا جدًّا، ولن يكون سريعًا بكل تأكيد، وكلما كانت أقل شبابًا سيكون عمل ذلك أكثر صعوبة. ويخيل إليّ بصورة خاصة، أنه بعد تجاوز حالة اليأس الأوّلي، وانقضاء فترة الحداد، وهذان أمران يستمرّان طويلًا، سوف يسبب لها طول الوقت تكاسلًا غير متناهٍ. وأنت تعلم ذلك: التعرّف على أحد جديد، ورواية قصة حياتها له، حتى لو اقتصرت على خطوط عريضة، والقبول بالمغازلة أو وضع نفسها في مرماها، والحثّ عليها، وإبداء اهتمام بها، وإظهار أفضل وجه ممكن، وشرح كيف هو أحدهما،

وسماع كيف هو الآخر، والتغلّب على الغيرة، والاعتياد على أحدهم وأن يعتاد ذلك الأحد على الآخر، وتجاهل ما هو غير مستحب. كل هذا سيسبب لها الضجر، ومن لن يضجر من ذلك كله إذا ما أمعنا النظر في الأمر. التقدّم خطوة، وبعد ذلك خطوة أخرى، وأخرى. هذا مُتعب جدًا، ولا مفرّ من أنه يتضمّن شيئًا من التكرار والتجريب؛ بالنسبة لي، لا أرغب في ذلك وأنا في هذه السن. يبدو أن لا، ولكن لا بد من خطوات كثيرة من أجل العودة للاستقرار. أجد صعوبة في تصور ذلك بأدنى ما يمكن من الفضول أو الوهم، فهي ليست قلقة ولا صعبة الاسترضاء. أعني لو أنها كانت كذلك، فبعد بعض الوقت من فقدانها إياي يمكن لها أن تبدأ برؤية فائدة ما أو تعويضًا عن الفقدان. دون أن تتعرّف إلى ذلك التعويض، طبعًا، ولكنها تراه. وضع حدّ لقصة والعودة إلى بداية جديدة، مهما تكن. وإذا وجد المرء نفسه مجبرًا، فلن يكون ذلك على المدى البعيد مريرًا. حتى لو كان الشخص سعيدًا بما انتهى إليه. لقد عرفتُ رجالًا ونساء مترمّلين ومحزونين بلا عزاء، اعتقدوا لوقت طويل بأنهم لا يستطيعون رفع رأسهم مجدّدًا على الإطلاق. ولكنهم في ما بعد، عندما استعادوا كيانهم ووجدوا قرينًا آخر، صار لديهم إحساس بأن هذا الأخير هو القرين الحقيقي والجيد، وصاروا يشعرون بالسعادة في أعماقهم لأن القديم قد اختفى. ولأنه ترك الميدان خاليًا لما شيّداه الآن. إنها قوة الحاضر الرهيبة التي تحطم الماضي أكثر فأكثر كلما أستبعدته أكثر، كما أنها تزيفه دون أن يتمكّن الماضي من فتح فمه، أو الاحتجاج، ودون أن يتمكّن من معارضة أي شيء أو دحضه. ولسنا نتحدّث عن أولئك الأزواج أو الزوجات الذين لا يتجرأون على مغادرة الحياة الزوجية أو لا يعرفون كيف يفعلون ذلك، أو يخشون التسبّب للقرين بضرر كبير: هؤلاء يتمنّون في سرّهم موت الآخر، يفضّلون موته على مواجهة المشكلة ووضع علاج عقلاني لها. أمر سخيف، ولكنه موجود على هذا النحو: فليس الأمر في أنهم لا يرغبون في أعماقهم التسبّب له بأي أذى، ويحاولون حمايته منها جميعها بتضحيتهم الشخصية وصمتهم الاضطراري (لأنهم في الواقع يرغبون فيه فور غيابه عن النظر، بطريقة لا رجعة عنها)، إلا أنهم غير مستعدّين لأن يسببوا له الأذى بأنفسهم، لا يريدون الشعور بمسؤولية التسبّب في عدم سعادة أحد، حتى لو كانوا من يعذّبونهم بمجرد وجودهم القريب، بالرابط الذي يربطهم مع أنه يمكن لهم قَطع ذلك الرابط لو أنهم شجعان. ولكن، بما أنهم ليسوا كذلك، فإنهم يتخيّلون أو يحلمون بشيء جذريٍّ جدًّا مثل موت الآخر. «سيكون حلًّا سهلًا أو راحة هائلة»، يفكّرون، «أنا لا علاقة لي بذلك، لن أسبب له أي ألم ولا أي حزن، لن يعاني بسببي، أو لن تعاني، سيكون حادثًا، مرضًا سريعًا، كارثة لا يكون لي فيها أي دور أو تأثير؛ بل على العكس، سأكون ضحية مستفيدة. وسأصبح حرًّا». ولكن لويسا ليست من هؤلاء. إنها مستتبة تمامًا، مستقرة في زواجنا، ولا تتصوّر طريقة أخرى في الحياة غير التي اختارتها وتمتلكها. تتلهّف فقط للشيء نفسه، دون أي تغيير. يوم مطابق بعد آخر، دون نقصان أو زيادة. وهي مستغرقة في هذا إلى حدّ أنه لا يخطر لذهنها أبدًا هذا الذي يخطر لي، أعني احتمال موتي أو موتها، فهذا الأمر بالنسبة إليها ليس في الأفق، ولا متّسع له. وموتها كذلك ليس في الأفق، ولا مكان له في نظري، أجد صعوبة كبيرة في تصوّر ذلك ولا أكاد أقدّره. أما موتي، فبلى، بين حين وآخر تأتيني نفحات موحية، فكل واحد منا يأتيه إحساس بأنه سهل المنال، وقابل للعطب ولا يشعر بذلك تجاه الآخرين، مهما كانوا أعزّاء. لستُ أدري، لا أعرف كيف أقول لك ذلك، هنالك أوقات أرى فيها العالم من دوني بسهولة كبيرة. ولهذا، إذا ما أصابني شيء ذات يوم يا خابيير، إذا ما حدث لي شيء نهائي، فسوف تكون البديل بالنسبة إليها. أجل، الكلمة براغماتية ومشينة، ولكنها الكلمة المناسبة. افهمني جيّدًا، لا

ترتعب. لا أطلب منك أن تتزوجها ولا شيء من هذا الكلام، بكلّ تأكيد. أنت لك حياتك كعازب ونساؤك الكثيرات اللاتي لن تتخلى عنهن مقابل أي شيء، وأقل من ذلك من أجل تقديم جميل لصديق بعد موته، وليس بإمكانه محاسبتك أو توجيه أي كلمة إليك، وسيكون صامتًا بلا احتجاج. ولكن أرجوك، ابقَ قريبًا منها إذا ما غبتُ عن الحياة ذات يوم. لا تبتعد بسبب غيابي بل على العكس تمامًا: رافقها، امنحها الدعم والأحاديث والعزاء، تعال لرؤيتها لبعض الوقت يوميًا واتصل بها كلما استطعت دون حاجة إلى أعذار، افعل ذلك كأمر طبيعي. كن كنوع من الزوج دون أن تكون كذلك، امتدادًا لي. لا أظن أن لويسا ستتمكّن من المضي قُدمًا دون مرجعية يومية، ودون أحد تشاركه أفكارها وتروي له حوادث يومها، دون بديل لما تجده فيَّ الآن، في أحد المظاهر على الأقل. إنها تعرفك منذ بعض الوقت، ومعك لن يكون عليها التغلّب على صدودها مثلما ستكون عليه الحال مع أي شخص مجهول آخر. بل يمكن لك أن تروي لها مغامراتك وتسلّيها بذلك، وتتيح لها أن تعيش انفعالات ما يبدو لها أنها لن تعود لتعيشه أبدًا بنفسها. أعرف أن ما أطلبه منك كثير، وأنه لا منفعة كبيرة لك فيه، مجرّد عبء وحسب. ولكن يمكن للويسا أيضًا أن تحلّ محلي جزئيًا، وأن تكون بدورها امتدادًا لي، في ما يتعلق بك. فكل شخص يكون في العادة امتدادًا لأكثر المقرَّبين منه، وهؤلاء يتعارفون ويلتقون من خلال الميت، كما لو أن اتصالهم السابق معه يجعلهم ينتمون إلى أخوية أو إلى سلالة. هذا يعني أنك لن تفقدني بالكامل، وأنك ستحتفظ بي قليلًا من خلالها. فأنت محاط جدًّا بنسائك المتنوّعات، ولكن ليس لديك أصدقاء أيضًا. لا تظنّ بأنك لن تشتاق إليّ. ثم إننا، هي وأنا، نتمتّع بحس السخرية نفسه، مثلًا. إنها سنوات طويلة من تبادلنا المزاح يوميًا».

انفجر دياث - باريلا بالضحك، ربما للتقليل من فظاعة إيقاع صوت صديقه، ولأن طلبه أيضًا بدا له ظرافة غير إرادية، شديدة الغرابة وغير متوقّعة.

«أتطلب مني أن أحل محلك في حال موتك»، كان يمكن له أن يردّ عليه، بنبرة وسطية ما بين التأكيد والتساؤل. «تريد أن تحوّلني إلى زوج مزيَّف للويسا وإلى أب على مسافة معينة؟ لا أدري كيف خطر لك هذا، أعني قولك عن أنه يمكن لك أن تغيب عن حيواتهم قريبًا، فإذا كنت بصحة جيدة، كما تقول، وليس ثمة سبب حقيقي للخشية من حدوث أي شيء. أأنت متأكد من أنك لا تعاني شيئًا؟ لستَ مصابًا بأي مرض. ولست متورطًا في مشكلة لا علم لي بها. وأنك لم تُحمّل نفسك ديونًا لا يمكنك تسديدها أو لا يمكن دفع أموال مقابلها. لم يهدّدك أحد. أتراك تفكر في الاختفاء لحسابك الشخصي، في مغادرتك بنفسك».

«لا، أقول الحقيقة. لست أخفي عنك شيئًا. الأمر هو ما قلته لك، إنني أتخيل العالم أحيانًا دون وجودي فيه فتداخلني مخاوف... على الطفلين وعلى لويسا، ولا أحد سواهم. تجاهل الأمر، لستُ مهتمًا بنفسي. أريد أن أكون متأكّدًا فقط من أنك ستهتم بهم، في الفترات الأولى على الأقل. بأن يكون لديهم من هو أكثر شبهًا بي ليستندوا إليه. وسواء أأعجبك هذا أم لم يعجبك، عرفته أو لم تعرفه، فأنت أكثر شخص شبيه بي. ولو كان ذلك بسبب طول زمن تعاملنا معًا».

ظل دياث - باريلا ساهمًا هنيهة، وربما كان بعد ذلك شبه صريح، ليس تمامًا بكل تأكيد:

«ولكن، أتدرك إلى أين تلقي بي؟ أتدرك كم هو صعب التحوّل إلى زوج مزيّف دون الانتقال إلى أن أكون حقيقيًا على المدى الطويل؟ ففي وضع كالذي وصفته، سيكون من السهل جدًا على الأرملة والعازب أن يعتقدا سريعًا أنهما أكثر مما هما عليه، ويكونان على حق. ضع شخصًا على علاقة يومية بأحدهم، واجعله يشعر بأنه مسؤول وحامٍ وأنه سيكون ضروريًا ولا غنى عنه للآخر، وسوف ترى كيف سينتهيان. لا سيما إذا كانا نصف جذّابين ولا وجود لفارق كبير في السن بينهما. لويسا جذّابة جدًا، ولست أكشف لك سرًا بهذا، وأنا لا يمكن لي الشكوى مما كانت عليه علاقتي مع النساء. لا أظن بأنني سأتزوّج أبدًا، فهذا ما لا أريده. ولكن إذا ما متَّ أنت ذات يوم وصرت أنا أذهب كل يوم إلى بيتك، فسيكون من الصعب ألا يحدث ما لا يجب حدوثه أبدًا طالما أنت حي. أتريد أن تموت وأنت تعرف هذا؟ بل أكثر من ذلك: أتراك تدبّر الأمر وترعاه، وتدفع إليه؟».

ظل ديسفيرن صامتًا بضع ثوانٍ، مستغرقًا في التأمل، كما لو أنه لم يأخذ في الاعتبار وجهة النظر تلك قبل أن يصوغ رغبته. وكان يمكن له أن يضحك بعد ذلك قليلًا بأبويَّة وأن يقول:

«أنت لا صلاح لك من اعتدادك بنفسك، ومن تفاؤلك. ولكن هذا قد يكون دعامة جيدة، سندًا جيدًا. لا أظن أنه سيحدث. والسبب بالضبط أنك مألوف جدًا لديها، أشبه بابن عم، وسيكون من المحال النظر إليه بعينين أخريين»، وهنا تردّد قليلًا، أم إنه فعل ذلك متصنّعًا، «بعينين مختلفتين عن عينيَّ. رؤيتها لك تأتي مني، إنها موروثة، وهي باطلة. أنت صديق قديم لزوجها، سمعتني أتكلّم عنك مرات كثيرة، يمكنك أن تتصوّر ذلك، وبكثير من المودّة والمزاح. قبل أن تتعرّف لويسا عليك، كنت قد أخبرتها كيف أنت، رسمتُ لها لوحتك. وقد رأتكَ على الدوام بذلك الضوء وبتلك الملامح، لم يعد بإمكانها تبديلها، لقد تشكّلت لديها صورة نهائية لك، وقد أُعرِّف كلًا منكما على الآخر. حسنًا، لن أخفي عليك أن مشاكلك تُضحكنا، وكيف أسمي ذلك، تباهيك. أخشى أنك لست بالشخص الذي يمكن لها أن تأخذك على محمل الجد. أنا واثق من أن قولي هذا لا يسبب لك الإزعاج. هذه إحدى فضائلك، وهو فوق ذلك ما كنتَ تبحث عنه على الدوام، ألّا تؤخذ على محمل الجدّ. ولا يمكنك أن تنكر هذا الآن».

قد يكون ديات - باريلا قد شعر بالانزعاج، هذا محتمل، ولكنه أخفى ذلك. فلا أحد يروق له أن يخبروه بأنّه لا قدرة له على الوصول إلى أحدهم، حتى لو كان هذا الشخص لا يستثير اهتمامه ولم يكن قد خطط للوصول إليه. كثير من الغوايات تحقّقت، أو أنها بدأت على الأقل، بسبب غيظٍ أو تحدٍّ، من أجل ذلك فقط، بسبب رهان أو لدحض ادعاء. أما الاهتمام فيأتي في ما بعد. يأتي عادة في هذه المناسبات، تستحثّه المناورات والمسعى نفسه. ولكنه ليس موجودًا في البدء، أو أنه لم يكن موجودًا بأي حال قبل الجدال أو التحدّي. ربما تمنّى ديات - باريلا في تلك اللحظة أن يموت ديفيرني كي يثبت له أنه يمكن للويسا أن تأخذه على محمل الجد عندما لا يكون هناك وسطاء. أجل بالطبع، كيف يمكن إثبات شيء لشخص ميت؟ كيف يمكن الحصول على مصادقته، على اعترافه؟ إنهم لا يمنحوننا أبدًا الحق الذي نحتاج إليه، ولا متسع أمامنا سوى التفكير: «لو أن هذا الميت يرفع رأسه». ولكنْ، أيٌّ منهم لا يرفعه. سيثبت ذلك للويسا التي يمتد ديسفيرن فيها أو يستمر بالعيش فيها لبعض الوقت، هذا ما قاله زوجها. ربما يكون الأمر كذلك، ربما يكون على صواب. إلى أن يكنّسه هو. إلى أن يكنّس ذكراه وأثره ويحل محله.

«لا، لن أنكر عليك ذلك، وهو لا يزعجني بالطبع. لكن طرائق النظر تتبدّل كثيرًا، ولا سيما إذا كان من رسم الصورة لم يعد قادرًا على مواصلة وضع لمسات أخيرة عليها والصورة ظلّت بين يدي الشخص المرسوم. يمكن لهذا أن يُعَدِّل ويُكَذِّب جميع خطوط اللوحة، واحدًا فواحدًا، جاعلًا بذلك من الفنّان الأول مجرّد مخادع أو مخطئ، أو مجرّد فنان سيئ، سطحي وبلا رؤيا. «يا للفكرة الضالّة التي قادني إلى امتلاكها»، يمكن لمن يتأملها أن يفكّر. «هذا الرجل ليس مثلما وصفوه، وإنما هو يمتلك وزنًا، وعاطفة، وهوية، وقناعة» هذا يحدث يوميًا يا ميغيل، وبصورة متواصلة. الناس يبدؤون برؤية شيء ما وينتهي بهم الأمر إلى رؤية عكسه. يبدؤون بالحب وينتهون إلى البغضاء والكراهية، أو بالشعور بعدم المبالاة وبعد ذلك بالعبادة. لا نتمكّن أبدًا من التأكد مما سيكون حيويًا لنا ولا لمن سنولي الأهمية. قناعاتنا عابرة وواهنة، حتى تلك التي نعتبرها أكثر رسوخًا وقوة. وكذلك مشاعرنا. يجب علينا عدم الشعور بالثقة».

لا بد أن ديفيرني قد لمس شيئًا من ذلك الكبرياء الجريح، ومرَّ عليه مرور الكرام.

«حتى في هذه الحال»، سيكون قد قال: «إذا كنتُ لا أعتقد بأن ذلك ممكن الحدوث، فما أهمية أن يحدث أخيرًا بعد موتي. فأنا لن أعلم به. وسأكون قد مت مقتنعًا بعدم إمكانية قيام مثل هذا الرابط بينكَ وبينها، فما يتوقّعه أحدنا هو ما يراه، وما يعيشه في اللحظة الأخيرة هو نهاية التاريخ، نهاية القصة الخاصة. أحدنا يعرف أن كل شيء سيتواصل من دونه، وأن لا شيء سيتوقف لأن أحدهم قد اختفى. ولكن هذا الأحدهم لا يتأثّر به. فما هو جوهري أن أحدنا سيتوقّف، وسيتوقّف كل شيء نتيجة لذلك، العالم سيتوقّف مثلما هو في لحظة نهاية من ينتهي. حتى لو لم يكن الأمر كذلك عمليًا. ولكن «عمليًا» هذه لا يعود لها أهمية. إنها اللحظة الوحيدة التي ليس لها مستقبل، والتي يبدو لنا الحاضر فيها ثابتًا وأبديًا، لأننا لن نشهد أي حدث إضافي ولا أي تبدل. كان هناك أناس حاولوا السبق إلى نشر كتاب كي يتمكّن آباؤهم من رؤيته مطبوعًا ويُودّعون محملين بفكرة أن ابنهم كان كاتبًا يفي بوعده، وما أهمية ألا يعود بعد ذلك إلى كتابة ولو سطر واحد. وكانت هنالك محاولات يائسة لمصالحة لحظية بين شخصين كي يظن محتضرٌ أن السلام قد استتب بينهما وأن كل شيء قد أُصلح وانتظم، وما أهمية أن يعود المتخاصمان إلى تقاذف قطع الأثاث القديم كل منهما على رأس الآخر بعد يومين من وفاته، ما يبقى أو ما كان قبل لحظة الوفاة بالضبط. هنالك من تظاهر بأنه قد سامح محتضرًا كي يغادر هذا الأخير بسلام، أو بطمأنينة أكبر، وما أهمية أن يقوم المُسَامح في صباح اليوم التالي بالتمنّي في أعماق نفسه أن يتعفّن ذلك الشخص في الجحيم. هنالك من كذّبوا كمجانين أمام فراش الزوجة أو الزوج وأقنعوه بأنهم لم يرتكبوا أي خيانة قطّ، وأنّهم أحبّوه دون أي شرخ وبثبات، وما أهمية أن يكونوا بعد مرور شهر قد انتقلوا للعيش مع العشيق القديم. الشيء الحقيقي الوحيد، والنهائي كذلك، هو ما يراه أو يصدقه المحتضر قبل رحيله مباشرة، لأنه لن يكون لديه مزيد من القصة. هنالك فرق بين ما فكر فيه موسوليني الذي أُعدم على يد أعدائه، وما فكر فيه فرانكو وهو يموت في فراشه، محاطًا بأعزائه المحبّين ومعبود من مواطنيه، مهما يكن ما يقوله المنافقون الآن. أنا سمعت جدّي يقول إن فرانكو كان يحتفظ في مكتبه بصورة لموسوليني معلّقًا بالمقلوب مثل خنزير في محطة الوقود بميلانو، حيث أخذوه ليعرضوا جثته وجثة عشيقته كلارا بيتاتشي ويسخروا منهما، وإذا ما ظل بعض زائريه ينظرون إلى الصورة متفاجئين أو مرتبكين، يقول لهم: «أجل، أترى: أنا لن أخرج بهذه الحال أبدًا». وقد كان على حق، وسعى إلى أن

يكون كذلك. لقد مات سعيدًا دون شك، ضمن ما هو معقول، ومع فكرة أن كل شيء سيستمر مثلما قرره هو نفسه. كثيرون يواسون أنفسهم من هذا الظلم الفادح، أو من غضبهم، ويفكّرون بعد ذلك: «إذا ما رفع رأسه»، أو «لا بد أنه يتقلّب في قبره للطريقة التي جرت بها الأمور»، دون أن يتقبّلوا تمامًا أن لا أحد يرفع رأسه أبدًا ولا يتقلّب في قبره ولا يدري شيئًا مما يحدث بعد أن يلفظ النفس الأخير. لأن هذا أشبه بالتفكير، إلى هذا الحد أو ذاك، بأنه يمكن لمن لم يولد بعد أن يهتم بما يحدث في العالم. فمن لم يوجد بعد لا يعنيه أي شيء، مثلما هو بالضرورة حال مَنْ مات. فكلٌّ من هذين الاثنين هو لا شيء، ولا يملك أي منهما وعيًا، أوَّلهما غير قادر على أن يستشعر حياته بصورة مسبقة، والثاني غير قادر على تذكرها، كما لو أنه لم يمتلكها ويعشها. إنهما في المستوى نفسه، هذا يعني أنهما غير موجودين وغير عارفين، حتى لو وجدنا صعوبة في تقبل ذلك. ما الذي يهمني من كل ما سيحدث بعد أن أكون قد غادرت. ما يُحسب فقط هو ما أعتقده الآن وما أدركه. أظن أن أمور أبنيَّ ستكون أفضل إذا كنتَ قريبًا منهما، في غيابي. أتوقّع أن لويسا ستتعافى في وقت أسرع وستعاني أقل إذا ما كنتَ قريبًا منها كصديق. أنا لا أستطيع التوغّل في تخمينات الآخرين وتكهّناتهم، حتى لو كانت تكهّناتك أنت أو تكهّنات لويسا، أستطيع متابعة تكهّناتي ولا يمكن لي أن أتخيلكم بطريقة أخرى. ولهذا أواصل مطالبتك، إذا ما حدث لي شيء سيئ، أن تعدني بأنك ستتولى الاهتمام بهم».

ربما لم يكن دياث - باريلا قد جادله في أي شيء:

«أجل، معك حق جزئيًا. ولكنك لستَ مصيبًا مع ذلك في أحد الأمور: فالحال في عدم الولادة ليس نفسه كحال الموت، لأن من يموت يخلّف أثرًا وهو يعلم ذلك. يعرف أنه لن يعلم بعد موته أي شيء ولكنه سيُخلّف أثرًا وذكرى. وأنه سيكون محل اشتياق، وأنت نفسك تقول هذا، وأن الأشخاص الذين عرفوه لن يتصرّفوا كما لو أنه لم يكن له وجود. سيكون هناك من يشعر بأنه مذنب حياله، ومن يتمنّى لو أنه عامله بطريقة أفضل في الحياة، ومن يبكي من أجله ولا يفهم لماذا لا يردّ عليه، ومن يشعر باليأس لغيابه. بينما لا أحد بالمقابل يجد صعوبة في تهدئة روعه لفقدان من لم يولد بعد، ربما باستثناء الأم التي عانت إجهاضًا، فقد يكون من الصعب عليها التخلّي عن الأمل، وتتساءل بين حين وآخر عن الطفل الذي كان يمكن أن يصير إليه. ولكن لا وجود في هذه الحالة لخسارة من أي نوع، لا وجود لفراغ ولا وجود لوقائع ماضية. أما من عاش ومات فإنه لا يختفي بالكامل، على امتداد جيلين على الأقل؛ هنالك دليل إثبات على أعماله، وعند موته يكون متابعًا لذلك. يعرف أنه لن يرى ولن يتحرّى عن أي شيء إضافي، وأنه ابتداء من تلك اللحظة سيظلّ في المجهولية وأن نهاية القصة هو ما يحدث في هذه اللحظة. ولكنك أنت نفسك قلق مما ينتظر زوجتك وابنيك، وقد تولّيت مسألة ترتيب الأمور المالية، أنت تعي الفراغ الذي ستخلّفه وتطلب مني أن أملأه، أن أحلّ محلك إلى حدّ ما في حال غيابك. لا شيء من هذا سيكون في يد موثّق عقود».

«بالطبع لا»، كان يمكن لديسفيرن أن يردَّ: «ولكن هذا كله أفعله وأنا حيّ، يفعله شخص حيّ، ليست له أي علاقة بميت، إن كنا نعتقد عادة بأنهما الشخص نفسه، وهذا ما يقال. عندما أصير ميتًا لن أكون شخصًا، ولن يكون بإمكاني ترتيب أي شيء أو طلبه، ولن أكون واعيًا لأي شيء، ولن

أشعر بالقلق. لا شيء من هذا أيضًا يكون بيد شخص ميت، وفي هذا يتشابه الميت مع غير المولود. لست أتكلم عن الآخرين، عمن يظلّون أحياء ويذكرون ولا يزالون في الزمن، ولا عن نفسي الآن، لست أتكلّم عمن لم يغادر بعد. فهذا يفعل أشياء طبعًا، ويفكّر فيها، لا ينقص سوى هذا؛ آلة، تتخذ قرارات وإجراءات، تحاول التأثير، لها رغبات، عصية على التأثر ويمكن لها أن تسبّب ضررًا. إنني أتكلّم عن نفسي بالذات ميتًا، أرى أنك تجد صعوبة أكثر مني في تخيّلي. عليك إذًا ألا تخلط بيننا: بيني وأنا حي وبيني وأنا ميت. الأول يطلب منك شيئًا والثاني لا يستطيع مطالبتك ولا تذكيرك ولا معرفة إذا ما أنجزت الطلب. ماذا يكلفك أن تعدني إذًا. لا شيء يمنعك من الإخلال بكلمتك، إنها مجانية».

لا بد أن دياث-باريلا قد مرّ بإحدى يديه على جبهته وظل ينظر إليه باستغراب وبقليل من الضجر، كمن يخرج من حلم أو من عملية تنويم. يخرج على أي حال من محادثة غير متوقّعة، وغير مناسبة وتحمل نذير شؤم.

«أقدم لك كلمة شرف، مثلما تريد، ثق بكلمتي»، كان يمكن أن يقول له هذا. «ولكن اعمل معروفًا بألا تعود إلى إزعاجي مدى الحياة بقصص على هذه الشاكلة، لقد أفسدت بدني. هيا، فلنذهب لتناول كأس وتبادل الحديث في أمور أقل مأتمية».

- ولكن أي طبعة مقرفة هي هذه - سمعتُ البروفيسور ريكو يعلك الكلام وهو يُخرج مجلدًا عمن أحد الرفوف، كان قد استغرق في النظر إلى الكتب كما لو أنه ليس هنالك أحد في الغرفة. رأيت أنها طبعة من كتاب الكيخوتي يمسك بها بأطراف أصابعه، كما لو أنها تسبّب له اشمئزازًا -. كيف يمكن امتلاك هذه الطبعة، على الرغم من وجود طبعة لي. إنها محض غباء حدسي، لا وجود لمنهجية أو علمية فيها، بل إنها تفتقر إلى أدنى حدّ من الطرافة... كثير من النقل. والأدهى من كل ذلك أنها في بيت أستاذة جامعية، كزيادة في الإهانة، إذا لم أكن قد أسأت الفهم. هكذا تمضي الجامعة المدريدية - أضاف وهو ينظر بتأنيب إلى لويسا.

انفجرت هي في الضحك بشهية. على الرغم من أن التأنيب موجه إليها، بدا لها خروج تلك النبرة ظريفًا. وضحك دياث - باريلا كذلك، ربما بنوع من التكيف البيئي أو التملق - فلا يمكن بالنسبة إليه أن يكون هنالك ما هو مفاجئ في وقاحة ريكو وفي الثقة التي يبديها بنفسه -، حاول أن يستدرج لسانه لمزيد من الكلام، ربما لكي يرى لويسا تضحك أكثر وتخرج من لحظتها المكفهرة. لكنه بدا تلقائيًا. وتكشف عن أنه مبهر وأن التصنّع يناسبه، إذا ما تصنّع.

- حسنًا، لا تقل لي إن من تولى هذه الطبعة ليس مرجعية محترمة، أكثر منك بكثير في بعض الدوائر، قال لريكو.

- ياه، محترمة لدى الجهلة والخصيان، وهم من الكثرة في هذه البلاد بحيث لم يبق هنالك متّسع، وفي دوائر الأصدقاء في القرى مزيد من المتسلّقين والمدَّعين - ردّ البروفيسور. ثم فتح المجلد على صفحة كيفما اتفق، ألقى عليها نظرة جفاء سريعة وصوَّب سبابته إلى سطر، كمن هو مدفوع بضربة هراوة - ها هنا خطأ فاحش، ثم أطبق الكتاب كما لو أنه لم يبق هنالك ما يستحق النظر إليه. -

سوف أسحقه بمقالة -. رفع بصره بمزاج انتصاري، وامتدت ابتسامته من أذن حتى الأخرى (ابتسامة هائلة، يتيحها له فمه المرن)، وأضاف: كما أنه يغار مني.

II

تأخّرتُ وقتًا طويلًا في العودة لرؤية لويسا ألداي، وفي أثناء ذلك الوقت الطويل بدأتُ الخروج مع رجل يروق لي بصورة وسطية، وأُغرمتُ بطريقة بلهاء وصامتة برجل آخر، بعشيقها دياث - باريلا، الذي التقيته بعد وقت قصير في مكان غير محتمل للقاء بأحد، قريبًا جدًا من المكان الذي مات فيه ديفيرني، في البناء الضارب إلى الحمرة الذي يُعرف بالمتحف الوطني للعلوم الطبيعية، القائم بجوار المدرسة التقنية العليا للمهندسين الصناعيين أو أنه، بكلمة أدق، يشكل جزءًا من مجمعها بقبّته اللامعة المشيدة من الزجاج والزنك، بارتفاع سبعة وعشرين مترًا وقطرها حوالى عشرين مترًا، وقد شُيّدت في العام ١٨٨١، عندما لم يكن هذا المجمع مدرسة ولا متحفًا، وإنما كان المبنى الجديد للقصر الوطني للفنون والصناعات، وقد تضمّن معرضًا مهمًا في تلك السنة. وكانت المنطقة تُعرف قديمًا باسم مرتفعات سباق الخيول، لوجود عدة مرتفعات فيها ولقربها من مرابع بعض الخيول ذات المآثر الشبحية حسب سجلات قيود مزدوجة أو نهائية، إذ لا بد من أنه لم يعد هنالك من الأحياء من يمكن أن يتذكرها. متحف العلوم الطبيعية فقير، لا سيما إذا ما قورن بتلك المتاحف الموجودة في انكلترا، ولكنني كنت أذهب إليه أحيانًا مع أبناء أختي الصغار كي يروا الحيوانات الجامدة وراء زجاج خزائنه ويتآلفوا مع أشكالها، ولهذا ظل لدي بعض الميل لزيارته بنفسي في أوقات متباعدة، مختلطة - وغير مرئية لهم عمليًا - بجماعات تلاميذ مدارس ومعاهد ترافقهم أستاذة ساخطة أو صابرة. وسائحون تائهون لديهم فائض من الوقت، ويعلمون بوجود المكان من أحد أدلّاء المدينة شديدي المبالغة في التدقيق والإسهاب: فضلًا عن الحارسات الكثيرات، وجميعهن تقريبًا أمريكيات جنوبيات في هذه الأيام، ويكون هؤلاء هم الكائنات الحيّة الوحيدة في هذا المكان غير الواقعي إلى حدّ ما، وغير الضروري والصارم، مثلما هي متاحف العلوم جميعها.

كنت أنظر إلى ماكيت لشدقَيْ تمساح ضخمين مفتوحين على اتساعهما - وكنت أفكر دومًا بأنهما يتسعان لي، وبحسن حظي في أنني لا أعيش في مكان توجد فيه تلك الزواحف الضخمة - عندما سمعتُ من يناديني باسمي والتفتُ بشيء من الذعر والمفاجأة: عندما يكون أحدنا في هذا المتحف شبه الخاوي، يكون لديه نوع من اليقين المطلق والمؤكد بأنه لا يمكن لأحد في تلك اللحظات أن يعرف مكان تواجده.

عرفته فورًا، بشفتيه الأنثويتين وذقنه المقسومة بشكل زائف، وابتسامته الهادئة وملامحه المتيقظه والمتهاونة في الوقت نفسه. سألني ما الذي أفعله هناك، وأجبته: «أحب المجيء بين

حين وآخر. إنه مكان ممتلئ بضوارٍ هادئة، يمكن لأحدنا الاقتراب منها». ما إن أنهيت قولي هذا حتى فكّرتُ بأنه لا يوجد إلا القليلُ من الضواري، وأن جملتي بلهاء، فضلًا عن أني انتبهت إلى أنني قد أضفت، كي أبدو مهمة، وأعتقد بأنني فعلت ذلك بنتائج مشؤومة. «إنه مكان هادئ»، أنهيت

كلامي بلا مزيد من التجمّل. وسألته السؤال نفسه الذي وجهه إليّ، فأجابني: «أنا أيضًا أحب المجيء إلى هنا بين حين وآخر»، وانتظرتُ جملة بلهاء منه، ولكنها لسوء حظي لم تأتِ تمامًا، لأن دياث - باريلا لم يرغب في إبهاري. «أعيش قريبًا من هنا. وحين أخرج للقيام بجولة، ينتهي الأمر بأن تقودني خطواتي إلى هذا المكان في بعض الأحيان». القول إن خطواته تجيء به بدا لي أدبيًا بصورة خفيفة وعلى شيء من التكلف، ومنحني شيئًا من الأمل. «ثم أجلس لبعض الوقت على مقهى الرصيف، هناك في الخارج وأرجع بعدها إلى البيت. هلمّي بنا، إنني أدعوكِ لتناول شيء، إلا إذا كنت تريدين مواصلة النظر إلى هذه الأنياب أو رؤية قاعات أخرى». في الخارج، تحت الأشجار المتشابكة، فوق المرتفع، قبالة المدرسة، يوجد كشك مرطبات ولديه مناضده وكراسيه في الهواء الطلق.

- لا -، أعرف القاعات الأخرى عن ظهر قلب. كنت أفكر فقط في النزول للحظات من أجل رؤية صورتين عبثيتين لآدم وحواء. - لم يأتِ هو بأي رد فعل، لم يقل «آه، أيوه» ولا أي شيء من هذا القبيل، كما كان يمكن أن يقول أي شخص آخر يزور هذا المتحف بكثرة: ففي القبو توجدفترينة زجاجية عمودية ليست كبيرة الحجم، صنعتها امرأة أمريكية أو إنكليزية، تدعى روزمند وشيء ما آخر، تلك الفترينة تمثّل جنة عدن بطريقة غريبة. كافة الحيوانات التي تحيط بالزوجين الأولين حيةٌ افتراضيًا وفي حالة حركة أو تأهّب. هنالك قردة، وأرانب برية، وديوك حبشية، وكُركيات، وغُريرات، وربما طائر طوقان، وحتى أفعى تطلّ بملامح تشبه إلى حدّ كبير نظرات البشر من بين الأوراق شديدة الخضرة لشجرة التفاح. أما آدم وحواء بالمقابل، فهما واقفان ومنفصلان أحدهما عن الآخر، كلاهما مجرّد هيكلين عظميين، والشيء الوحيد الذي يسمح بتمييزهما بالعين المجردة هو أن أحدهما يحمل تفاحة في يده اليمنى. من المؤكد أنني قرأت ذات مرة الكتابة المرافقة، ولكنني لا أتذكر أنها تقدّم أي شرح مُرْضٍ. فإذا كان المراد إظهار عظام رجل وامرأة وإبراز الاختلافات بينهما، فلا يمكن فهم الحاجة إلى تحويلهما إلى أبوينا الأولين، مثلما كانا يسميان في الإيمان القديم، ووضعهما ضمن هذا المشهد؛ أما إذا كانا يمثلان الفردوس بمملكة حيواناته الفقيرة، فإن ما لا يمكن فهمه هو وجود الهيكلين العظميين، بينما بقية الحيوانات الأخرى تحتفظ بلحومها وفرائها أو ريشها. إنها إحدى أكبر أحجيات موجودات متحف العلوم الطبيعية، ولا يمكن أن تمر دون لفت انتباه كل من يراها، ليس لجمال المشهد وإنما لأنه بلا معنى.

- ماريا دولث، أليس كذلك؟ إنت دولث، أليس هكذا هو اسمك؟ قال لي دياث - باريلا بعد أن جلسنا في مقهى الرصيف، كما لو أنه يريد الاحتفاء بقدرته على الحفظ وقوة ذاكرته، فكنيتي لم ينطق بها أحد سواي، وبصورة متسرّعة، وقد مَرَّرت ذلك يومذاك كشيء لا يهم أحدًا من الحاضرين. أشعرني هذا التفصيل بالتملّق وليس بالتودّد.

- أنت تتمتع بذاكرة جيدة وسمع جيد - قلت له كيلا أبدو غير مهذّبة - أجل، إنه دولث، وليس دولس ولا دولش، مع حرف ç. - ورسمت في الهواء حرف (ç) -. كيف حال لويسا؟

- آه، أنت لم تريها. ظننت أن نوعًا من الصداقة قد بدأت بينكما.

- أجل، يمكن قول هذا لما استمر يومًا واحدًا. لم أعد لرؤيتها منذ تلك المرة في بيتها. وقد كان اللقاء جيدًا وتحدثتْ إليَّ كما لو كنت صديقة، أظن بأن السبب هو الوهن أكثر من أي سبب آخر.

ولكنني لم أعد ألتقي بها بعد ذلك. كيف حالها؟ - ألححتُ -. لا بد أنك تراها كل يوم تقريبًا، أليس كذلك؟

بدا أن هذا يضايقه قليلًا، ظل صامتًا بضع ثوانٍ. وخطر لي أنه ربما يريد فقط أن يستدرجني في الكلام، وأنه يعتقد بأنني وإياها مستمرتان في تواصلنا، وأن تقرّبه المفاجئ مني قد ظل بلا هدف قبل أن يبدأ، أو قد يكون الأمر أكثر سخرية: أن يكون هو من عليه أن يقدم لي أخبارًا ومعلومات عنها.

- ليست جيدة - ردّ أخيرًا - وأنا قلق. أعرف أنه لم يمض وقت طويل، بكل تأكيد، ولكنها لم تأت بأي ردّ فعل بعد، لا تتقدّم ولو ميليمترًا واحدًا، إنها عاجزة عن رفع رأسها ولو للحظة عابرة والنظر إلى ما حولها ورؤية ما تبقّى لها. فبعد موت الزوج تبقى أمور كثيرة؛ وفي مثل عمرها، تبقى لها، عمليًا، حياة كاملة. معظم الأرامل يخرجن قُدمًا بسرعة، لا سيما إذا كنّ شابات إلى هذا الحد أو ذاك، ولديهنّ فوق ذلك أبناء عليهن رعايتهم. ولكن ليس الأطفال وحدهم، لأن هؤلاء لا يعودون كذلك فورًا إلى ما كانوا عليه. لو أنها تستطيع رؤية نفسها بعد سنوات قليلة، بل بعد سنة واحدة، ستدرك أن صورة ميغيل التي تحوم حولها الآن بلا توقف، سوف تتلاشى مع كل يوم يمر، وعندما تضعف تمامًا، لا تعود انفعالاتها الجديدة تسمح لها بأن تتذكّره إلا في أوقات متباعدة، وبهدوء يبدو مفاجئًا اليوم، وبحزن لا يتبدّل ولكن بلا أي قلق تقريبًا. إذ ستكون لديها انفعالات جديدة وينتهي الأمر بزواجها الأول إلى أن يبدو لها أشبه بحلم رأته، أو ذكرى غائمة وخامدة. فما يُرى اليوم كحالة تراجيدية، سيُنظر إليه على أنه أمر عادي لا مفر منه، بل وعلى أنه مرغوب، ذلك أنه قد حدث. فاليوم يبدو لها من غير المقبول أن ميغيل لم يعد له وجود، ولكن ستأتي لحظة يتحوّل فيها ما هو غير مفهوم ليصير كما لو أنه مجرّد تخيل لعودة ظهور إعجازية، لانبعاثه، لرجوعه، ويصبح ذلك بالنسبة لها أمرًا لا يمكن التسامح معه، لأنها ستكون قد خصصت له مكانه النهائي ووجهه المنطفئ في الزمان، ولن تسمح لصورته المنقضية والثابتة هذه أن تفرض نفسها من جديد على تعديلات ما ظل حيًّا وبالتالي ما ليس في الحسبان. إننا نميل إلى الرغبة في عدم موت أحد وعدم انتهاء شيء، مما يرافقنا ويشكّل عادتنا المحببة، دون أن ننتبه إلى أن ما يُبقي على العادات سليمة بلا تغيير هو تجاوزنا المفاجئ لها، دون انحراف أو تطور محتملين، دون أن تغادرنا أو نغادرها. فما يستمر يتلف وينتهي إلى التعفن، يُضجرنا، يتحوّل ضدنا، يُوصلنا حدّ الإشباع، ويتعبنا. كم من الأشخاص كانوا يبدون لنا حيويين فنخلّفهم وراءنا على الطريق، وكم منهم يُستنفدون، ومع كم منهم يذوي التعامل دون وجود أي سبب ظاهر أو مسوِّغ ذي وزن. الوحيدون الذين لا يخذلوننا ولا يخيبون ظننا هم من يفتنوننا، والوحيدون الذين لا نتركهم يسقطون هم من يختفون رغم إرادتنا، يهوون بصورة مفاجئة، وهكذا لا يتوفّر لهم الوقت لاستثارة استيائنا أو خيبة أملنا. عندما يحدث هذا نيأس بصورة مؤقتة، لأننا نظن أنه كان يمكن لنا المواصلة معهم لوقت أطول بكثير، من دون أن نحدّد لهم آجالًا. إنها خطيئة، ولكن بالإمكان تفهّمهم. التمديد والإطالة يفسدان كل شيء، وما كان رائعًا بالأمس قد يصير مزعجًا في الغد. وردّ فعلنا جميعنا حيال موت شخص مقرَّب يشبه ردّ فعل ماكبث حيال الإعلان عن موت زوجته، الملكة. «She should have died hereafter»، إذ إنه يردّ بطريقة أشبه بأحجية: «كان لا بد لها من أن تموت ابتداء من الآن»، هذا ما يقوله، أو: «من الآن فصاعدًا». ويمكن فهمها أيضًا بقدر أقل من الغموض وسهولة أكبر «أن تموت في ما بعد»، هكذا وحسب، أو «كان عليها أن تنتظر قليلًا، أن تتأخّر»، ما أراد أن يقوله على أي حال: «ليس في هذه

اللحظة، ليس في اللحظة المختارة». ومتى هي اللحظة المختارة؟ لا يبدو لنا أنها اللحظة المناسبة، هذا ما نفكّر به دومًا بشأن ما يروق لنا أو يسعدنا، وما يريحنا أو يساعدنا، وما يدفعنا عبر الأيام، يمكن له أن يستمرّ أكثر قليلًا، سنة، بضعة شهور، بضعة أسابيع، بضع ساعات، يبدو لنا أنه من المبكّر دومًا وضع حدّ للأمور أو الأشخاص، لا نرى أبدًا اللحظة المناسبة، تلك التي نقول نحن أنفسنا فيها: «أجل. هذا جيد. هذا كافٍ ومناسب. ما سيأتي بعد هذه اللحظة سيكون أسوأ، سيكون انحدارًا، تردّيًا، لطخة». هذا ما لا نتجرأ عليه أبدًا، ما يعني أن «هذا الزمن قد مضى، حتى لو كان زمننا»، ولهذا لم يعد ملك أيدينا إنهاء أي شيء، لأنه إذا كان الأمر بيدنا فسوف يستمر كل شيء بصورة لا نهائية، ملوثًا إيانا، موسخًا إيانا، دون أن يتحوّل أي حيّ أبدًا إلى ميت.

توقف قليلًا ليرتشف جرعة من بيرته، فالتكلم يُنشِّف الحلق فورًا وهو قد انطلق بعد بلبلته الأوليّة، بما يشبه الاحتداد، وكأنه يستغل اللحظة للتفريج عن نفسه وفتح قلبه. إنه يتمتّع بطلاقة اللسان ووفرة المفردات، ولفظه للإنكليزية جيد ولا تصنّع فيه، ما يقوله لم يكن فارغًا بل يمضي متماسكًا ومترابطًا، تساءلتُ عمّا يمكن أن يكون عمله، ولكنني لم أستطع سؤاله دون أن أقاطع خطابه، وهذا ما لم أكن أريد فعله. كنت أنظر إلى شفتيه بينما هو يُسهب في الكلام، أنظر إليهما بثبات، وأخشى أنني كنت أفعل ذلك بوقاحة، أستسلمُ لهدهدة كلماته ولا أستطيع إبعاد عيني عن المكان الذي تخرج منه الكلمات، كما لو أنه هو كله ليس سوى فم للتقبيل، منه تخرج الوفرة، ومنه ينبثق كل شيء تقريبًا، ما يُقْنِعنا وما يغوينا، ما يلوينا وما يفتننا، ما يستغرقنا، ما يُقنعنا. «مِنْ فضلة القلب يتكلّم فمُه»، يُقرأ هذا في مكان ما من الكتاب المقدس. ظللتُ حائرة وأنا أتأكّد كم يروق لي بل ويفتنني ذلك الرجل الذي لا أكاد أعرفه، وازداد ذلك مع تذكّري أنه بالنسبة للويسا في المقابل، شبه غير مرئي وغير مسموع، لكثرة رؤيتها له وسماعه. كيف يمكن ذلك، يظن أحدنا أن ما يحبّه يجب أن يتوق ويتلهف إليه الجميع. ولا يريد قول أي شيء كيلا ينكسر السحر، ولكن يخطر لي أيضًا، أنني إذا لم أفعل ذلك، فقد يبدو له الأمر كما لو أنني لا أعيره انتباهًا، بينما الحقيقة أنني لم أضيّع كلمة واحدة، فكل ما يخرج من تينك الشفتين يستثير اهتمامي. يجب أن أكون موجزة في كل شيء، هكذا فكّرت، كيلا أجعله يسهو كثيرًا.

- حسنًا، النهايات رهن أيدينا حقًا، إذا كانت نهايات انتحارية. ولا نقول إذا كانت قاتلة - قلتُ. وكنت على وشك أن أضيف: «هنا بالذات، قريبًا من هذا المكان، قتلوا صديقك ديسفيرن بطريقة خبيثة. من الغريب أن نكون جالسَيْن هنا، وأن يكون هذا المكان كله هادئًا ونظيفًا، كما لو أن شيئًا لم يحدث فيه. لو أننا كنا هنا في ذلك اليوم، فربما كنا سنتمكّن من إنقاذه. ولو أنه لم يمت، لما أمكن لنا أن نكون معًا في أي مكان. ولما كنا قد تعارفنا».

كنت على وشك قول ذلك ولكنني لم أقله؛ لأنه، فضلًا عن أسباب أخرى، ألقى نظرة سريعة باتجاه الشارع الذي وقعت فيه عملية الطعن - كان يوليه ظهره، أما أنا فكنت في مواجهة الشارع - وفكرتُ إذا ما كان يفكر بما فكرتُ فيه أو بشيء مشابه، بالجزء الأول على الأقل لما خطر لي. سرّح بأصابعه شعره المتراجع، شعرٌ يتجه إلى الخلف، شعرُ موسيقيّ، بعد ذلك نقر على الكأس بأظفار تلك الأصابع الأربع نفسها، أظفار قاسية ومقلَّمة جيدًا.

- هذا هو الاستثناء، هذا هو الشذوذ. هنالك بالطبع من يقررون وضع حدّ لحياتهم، ويفعلون ذلك، لكنهم أقلية ولهذا يُحدثون تأثيرًا كبيرًا، لأنهم يخالفون لهفة البقاء والاستمرار التي تسيطر على الأغلبية العظمى، والتي تجعلنا نعتقد على الدوام بأن هنالك متسع من وقت وتحملنا إلى طلب بعض المزيد، ثم بعض المزيد، عندما ينتهي. أما بالنسبة للأيدي القاتلة التي تتحدّث عنها، فلا مجال أبدًا لأن نرى أنها أيدينا. إنها تضع نهاية كتلك التي يضعها المرض، أو حادث، أعني أنها أسباب خارجية، حتى في تلك الحالات التي يكون الميت هو من بحث عنها، بسبب سوء حياته المختارة أو بسبب المجازفات التي مر بها أو لأنه بدوره قد قَتَل وعرّض نفسه لانتقام. لا رجل المافيا الأشد دموية ولا رئيس الولايات المتحدة - من أجل وضع مثالين لشخصين معرَّضين بصورة دائمة لخطر الاغتيال - يضعان في اعتبارهما هذا الاحتمال ويتعايشان يوميًا معه، يتمنّون ألا ينتهي أبدًا ذلك التهديد، ذلك العذاب النابض، ذلك القلق الذي لا يُطاق. لا يرغبون في انتهاء شيء مما هو موجود، مما يملكون، مهما كان كريهًا وخطيرًا؛ ينتقلون من يوم إلى آخر على أمل أن يكون هنالك يوم تالٍ أيضًا، مطابقًا للآخر أو مشابهًا له، فإذا كنتُ موجودًا اليوم فلماذا لا أكون موجودًا غدًا، ويوم غد يقود إلى بعد غد، وما بعد غد إلى اليوم التالي الآخر. وهكذا نعيش جميعنا، السعداء وغير الراضين، المحظوظون والتعساء، ولو كان الأمر بيدنا لواصلنا البقاء إلى نهاية الأزمنة. - فكرتُ في أنه قد تشوّش قليلًا أو أنه حاول إغوائي، «الأيدي القاتلة ليست أيدينا إلا إذا كانت هي بالفعل أيدينا فجأة، وعلى أي حال هي تنتمي على الدوام إلى أحدهم، إلى شخص ما، يتكلّم عن «اليدين». ولتكن لمن تكون، ليس صحيحًا أنها لا تريد أبدًا لأي حيّ أن يتحوّل إلى ميت، إنما هذا هو بالضبط ما ترغب فيه وهي لا تستطيع فوق ذلك انتظار أن يخدمها القدر ولا أن يفعل الزمن فعله؛ بل تتولّى بنفسها تحويلهم إلى موتى. إنها لا تريد أن يتواصل كل شيء بلا انقطاع، بل على العكس، تحتاج إلى إلغاء وكسر عدة عادات. إنها لا تقول قطّ لضحاياها "She should have died hereafter"، بل تقول "He should have died yesterday"، «كان يجب أن يموت أمس»، أو منذ قرون، منذ زمن أطول؛ ليته لم يولد ولم يترك أي أثر في العالم، وما كنا بذلك سنضطر إلى قتله. مُدبّر مواقف السيارات كسر عاداته وعادات ديفيربي بضربة قاطعة، وعادات لويسا وعادات الطفلين وعادات السائق الذي ربما يكون قد نجا بفعل تشوّش ما، بسبب فارق ضئيل؛ وعادات دياث - باريلا نفسه وحتى عاداتي أنا بصورة جزئية. وعادات أشخاص آخرين لا أعرفهم، لا أريد التكلّم إلا عن أنه سيواصل فعل ذلك. أريد سماع صوته وتتبع خواطر ذهنه، ومواصلة رؤية شفتيه تتحركان. أجازف بعدم معرفتي لما يقوله، لأنني أنظر إليهما ذاهلة. شَرِبَ رشفة أخرى وواصل، بعد أن تنحنح كمن يسعى إلى التركيز -. المذهل أنه عند حدوث الأشياء، عندما تحدث الانقطاعات، المِيتات، يُنظر في معظم الحالات إلى ما حدث على أنه حسن، مع مرور الزمن. لا تسيئوا فهمي.

ليس هنالك من يعتبر الموت أمرًا حميدًا، ولا سيما إذا كان الموت اغتيالًا. إنها وقائع تستثير الأسف مدى الحياة، بِغَضِّ النظر عن وقت حدوثها. ولكن ما تأتي به الحياة يفرض نفسه في نهاية المطاف، وبقوة يبدو لنا معها، على المدى الطويل، أنه من شبه المحال تخيّل الحياة دونهم؛ لا أدري كيف أشرح ذلك، تخيّلي شيئًا قد حدث على أنه لم يحدث. «أبي قتلوه خلال الحرب»، يمكن أن يقول أحدهم بمرارة، بحزن هائل أو بغضب. «جاؤوا بحثًا عنه في إحدى الليالي، أخرجوه من البيت وحشروه في سيارة، أنا رأيت كيف كان يقاوم وكيف كانوا يجرونه. جرجروه من ذراعيه، بدا كما لو أن ساقيه قد شُلتا ولم تعودا قادرتين على حمله. أخذوه إلى أرض خلاء، وهناك أطلقوا رصاصة على قذاله وألقوا به في حفرة إلى جانب الطريق، كي تكون جثته عبرة للآخرين». لم يروِ هذا ليرثي لحاله دون شك، بل ويمكن له أن يُمضي الحياة مغذّيًا الحقد على القتلة، حقدٌ كونيٌّ ومجرّد إذا كان لا يعرف جيدًا من كانوا، وما هي أسماؤهم، لأن حدوث ذلك كان يتواتر خلال الحرب الأهلية، ولم يكن يُعرف أي شيء سوى أنهم «الآخرون»، في مرات كثيرة. ولكن يتبين إلى حدّ بعيد أن ذلك الفعل البغيض هو ما يشكّل ذلك الشخص الذي لا يستطيع التخلي عنه أبدًا، لأن عمل ذلك سيكون أشبه بإنكار نفسه بالذات، محو كيانه وعدم امتلاك بديل عنه. إنه ابن رجل جرى اغتياله بطريقة خبيثة في الحرب؛ إنه ضحية العنف الإسباني، يتيم تراجيدي؛ وهذا ما يحدّد هيئته، وهويته، وشرطه. هذه هي قصته أو بداية قصته، أصلها. إنه عاجز بطريقة ما عن تمنّي ألا يكون ذلك قد حدث، لأنه لو لم يحدث لكان هو نفسه شخصًا آخر لا يدري من هو، ليست لديه أية فكرة. سيكون شخصًا آخر لا يُرى ولا يُتخيّل، يجهل كيف خرج وكيف كانت ستمضي حياته مع هذا الأب الحي، لا يدري إن كان سيكرهه أم سيحبّه، أو لن يوليه اهتمامًا، وهو لا يعرف، قبل ذلك كله، أن يتخيّل بلا هذه الخلفية من الأسى والضغينة التي رافقته على الدوام. فقوة الوقائع مرعبة إلى حدّ أن الأمر ينتهي بالجميع إلى أن يكونوا راضين إلى هذا الحد أو ذاك عن قصتهم، عمّا حدث وما جرى وما تُرك فعله، حتى لو ظن المرء غير ذلك، أو لم يتعرف عليه. الحقيقة أن الجميع تقريبًا يلعنون حظهم في لحظة ما ولا أحد تقريبًا يعترف بذلك.

لم أجد بدًا هنا من التدخّل:

- لا يمكن للويسا أن تكون راضية عن أنهم قد طعنوا زوجها بصورة مجّانية، عن طريق الخطأ تمامًا، وبلا سبب ودون أن يكون هو نفسه قد سعى إلى ذلك. لا أحد يمكنه أن يكون راضيًا عن تدمير حياته إلى الأبد.

ظل دياث - باريلا يتأمّلني باهتمام شديد، وأحد خديه يستند إلى قبضة يده ومرفقه يستند إلى المنضدة. أزحتُ نظري عنه، أقلقتني عيناه الثابتتان، بنظرتهما التي ليس فيها شيء من الشفافية أو النفود، ربما هي نظرة غائمة ودوارية أو لا يمكن تفسيرها وحسب، وهي مخفّفة على أي حال بقصر النظر (ربما يضع عدسات)، بدا كما لو أن تينك العينين المشقوقتين تقولان لي: «لماذا لا تفهمين؟»، ليس بنفاد صبر وجزع وإنما بتحسّر.

- هذا هو الخطأ - قال بعد بضع ثوانٍ، دون أن يرفع نظرته الثابتة عني ودون أن يبدّل من وضعه، كما لو أنه يقوم بتقديم خدمة بدل الكلام -، خطأ أطفال يقع فيه مع ذلك بالغون كثيرون حتى يوم موتهم، كما لو أنهم على امتداد حياتهم كلّها لم يتوصّلوا إلى الانتباه إلى آلية عمله ويفتقرون إلى أية

خبرة. خطأ الاعتقاد بأن الحاضر هو حالة استمرار إلى الأبد، وأن ما هو موجود في كل لحظة نهائي وأبدي، في الوقت الذي علينا جميعنا أن نعرف أنه لا شيء من ذلك طالما تبقّى لنا قليل من الوقت. نحمل على كاهلنا ما يكفي من اللف وما يكفي من الدوران، ليس من الحظ فقط وإنما من حماستنا أيضًا. نأخذ بتعلّم أن ما بدا لنا بالغ الخطورة يأتي يوم يتكشّف لنا فيه أنه محايد، مجرّد حدث، مجرّد معلومة. وأن الشخص الذي لا يمكننا البقاء دونه ولا نستطيع النوم من أجله، ومن دونه لا ندرك وجودنا، وعلى كلماته وحضوره كنا نعتمد يومًا بعد يوم، تأتي لحظة لا يعود يشغل حتى تفكيرنا، وحين يشغله، في أوقات متباعدة، فإنما يكون ذلك من أجل أن نهز كتفينا، وأقصى ما يمكن أن يصله هذا التفكير هو التساؤل لثانية: «ما الذي كان يمكن له أن يفعله؟»، بلا أي قلق، وحتى بلا فضول. ما الذي يهمنا اليوم بما آل إليه مصير أول حبيبة لنا، بعد أن كنا ننتظر اتصالها أو لقاءها بلهفة؟ بل ماذا يهمنا مصير ما قبل الأخيرة، إذا كنا لم نرها منذ سنة؟ وماذا يهمنا أصدقاء المدرسة، وأصدقاء الجامعة، والتالين، بالرغم من أن مقاطع طويلة جدًا من وجودنا تدور حولهم، وكانت تبدو لنا أنها لن تنتهي أبدًا؟ ماذا يهمنا من يُقتلَعون، من يذهبون، من يديرون لنا ظهورهم ويبتعدون، من نُسقطهم من حسابنا ونحوّلهم إلى غير مرئيين، إلى مجرد أسماء لا نتذكرها إلا عندما تصل صدفة إلى اسماعنا، من يموتون وهكذا ينشقّون عنا؟ لا أدري، أمي ماتت منذ خمس وعشرين سنة، وعلى الرغم من إحساسي بأني مضطرٌّ إلى الشعور بالحزن عند التفكير بالأمر، بل إنني أنتهي في كل مرة إلى الإحساس بذلك، ولكنني لا أكون قادرًا على استعادة ذلك الحزن الذي شعرت به آنذاك، لست أعني البكاء الذي بكيته يومذاك. إنه الآن مجرّد أمر واقع: أمي ماتت منذ خمسة وعشرين عامًا، وأنا بلا أم منذ تلك اللحظة. هذا جزء مني، بكل بساطة، إنها معلومة تترسخ لدي، بين معلومات كثيرة أخرى: إنني بلا أم منذ فتوّتي، هذا هو كل شيء، أو إنه تقريبًا كل شيء، مثلما أنا عازب أو مثلما أن هنالك آخرين أيتامًا منذ الطفولة، أو أبناء وحيدين لآبائهم، أو الأخ الصغير بين سبعة أخوة، أو المنحدر من أب عسكري، أو طبيب، أو مجرم، ما الفرق، فما هي جميعها على المدى الطويل إلا معلومات وليس بينها ما له كبير أهمية، فكل شيء يحدث لنا، أو حدث لنا يتّسع له سطران من قصة. فلويسا، دمّرت الحوادث حياتها الحالية، ولكن ليس حياتها المستقبلية. فكّري كم من الوقت تبقّى لها ويمكنها مواصلة المشي فيه، فهي لن تبقى عالقة في هذه اللحظة، لا أحد يبقى عالقًا في أي لحظة، ولا سيما في أسوأ اللحظات، بل يخرج الجميع منها دومًا، باستثناء مَنْ في عقولهم علّة ويشعرون بأن لهم مسوِّغاتهم، بل وأنهم محميون في تعاستهم المريحة. السيئ في المصائب الكبيرة جدًا، التي تشطرنا إلى نصفين ويبدو لنا أن تحمّلها لن يكون ممكنًا، هو أن من يعانيها يظن، أو يطالب تقريبًا، بأن العالم سينتهي بها، ومع ذلك فإن العالم لا يعبأ به ويستمر، ويشدّ معه فوق ذلك من عانى النكبة، أعني أنه لا يسمح له بالخروج مثل من يغادر مسرحًا، اللهم إلا إذا أقدم ذلك التعيس على قتل نفسه. وهذا ما يحدث أحيانًا، لا يمكنني إنكار ذلك. ولكن حدوثه نادر جدًا، وفي عصرنا هذا صار أقل تواترًا مما كان عليه في أي عصر آخر. يمكن للويسا أن تعتكف، أن تحتجب لفترة من الزمن، ألا تسمح بأن يراها أحد سوى أسرتها وأنا، ما لم تضجر مني وتصرف النظر عني؛ ولكنها لن تقتل نفسها، لن تفعل ذلك ولو لمجرّد أن لديها ابنين عليها الاهتمام بهما، ولأن عمل ذلك ليس من طبعها. ستتأخّر إلى هذا الحدّ أو ذاك، ولكن بعد مرور الوقت لن يكون الألم واليأس شديدين جدًا، ستتضاءل حدة الذهول وستأخذ بالاعتياد على الفكرة: «إنني أرملة» سوف تفكّر، أو «لقد ترمّلت». وسيكون هذا هو الواقع والمعلومة، سيكون هذا ما

ستروّيه لمن يأتونها ويسألون عن حالها، ولن تكون بالتأكيد راغبة في أن توضح كيف حدث ذلك، لأن رواية ذلك لشخص تتعرّف عليه حديثًا سيكون شديد القسوة والتعاسة عندما لا يكون قد انقضى سوى وقت قصير، يفترض أن تلقي بظلال على أي محادثة على الفور. وسيكون هذا أيضًا هو ما سيروى عنها، وما سيروى عنا يسهم في التفريق بيننا ولو بصورة سطحية وغير دقيقة، فلا يمكن لنا في نهاية المطاف إلا أن نكون سطحيين بالنسبة للجميع تقريبًا، مجرّد رؤوس أقلام، مجرّد ضربات فرشاة ساهية. «إنها أرملة»، سيقولون، «فقدت زوجها في ظروف فظيعة لم تتضح تمامًا قطّ، أنا نفسي لديَّ شكوكي، أعتقد أن رجلًا قد هاجمه في الشارع، لا أدري إذا ما كان مجنونًا أو قاتلًا مأجورًا، أم إنها كانت محاولة اختطاف قاومها هو بكل قواه ونظرًا لذلك قتلوه هناك في المكان نفسه؛ كان رجلًا ثريًا، لديه الكثير مما يخسره أو أنه قاوم بصورة غريزية أكثر مما هو متوقّع، لستُ متأكدًا.» وعندما تكون لويسا قد تزوّجت من جديد، وهذا ما سيحدث في النهاية، منذ الآن إلى ما بعد نحو سنتين، الحدث والمعلومة، بكونهما متطابقين، سيكونان قد تبدّلا ولن تفكر آنذاك بنفسها: «لقد صرت أرملة»، أو»إنني أرملة»، لأنها لن تكون كذلك بأي حال، وإنما ستفكّر: «لقد فقدت زوجي الأول وهو يبتعد أكثر فأكثر. ومنذ زمن طويل لم أعد أراه، بينما هذا الرجل الآخر في المقابل، هنا بجانبي، وهو موجود دومًا فوق ذلك. وأسمّيه زوجًا أيضًا، إنه لأمر غريب. ولكنه احتلَّ مكانه في الفراش طوال الوقت، ولدى التواصل يغيّبه ويمحوه... أكثر قليلًا في كل يوم، وأكثر قليلًا في كل ليلة».

تواصلت هذه المحادثة في مناسبات أخرى، في كل مرة التقينا فيها على ما أظن - ولم تكن تلك المرات كثيرة - كانت تبرز أو كان يُبرزها دياث - باريلا، الذي أقاوم مناداته باسم خابيير مع أن هذا هو اسمه وبهذا الاسم أفكّر به في بعض الليالي، التي أرجع فيها متأخرة إلى بيتي بعد أن أكون قد أمضيت معه بعض الوقت في الفراش (في فراش غريب يكون أحدنا فيه لوقت قصير فقط وعلى نحو مُستعار، ما لم يُدعَ إلى النوم في ذلك الفراش، ولم تكن الحال معه على هذا النحو قطّ؛ بل أكثر من هذا، فهو يختلق ذرائع سخيفة يقولها كي أضطر إلى المغادرة، مع أنني لم أعتد البقاء في أي مكان أكثر مما يجب، ما لم يُطلب مني ذلك). كنت أنظر من خلال النافذة المفتوحة قبل أن أغمض عينيّ، أنظر إلى الأشجار التي قبالتي دون أن يكون هنالك عمود نور يضيئها وأنا لا أكاد أميِّزها، لكنني أسمع اهتزازها في الظلام، قريبة جدًا، كمقدّمة للعواصف التي تنفلت دومًا في مدريد، وأقول لنفسي: «ما معنى هذا، بالنسبة لي على الأقل. هو لا يراني، لا يخدعني، لا يخفي عني ما يأمل فيه ولا ما يحرّكه، يُلحظ عليه ذلك بوضوح، لا ينتبه إلى الأمر، بينما هو ينتظر أن تخرج من وهنها أو من خدرها وتبدأ برؤيته بطريقة أخرى، ليس كالصديق الوفيّ لزوجها الذي تركها ميراثًا له. عليه أن يتوخّى الحذر في هذا الشأن، في الخطوات الصغيرة التي يخطوها والتي لا بد لها، بالقوة، من أن تكون قصيرة جدًا، كيلا يبدو كمن لا يحترم قنوطها الطبيعي أو حتى ذكرى المتوفّى، وأن يحرص في الوقت نفسه على ألا يتسلّل إليها أحد في أثناء ذلك، يجب عليه ألا يستخف كخصمٍ حتى بأشد الأشخاص قبحًا أو أكثرهم بلاهة أو أكثرهم عدم ملاءمة، أو أشدّهم إثارة للضجر، أو أكثرهم خمولًا، إذ يمكن لأي شخص أن يكون خطرًا طارئًا وغير متوقّع. بينما هو يترصّدها، يراني أنا بين حين وآخر وربما يرى نساء أخريات أيضًا (لقد توافقنا ضمنًا على تجنب الأسئلة)، ولم أعد أدري إذا ما كنتُ لا أفعل مثله بطريقة ما، الوثوق بتحوّلي إلى ما لا غنى له عني دون أن ينتبه إلى ذلك، التوصّل إلى أن أكون جزءًا من عاداته، ولو بصورة دورية بين حين وآخر، بحيث يجد صعوبة في استبدالي حين يقرر أن يهجرني. هنالك رجال يقولون كل شيء بوضوح منذ البدء دون أن يُطلب منهم ذلك: «أنبهكِ إلى أنه ليس هنالك أكثر مما هو قائم، بيني وبينك، وإذا كنت تتطلّعين إلى شيء آخر، فمن الأفضل أن نقطع هذه العلاقة فورًا»؛ أو القول: «أنتِ لست الوحيدة ولا تحاولي أن تكوني كذلك، وإذا كنت تبحثين عن الحصرية، فليس هذا هو المكان»؛ أو القول، مثلما كانت الحال مع دياث - باريلا: «إنني مغرم بأخرى ولم يحن لها بعد موعد الرد عليّ. ولكنه سيحين، يجب أن أكون مثابرًا وصبورًا. وليس هنالك أي ضرر في أن تشغليني خلال الانتظار، إذا رغبتِ في ذلك، ولكن ليكن معلومًا لك أن هذه هي حال علاقة كل منا بالآخر: رفقة مؤقتة وتسلية وجنس، وباختصار علاقة رفاقية ومضمون مودة». هذا لا يعني أن دياث - باريلا قد قال لي هذه الكلمات في أي وقت، إذ لا حاجة لقولها في الواقع، لأن هذا هو المغزى المؤكّد الذي يُستشف من لقاءاتنا. ومع ذلك فإن هؤلاء الرجال الذين يحذرون، تأتي الوقائع لتكذبهم أحيانًا، مع مرور الوقت، كما أن كثيرات منا نحن النساء نميل إلى التفاؤل، ونحن مزهوّات ومعجبات بأنفسنا في أعماقنا، وبعمق أكثر من الرجال، لأنهم في ميدان الغراميات مجرد عابرين، وينسون مواصلة ذلك: نفكّر بأنهم سيغيّرون موقفهم أو قناعاتهم، وأنهم سيكتشفون تدريجيًا أنهم من دوننا لا يستطيعون المرور، وأننا سنكون استثناء في حيواتهم، أو أن الزيارات تتحوّل أخيرًا إلى بقاء واستقرار، وينتهي بهم الأمر إلى الضجر من أولئك النساء الأخريات

غير المرئيات اللواتي نبدأ الشك بوجودهن ونفضّل التفكير بأنه لا وجود لهن، وبقدر ما نكرر ذلك معهم نأخذ بحبهم رغمًا عنا؛ وسنكون المختارات إذا ما كانت لدينا القدرة على التحمّل من أجل البقاء إلى جانبهم بلا تذمّر ولا إلحاح. عندما لا نستثير عواطف مباشرة وفورية، نظن بأن الأمر قد انتهى بمكافأة الوفاء والحضور وتحولهما إلى ديمومة أكبر وقوة أعظم من أي احتداد أو نزوة. في هذه الحالات نعرف أننا سوف نشعر بصعوبة التملّق حتى لو تحقّقت أفضل توقعاتنا، غير أننا ننتصر بصمت، إذا ما تحقّقت تلك التوقّعات بالفعل. ولكن لا يقين في ذلك قطّ ما دام بذل الجهد متواصلًا، فحتى أكثر النساء إيمانًا بالعقل، يمكن أن يصبن بخيبة أمل كبيرة مع أولئك الرجال الذين لا يستسلمون لهن ويقدّمون تحذيرات مبهمة. أنا لا أنتمي إلى هذه الفئة من المتعقّلات، الحقيقة أنني لا أحتض آمالًا انتصارية، أو الآمال الوحيدة التي تسمح لي بالمرور، لأن دياث - باريلا أخفق مع لويسا من قبل، وعندئذ، ربما، بشيء من الحظ، قد يبقى إلى جانبي لمجرد عدم التنقل، فحتى أشد الرجال قلقًا وحذرًا، أو أشدهم آلية، يمكن لهم التحول إلى كسالى متقاعسين في بعض المراحل، ولا سيما بعد إحباط ما، أو هزيمة، أو بعد انتظار طويل غير مجدٍ. أعرف أنه لا يغضبني أن أكون بديلة، لأن الجميع في الواقع ما هم إلا بدلاء على الدوام، فبادئ ذي بدء، هذا ما سيكونه دياث - باريلا بالنسبة للويسا، في غياب زوجها الميت؛ وماذا سيكونه ليوبولدو بالنسبة لي، فأنا لم أستبعده بعد على الرغم من أنه يعجبني بصورة متوسطة وحسب - أفترض هذا تحسّبًا - والذي بدأت الخروج معه للتو، كم هو مناسب، قبل لقائي بالضبط مع دياث - باريلا في متحف العلوم وبدء سماع الكلام والكلام والنظر دون توقّف إلى شفتيه مثلما ما زلت أفعل في كل مرة نكون معًا، أستطيع أن أرفع عينيَّ عنهما فقط لأحولهما إلى عينيه الغائمتين؛ ربما كانت لويسا نفسها كذلك بالنسبة لديفيرني في حينه، من يدري، بعد الزواج الأول لذلك الرجل بالغ اللطف والحالم الذي لم يكن من الممكن فهم أن يُقْدم أحدهم على الإساءة إليه أو التخلّص منه، ومع ذلك، إنه هناك تُغَطّيه طعنات سكين بلا أي سبب وقد صار على طريق النسيان. أجل، جميعنا وسائل لأناس ربما لم نعرفهم قطّ، أناس لم يقتربوا أو يمروا بصورة عابرة في حياة من نحبه الآن، منهم من تمهَّل لكنه تعب في نهاية الأمر واختفى دون أن يخلف أثرًا أو غبار قدميه فقط الآخذتين بالهروب، أو أنه مات بالنسبة لأولئك الذين نحبهم مسببين لهم جرحًا قاتلًا ينتهي به الأمر إلى أن يندمل على الدوام تقريبًا. لا نستطيع السعي إلى أن نكون الأولين، أو المفضّلين، لأننا لسنا إلا ما هو متوافر، البقايا، الفضلات، المتبقين على قيد الحياة، ما هو متبقٍّ، الأرصدة، وهذا القليل من النُبل الذي عليه تنهض أعظم الغراميات وتتأسّس أفضل العائلات، ومنه نتحدّر جميعنا، نتاج المصادفة والتقاليد السارية، نتاج الاستبعاد والصَدّ والخجل وإخفاقات الغير، وحتى في هذه الحالة نقدّم أي شيء أحيانًا من أجل أن نواصل مع من أنقذناه ذات يوم من غرفة السطح أو بيع بالمزاد، أو كان من نصيبنا في ضربة حظ بأوراق اللعب أو أنه التقطنا من بين الفضلات؛ ونتمكّن بصورة غير قابلة للتصديق من إقناع أنفسنا بغرامياتنا الطارئة، وكثيرون هم من يؤمنون برؤية يد القدر في ما هو ليس أكثر من ضربة حظ في يانصيب قرية عند احتضار الصيف... عندئذ كنت أطفئ نور المنضدة الصغيرة الملاصقة للسرير وبعد ثوانٍ تهتزّ الأشجار التي تعصف بها الريح وتصبح مرئية لي قليلًا وأتمكن من النوم وأنا أراقبها، أو ربما أنني أتكّهن اهتزاز أوراقها، وأفكر «ما مغزى ذلك». المغزى الوحيد هو أن أي بصيص ينفعنا في تلك الظروف البلهاء العصية، أي فرصة. يوم إضافي آخر، ساعة إضافية أخرى إلى جانبه، حتى لو تأخّرت هذه الساعة قرونًا في المجيء؛ الوعد الغامض بالعودة لرؤيته حتى لو

مرّت تواريخ كثيرة، تواريخ فراغ كثيرة. نؤشّر علىّ التقويم إلى تلك الأيام التي اتصل بنا فيها هاتفيًا أو رأيناه، نعدّ الأيام التي تمر دون حصولنا فيها على أي خبر، وننتظر إلى وقت متقدّم كثيرًا من الليل كي نعتبرها نهائيًا أنها أيام مقفرة أو ضائعة، اللهم إلا إذا رنّ الهاتف في اللحظة الأخيرة وهمس لنا بعبارة بلهاء تُشعرنا بغبطة وبأن الحياة طيبة وحانية. نفسّر كل تبدل في نبرة صوته، ونُحمِّل كل كلمة تافهة بمعنى أبله وواعد، ونكررها. نُقدّر أي تواصل، حتى لو اقتصر على تلقّي اعتذار أخرق أو سفاهة وقحة أو لسماع أكذوبة سيئة التوليف أو معدومة الصياغة. «لقد فكّر بي على الأقل في لحظة ما»، نقول لنفسنا شاكرين، أو «إنه يتذكّرني حين يملّ، أو أنه تعرض لصدٍّ ممن يهمه أمره، وهذا يعني أنها لويسا، ربما أكون أنا في المكان الثاني وهذا شيء ليس بالقليل». أحيانًا يفترض ذلك - وأن يكن أحيانًا وحسب - أنه يكفي أن تسقط من تشغل المكان الأول، هذا ما استشعره جميع الأخوة الصغار للملوك والأمراء وحتى الأقارب الأقل قرابة للملوك وأبناء الزنا المستبعَدين من الوراثة والنائين، ممن يعرفون أنه بهذه الطريقة ينتقل كذلك من كونه العاشر ليصير التاسع، ومن السادس إلى الخامس، ومن الرابع إلى الثالث، ولا بد أنهم جميعًا قد صاغوا بصمت، في لحظة ما، رغبتهم الخفية: «"He should have died yesterday"»، أو «كان عليه أن يموت أمس، أو منذ قرون»؛ أو ما يشتعل بعد ذلك في رؤوس من هم أكثر جرأة: «ما زال أمامه متّسع من الوقت ليموت غدًا، في اليوم الذي سيكون أمس ما بعد غد، إذا ما ظللتُ أنا نفسي حيًّا حتى ذلك الحين». لا أهمية لتذللنا أمام أنفسنا بالذات، فليس هناك في نهاية المطاف من سيحاكمنا، كما أنه لا وجود لشهود. عندما نقع في شبكة العنكبوت نتخيّل بلا حدود ونَقنع في الوقت نفسه بأي فتات، لمجرد سماعه هو، شمّه، لمحه، الإحساس به، بأنه ما زال موجودًا في أفقنا ولم يختفِ تمامًا، وحتى لو أنه لم يعد يُرى من بعيد غبار قدميه الآخذتين بالهروب.

لم يكن دياث - باريلا يداري معي نفاد الصبر الذي يجد نفسه مضطرًا لأن يخفيه أمام لويسا، عندما نرجع إلى حديثه المفضّل الذي لا يمكن له أن يواصل الخوض فيه معها، والحديث الوحيد الذي يبدو لي أنه يهمّه حقًا، كما لو أن كل ما عداه مؤقت وقابل للتأجيل طالما لم يُحسم أمر هذا الموضوع، كما لو أن الجهد المستثمر فيه كبير إلى حدٍ ينبغي معه لبقية القرارات الأخرى أن تظلّ معلّقة وأن تنتظر إلى أن يُحَل ذلك الأمر بطريقة أو بأخرى، وأن مجمل حياته المستقبلية يعتمد على إخفاق أو نجاح وهمه اللجوج ذاك دون موعد محدّد لتحقيقه. ربما لم يكن هنالك أيضًا عدم تقدّم حاسم: ما الذي سيحدث لو لم تستجب لويسا لطلباته وتطلعاته، أو لعواطفه إذا ما عبَّر لها عنها، ولكن هل ستظلّ وحدها؟ متى سيُقَدّر هو نفسه أن الوقت قد حان للتخلّي عن ذلك الحذر الطويل؟ أنا لا أريد أن أنزلق نحو الحالة نفسها بصورة لا شعورية، ولهذا سأواصل الاهتمام بليوبولدو الذي فضّلت عدم إخباره عن وجود دياث - باريلا. وإذا كان من المضحك أن خطواتي ستعتمد أيضًا، بطريقة غير مباشرة، على تلك الخطوات التي ستُقْدِم أو لا تُقْدِم عليها أرملةٌ لا تجد عزاء، بل سيكون الحال أكثر من ذلك بإضافة خطوات رجل مسكين غير مطلع، بل إنه لا يعرفها، ويزداد بهذا طول السلسلة: قليل من سوء الحظ وبعض المحبين الآخرين ممن يسمحون فقط بأن يكونوا محبوبين دون إبداء الصَدّ أو التجاوب، ستصبح السلسلة لا نهائية. سلسلة أشخاص مثل قطع دومينو مصفوفة تنتظر انتهاء أجل امرأة غافلة عن كل ذلك، لمعرفة إلى جانب من سيسقط أحدنا ويبقى، أم إنه لن يسقط إلى جانب أي شخص.

لم يخطر لدياث - باريلا في أي وقت أنه يمكن لعرضه شجونه أن يجرح مشاعري، حتى لو لم يقدِّم نفسه قطّ على أنه خلاص لويسا أو قدَرها؛ لم يكن يقول أبدًا: «عندما تخرج من هاويتها وتبدأ التنفس من جديد إلى جانبي، وتبتسم»، ناهيك عن قول «عندما ستتزوج ثانية ويكون زواجها مني». لم يكن يفترض ولا يضمن قطّ، ولكنه كان شفافًا، كان الرجل الراسخ، الحازم، المصمم الذي لا ينثني، ويواصل الانتظار. لو أنه عاش في عصر آخر لاستغرق في عدّ أيام الحداد المتبقية، وأيام شبه الحداد أو الراحة، أو التسمية التي كانت بها تسمّى قديمًا، ولكان استشار نساء متقدّمات في السن - وهن الأكثر دراية في هذه الأمور - عن التاريخ المناسب لنزع القناع عن وجهه والبدء بالتودّد إليها. السيئ في الأمر أن كل تلك الأساليب قد ضاعت، وأننا لم نعد نعرف موعد أي شيء ولا ما يمكن توقّعه، ومتى يكون الوقت قد تأخر، ومتى يكون قد فات. علينا أن نرشد أنفسنا بأنفسنا، وهذا يُسهِّل الوقوع في الخطأ.

لا أدري إذا ما كان يرى كل شيء على الضوء نفسه أو إذا كان يبحث عن نصوص أدبية وتاريخية تدعم حججه وتهرع لمساعدته (ربما كان يوجهه ريكو، وهو رجل معارف شاسعة، وإن تكن محاولة إنجاز هذه المهمة، من خلال ما أعرفه، ستبدو غير مُجديةٍ لإخراج هذا العلّامة المزدري لعصر النهضة والعصر الوسيط، لأن لا شيء مما كان ومماديةٍ حدث بعد العام ١٦٥٠ يستحق في نظره الاحترام، بما في ذلك وجوده هو نفسه).

- لقد قرأت كتابًا مشهورًا بما يكفي، ولم أكن أعرف أنه كذلك - يقول لي، ويتناول الكتاب الفرنسي المجلّد عن رف المكتبة ويلوِّح به أمام عينيّ، كما لو أنه سيتمكن، وهو يحمل الكتاب في يده، من

التحدّث إليّ بدراية أكبر بالقضية ويثبت لي بذلك أيضًا أنه قد قرأه حقًّا -. إنها رواية قصيرة لبلزاك تمنحني التأييد والحق في ما يتعلّق بلويسا، وبما سيحدث لها منذ الآن حتى بعض الوقت. الرواية تحكي قصة كولونيل نابليوني أعتُبر ميتًا في معركة إيلو. هذه المعركة التي جرت ما بين ٧ و٨ شباط/ فبراير من عام ١٨٠٧ بالقرب من البلدة التي تحمل هذا الاسم في روسيا الشرقية. تواجه الجيشان الفرنسي والروسي وسط برد شيطاني، يقال إنها ربما تكون المعركة التي جرى خوضها في أشد المناخات قسوة في التاريخ، على الرغم من أنه ليس معروفًا كيف أمكن معرفة ذلك، وكيف تم التأكد منه. كان هذا الكولونيل، ويدعى شابير، يقود كتيبة خيّالة، وقد تلقى خلال المعركة ضربة سيف مريعة على الجمجمة. هنالك لحظة في الرواية، حين يخلع الكولونيل القبعة بحضور محام، ترتفع معها كذلك باروكة الشعر التي يضعها، فتظهر ندبة فظيعة لجرح مستعرض يمتد من القذال حتى العين اليمنى، تصوري - ويشير إلى خط الندبة على رأسه، مارًا ببطء بإبهامه -، مشكّلًا «خياطة ناتئة هائلة»، حسب كلمات بلزاك الذي يضيف أن أول فكرة أوحى بها ذلك الجرح هي «من ذلك الموضع بالذات أُفلت منه الذكاء!». عندئذ يتقدم الماريشال ميرا، الماريشال نفسه الذي أخمد، في مدريد، انتفاضة الثاني من أيار/مايو، ويشن هجومًا مع ألف وخمسمئة فارس من أجل نجدة الكولونيل، لكنهم جميعًا، وميرا على رأسهم، يمرّون فوق شابير، فوق الذي تجندل وسقط أرضًا للتو. يعتبرونه ميتًا، على الرغم من أن الإمبراطور الذي يُقدِّره يرسل طبيبين اثنين كي يتحققا من موته في ميدان المعركة؛ لكنَّ هذين المتقاعسين العارفين أن رأسه قد شُق من جهة إلى أخرى وأن كتيبتَيْ خيالة قد مرتا فوقه بعد ذلك، لم يزعجا نفسيهما ولو في جس نبضه وصادقا على موته بصورة رسمية، وإن يكن بخفة، وثُبِّت هذا الموت في سجلات الجيش الفرنسي حيث يُكرَّس ويُفصَّل، وهكذا يتحوّل إلى حدث تاريخي. يُكدَّس الجسد في حفرة مع الجثث الأخرى العارية، وفق ما كانت عليه العادة: لقد كان شخصية لامعة وهو حي، لكنه الآن مجرد ميت وسط البرد والجميع يستقرّون في الموضع نفسه. إلا أن الكولونيل يستردّ الوعي بطريقة يصعب تصديقها، ولكنها مُقنعة جدًا كما يرويها لمحامٍ باريسي يدعى ديرفيل، يريد تكليفه بقضيته، أجل، يسترد الوعي قبل أن يكتمل دفنه، فيظنّ أنه ميت، ثم يتنبّه إلى أنه حي، وبمشقّة كبيرة وحظ وافر يتمكّن من الخروج من وسط هرم الأشباح ذاك بعد أن ظل جزءًا منه لا يدري لكم من الساعات وبعد أن سمع، أو ظن أنه سمع، كما يقول - وهنا فتح دياث - باريلا الكتاب وبحث عن عبارة محددة، بين عبارات يجب أن تكون مُعَلَّمَة وربما كان قد اختارها، كي يقدم لي عبارة منها بين حين وآخر -، «أنينًا ينطلق من عالم الجثث الذي كنت قابعًا فيه»؛ ثم يضيف كذلك: «هنالك ليالٍ يخيل إليّ فيها أنني أسمع تلك التنهّدات المخنوقة». تصير زوجته أرملة، وبعد زمن معين تتزوج مجددًا من شخص يدعى فيرو، هو كونت، تنجب منه ابنين اثنين، لم يمنحها إياهما زواجها الأول. ترث عن زوجها العسكري الشهيد والبطل ثروة معتبرة، تستعيد السيطرة على أمورها وتواصل قُدُمًا في حياتها، فهي لا تزال شابة، لديها متسع من الحياة لتجوبه وهذا هو الأمر الحاسم: إنه المقطع المتبقّي لنا في هذه الدنيا، والطريقة التي نريد اجتيازها بها إذا ما قررنا البقاء في العالم، وعدم الرحيل وراء الأشباح التي تمارس جذبًا قويًا جدًا حين تكون لا تزال حديثة الموت، كما لو أنها تحاول جرجرتنا. فعندما يموت كثيرون ممن هم حولنا، كما في حرب، أو شخص واحد فقط عزيز جدًا، نشعر للوهلة الأولى بغواية الذهاب معهم، أو على الأقل حمل ثقل غمّهم، وعدم إفلاتهم. معظم الناس، مع ذلك، يتركونهم يرحلون نهائيًا مع مرور الوقت، عندما ينتبه هؤلاء إلى أن بقاءهم هم أنفسهم على قيد الحياة هو

أمر في مهب الريح، وأن الموتى هم ثقل كبير وأنهم يحولون دون أي نوع من التقدّم، وحتى دون أي نَفَس، إذا ما عاش المرء متعلّقًا كثيرًا بهم، متعلّقًا كثيرًا بجانبهم المظلم. لسوء الحظ أنهم صاروا ثابتين كرسوم، لا يتحرّكون، لا يضيفون شيئًا، لا يقولون شيئًا ولا يردّون قطّ، يقرّبوننا من التكييس، من حشرنا في ركن من لوحتهم التي لا تتقبّل لمسات إضافية عندما تكون ناجزة بصورة نهائية. الرواية لا تروي أحزان هذه الأرملة، إذا كانت قد وجدت مثلما هي موجودة لدى لويسا، ولا تتحدّث عن آلامها ولا عن حدادها، لا يجري تقديم الشخصية في هذه اللحظة، لحظة تلقّيها الخبر الرهيب، وإنما بعد حوالى عشر سنوات من ذلك، في العام ١٨١٧، على ما أعتقد، لكن هذا يفترض أنها تابعت الطريق الإجباري كله في مثل هذه الحالات (الذهول، الغم، الحزن، الإنهاك، الأصدقاء، الفزع، الخوف لدى التأكد من مرور الزمن، والاستعادة عندئذ)، ذلك أنها لا تظهر كذلك كشريرة قاسية كاملة، أو على الأقل ليس كشخص كان كذلك منذ البدء، الحقيقة أن هذا كله لا يُعرف، فهو يبقى في الظل.

قاطع ديات - باريلا نفسه وارتشف جرعة من الويسكي مع الثلج الذي كان جاهزًا في كأسه. لم يعد للجلوس بعد أن نهض لتناول الكتاب، أنا كنت متكئة على أريكته، لم نكن قد ذهبنا إلى سريره بعد. هكذا يجري الأمر عادة، في البدء نجلس ونتبادل الحديث خلال ساعة على الأقل، وأظل أنا متشكّكة إذا ما كان سيأتي الفصل الثاني، طريقة سلوكنا الأولية لا تأتي على ذكر ذلك بأي طريقة، إنها حالة شخصين لديهما أمور يرويانها أو يتحدّثان حولها وليس محتَّمًا عليهما بالمطلق أن ينتقلا إلى ممارسة الجنس. أنا لدي إحساس بأنه يمكن لذلك أو لا يمكن له أن يحدث، وأن الاحتمالين كليهما يكونان طبيعيين بالتساوي، وأنه لا يمكن لأي منهما أن يُعتبر مستبعدًا، بحيث تبدو كل مرة كما لو أنها المرة الأولى ولا شيء يتراكم مما هو في هذا الميدان - ولا حتى الثقة، ولا حتى مداعبة على الوجه -، والجولة نفسها يجب أن تبدأ من البداية بصورة دائمة. وكذلك هنالك اليقين بأنه سيحدث ما يريده هو، أو بكلمة أدق ما يقترحه، لأن الحقيقة أنه ينتهي هو نفسه إلى اقتراح ذلك دومًا، بكلمة أو إيماءة، ولكن بعد انتهاء جلسة تبادل الحديث فقط وحيال خجلي الذي لا أتغلّب عليه أبدًا. كنت أخشى أن يحدث في أية مناسبة، بدل القيام بتلك الإيماءة أو قول تلك الكلمة التي تدعوني إلى حجرة نومه، أو أن أستعد لرفع تنورتي، أن يضع فجأة - أو بعد لحظة صمت - حدًّا للحديث وللقاء كما لو كنا صديقين قد استنفدا موضوعات الحديث أو تنتظرهما أعمال أخرى، ويصرفني بقبلة إلى الشارع، لم يتوافر لي اليقين قطّ بأن تنتهي زيارتي بتشابك جسدينا. كان انعدام اليقين هذا يروق لي ولا يروق لي: فهو من جهة يجعلني أفكر بأنه يستمتع برفقتي في أي حال وأي ظرف، وأنه لا يراني مجرد آداة لسلامته الصحيه أو لتلهّفه الجنسي؛ ومن جهة أخرى أشعر بالغضب لأنه قادر على الصمود طوال ذلك الوقت بقربي، ولا يشعر بالضرورة المُلحّة لرمي نفسه عليّ دون مقدّمات، وإشباع رغبته؛ وأنه قادر على تأجيلها، أو ربما تكثيفها بينما أنا أنظر إليه وأسمعه. ولكن هذا التحفظ يمكن عزوه إلى عدم انسجام يسيطر علينا، أو لا نعرف التحوّل دونه، ولا سيما أن ما أخشى أن يحدث سيصل في النهاية دومًا، ولم تكن هنالك شكوى فوق ذلك.

- واصل، ما الذي حدث بعد ذلك، ما الذي يؤيدك فيه هذا الكتاب - قلت له.

لقد كان مفوَّهًا بكل تأكيد وكنتُ أفتتن بسماعه، مهما كان ما يحدثني فيه، حتى لو كان يروي لي قصة قديمة لبلزاك يمكن لي قراءتها بنفسي، وليس قصة يختلقها هو. من المؤكد أنه يفسّر أمورًا أو ربما يحوِّرها. يتوصّل إلى استثارة اهتمامي بأي شيء يختاره، والأسوأ من ذلك أنه يسلّيني (أسوأ لأنه يعي أنه سيكون عليَّ أن أبتعد ذات يوم). الآن، بعد أن لم أعد أذهب قطّ إلى بيته، أتذكّر تلك الزيارات كما لو أنها أرض سرية ومغامرة صغيرة، ربما بفضل الفصل الأول، أو هذا الفصل أكثر من الفصل الثاني غير المؤكّد، ولأنه فصل غير يقيني، فإنه يكون أكثر مدعاة للقلق.

- الكولونيل يريد استرداد اسمه، ومسيرته المهنية، ورتبته، وجدارته، وثروته أو جزء منها (فمنذ سنوات وهو يعيش في البؤس)، ويريد ما هو أشد تعقيدًا: استعادة امرأته التي صارت متعدّدة الأزواج إذا ما ثبت أن شابير هو حقًّا شابير وليس نصّابًا أو شخصًا شاذ الطباع. ربما تكون مدام فيرو قد أحبّته حقًّا وبكت موته عندما أُخبرت به، وأحست بأن العالم ينهار بها؛ ولكن ظهوره مجدّدًا أمر فائض عن السياق، وانبعاثه يعني إزعاجًا حقيقيًا، مشكلة كبيرة، تهديدًا بكارثة ودمار، وانهيار جديد للعالم في ذروة تناقض ظاهري: كيف يمكن للرجوع أن يعيد إحضاره من حيث كان اختفاؤه؟ هنا يظهر بوضوح، مع مرور الزمن، أنه يجب أن تتواصل كينونة ما كان، أو أن يواصل ما حدث حدوثه، مثلما يجري على الدوام، أو على الدوام تقريبًا، هكذا تُفهم الحياة، بطريقة أن ما حدث لا يمكن إلغاؤه أبدًا ولا إبطال حدوث ما قد حدث؛ الموتى يجب أن يبقوا في أمكنتهم ولا يمكن لأي شيء أن يعاد تصويبه. نسمح لأنفسنا بالشوق إليهم لأننا نمضي واثقين منهم: لقد فقدنا شخصًا ما، ولأننا نعرف أنه لن يحضر ولن يطالب بالمكان الذي تركه شاغرًا وأن المكان قد شُغل سريعًا، فإننا أحرار للتوق بكل قوانا لعودته. نشتاق إليه بطمأنينة أن رغباتنا المعلنة لن تتحقّق أبدًا وأنه لا وجود لإمكانية الرجوع، وأنه ما عاد بإمكانه التدخّل في حياتنا ولا في شؤون العالم، وأنه لن يخيفنا بعد الآن ولن يردعنا ولا تظل لدينا حتى أدنى ظلال إلى أنه لن يتاح له أبدًا أن يكون أفضل منا. نأسف بكل صدق لرحيله، وصحيح أنه عندما حدث له ذلك كنا نرغب في لو أنه ظلّ حيًّا؛ وأنه أحدث فراغًا مرعبًا، بل هوة أغرانا من خلالها بأن نلقي بأنفسنا وراءه للحظة، بصورة آنية. هذا هو التعبير: آنيًا، والغريب أن هذه الرغبة أو الوسوسة لا تنتصر. ثم تمر بعد ذلك الأيام والشهور والسنون ونستريح؛ نعتاد على ذلك الفراغ بل إننا لا نطرح إمكانية عودة الميت ليشغله، لأن الموتى لا يفعلون ذلك ونحن بمنجى منه، فضلًا عن أن هذا الفراغ قد غُطّي وبالتالي لم يعد هو نفسه أو أنه تحوّل إلى متخيل وهمي. المقربون جدًا منا نتذكّرهم كل يوم، بل إننا نشعر بالحزن حين نفكر بأننا لن نعود لرؤيتهم ولا لسماعهم أو الضحك معهم، أو لتقبيل من كنا نقبلهم. ولكن ليس هنالك من موت لا يُهدّئ شيئًا بطريقة ما، أو لا يوفّر فرصة ما عندما يحدث، وليس هنالك بالطبع أي موت مرغوب، ربما حتى موت الأعداء. يُبكى الأب، على سبيل المثال، لكننا نحتفظ بميراثه، ببيته، بأمواله وثرواته، وسيكون علينا أن نعيدها إليه إذا ما رجع، مما يضعنا في ضائقة ويسبب لنا كآبة محزنة، حتى لو تأخّرنا لبعض الوقت، وعشنا أكثر سعادة وعلى هوانا دونهم أو أننا نستطيع البدء من جديد، إذا كنا لم نتقدّم كثيرًا في السن: البشرية كلها تحت تصرّفنا، مثلما كنا في أوج شبابنا؛ احتمال الاختيار دون ارتكاب الأخطاء القديمة؛ راحة أننا غير مضطرين إلى تحمل رؤية وجهه أو وجهها الذي يزعجنا، وعلى الدوام هنالك ما يُزعج من هو موجود دومًا، إلى جانبنا أو في مواجهتنا أو خلفنا أو أمامنا، الزواج يطوق، الزواج يحاصر. يُبكى على الكاتب الكبير أو الفنان الكبير عندما

يموت، ولكنْ، هنالك نوع من السعادة، هنالك نوع من السعادة في معرفة أن العالم صار أكثر ابتذالًا ولو بقدر ضئيل وأكثر فقرًا وأن ابتذالنا وفقرنا يصبحان في هذه الحالة أكثر استتارة أو مداراة، إذ لم يعد موجودًا ذلك الشخص الذي بوجوده كان يُبرز وسطيتنا المقارنة، وأن الموهبة قد خطت خطوة أخرى على طريق اختفائها عن الأرض، أو أنها تنزلق أكثر فأكثر نحو الماضي، ذلك الماضي الذي يجب عدم الخروج منه أبدًا، والذي يجب البقاء مبعَدين فيه كيلا تكون هنالك إمكانية لمواجهتنا إلا بصورة استرجاعية، وهذا أقل تأثّرًا وبالإمكان تحمّله. إنني أتكلّم عن الأغلبية، وليس عن الجميع بكل تأكيد. ولكن هذا الابتهاج يُلحظ حتى في سلوك الصحافيين، ممن اعتادوا على عناوين، مثل «موت عبقري البيانو الأخير»، أو «سقوط أسطورة السينما الأخيرة»، كما لو أنهم يحتفلون مبتهجين بأنه لم يبق المزيد منهم ولن يوجد غيرهم، وأنه مع حدوث هذه الوفاة سنتحرّر من الكابوس الكوني بوجود أناس متفوقين أو ذوي مزايا خاصة يجب أن نقدّرهم رغمًا عنا؛ نُبعد هذه اللعنة أكثر قليلًا أو نقلّل من قيمتها. ويُبكى الصديق بالطبع، مثلما بكيت أنا ميغيل، ولكن في هذا يوجد أيضًا إحساس لطيف بالبقاء على قيد الحياة وبمستقبل أفضل، وأن يكون أحدنا هو من يحضر موت الآخر وليس العكس، وتأمل لوحته كاملة ورواية القصة أخيرًا، تولّي أمر الأشخاص الذي يتركهم مهجورين ومواسين. ومع توالي موت الأصدقاء يأخذ أحدنا بالشعور بأنه أكثر انقباضًا وأكثر وحدة، ولكنه في الوقت ذاته يأخذ بالطرح، «ناقص واحد، واحد أقل، أنا أعرف ما حدث لهم حتى اللحظة الأخيرة، وأنا من بقي ليروي ذلك. أما أنا، بالمقابل، فلن يراني أحد وأنا أموت ممن يهمّهم موتي حقًا ولن يكون قادرًا على رواية ذلك لي كاملًا، وبعد ذلك، سأكون بطريقة ما غير منتهٍ على الدوام، لأنهم لن يجدوا اليقين بأنني لست مستمرًّا بالعيش بصورة أبديه، ما داموا لم يروني أسقط».

لديه ميل قوي إلى المحاضرة والخطابة بإسهاب وكثير من الاستطراد، مثلما رأيت لدى غير قليل من الكتّاب الذين يمرّون من دار النشر، يبدو أنه لم يكن يكفيهم ملء أوراق وأوراق بما يخطر لهم ولقصصهم السخيفة عندما لا تكون تبجّحًا، عندما لا تكون فظاظات، عندما لا يكون ذلك كلّه مكشوفًا وظاهرًا للعيان، ما خلا استثناءات. ولكن ديات - باريلا لم يكن كاتبًا بالضبط، ولم يكن يزعجني في الحالة التي هو عليها، بل أكثر من ذلك، لقد تواصل على الدوام حدوث ما حدث لي في المرة الثانية التي رأيته فيها، على مقهى الرصيف المجاور للمتحف، حيث لم أكن أستطيع، بينما هو يتكلّم بإسهاب، رفعَ عيني عنه؛ كان يسحرني بصوته المنخفض ويؤثر بي، ويبدو ذلك كله أشبه بآلة موسيقية تبث معاني، ربما بيانو يُعزَفُ ببراعة. ومع ذلك، كنت أشعر في هذه المرة بالفضول لمعرفة الكولونيل شابير ومدام فيرو، وقبل ذلك كله معرفة السبب في أن رواية بلزاك القصيرة تلك تمنحه الحق في ما يتعلّق بلويسا، حسب رأيه، وإن كنت آخذة بتخيّل هذا الأمر الأخير.

- أيوه، ولكن ما الذي حدث للكولونيل؟ - قاطعته، ورأيت أنه لا يأخذ ذلك على محمل السوء، لديه وعي لميله وربما يشعر بالامتنان أنه يكبحة -. هل تقبَّله عالم الأحياء الذي ينوي العودة إليه؟ هل تقبلته امرأته؟ هل تمكّن من العودة إلى الوجود؟

- ما حدث هو الأقل شأنًا. إنها رواية، وما يحدث فيها لا أهمية له ويُنسى فور الانتهاء منها. المهم هي الاحتمالات والأفكار التي تلقحنا وتأتي من خلال حالاتها المتخيلة، وتظل في ذاكرتنا بصفاء أكبر من الحوادث الواقعية ونأخذها في الاعتبار أكثر. فما حدث للكولونيل تستطيعين التحري عنه بوسائلك الخاصة، ولن تكون سيئة لك قراءة كُتّاب غير معاصرين بين حين وآخر. سأعيرك الكتاب إذا ما رغبتِ بذلك، أم إنك لا تقرأين بالفرنسية؟ الترجمة المتداولة ليست سيئة. لم يعد هنالك تقريبًا من يعرف الفرنسية. - كان قد درس في الليسيه؛ قليل ما رواه كل منا عن قصة حياته، وكان هذا مما أخبرني به -. ما هو مهم هنا هو أن ذلك الظهور للمدعو شابير لم يكن سوى تعاسة مطلقة. بالنسبة لامرأته بالطبع، إذ كانت قد أعادت تكوين نفسها وصارت لها تلك الحياة الأخرى التي لا متسع له فيها أو أنها تتّسع له باعتباره ماضيًا وحسب، مثلما كان؛ كذكرى باهتة أكثر فأكثر، كميت قد شبع موتًا، مدفون في قبر جماعي مجهول وبعيد مع شهداء آخرين في معركة إيلو، تلك المعركة التي بعد انقضاء عشر سنوات، لم يعد هنالك تقريبًا من يتذكرها أو يريد تذكّرها، لأسباب عديدة، منها أن من أطلقها صار منفيًا وهو يذوي في سانت هيلانة، ومن يحكم الآن هو الملك لويس الثامن عشر، وأول ما يفعله كل نظام عادة هو أن يلفّ النظام السابق له في النسيان ويجعله يتضاءل ثم يمحوه، ويحوّل من خدموه إلى متعفّني حنين لم يبق أمامهم سوى الانطفاء بهدوء والموت. وقد كان الكولونيل يعرف ذلك منذ اللحظة الأولى، ويعرف أن بقاءه حيًا هو لعنة لزوجته الكونتيسة التي لم تردّ على رسائله الأولية ولا تريد رؤيته، وليست مستعدة للمجازفة بالاعتراف به، وتثق بأن الأمر يتعلّق بمعتوه أو بمهرج. أو فليرجع إلى حقول الثلج، عندما لا يعود بإمكانها مواصلة الإنكار، كي يموت هناك مرة أخرى، دفعة واحدة وإلى الأبد. عندما يلتقيان أخيرًا ويتحدّثان، يتوجه إليها الكولونيل الذي لم يجد أسبابًا للتخلي عن حبّه لها خلال منفاه الطويل في الأرض مع المشقّات اللامتناهية لكونه متوفّى، ويسألها - بحث ديات - باريلا عن عبارة أخرى في المجلد

الصغير، على الرغم من أن هذه العبارة كانت قصيرة جدًا ولا بد أنه يحفظها عن ظهر قلب -: «هل يسيء الموتى التصرّف برجوعهم؟»، أو ربما (يمكن فهمها كذلك على هذا النحو): «هل يخطئ الموتى حين يرجعون؟». فما يقوله بالفرنسية هو التالي: « Les morts ont donc bien tort de revenir?» - ويبدو لي أن نبرة صوته كانت جيّدة أيضًا بهذه اللغة -. فترد عليه الكونتيسة بصورة منافقة: «آه يا سيد، لا، لا! لا تظنني سيادتك أنني جاحدة»، وتضيف: «إذا كنت لم أعد قادرة على حبك، فإنني أعرف كل ما أنا مدينة به لك، وما زال بمقدوري أن أقدّم إليك عواطف ومحبة ابنة». ويقول بلزاك إنه بعد سماع ردّ الكولونيل المتفهّم والسخي على هذه الكلمات - وقرأ دياث - باريلا من جديد (فم لحميّ، فم للتقبيل) -، «وجهت إليه الكونتيسة نظرة مضمخة باعتراف بالجميل رغب معها شابير المسكين في أن يعود ليندسَّ في حفرة قبر إيلو الجماعي». هذا يعني، يجب فهم، أنه رغب في عدم التسبب لها بأية مشاكل أو إزعاجات، وعدم التدخّل في عالم لم يعد عالمه، وألا يكون كابوسها ولا شبحها ولا عذابها، وأن يلغي نفسه ويختفي.

- وهل هذا ما فعله؟ هل غادر الميدان واعترف بهزيمته؟ هل رجع إلى قبره، هل انسحب؟ - سألتُه مستغلةً توقفه وصمته.

- سوف تقرأين ذلك. ولكن هذه التعاسة بالبقاء حيًّا بعد أن مات وبعد أن اعتُبر ميتًا حتى في حوليات الجيش («حدث تاريخي»)، لا يصيب امرأته فقط، وإنما يصيبه هو أيضًا. لا يمكن الانتقال من حالة إلى أخرى، أو بعبارة أدق، من الحالة الثانية إلى الأولى، طبعًا، مع وعيه الكامل بأنه جثة، جثة رسمية وإلى حدّ كبير جثة حقيقية، هو نفسه اعتقد بأنه جثة بالكامل وسمع أنين أمثاله الذي لا يمكن لأي حي أن يسمعه. عندما يَمْثُل في بداية الرواية في مكتب المحامي، يسأله أحد الكتبة أو السعاة عن اسمه. فيجيب: «شابير»، فيقول له: «الكولونيل الميت في إيلو؟». ويرد عليه الشبح بعيدًا تمامًا عن أي احتجاج أو تمرّد، أوغضب، أو مناقضة على الفور، مكتفيًا بالموافقة وتأكيد ما قاله بصورة وديعة: «هو نفسه، أيها السيد». وبعد قليل من ذلك، يكون هو نفسه من يتبنّى هذا التعريف. فحين يتمكّن أخيرًا من مقابلة المحامي ديرفيل شخصيًا، ويسأله هذا الأخير: «أيها السيد، مع من أتشرّف بالحديث؟»، يجيبه: «مع الكولونيل شابير»، «من؟». ألحَّ المحامي، وما سمعه بعد ذلك عبث لا يتخلّى عن كونه الحقيقة الخالصة: «الذي مات في إيلو». وفي لحظة أخرى يكون بلزاك هو من يشير إليه بهذه الطريقة، وإن يكن بسخرية: «أيها السيد، قال المتوفّى...»، هذا ما كتبه. الكولونيل يعاني دون توقّف من وضعه الملتبس كرجل لم يمت عندما حلّ ميعاد موته، أو حتى بعد أن مات، مثلما أرسل للتصحيح بأسى إلى نابليون نفسه. وحين عرض حالته على المحامي ديرفيل، يعترف له بما يلي: - وبحث دياث - باريلا بين الصفحات إلى أن وجد النص: - «أقسم أنه منذ ذلك الزمن، وحتى اليوم، صار اسمي يبدو لي كريهًا في بعض اللحظات، فأرغب في ألا أكون أنا. الشعور بحقوقي يقتلني. لو أن مرضي انتزع مني ذكريات حياتي السابقة كلها، لجعلني ذلك سعيدًا». لاحظ جيدًا: «اسمي يبدو لي مزعجًا، أرغب في ألا أكون أنا». - كرّر لي دياث - باريلا هذه الكلمات، أكّدَ لي عليها -. أسوأ ما يمكن أن يحدث للمرء، أسوأ من الموت نفسه؛ كما أن أسوأ ما يمكن أن يفعله أحدنا للآخرين، هو العودة من الجانب الذي لا يمكن العودة منه، الانبعاث في غير حينه، عندما لا يكون هنالك من ينتظره، حين يكون الوقت قد فات ولم يعد مناسبًا، بعد أن صار الأحياء يعتبرون أحدنا منتهيًا وواصلوا حيواتهم وجدّدوها دون أخذه في الاعتبار. لا وجود لنكبة أكبر من

نكبة من يرجع من الموت، يكتشف أنه فائض على الحاجة، وأن حضوره غير مرغوب فيه، وأنه يعكّر صفو الكون، ويشكّل عقبة مزعجة لأحبته دون أن يدري هؤلاء ما الذي يمكنهم عمله به.

- «أسوأ ما يمكن أن يحدث للمرء»، ياه. إنك تتكلّم كما لو أن ذلك يحدث، وهو أمر لا يحدث أبدًا، أو أنه يحدث في الروايات المتخيَّلة وحسب.

- للروايات القدرة على تعليمنا ما لا نعلمه وما لا يحدث - أجابني بسرعة -، وهي تتيح لنا، في هذه الحالة، أن نتخيّل مشاعر ميت يجد نفسه مُجبَرًا على الرجوع من الموت، وتُبين لنا لماذا يجب على الموتى عدم الرجوع. وباستثناء من في عقولهم خلل كبير أو الشيوخ الهرمين، يبذل الجميع، عاجلًا أو آجلًا، الجهود لنسيانهم. تجنُّب التفكير بهم، وعندما لا يستطيع أحدهم ذلك لسبب ما، يغتاظ، يغتَّم، يتوقّف، تطفر منه الدموع، ويجد نفسه عاجزًا عن المواصلة إلى أن يزيح التفكير القاتم عن كاهله أو يُجهض التذكُّر. وعلى المدى الطويل، لا تخدعنَّ نفسك، وحتى على المدى المتوسط، ينتهي الأمر بالجميع إلى نفض الموتى عنهم، فهذا هو مصيرهم النهائي، والاحتمال الأكبر هو أنهم، هم أنفسهم، يُبدون موافقتهم على هذا الإجراء، وأنهم بعد معرفتهم لوضعهم وتأكّدهم منه، لا يكونون مستعدين كذلك للرجوع. ومن توقفوا عن الحياة، من لم يبالوا بها، حتى لو لم يكن ذلك بإرادتهم وإنما بقتلهم غيلة وبالرغم عنهم، لا يودّون العودة للانضمام إلى الحياة وتجديد الإنهاك العظيم في الوجود. انظر إلى الكولونيل شابير كيف عانى معاناة لا سبيل إلى مقارنتها ورأى ما نعتبره جميعنا الفظائع الكبرى، فظاعات الحرب؛ فيقول أحدنا إنه لا يمكن لأحد أن يقدّم دروسًا في الرعب لمن شارك في معارك شرسة دارت في أجواء برد لا طاقة للبشر على تحمله، مثلما هي الحال في إيلو، ولم تكن هذه المعركة هي الأولى التي شارك فيها، وإنما هي الأخيرة؛ هناك تواجه جيشان كل جيش منهما يضم خمسة وستين ألف رجل؛ ومن غير المعروف بدقة عدد من ماتوا، ولكن يقال إنهم ربما لم يكونوا أقل من أربعين ألفًا، وأن القتال استمر أربع عشرة ساعة متواصلة أو أكثر إن كان ذلك قليلًا: سيطر الفرنسيون على ميدان المعركة، ولكن ذلك الميدان لم يكن سوى امتداد ثلجي شاسع تتراكم فيه الجثث، وقد تعرّض الجيش الروسي لأضرار كبيرة عندما انسحب، لكنه لم يكن محطمًا. كان الفرنسيون في حالة مزرية ومستنفَدين وخائري العزائم، إلى حدّ أنهم خلال أربع ساعات، ومع دخول الليل، لم ينتبهوا إلى أن أعداءهم يغادرون منسحبين بصمت. لم يكونوا في وضع يسمح لهم بمطاردتهم. يحكى أن الماريشال ني جال على الميدان على صهوة حصانه، وأن التعليق الوحيد الذي خرج من بين شفتيه عَكَسَ مزيجًا من القشعريرة والاستنكار: «يا للمجزرة! وبلا أية نتيجة». مع ذلك، وعلى الرغم من ذلك كلّه، لم يكن الرجل العسكري تحديدًا، لم يكن شابير، وإنما المحامي ديرفيل الذي لم ير في حياته قطّ اندفاع هجوم خيالة ولا جرحًا بحربة ولا أضرارًا أحدثتها قذيفة مدفع، بل أمضى حياته في مكتبه أو في المحاكم، بعيدًا عن العنف البدني، لا يكاد يخرج من باريس، كان هو من سمح لنفسه في نهاية الرواية بالكلام وتنويرنا حول الأهوال الرهيبة التي شهدها على امتداد مسيرته المهنية، وهي مسيرة مدنية، لم يمارسها في الحرب وإنما في السلام، ليس في الجبهة وإنما في المؤخرة. يقول لموظفه القديم غوديشال، الذي سيبدأ التدرب الآن كمحام: «أتعرف حضرتك، أيها الصديق العزيز، أنه يوجد في مجتمعنا ثلاثة رجال: الكاهن، والطبيب، ورجل العدالة، لا يمكن لهم تقييم العالم؟ لباسهم السواد، ربما لأنهم في حالة حَدَاد على الفضائل كلها، وعلى الأوهام كلها. وأشد الثلاثة تعاسة هو المحامي. فعندما يلجأ الناس إلى الكاهن،

للتحدّث إليه، يفعلون ذلك بتأنيب ضمير، بندم، بإيمان بمعتقدات تُعظّمه وتضفي عليه أهمية، فيسعدون بذلك نفس الوسيط بطريقة ما. «أما نحن معشر المحامين» - وهنا قرأ لي دياث - باريلا بالاسبانية من الصفحة الأخيرة في الرواية، وهو يقوم بالترجمة، دون شك، أثناء القراءة، أي أنه لم يهيّئ مسبقًا نسخة مترجمة -، «نحن نرى تكرار النوازع الخبيثة نفسها، لا شيء يصلحها، مكاتبنا هي مجارير لا يمكن تنظيفها. كم من أمور علمت بها وأنا أزاول مهنتي! لقد رأيت موت أبٍ في مخزن غلال، وليس لديه قرش واحد، بعد أن تخلّت عنه ابنتاه اللتان كان قد منحهما دخلًا بقيمة أربعمئة ألف ليبرة! رأيتُ إحراق الوصايا وإتلافها؛ رأيتُ أمهات يسلبن أبناءهن، وأزواجًا يسرقون ممتلكات زوجاتهم، ونساءً يقتلن أزواجهن مستغلات الحب الذي يستثرنه لتحويلهم إلى مجانين أو بلهاء، بهدف العيش بسلام مع عشيق. رأيتُ نساء يعطين لطفل رضيع قطرات من سائل يجلب له الموت، بهدف إثراء ابن الغرام. لا يمكنني أن أقول كل ما رأيته، لأنني رأيت جرائم ضد من يرون أن العدالة مهمة. وباختصار، جميع الفظائع التي يظن الروائيون أنهم يختلقونها تظلّ على الدوام أقل من الحقيقة. سوف تعرف حضرتك كلَّ هذه الأشياء الجميلة، وأقول لحضرتك؛ سوف أذهب للعيش في الريف مع زوجتي، لأن باريس تسبّب لي الرعب».

أطبق دياث - باريلا المجلّد الصغير واحتفظ بصمت قصير مناسب لأية نهاية. لم ينظر إليّ، ظل نظره ثابتًا على الغلاف، كما لو أنه يتردد في إعادة فتحه، في العودة للبدء به من جديد. أما أنا فلم أستطع عدم السؤال مرة أخرى عن الكولونيل:

- كيف انتهى الأمر بشابير؟ أظن بأن النهاية كانت سيئة، ما دامت المحصلة على هذا القدر من التشاؤم. ولكنها في الوقت ذاته رؤية جزئية جدًا، مثلما تقرّ الشخصية نفسها بذلك: رؤية أحد أولئك الرجال الثلاثة الذين لا يستطيعون تقييم العالم، والأشد تعاسة، حسب رأيه. ولحسن الحظ أن هنالك شخصيات أكثر بكثير، ومعظمها يختلف عن حال أولئك الثلاثة. لكنه لم يُجبني. والواقع أنه كان لديّ انطباع، بصورة أولية، بأنه لم يحاول مجرد سماعي.

- هكذا تنتهي القصة - قال -. حسنًا، تنتهي تقريبًا: بلزاك يجعل غوديشال هذا يردّ بجملة لا تخطر على بال، وتوشك على إلغاء قوة تلك الرؤية التي أنهيت قراءتها لك؛ إنه خلل صغير في نهاية المطاف. فهذه الرواية كُتبت عام ١٨٣٢، أي منذ مئة وثمانين عامًا، على الرغم من أن الحديث بين المحاميَيْن، المتمرس والمستجد، يضعه بلزاك بصورة مثيرة للاستغراب في العام ١٨٤٠، أي في ما كان آنذاك مستقبلًا، في تاريخ لم يكن متأكدًا من أنه سيعيشه، كما لو أنه يعلم علم اليقين أن شيئًا لن يتغير، ليس في السنوات الثمانيَ التالية فقط وإنما بالمطلق. إذا كانت هذه هي نيته، فإنه محق بالكامل. فالأمور لا تستمرّ اليوم مثلما وصفها آنذاك وحسب، بل ربما هي أسوأ، واسأل عن ذلك أي محام. فالأمور كانت هكذا على الدوام. عدد الجرائم المفلتة من العقاب يفوق بأضعاف عدد ما عوقب منها؛ مع أننا لم نتحدّث عن الجرائم المجهولة أو الخفية، وهذه لا بد من أن تكون أكثر بصورة لا متناهية من تلك المعروفة والمسجَّلة. من الطبيعي في الواقع أن يكون ديرفيل وليس شابير هو المكلّف بالحديث عن أهوال العالم. فالجندي في نهاية المطاف يلعب لعبة نظيفة نسبيًا، إنه يعرف ما هو ذاهب إليه، لا يخون ولا يخدع، ويتصرّف ليس فقط بانصياع للأوامر، وإنما بدافع الضرورة: فحياته أو حياة العدو التي يراد انتزاعها أو أنه، بتعبير أدق، يجد نفسه في الخيار نفسه

كذاك. الجندي لا يتصرف عادة بمبادرة منه، لا يضمر أحقادًا ولا ضغائن ولا حسدًا، لا يحرّكه الجشع على المدى الطويل ولا المطامع الشخصية؛ يخلو من أية أسباب أبعد من الوطنية الغامضة، الخطابية والفارغة، هذا لمن يشعرون وينقادون للقناعة بها: كان ذلك يحدث في زمن نابليون، أما الآن فهو أمر نادر، هذا النوع من الرجال لم يعد لهم وجود تقريبًا، على الأقل في بلداننا وجيوشها المرتزقة. مجازر الحروب مرعبة، أجل، لكن من يتدخّلون فيها ينفّذون الأوامر فقط ولا يُديرون آليتها، بل لا يديرها بالكامل السياسيون ولا الجنرالات ممن لهم رؤية تصبح أكثر فأكثر تجريدية وغير واقعية لتلك المجازر، فهؤلاء لا يحضرونها بكل تأكيد، وفي هذه الأيام أكثر من أي وقت آخر؛ الحقيقة أن ذلك أشبه بإرسالهم إلى الجبهة أو لقصف جنود دمى صغيرة لا تظهر وجوههم أبدًا، أو ربما، في يومنا هذا، كما أفترض، كما لو أنهم يُفَعّلون وينكبون على لعبة تعتمد أكثر على الكمبيوتر. أما جرائم الحياة المدنية بالمقابل فإنها تبعث على القشعريرة حقًا، تثير الهلع. ربما ليس بسببها تحديدًا، إذ إنها أقلّ لفتًا للاهتمام، وهي محدودة ومتفرقة، واحدة هنا، وأخرى هناك، وحدوثها بطريقة التنقيط يبدو أنه أكثر تهدئة للسماء ولا يؤدّي إلى موجات احتجاج مهما كان تواتر حدوثها: كيف يمكن الاحتجاج إذا كان المجتمع يتعايش معها وهو مضمَّخ بطابعها منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة. ولكن قد يحدث ذلك، أجل، بسبب مغزاها. وفي هذا تشارك على الدوام الإرادة الفردية والدافع الشخصي، كل منهما يُدْرَكُ ويُدبَّر من قبل عقل واحد، أو من بضعة عقول قليلة إذا ما كانت تتعلّق بمؤامرة؛ وتحتاج إلى مسافات متباعدة كثيرة، متباعدة تفصل بينها كيلومترات أو سنوات أو قرون، ليست معروضة في البدء للعدوى المشتركة، كي تُقترف بكثرة مثلما كان الحال وما زال؛ وهذا، بطريقة ما، هو أكثر إثارة للإحباط من مجزرة جماعية ينظّمها رجل واحد، عقل واحد نستطيع أن نعتبره على الدوام عقلًا غير إنساني واستثناء تعيسًا: من يعلن حربًا غير عادلة ومفتوحة الجبهات ويبدأ ملاحقة شرسة، ويفتي بالإبادة أو يطلق جهادًا. ولكن الأسوأ ليس هذا، مع أنه فظيع، أو أنه كذلك كميًا فقط. الأسوأ هو أن أفرادًا مختلفين من أي عصر أو بلاد، كل منهم لحسابه الخاص ومجازفته، كل منهم بأفكاره وأهدافه الخاصة وغير القابلة للتحوّل، يتوافقون على اتخاذ الاجراءات نفسها بالسرقة والنصب والاحتيال، والقتل أو الخيانة ضد أصدقائهم، زملائهم، إخوتهم، آبائهم، أمهاتهم، زوجاتهم أو عشيقات من يريدون التخلّص منهم. ضد أولئك الذين ربما كانوا الأحب إليهم ذات يوم، من كان يمكن أن يقدموا حياتهم من أجلهم أو أن يقتلوا من يهدّدهم، ومن كان يمكن لهم أن يواجهوا أنفسهم لو أنهم رأوا المستقبل، ولكانوا مستعدين لأن يوجّهوا لأنفسهم الضربة القاضية التي يتهيأون الآن لتوجيهها إليه دون تردّد أو وازع. هذا هو ما يشير إليه ديرفيل: «نحن نرى تكرار المشاعر الخبيثة نفسها، لا شيء يصلحها، مكاتبنا للمحاماة ليست سوى مجارير لا سبيل إلى تنظيفها... لا يمكنني إخبارك بكل ما رأيته...». - أوردَ دياث - باريلا الاستشهاد هذه المرة من الذاكرة وتوقّف، ربما لأنه لم يتذكّر المزيد، وربما لأنه ليس لديه هدف يسعى إليه. أعاد تثبيت نظره على الغلاف، الصورة التي عليه لوحة لوجه جندي من الخيّالة، أو هذا ما بدا لي، بأنف صقريّ، ونظرة شاردة، وشارب طويل معقوف، وخوذة مجنّحة، ربما هي لوحة للرسام تيودور جيريكو؛ وأضاف كمن يغادر تلك النظرة التائهة ويخرج من حلم -: إنها رواية مشهورة، وإن كنت لا أعرف ذلك من قبل. حتى إن ثلاثة أفلام قد صُنعت منها، فتصوّري.

عندما يكون أحدهم مغرمًا، أو بتحديد أكبر عندما تكون امرأة مغرمة وفي بداية الغرام، وما زال لغرامها جاذبية الكشف، فنحن على العموم قادرات على الاهتمام بأي أمر يهتم به من نحبّه، أو يحدّثنا هو نفسه عنه. لا نفعل ذلك تظاهرًا فقط من أجل شكره، أو من أجل غزوه، أو من أجل تثبيت موقعنا الهشّ لديه، وإنما نبدي كذلك اهتمامًا حقيقيًا، ونفسح المجال لتنتقل إلينا حقًا عدوى أي شيء يشعر به أو يبثّه، سواء أكان حماسةً أو نفورًا، أو تعاطفًا، أو خشية، أو قلقًا، أو حتى مجرّد هاجس أو فكرة متسلّطة. لا نقول مرافقته في تأمّلاته المرتجلة، وهي أكثر ما يُقَيِّد ويَجُرُّ لأننا نشهد ولادتها وندفعها، ونراها تتمطّى وتتردّد وتتعثّر. وفجأة تستهوينا وتحرك مشاعرنا أمور لم نكرس لها من قبل أي قدر من التفكير، نلتقط نزوات لا ريب فيها، ندقّق في تفاصيل كانت قد مرّت علينا دون أن تلفت انتباهنا، وأن إدراكنا واصل إغفالها حتى نهاية أيامنا، نركّز طاقاتنا على مسائل لا تؤثّر علينا إلا بصورة ثانوية، أو بفعل سحر أو عدوى، كما لو أننا نقرّر العيش على شاشة، أو في مشهد، أو ضمن رواية، في عالم غريب متخيَّل يستغرقنا ويسلّينا أكثر من عالمنا الحقيقي الذي نتركه معلّقًا آنيًا أو في مكانة ثانوية، ونرتاح منه في أثناء ذلك (لا وجود لما هو أشد غواية من الاستسلام لآخر، حتى لو كان ذلك بالمخيلة فقط، وتبنّي مشاكله والغوص في وجوده، ولأنه ليس وجودنا فإنه، لهذا السبب بالذات، يظل أخف وطأة). ربما من المبالغة التعبير عنه على هذا النحو، ولكننا نضع أنفسنا مبدئيًا في خدمة من وقعنا في حبه، أو من صرنا تحت تصرّفه على الأقل، ومعظمنا يفعلن ذلك دون خبث، أجل، جاهلات أنه سيأتي يوم، إذا ما رسَّخنا موقعنا وشعرنا بالثبات، سينظر فيه إلينا بخيبة أمل وحيرة لتأكده من أننا لم نعد نهتم بما كان يستثير عواطفنا في ما مضى، وأننا نشعر بالضجر مما يرويه لنا دون أن يغيّر في الموضوعات ومن أن هذه الموضوعات قد فقدت أهميتها. سيعني ذلك أننا قد توقّفنا فقط عن بذل الجهد في حماستنا للبدء من جديد، وليس أننا كنا نتظاهر وكنا زائفات منذ اللحظة الأولى. لم تكن هنالك مع ليوبولدو ذرة واحدة من هذا الجهد، لأنه لم يكن موجودًا كذلك في هذا الحب الطوعي والساذج وغير المشروط؛ ولكن بلى، في المقابل، مع دياث - باريلا الذي تقلّبت معه حميميًا - هذا يعني، بحذر ودون الإثقال عليه، ولا حتى جعله يلحظ ذلك - بالرغم من معرفة أنه لا يستطيع التجاوب معي، لأنه هو نفسه بدوره في خدمة لويسا، فضلًا عن أنه قد أمضى، بالقوة، وقتًا طويلًا بانتظار فرصته.

حملت رواية بلزاك الصغيرة (أجل، أعرف الفرنسية) لأنه كان قد قرأها وحدّثني عنها، وكيف لا أهتم بما اهتم به إذا كان هو في مرحلة الغرام التي تمثّل فيها تلك الرواية كشفًا. وكنتُ أيضًا، بدافع الفضول، أريد أن أتحرّى عمَّ حدث للكولونيل، مع أنني افترضتُ أنه لم ينته نهاية حسنة، وأنه لم يستعِدْ زوجته ولم يستعِدْ ثروته ولا مكانته واحترامه، وأنه قد يحنّ إلى شرطه كجثة. لم أقرأ من قبل أي شيء لهذا الكاتب، إنه اسم مشهور آخر، مثل أسماء كثيرة أخرى، لم أُطِلّ عليه من قبل، صحيح أن العمل في دارٍ للنشر يحول دون المعرفة، وبنوع من التناقض الظاهري، فكل ما هو قيّم مما أبدعه الأدب، ما حكم عليه الزمن ومنحه بصورة إعجازية صلاحية البقاء إلى ما هو أبعد من لحظته القصيرة التي تصبح في كل مرة أقصر. ولكنني كنت مأخوذة كذلك بمعرفة سبب تدقيق دياث - باريلا بالرواية وتوقّفه طويلًا عندها، لماذا حملته إلى تلك التأملات، لماذا يستخدم هذه الرواية ليثبت أن الموتى يكونون على ما يرام في موتهم وأنهم يجب ألا يعودوا أبدًا، حتى ولو كان

موتهم مفاجئًا وجائرًا وغبيًا، ومجّانيًا ومؤسفًا مثلما هو موت ديسفيرن، حتى لو لم يكن هنالك وجود لهذه المجازفة، مجازفة عودته للظهور. فكان كمن يخشى أن يكون ذلك الانبعاث ممكنًا في حالة صديقه، ويريد إقناعي أو إقناع نفسه بالخطأ الذي سيعنيه ذلك، وعدم ملاءمته، وحتى الضرر الذي سيسببه ذلك الرجوع للأحياء وكذلك للمتوفّى نفسه، مثلما هي التسمية الساخرة التي أطلقها بلزاك على ذلك الناجي حيًا والشبحي المدعو شابير، وأصناف المعاناة غير المجدية التي سبّبها للجميع، كما لو أن الموتى الحقيقيين يمكن لهم أن يعانوا. وهكذا تشكّل لديّ انطباع بأن دياث - باريلا يسعى جاهدًا لإقرار وتأكيد صحة رؤية المحامي ديرفيل المتشائمة، وأفكاره القاتمة حول القدرة غير المتناهية للأفراد العاديين (مثلك ومثلي) على الجشع والجريمة، من أجل وضع مصالحهم الخاصة الدنيئة فوق أية اعتبارات أخرى من الرحمة والمحبة وحتى من الخوف. بدا كما لو أنه يريد أن يُثبت من خلال رواية - وليس من خلال تقرير صحافي أو بعض الحوليات أو من خلال كتاب تاريخ - إقناع نفسه بأن البشرية هكذا بطبيعتها وقد كانت كذلك على الدوام، وبأنه لا مفر، وأنه لا مجال سوى لانتظار أكبر الدناءات والخيانات وأعمال القسوة وعدم الوفاء والخدع التي تظهر وتُقترَف في كل زمان ومكان دون حاجة إلى نماذج سابقة أو موديلات تُحتذى، باستثناء أن معظمها يبقى طي الكتمان، مستترًا، سرًّا لا يخرج أبدًا إلى النور، ولو بعد مرور مئة سنة، وهو بالضبط الوقت الذي لن يبقى فيه مَنْ يهتم بمعرفة ما الذي حدث منذ زمن بعيد جدًا. ولم يصل إلى قول ذلك، إلا أنه من السهل استنتاج أنه لم يكن يعتقد بوجود استثناءات كثيرة، مع أنه ربما تكون قد وجدت استثناءات قليلة محدودة لأناس ساذجين، وحيث يمكن لها أن تكون قد وجدت فإن السبب الحقيقي يتمثّل عادة في الغياب المحض للمخيلة أو الجرأة، أو ربما عجز مادي عن تنفيذ الجريمة، أو ربما يكون السبب جهلنا، أو عدم معرفتنا بما فعله الناس وخططوا له وأمروا بتنفيذه، وتوصّلوا إلى إخفائه.

عند الوصول إلى نهاية الرواية، إلى كلمات ديرفيل التي ألقاها دياث - باريلا مرتجلًا بالإسبانية، استرعى اهتمامي أنه قد ارتكب خطأ في الترجمة، أو ربما أنه فهم بصورة سيئة، وربما بطريقة غير إرادية، أو ربما متعمدًا كي يبدو محقًا أكثر؛ ربما أراد أو اختار قراءة شيء غير موجود في النص وأنه، في ترجمته الخاطئة، سواء أكانت متعمَّدة أو غير متعمّدة، فإنها تعزز ما كان يحاول وصفه وإبرازه عن مدى القسوة التي كان عليها الرجال، أو النساء في هذه الحالة. إذ استشهد بما يلي: «رأيت نساءً يقدّمن لطفل فراش زوجي أولى قطرات سائل تحمل إليه الموت، بهدف إثراء ابن الغرام». حين سمعتُ هذه الكلمات تجمَّد الدم في عروقي، لأنه لا وجود في أذهاننا عادة لفكرة وجود أم تميّز بين أبنائها، والأدهى أن تُقدِم على فعل ذلك بالاستناد إلى من هو أب كل منهما، ومدى حبّها لأحدهما ومقتها للآخر أو معاناتها منه، وفضلًا عن أنها قادرة على التسبّب بموت ابنها الأول لمصلحة الابن الآخر المفضّل، بتقديمها السّمَّ إليه بالحيلة، مستغلة ثقته العمياء بمن جاءت به إلى الدنيا، ومن غذَّته ورعَته وعالجته خلال حياته كلها، وربما تقدّم إليه السّمَّ بطريقة علاجية، كما لو أنه قطرات شراب مضاد للسعال. ولكن ليس هذا هو ما يقوله النصّ الأصلي، ففي الرواية لا يُقرأ ‘J’ai vu des femmes donnant à l’enfant d’un premier lit des gouttes qui devaient amener sa mort...’، وإنما يُقرأ: ‘des goûts’، وهذه لا تعني «قطرات» وإنما «طعومًا أو مذاقات»، وإن يكن من غير الممكن ترجمتها هنا بهذا المعنى الحرفي، لأنها ستكون غامضة في أدنى تقدير أو أنها

ستؤدّي إلى تشوّش المعنى واختلاطه. مما لا ريب فيه أن فرنسية دياث - باريلا أفضل من فرنسيتي، ما دام قد درس في الليسيه، لكنني تجرّأت على التفكير بأن المعادل الأكثر ملاءمة لما كتبه بلزاك يجب أن يكون شيئًا شبيهًا بهذا: «رأيت أمهات يرسخن في ذهن - أو يلقِّنَّ - ابن الزوج الأول هوايات أو ميولًا ستودي به بكل تأكيد إلى الموت، بهدف تأمين مزيد من الثراء لابن الغرام».. إذا ما أمعنا النظر جيدًا، فإن الجملة ليست واضحة بما يكفي حسب هذه الترجمة، وليس من السهل تصوّر ما الذي يعنيه ديرفيل بالضبط. هل يعني: منحه، وتلقينه ميولًا تودي به إلى الموت؟ أيكون ذلك من خلال الشراب، أو الأفيون، أو ألعاب القمار، أو ذهنية إجرامية؟ أيكون الإعجاب بالترف الذي لا سبيل إلى الصعود دونه هو ما ستوصله مساعي الحصول عليه إلى الانحراف، أم إنه الشبق المَرَضي الذي يُعَرّضه للإصابة بالتهابات أو يدفعه إلى التعدّي والاغتصاب؟ أم إنه طبع خوِّيف وضعيف جدًا يدفعه إلى الانتحار لدى تعرّضه لأول محنة؟ أجل، إنها عبارة غامضة وأشبه بأحجية. مهما يكن الأمر، وفي كل الأحوال، حين يحدث هذا الموت المرغوب والمدبَّر، مهما كان بطء الخطة، أو طال أمد الاستثمار. وفي الوقت ذاته، إذا كان الأمر على هذا النحو، فإن درجة فساد تلك المرأة ستكون أكبر بكثير من الاقتصار على إعطاء ابنها البكر بضع قطرات قاتلة مستترة، ربما لا يمكن إلا لطبيب متفحِّص ولجوج أن يتمكّن من كشفها. هنالك فرق بين تربية شخص من أجل ضياعه وموته وبين قتله هكذا، ومن الطبيعي أن نعتقد بأن الحالة الثانية أشد خطورة وأكثر مدعاة للإدانة، فالعنف يستثير رعبنا، والفعل المباشر للعنف يستثير حفيظتنا أكثر، أو ربما لأنه لا متسع فيه للشك ولا للاعتذار، فمن ينفّذه أو يرتكبه لا يمكن له الاحتماء والتستر بأي شيء، لا بالخطأ، ولا بالحادث، ولا بإساءة التقدير، ولا بأي بلبلة. فالأم التي أوصلت ابنها إلى الضياع، من أساءت تربيته أو عملت متعمدة على انحرافه، يمكن لها دومًا أن تقول حيال النتائج المشؤومة: «لا، لم أشأ ذلك. رباه، كم كنت خرقاء، كيف كان لي أن أتصوّر الوصول إلى هذه النتيجة؟ لقد فعلتُ دومًا كل شيء بكثير من الحب المفرط وبأطيب النيّات. وإذا كنتُ قد حميته إلى حدّ تحويله إلى جبان، أو لبَّيت رغباته ونزواته إلى حدّ انحرافه أو تحويله إلى مستبد، فإنما كنت أسعى دومًا إلى إسعاده. كم كنتُ عمياء ومؤذية». وتكون مع ذلك قادرة على التوصل هي نفسها إلى تصديق ما تقوله، بينما سيكون من المحال عليها أن تفكّر أو أن تقول شيئًا مشابهًا إذا ما كان ابنها قد مات على يديها، بعمل منها وفي اللحظة التي حدّدتها هي نفسها. يقول من لا يحمل سلاحًا (ونتابع نحن مسوّغاته دون أن ننتبه إليها)، التسبب بالموت مختلف جدًا عن التهيئة للموت وانتظار مجيئه وسقوطه بفعل ثِقله بالذات؛ كما أنه مختلف عن تمنّيه، وكذلك عن ترتيبه، فتمنّيه وترتيبه قد يختلطان أحيانًا، ويصل الأمر إلى حدّ عدم التمييز بينهما. ولكن من هم أوسع نفوذًا وأكثر دهاء لا يلوِّثون أيديهم أبدًا ولا حتى ألسنتهم، وبذلك ستتوافر لهم إمكانية أن يقولوا لأنفسهم في أفضل أيام رضاهم عن أنفسهم، أو أشد أيام الضيق وثقل الضمير: «لم أكن أنا في نهاية المطاف. أتراني كنتُ حاضرًا، أأنا من أمسكت المسدس، الخنجر، الأداة التي قضت عليه؟ بل إنني لم أكن هناك عندما مات».

بدأتُ، ليس بالارتياب، وإنما بالتساؤل، عندما حدث في إحدى الليالي، بعد عودتي متحمّسة وبمزاج رائق من بيت دياث - باريلا؛ وبعد أن استلقيت قبالة أشجاري الهائجة والقاتمة، أن فاجأت نفسي برغبتي، أو أن الأمر كان أقرب إلى التخيل، في أن تموت لويسا وتترك لي الميدان شاغرًا معه، فهي لا تفعل شيئًا لتشغل ذلك الميدان. كنا على علاقة جيدة، تستحوذ على اهتمامي عندما تروي لي، أو أنني أنا نفسي كنت مهيأة للاهتمام دون أن يكلّفني التوصل إلى ذلك أدنى جهد. أما هو فكان واضحًا بأن رفقتي تسعده وتسليه، في الفراش بكل تأكيد، ولكن خارجه أيضًا، وهذا الأخير هو الحاسم، فإذا كان الأمر الأول ضروريًا، إلا أنه غير كافٍ، ويظل قاصرًا دون الثاني، وأنا أستند إلى أن الحالتين مواتيتان لي. في بعض لحظات الزهو والاعتداد بالنفس، كنت أميل إلى التفكير بأنه، لو لم يكن لديه ذلك التمعّن الذهني القديم، تلك العاطفة العقلية المسبقة - لا أتجرّأ على تسميته بذلك المشروع القديم، لأن هكذا تفكير سيستدعي شكوكًا وهي لم تراودني بعد -، لما كان سعيدًا معي وحسب، وإنما لصرت في نظره، تدريجيًا، من لا غنى عنها. يراودني في بعض الأحيان إحساس بأنه غير قادر على نسيان نفسه وهو معي - أعني غير قادر على الاستسلام لي بالكامل - لأنه قد قرّر في عقله، منذ زمن، أن لويسا هي المختارة، فضلًا عن أنها كانت كذلك بالقناعة التي تضفي صيغة ملموسة على كل أمل، حين لم يكن هنالك أدنى احتمال برؤية حلمه يتحقّق، عندما كانت لويسا زوجة صديقه المفضل الذي يحبّه كلاهما كثيرًا. وربما كان يمكن له أن يحوّلها إلى ذريعة مثالية ليمتنع عن أي التزام غرامي متعمّق مع أحد، كي يتنقّل من امرأة إلى أخرى دون أن يكون لأي منهن صلاحية طويلة الأجل أو أهمية خاصة، لأنه ينظر بطرف عينه على الدوام في اتجاه آخر، أو من فوق أكتافهن، بينما هو يعانقهن متيقظًا (من فوق أكتافنا، إذ إنني ضمن من يعانقهن). عندما يرغب أحدنا في شيء لوقت طويل، يصبح من الصعب عليه التخلّي عن الرغبة فيه، أعني تقبّله أو إدراكه أنه لم يعد يرغب فيه، أو أنه يُفضّل عليه شيئًا آخر. الانتظار يغذّي تلك الرغبة ويزيدها قوة، الانتظار قدرة تراكمية من أجل ما هو مُنتظر، يرسّخه ويجعله متحجّرًا، وعندئذ نقاوم الاعتراف بأننا قد أضعنا سنوات في انتظار إشارة حين تأتي أخيرًا لا تهزّنا، أو أننا نشعر بتكاسل غير متناهٍ في الاستجابة لندائها المتأخّر الذي تساورنا الشكوك وعدم الثقة فيه، ربما لأن التحرك لم يعد مناسبًا لنا. إذ يعتاد أحدنا على العيش متعلّقًا بالفرصة التي لا تجيء، في الخلفية الهادئة، بمنجى وسلبية، في الخلفية غير المصدّقة بأن الفرصة لن تأتي أبدًا.

ولكن ليس هناك في الوقت نفسه من يتخلّى عن الفرصة بالمطلق، وهذه الحكة تؤرقنا، أو تحول دون غرقنا في النوم العميق. الأمور الأقل احتمالًا قد حدثت، وهذا نستشفه جميعنا، بمن في ذلك أولئك الذين لا يعرفون شيئًا من التاريخ أو مما حدث في العالم السابق، ولا حتى بما حدث في هذا العالم الحالي الذي يتقدّم بمثل خطواتهم المتردّدة. من لم يشهد شيئًا كهذا، لا يلتفت إليه أحيانًا إلا بعد أن يشير أحدهم إليه بالإصبع ويمنحه صفة محدّدة: الأشد خراقة في المدرسة وصل إلى أن يكون وزيرًا والبليد صار مصرفيًا، والأشد بلادة وقبحًا يحقّق نجاحًا جنونيًا مع أفضل النساء، والأشدّ سذاجة يتحوّل إلى كاتب موقّر وهو مرشح لجائزة نوبل، مثلما يمكن أن يحدث حقًا لغاراي فونتينا، ربما سيأتي اليوم الذي يتصلون به من استوكهولم؛ والمعجبة الأكثر سماجة وجلافة تتمكّن من التقرب من فنانها المعبود وتنتهي إلى الزواج منه، والصحافي الفاسد والسارق يتخفّى بلبوس

الأخلاقي وحامي الشرف والحرية، وتشيع أشد الحوادث نذالة وجبنًا لورثة العرش، ويفوز الأخير في القائمة والأشد كارثية؛ والمرأة المملّة، المتعجرفة والمزدرية تتحوّل إلى معبودة الطبقات الشعبية التي يجب عليها أن تكرهها، لأنها هي نفسها من تقوم، من كرسي قيادتها، بسحق تلك الفئات وإذلالها؛ والغبي الأكبر أو عديم الحياء الأكبر يُصَوّت لهما جماهيريًا من شعب مُنوّم بالدناءة، أو مستعد لخداع نفسه، أو ربما للانتحار؛ أما القاتل السياسي، فيتم إطلاق سراحه عندما تتبدّل الأدوار، ويُهتف له كوطني بطولي من جانب حشود كانت حتى ذلك الحين قد أخفت شرطه الإجرامي الخاص، والأخرق غليظ الذهن البارز يُعيَّن سفيرًا، أو رئيسًا للجمهورية، أو يصير أميرًا بزواجه من الملكة إذا ما كان هنالك حب في الأمر، وهو الحب الأشد بلاهة وغفلة على الدوام. الجميع ينتظر الفرصة أو يبحث عنها، وفي بعض الأحيان يعتمد الأمر على كمٍّ من الإرادة ستُبذل في السعي للحصول على كل مشتهى، وكم من الحماسة والصبر للوصول إلى كل هدف، مهما كان الساعي مصابًا بجنون العظمة والسخف غير المعقول. كيف يمكن لي ألا أداعب فكرة أن دياث باريلا سيبقى في نهاية المطاف معي، لأن عينيه ستُفتحان أو لأنه سيُخفق مع لويسا على الرغم من أن الفرصة ستكون قد تبدَّت له الآن، ويمكن له أن يعتمد على التصريح المحتمل، أو حتى التكليف من صديقه الراحل ديفيرني. كيف يمكن لي ألا أفكر بأن الفرصة ستتوافر لي، إذا كان حتى الشبح القديم للكولونيل شابير قد صدّق للحظة أن بإمكانه العودة للانضمام إلى عالم الأحياء الضيّق واستعادة ثروته والمحبّة، حتى لو كان حبًّا بَنَويًّا، مع زوجته المرعوبة والمهدَّدة بانبعاثه. كيف لن يمر في رأسي في ليالي الوهم، أو النشوة العاطفية الملتبسة، إذا كان يعيش حولنا أناسٌ عديمو الموهبة يتوصّلون إلى إقناع معاصريهم بأنهم أصحاب مواهب هائلة، وأغبياءٌ وفاشلون مداهنون يتظاهرون بأنهم ناجحون متفوقون، خلال نصف حياة أو أكثر، وأنهم أذكياء إلى أقصى الحدود، يُصغى إليهم كما لو أنهم متنبئو أوراكل؛ إذا كان هنالك أشخاص يفتقرون إلى الموهبة فيما ينكبّون على عمله، ومع ذلك يحقّقون مسيرة لامعة تحت التصفيق العالمي، على الأقل حتى خروجهم من هذه الدنيا الذي يحملهم إلى النسيان الفوري؛ إذا كان هنالك أشخاص أفظاظ هائلون يُمْلُون مُوَضة الناس المهذّبين وملبسهم، فيجعلون منهم حالة غامضة ومطلقة، ونساءً ورجالًا غير لطفاء وملتوين وخبيثي النوايا يستثيرون المشاعر أينما حلّوا؛ وإذا لم تغب كذلك الغراميات الفظّة عن مزاعمهم المحكومة بهزيمة وسخرية تنتهيان إلى فرض نفسيهما والتحقّق خلافًا لكل التنبؤات والعقلانية، وخلافًا لكل الرهانات والاحتمالات. كل شيء يمكن أن يحدث، كل شيء ممكن الحدوث، ولهذا قلة هم مَن يتراجعون عن مسعاهم العظيم - حتى ولو كان مزولة تنوس جيئة وذهابًا -، بين من لديهم هدف عظيم ما، بالطبع، وهؤلاء ليسوا كثيرين إلى حدّ يُشبعون معه العالم بسالة ومواجهة لا تتوقف.

ولكن يكفي أحيانًا أن يسعى شخص بصورة حصرية وبكامل قواه إلى أن يكون شيئًا محدّدًا أو أن يبلغ هدفًا حتى ينتهي إلى أن يكون ما أراده أو يصل إلى هدفه، على الرغم من أن العناصر الموضوعية جميعها تكون ضده، وعلى الرغم من أنه لم يولد من أجل ذلك أو أن الرب لم يدعُه إلى ذلك الطريق، مثلما كان يقال قديمًا، وحيث يقفز ذلك إلى النظر بصورة جلية في الغزوات والمواجهات: هنالك من يحمل كل أسباب الخسارة في عداوته أو كراهيته لآخر، من يخلو من سلطة ووسائل تصفيته، وهو إلى جانب ذاك يكون أشبه بأرنب يحاول مهاجمة أسد، ومع ذلك يخرج هذا

«الأحدهم» منتصرًا بفضل قوة التصميم وغياب الهواجس والمكائد والضراوة والتركيز، وعدم امتلاك أي هدف في الحياة سوى إلحاق الضرر بخصمه، جعله ينزف، إنهاكه ثم الإجهاز عليه، آه لمن يلقى عدوًا بهذه الصفات مهما بدا ضعيفًا ومعوزًا؛ إذا لم تكن لدى المرء رغبة ولا متسع من الوقت ليكرّس له العاطفة نفسها، والاستجابة بزخم مماثل فسوف ينتهي به الأمر إلى الانهيار أمامه، لأنه من غير الممكن الصراع بسهو في حرب، سواء أكانت حربًا معلنة أو مداراة أو خفية. وعدم ازدراء الخصم العنيد، حتى لو كنا نظن بأنه غير مؤذٍ وبلا قدرة على إلحاق الأذى بنا، وعاجز حتى عن إصابتنا بخدش. فالواقع أنه يمكن لأي كان أن يقضي علينا، بالطريقة نفسها التي يمكن بها لأي شخص إيقاعنا في شباك غرامه، وهذه هي هشاشتنا الجوهرية. إذا ما قرّر أحدهم تدميرنا سيكون من الصعب تفادي ذلك التدمير، اللهم إلا إذا تخلّينا عن كل شيء آخر، وقصّرنا تركيزنا على هذا الصراع فقط. ولكن المطلب الأول هو معرفة أن هذا الصراع موجود، ولسنا نعلم ذلك دومًا، والحروب التي توفر أكبر ضمانات النجاح هي الماكرة والصامتة والغادرة، كالحروب غير المعلنة أو تلك التي يكون فيها المهاجم غير مرئي أو متنكرًا كحليف أو كمحايد، يمكن لي أن أشن هجومًا على لويسا من الخلف أو بصورة مواربة لا علم لديها بها لأنه لا علم لديها حتى بوجود عدوَّة تتربص بها. يمكن لنا أن نكون عائقًا لشخص دون أن نسعى إليه ودون أن تكون لدينا أي فكرة عنه، قد نكون في الوسط، نعرقل مسارًا ضد مشيئتنا أو دون أن نلحظ ذلك، وهكذا لا يمكن لأحد أن يكون بمنجى قطّ، يمكن لنا جميعنا أن نكون مكروهين، وأن يكون هناك من يريد إلغاءنا، بمن في ذلك أشد الأشخاص المسالمين والبائسين. لقد كانت المسكينة لويسا الأمرين كليهما على السواء، ولكن ليس هناك من يتخلّى بالكامل عن الفرصة، وأنا لن أكون أقل من الآخرين. أعرف ما الذي يمكن انتظاره من دياث - باريلا ولم أخدع نفسي قطّ، ومع ذلك لا يمكنني أن أتجنب انتظار ضربة حظ أو تحولًا غريبًا فيه، كأن يكتشف ذات يوم أنه غير قادر على العيش دوني، أو أنه بحاجة لأن يكون مع كلتينا. في تلك الليلة كنت أرى أن ضربة الحظ الوحيدة الحقيقية والمحتملة هي أن تموت لويسا، وأن تختفي ولا تعود قادرة على أن تكون الهدف، المَرام، الغنيمة المشتهاة طويلًا، فلا يبقى أمام دياث - باريلا أي مفرٍّ من رؤيتي حقًا واللجوء إليّ. ولا ينبغي لأحد أن يُغضبنا لأن هناك من توافق معنا، في غياب من كان الأفضل.

إذا كنتُ قادرة على التمنّي في وحدتي، خلال برهة في ليل حجرتي؛ إذا كنت قادرة على تخيّل موت لويسا، وهي لم تفعل لي شيئًا وليس لديّ أي شيء ضدها، ولا توحي إليّ إلا بالتعاطف والشفقة، بل إنها تستثير فيَّ بعض الانفعالات، وتساءلتُ إذا لم يكن قد خطر الشيء نفسه لذهن دياث - باريلا، وبمسوغ أكبر بكثير: احترامًا لصديقه ديسفيرن. من حيث المبدأ، لا يرغب أحدنا في موت من هم قريبون منه ويشكّلون حياته تقريبًا، ولكننا نفاجِئ أنفسنا أحيانًا ونحن نتصور ما الذي يمكن أن يحدث إذا ما اختفى واحدًا منهم. في بعض المناسبات يأتي التصوّر ويكون مبعثه الخوف أو الرعب، بتأثير الحب المفرط الذي نكنّه لهم والفزع من فقدانهم: «ما الذي أفعله دونه، دونها؟ ما الذي ستكون عليه حالي؟ لا يمكن لي المواصلة قُدمًا، أريد الذهاب وراءه». الاستباق المحض يسبّب لنا دوارًا، ويحدث عادة أن نستبعد تلك الخواطر فورًا، مع ارتعاشة وإحساس إنقاذي غير واقعي، مثلما يحدث عندما يهزّنا كابوس لجوج لا يتوقّف تمامًا بعد لحظة استيقاظنا. ولكن التهيؤات في أحلام أخرى تبدو مختلطة وتكون غير نقيّة. لا يتجرأ أحدنا على تمنّي الموت لأحد، ولا سيما لشخص مقرّب، لكنني استشففت أنه إذا ما عانى شخص معيّن من حادث، أو مرض حتى نهايته، فإن شيئًا ما يتحسّن في الكون، أو في الحالة الشخصية الخاصة. «إذا لم يكن هو أو هي موجودين»، يمكن الوصول إلى التفكير، «كم سيكون مختلفًا هذا كله، يا للثِقل الذي سينزاح عني، ستنتهي أيام عَوَزي، أو نقمتي التي لا تطاق، أو كيف سأبرز أنا». «لويسا هي العائق الوحيد»، وصل بي الأمر إلى التفكير على هذا النحو؛ «هَوَسُ دياث - باريلا بها فقط هو ما يقف حائلًا بيننا. فإذا ما فقدها، إذا ما وجد نفسه محرومًا من مهمته، من اندفاعه...» عندئذ لا أجبر نفسي على استدعائه ذهنيًا بكنيته، فهو لا يزال «خابيير»، وهذا الاسم معشوق كشيء لا سبيل إلى الوصول إليه. أجل، إذا ما كنت انزلق إلى مثل هذا النوع من التقديرات، فكيف يمكن ألا يحدث له الشيء نفسه، بينما كان ديفيرني هو العقبة. جزء من دياث - باريلا كان يتلهّف إلى موت صديق روحه، إلى تلاشيه، وهذا الجزء بالذات، أو ربما جزء أكبر، كان قد ابتهج لخبر طعنه غير المتوقَّع بسكين، والذي لم تكن له أي علاقة به. «ربما هي نكبة وربما حُسن طالع»، ربما يكون هذا ما فكر فيه حين علم بالأمر. «كم يؤسفني ذلك، وكم أود الاحتفال به، يا لتعاسة أنَّ ميغيل كان هناك في تلك اللحظة، عندما خطر لذلك الشخص أن يقوم بهجومه القاتل، كان يمكن حدوث ذلك لأي شخص آخر، بمن في ذلك أنا نفسي، وكان يمكن له هو أن يكون في أي مكان آخر، كيف أمكن أن يكون ميغيل هو المصاب، يا للسعادة بأنهم قد أزاحوه من طريقي وفتحوا لي الميدان الذي ظننته مشغولًا إلى الأبد، ودون أن أكون قد شاركتُ بأي طريقة في تسهيل الأمر، لا بالتهاون أو التهرّب ولا بالإهمال الذي يلعنه أحدنا بصورة استعادية، لأنني لم أستبقه لوقت أطول إلى جانبي ولم أمنعه من الذهاب إلى حيث ذهب. كان يمكن لهذا أن يكون محتملًا فقط لو أنني رأيته في ذلك اليوم، لكنني لم أره ولم أتكلّم معه، كنتُ سأتصل به في ما بعد، من أجل تهنئته بعيد ميلاده، يا للتعاسة، يا للسعادة، يا لضربة الحظ ويا للرعب، يا للخسارة ويا للكسب. ولا يمكن لأحد أن يؤنبني».

لم يطلع عليّ الصباح قطّ وأنا في بيته، لم أقض ليلة كاملة إلى جانبه قطّ، ولم أعرف سعادة أن يكون وجهه هو أول ما تراه عينايَ في الصباح؛ ولكن أجل، حدث ذلك ذات مرة، أو ربما أكثر من مرة، أن غفوت رغم إرادتي في فراشه عند الأصيل أو مع بداية الغروب، إغفاءة قصيرة لكنها عميقة

بعد الانهاك الممتع الذي يسببه لي ذلك الفراش، وما أدراني أنا إذا ما كان ذلك يحدث لكلينا، لا يدري أحدنا إذا كان ما يقال له هو الحقيقة، لا يقين أبدًا في أي شيء لا يأتي منا بالذات. في تلك المناسبة - وقد كانت الأخيرة - راودني وعي غامض بسماع رنين جرس، فتحت رموشي قليلًا، نصف برهة، ورأيته إلى جانبي، وقد ارتدى ملابسه كلها (إنه يرتدي ملابسه على الفور دائمًا، كما لو أنه لا يرغب في البقاء ولو لحظة واحدة في خمول العاشقين المتعب أو البهيج بعد لقاء غرامي)، يقرأ على ضوء مصباح المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير، ساكن مثل صورة، ظهره يستند إلى الوسادة، دون أن يسهر عليّ أو يهتم بي، وهكذا واصلتُ دون أن أستيقظ. عاد الجرس إلى الرنين، رنّ مرتان أو ثلاث مرات، وفي كل مرة كان الرنين أطول أمدًا، لكنه لم يقلقني، ودمجته في حلمي، واثقة من أنه لا يعنيني. لم أتحرك، لم أفتح عينيّ، على الرغم من ملاحظتي بعد النداء الثالث أو الرابع، أن دياث - باريلا قد انسل من الفراش بحركة جانبية صامتة وسريعة. هذا شأن خاص به، ولا يعنيني بأي حال، فلا أحد يعرف أنني هناك (من بين أمكنة العالم كلها، في ذلك الفراش). مع ذلك، بدأ الوعي ينبّهني، حتى ولو كنت لا أزال ضمن الحلم. فقد غفوت فوق الفراش، شبه عارية، أو بلا ملابس إلى الحد الذي أراده هو، وقد انتبهت الآن إلى أنه قد ألقى عليّ دثارًا، كيلا أتعرّض للبرد، أو ربما كيلا يواصل رؤية جسدي، وكيلا يبدو له جليًا ما الذي انتهى للتو من عمله معي، بالنسبة إليه لا شيء يتغير بعد انسكاب الدفقات، وتكون المعاملة في ما بعد مثلما كانت عليه من قبل. تدثرتُ بالغطاء بحركة انعكاسية، فأيقظتني هذه الحركة أكثر، وإن أكن قد أبقيت عينيَّ مغمضتين، في حالة ما بين النوم واليقظة الآن، متنبهة إليه بصورة ضعيفة، ذلك أنه خرج من الحجرة وتركني.

كان هناك شخص عند البوابة، في الأسفل، لأنني لم أسمع فتح باب الشقة، وإنما سمعت صوت دياث - باريلا المكتوم، يرد عبر جهاز الانترفون. قال كلمات لم أفهمها، ولكن بنبرة ما بين المتفاجئ والمستاء. وبعد ذلك بنبرة استسلام وتنازل، كمن يوافق مكرهًا على أمر يعارضه كثيرًا ويتقبّله رغمًا عنه. بعد بضع ثوانٍ - أو ربما كانت دقيقتان - وصلني بمزيد من الوضوح والقوة صوت القادم الجديد، صوت رجل مضطرب، كان دياث - باريلا قد انتظره عند باب الشقة المفتوح كيلا يضطر إلى رن جرس هذا الباب أيضًا، أو ربما كان يفكر في صرفه من عتبة البيت، دون أن يدعوه حتى إلى الدخول.

«لاحظ أن هاتفك المحمول مغلق، من يمكن أن يخطر له هذا»، قال له ذلك الشخص مؤنبًا، وأضاف: «اضطررت إلى المجيء حتى هنا كأي أبله».

«أخفض صوتك، لقد أخبرتك أنني لستُ وحدي. لدي «خالة» هنا، وهي نائمة الآن، من غير المناسب لك أن تستيقظ وتسمعنا. أضف إلى ذلك أنّك تعرف المرأة. ما الذي تريده؟ أتريدني أن أُبقي الهاتف المحمول شغالًا لأنه قد يخطر لك أن تتصل؟ من حيث المبدأ لا مبرر لديك للاتصال بي، منذ متى لم نتبادل أنا وأنت أي حديث؟ ربما يكون مهمًا ما تريد إخباري به. فلنر، انتظر».

كان ذلك كافيًا لأن أستيقظ تمامًا. يكفي أن نعرف أن هنالك من لا يريدنا أن نسمع كي نفعل كل ما هو ممكن كي نعرف، دون أن يدخل في حسباننا أنهم يخفون عنا بعض الأمور أحيانًا من أجل مصلحتنا، كيلا نصاب بخيبة أمل، أو كيلا نتورّط، كيلا تبدو لنا الحياة شديدة السوء مثلما هي عادة. طلب دياث - باديلا من الآخر أن يخفض صوته عند الرد عليه، ولكنه لم يستطع ذلك بسبب

توتره، أو ربما هو التوجّس، ولهذا سمعت عباراته بوضح تام. وكلمته الأخيرة «انتظر»، جعلتني أفترض أنه سيطل على حجرة النوم كي يتأكّد من أنني ما زلتُ نائمة، وهكذا ظللت ساكنة تمامًا ومغمضة العينين، بالرغم من أنني كنت قد غادرت النعاس كليًا. وحدث ما توقّعته، سمعتُ كيف دخل إلى حجرة النوم وكيف خطا أربع أو خمس خطوات إلى أن مال حتى مستوى رأسي على الوسادة ولا بد أنه نظر إليَّ بضع ثوانٍ، كمن يقوم بإجراء تجربة، الخطوات التي خطاها لم تكن حذرة وإنما عادية، كما لو أنه وحده في الحجرة. أما خطوات الخروج في المقابل، فكانت أكثر حذرًا، بدا لي أنه لا يريد المجازفة بإيقاظي بعد أن تأكد من أنني أنام بعمق. لاحظتُ كيف أغلق الباب بحذر، وكيف شدّ قبضة الباب من الخارج ليتأكد من عدم بقاء أي فجوة قد تتسرب منها المحادثة. كان الصالون ملاصقًا لحجرة النوم. ومع ذلك لم يُسمع صوت «كليك»، فذلك الباب لا ينطبق حتى النهاية. وفكرتُ ما بين المرح والتأثر «لديَّ خالة»، لم يقل «صديقة»، ولا «موعد» ولا «خطيبة». ربما لم أكن أحمل الصفة الأولى ولا الثانية، ولن أكون الثالثة أبدًا، ولا حتى بالمعنى الأكثر اتساعًا وانتشارًا للكلمة، بقيمتها كجوكر. كان يمكن له أن يقول «لدي امرأة». حسنًا، ربما يكون محادِثه واحدًا من أولئك الرجال الكثيرين جدًا، ممن لا يمكن تبادل الحديث معهم إلا بمفردات محدّدة، مفرداتهم بالذات، وليس المفردات التي يستخدمها أحدنا عادة، ومن المستحسن التلاؤم معهم دومًا كيلا يرتابوا ويأخذوا الأمر على محملٍ لسوء، ففي نظر الغالبية العظمى من الأخوال في العالم سأكون مجرد «خالة» وحسب.

قفزتُ من السرير في الحال، شبه عارية مثلما كنت (لكنني كنت احتفظ طوال الوقت بالتنورة)، اقتربتُ باحتراس من الباب وألصقتُ أذني. كانت تصلني في هذه الحالة دمدمة تُفهم منها كلمة ما مفلتة. كان الرجلان عصبيين جدًا بحيث لا يمكنهما خفض صوتَيْهما، على الرغم من محاولاتهما ورغبتهما في ذلك. تجرأتُ على أن أفتح قليلًا قبضة الباب التي حاول دياث - باريلا أن يُحكم إغلاقها بشدّة خفيفة من الخارج؛ لحسن الحظ لم يصدر أي صرير يمكن له أن يكشفني؛ وحتى لو انتبه إلى تجسسي، فلدي العذر بأني سمعت أصواتًا وأردت التأكد مما إذا كان أحدٌ قد جاء، وأنني فعلت ذلك بالتحديد كي أمتنع عن الظهور طوال ما ستدومه الزيارة لأوفر على دياث - باريلا ضرورة تقديمي للزائر، أو تقديم أي تفسير لوجودي. ليست المسألة في أن لقاءاتنا المتفرّقة كانت سرّية، فنحن لم نتفق على أن تكون كذلك على الأقل، ولكنني كنت أشك في أنه لم يُطلع أحدًا على أمر علاقتنا، ربما لأنني أنا لم أفعل ذلك أيضًا. أو ربما لأننا قد أخفينا الأمر دون شك عن الشخص نفسه، عن لويسا، في حالتي أجهل السبب، أهو احترام مبهم وعدم مناسب للخطط التي يبيّتها بصمت، ولفكرة أنهما قد يمضيان قُدمًا ويتحوّلان ذات يوم إلى زوج وزوجة. تلك الفجوة الضئيلة التي لا تصل حتى إلى أن تكون فجوة (فالخشب قد انتفخ قليلًا، ولهذا لم يعد الباب يُغلق بإحكام) تسمح لي بتمييز من منهما المتكلم في كل لحظة وتتيح أحيانًا سماع بعض العبارات الكاملة، وفي أحيان أخرى أجزاء من الكلام فقط أو لا شيء تقريبًا، فالأمر يعتمد على أنه يمكن للرجلين أن يتكلّما همسًا، مثلما كانت نيتهما. ولكن نبرة صوتيهما راحت ترتفع بعد قليل من جديد رغم إرادتيهما، ويُلحظ فيها انفعالهما وقلقهما، بل وذعرهما كذلك. إذا ما اكتشف دياث - باريلا أنني أتجسس عليه (ربما يعود ليطلّ مجددًا بدافع الحذر)، كلما مضى وقت أطول سيكون حدوث ذلك أصعب، مع أنه سيكون لديّ العذر بأنني ظننت أنه قد أغلق الباب كيلا يوقظني وحسب، وليس لأن هنالك

سرًا يتناقش بشأنه مع زائره. لن يبتلع هذه الذريعة، لكنني سأنقذ ذلك الشخص، شكليًّا على الأقل، إلا إذا وصل إلى حدّ مواجهتي بصورة سافرة أو بغضب، دون أن يهتم بالنتائج، ويتّهمني بالخداع. وسيكون محقًّا، لأنني كنت أعرف في الواقع منذ البداية أن تلك المحادثة ليست من أجل مسمعي، لا كتحفظ عام وحسب، وإنما لأنني «فوق ذلك»، أعرف «المرأة»، وقد قِيلت هذه الكلمة بمعنى زوجة، امرأة شخص ما، وهذا الشخص، حتى الآن، لا يمكن أن يكون إلا ديسفيرن.

«حسنًا، ماذا حدث، وما هو هذا الأمر المستعجل جدًا؟»، سمعتُ دياث - باريلا يقول، وسمعتُ كذلك ردّ الشخص الآخر، وكان صوته رنانًا ونطقه سليمًا وواضحًا جدًا، لا تظهر فيه اللكنة المدريدية - يُفترض أننا نفصل كل مقطع صوتي عما جاوره ونشدّد كثيرًا على النطق به منفصلًا، ومع ذلك لم أسمع قطّ أحدًا من مدينتي يتكلّم على هذا النحو، وإنما يُسمع ذلك فقط في الأفلام القديمة والمسرح القديم، أو ربما خلال المزاح - ولكنه لا يكاد يربط المفردات بعضها ببعض وإنما تسمع كل كلمة منها بصورة مميزة عندما لا تخرج منه حشرجة لدى الشهيق فيبدو كأن هنالك عجزًا في تكلمه أو في نبرة صوته.

«يبدو أن «صاحبنا» قد بدأ يخرج عن صمته».

«من تعني؟ كانييّا؟»، سمعتُ أيضًا هذا السؤال من دياث - باريلا بوضوح، سمعتُ الاسم كمن يسمع لعنة مفاجئة - أتذكّر ذلك الاسم، كنت قد قرأته في الانترنت وما زلتُ أتذكّره كاملًا، لويس فيليبه باثكيث كانييّا، كما لو أنه لقب لاصق يعلق في الذهن، أو أنه بيت من الشعر؛ وقد تنبّهت كذلك لمفاجأة دياث - باريلا، لذعره - كمن يسمع الحكم عليه أو على أحبّ كائن إليه ولا يصدق ما يسمعه، وفي الوقت الذي يسمعه يُنكره ويقول لنفسه إنه غير ممكن، وإن ذلك لا يحدث، وإنه لا يسمع ما يسمعه، وإن ما قد وصل فعلًا لم يصل بعد، مثلما يحدث عندما يدعونا الحبيب بالعبارة البغيضة كونيًّا التي تجول على كل اللغات - «علينا أن نتكلّم يا ماريّا»، ويدعونا فوق ذلك باسمنا المجرّد الذي نادرًا ما يستخدمه في الظروف الأخرى، حتى وهو يلهث فينا، وفمه المتملّق قريب جدًا، بجانب عنقنا - ثم يديننا في الحال: «لا أدري ما الذي يحدث لي، أنا نفسي غير قادر على تفسيره»؛ أو يقول: «لقد تعرّفتُ على أخرى»؛ أو ربما يقول: «لا بد أنكِ قد لاحظتِ شيئًا غريبًا وملفتًا في الفترة الأخيرة»، وكلها عبارات تمهيد للكارثة. أو كمن يسمع الطبيب يتلفّظ باسم مرض لا يخصنا بأي حال، مرض يعاني منه آخرون ولكن ليس أحدنا بالذات، وينسبه إلينا في هذه المرة بصورة لا يمكن تصديقها، كيف يمكن ذلك، لا بد أن هنالك خطأ أو أن ما سُمع لم يُقَلْ أصلًا، فهذا لا يصيبني أنا ولا يتناسب معي، فأنا لم أكن تعيسًا، تعيسة، قطّ، أنا لست من هؤلاء ولن أكون منهم.

وأنا أيضًا ذُعرتُ، شعرتُ برعب آنيّ وكنت على وشك الابتعاد عن الباب كيلا أسمع المزيد، لأتمكن في ما بعد من إقناع نفسي بأنني سمعتُ بصورة سيئة أو أنني لم أسمع شيئًا في الواقع. ولكن أحدنا يواصل الاستماع دومًا، بعد أن يكون قد بدأ ذلك، الكلمات تسقط أو تخرج طافية وليس هنالك من هو قادر على إيقافها. رغبتُ في أن يتمكّنا من خفض صوتيهما دفعة واحدة، كيلا تكون إرادة معرفتي مرتبطة بي، وأن يصير كل شيء ضبابيًا ويتشوّش، وتتملّكني الشكوك كيما أفقد الثقة بحواسي.

«طبعًا، من سيكون سواه»، أجاب الآخر بشيء من الازدراء وفقدان الصبر، كما لو أنه بعد أن أطلق الإنذار الآن، صار هو من يسيطر على الوضع، فمن يأتي بخبر يكون سيد الموقف دومًا، إلى أن يقول كل ما لديه وينقله ويظل عندئذ بلا أي شيء، فلا يعود المستمع بحاجة إليه. لا يمكن

لسيطرة ناقل الخبر على الموقف أن تستمر طويلًا، وإنما فقط للوقت الذي يتطلبه إعلان ما يعرفه ثم الاحتفاظ بالصمت.

«وما الذي يقوله؟ لا يمكن له أن يقول الكثير، ماذا يستطيع أن يقول؟ أليس كذلك؟ ما الذي يمكن لهذا التعيس أن يقوله؟ ما أهمية ما يقوله شخص مختل؟». كان دياث - باريلا يكرّر الجملة لنفسه بالذات قبل أي شيء آخر، كان عصبيًا، كمن يريد التعزيم ضد سحر خبيث.

عندئذ اندفع زائره بتهور - لم يعد قادرًا على التحمّل - وحين فعل ذلك خفض نبرة صوته ورفعها عدة مرات، بصورة لا إرادية. ما وصل إليّ من ردّه مقاطع فقط، لكنها كافية.

قال: «... يتكلّم عن الاتصالات الهاتفية، عن الصوت الذي يروي له»، وقال: «... عن رجل الجلد، وهو يعنيني أنا»، قال: «لا يبدو لي لطيفًا... ليس خطيرًا... لكنني سأضطر إلى إحالتهما على التقاعد، مع أنهما يعجبانني، وأحملهما منذ سنوات عديدة... لم يُعثر معه على أي موبايل، وهذا أمر سأتولاه بنفسي... وهكذا سيكون الرنين خرافيًا... ليس الخطر في أن يصدقوه، إنه معتوه... ربما سيخطر لأحد ما... ليس بصورة عفوية وإنما بتحريض وبإيعاز... الاحتمال الأكبر أن لا، فإذا كان العالم ممتلئًا بشيء فإنه امتلاءٌ بالكسالى... لقد مرّ وقت طويل... امتناعه عن الكلام كان هدية، الأمور الآن مثلما كان مُتَوَقعًا في البدء... لقد اعتدنا بشكل سيئ... في اللحظة المناسبة، على الحامي... ولكن، أكثر قابلية للتصديق... لكنني أردت أن تعرف ذلك فورًا، لأنه تحوّل غير ضئيل، مع أن ذلك لا يؤثّر علينا حتى الآن ولا أظنه سيؤثّر لاحقًا... من الأفضل أن تكون مطلعًا».

«لا، ليس بالأمر الضئيل يا روبيريث»، سمعتُ دياث - باريلا يقول، وقد سمعتُ جيدًا ذلك الاسم غير المتداول، كان منفعلًا جدًا إلى حد لا يمكنه معه خفض صوته، لم يكن يتحكم به. «حتى لو كان معتوهًا، فإنه يقول إن هناك من أقنعه، شخصيًا ومن خلال مكالمات، أو أدخل الفكرة في رأسه. إنه يوزّع الذَنْب والمسؤولية، أو يتوسع بهما، والحلقة التالية هي أنت، ووراءك سأكون أنا، اللعنة على ظرافتك هذه. افترض أنهم أروه صورة لك وأشار إليك. أنت لك سوابق، أليس كذلك؟ لك ملف عند الشرطة، أليس كذلك؟ وأنت من قلت هذا، أمضيتَ الحياة كلها بهذه المعاطف الجلدية، الجميع يعرفونك من خلالها ومن قمصان نيكس nikis الصيفية، وبالمناسبة، أنت لم تعد في سن تتناسب مع ارتدائها. في البدء قلت لي إنك لن تذهب بنفسك أبدًا، وإنك لن تفسح المجال لأن تُرى، وإنك سترسل شخصًا ثالثًا إذا ما استدعت الضرورة دفعه قليلًا، تسميمه أكثر وجعله يرى وجهًا يثق به. وأنه سيكون بيني وبينه خطوتان على الأقل، ليس خطوة واحدة، وأن الآخر لن يعرف شيئًا عن وجودي. ويتبين لي الآن أنك أنت الشخص الوحيد في الوسط وأنه من الممكن التعرّف عليك، أُفضِّل أن أعرف على من سأعتمد».

ساد صمت، ربما كان ذلك المدعو روبيريث يفكر إذا ما كان عليه أن يقول الحقيقة أو أن لا يقولها، مثلما طلب منه دياث - باريلا، وإذا كان يفكّر، فإنما لأن له ملفًا لدى الشرطة، صوره موجودة في أرشيف ما. خشيتُ أن يكون سبب صمتهما ضجة أحدثتُها دون أن أنتبه، ربما صوت قدم على خشب الأرضية، لا أظن ذلك، لكن الخوف يجبرنا على عدم استبعاد أي احتمال، حتى ما لا يمكن تفسيره. تخيلتُ كليهما متوقفين، يحبسان أنفاسهما لحظة، يرهفان السمع بحذر وريبة،

ينظران خفية باتجاه غرفة النوم، يقومان بحركة باليد، حركة تعني «انتظر، هذه الخالة مستيقظة». وفجأة خفتُ منهما، كلاهما صار يخيفني، أردتُ أن أصدّق أن خابيير وحده لم يُخِفْني بعد: لقد كنت أنام معه قبل قليل، لقد عانقته وقبّلته بكل ما أتجرأ على إظهاره من حب، هذا يعني بكثير من الحب المكبوح أو المتصنّع، أسمح بظهوره فقط في تفاصيل ربما لا ينتبه إليها، آخر ما كنت أتمنّاه هو إخافته، إفزاعه قبل الموعد، إبعاده - الموعد سيصل، وهذا ما أنا متأكدة منه -. لاحظتُ أن هذا الحب المحفوظ آخذ بالسقوط، فهو في أية حالة من حالاته غير قادر على المنافسة مع الرعب؛ أو على التأجيل إلى أن تحين لحظة أفضل، لحظة التكذيب أو النسيان، ولكن لم يغب عن ذهني أن أيًا من الاحتمالين غير قادر على المنافسة مع الخوف؛ أو أنه قد يؤجّل إلى أن تحين لحظة أفضل، لحظة التكذيب أو النسيان، ولم يغب عن ذهني أن أيًا من الاحتمالين ممكن. وهكذا ابتعدت عن الباب تحسبًا لاحتمال عودته إلى الدخول والتأكد من أنني ما زلت نائمة، وأنه لا وجود لشاهد سماعي على حديثهما ذاك. اندسست في الفراش، اتخذت وضعًا بدا لي مناسبًا، انتظرت، لم أعد أسمع شيئًا الآن، لقد أضعت جواب روبييريث، كان عليه أن يقدّمه سابقًا أو لاحقًا. ربما ظللت هناك دقيقة، دقيقتين، ثلاث دقائق، لم يدخل أحد، لم يحدث أي شيء، وهكذا استجمعت الجرأة وخرجت مجددًا من بين الملاءات، اقتربت من الفراغ الزائف في الباب، وكنت بالتنورة طيلة الوقت. من غير الممكن مقاومة إغراء التنصّت، حتى لو انتبهنا إلى أن الأمر غير مناسب لنا. ولا سيما إذا كانت معرفة ذلك قد بدأت بالتكشّف.

صارت الأصوات مسموعة أقل الآن، أشبه بدمدمة، كما لو أنهما قد هدآ بعد البداية المضطربة. ربما كان كلاهما واقفًا وقد جلسا للحظة الآن، فصوت تبادل الحديث يصبح أخفض عند الجلوس.

«ما الذي سنفعله برأيك؟»، التقطتُ أخيرًا كلام ديات - باريلا. إنه يريد حلًا للمسألة.

«لا وجود لما يمكن عمله»، ردّ روبييريث رافعًا النبرة، ربما لأنه يُصدر تعليمات ويعود إلى الإحساس آنيًا بأنه في موقع القيادة. بدا وقع كلامه كما لو أنه يختصر، وفكرتُ بأنه سيغادر قريبًا، ربما يكون قد التقط معطفه وألقى به على ذراعه، هذا إذا افترضنا أنه قد توصّل إلى خلعه، لقد كانت زيارته عاصفة وخاطفة، من المؤكد أن ديات - باريلا لم يُقدِّم إليه ولو كأس ماء. «هذه المعلومات لا تشير إلى أي شيء، ليس لها أي علاقة بنا، ليس لي وليس لك أنت أي علاقة بهذا كله، وأي إلحاح من جانبي سيؤدّي إلى نتائج عكسية. انس الأمر بعد أن علمت به. لا شيء سيتبدّل، لا شيء قد تبدل. إذا كان هنالك شيء مستجد سأخبرك به، ولكن لا وجود لما يؤدّي إلى مستجدات. الاحتمال الأكبر أنهم سيدوّنون ملاحظة، ويؤرشفون القضية ولن يفعلوا أي شيء. أين سيتحرّون ويحقّقون، لم يبق من ذلك الهاتف المحمول أي أثر، ليس له وجود. بل إن كانييّا لم يعرف أبدًا رقم ذلك الهاتف، يبدو أنه قد أُعطي ثلاثة أو أربعة أرقام مختلفة، الأرقام تتراقص في ذهنه، وهذا طبيعي، فجميعها مختلقة، أو حلم بها. أُعطي له الهاتف ولكن لم يُعطَ له رقمه قطّ، هذا ما اتفقنا عليه وهذا ما جرى. وبالتالي، ما هو الجديد؟ الرجل سمع أصواتًا، يقول الآن إنهم كانوا يحدّثونه عن ابنتيه ويشيرون له إلى المذنب. مثل مجانين آخرين كثيرين. ليس فيه أي شيء خاص سوى أن أصواتًا تأتيه بين حين وآخر، ليس من رأسه أو من السماء، وإنما من خلال هاتف محمول، سيتعاملون معه كمجنون يرغب في إضفاء أهمية على نفسه. حتى المقتولين يعلمون بما يجري من

تقدّم في العالم، وحتى المجانين، ومن لا يملك هاتفًا محمولًا هو المعدَم تمامًا. دعه وشأنه. لا تخف أكثر مما يجب، لأننا لن نكسب شيئًا بذلك».

«حسنًا، وماذا عن رجل الجلود؟ أنت نفسك شعرت بالذعر يا روبيبريث. ولهذا جئت مسرعًا لتخبرني. لا تقل لي الآن أنه لم يكن ثمة مبرر لذلك. أين هو الصواب».

«أجل، معك حق، عندما علمتُ بالأمر تضايقت قليلًا، أعترف بذلك، موافق. كنا مطمئنّين جدًا لامتناعه عن التصريح بأي شيء، لعدم تكلّمه. لقد فاجأني، لم أكن أتوقّع أن يبدّل رأيه بعد هذا الوقت. ولكن على العكس، فقد أدركت أن شيئًا لن يحدث. وأن يظهر له رجل يرتدي معطف جلد مرتين، حسنًا، كما لو أن عذراء فاطمة قد ظهرت له، بتأثيراتٍ عملية. لقد أخبرتك من قبل أن البحث عني قائم في المكسيك فقط، ما لم يكن قد سقط بمرور الزمن، من المؤكّد أن هذا ما جرى، مع أنني لن أذهب إلى هناك لتقصّي الأمر: إنها مسألة تعود إلى أيام الشباب، منذ قرون. ولم أكن أرتدي هذه المعاطف آنذاك». كان روبيبريث مدركًا أنه قد أخطأ، وأنه كان عليه ألا يسمح لمتشرّد موقف السيارات أن يراه. ربما هذا ما دفعه الآن لمحاولة التقليل من خطورة المعلومات التي جاء بها.

«يمكنك التخلص مما هو لديك منها على أي حال. ابتداء بهذا المعطف الجلدي. أحرقه، مزّقه نتفًا. لن يخطر لأي ذكي أن يربط بينك وبين ما حدث. ليس لك ملف شرطي هنا، ولكن أكثر من شرطي يعرفك. نأمل ألا يعمد شرطيو جرائم القتل إلى مقاطعة المعلومات مع جرائم أخرى. حسنًا، لا أحد هنا يقاطع أي شيء مع أحد كما يبدو. كل جهاز له طابته الخاصة، ستكون مقاطعتهم للمعلومات مستغربة.» حاول دياث - باريلا أيضًا أن يبدو متفائلًا الآن وأن يهدأ. إنهما يتكلمان كأناس عاديين رغم كل شيء، كهاويين يتلمّسان الطريق مثلما كنت أنا نفسي. أناس غير معتادين على الجريمة، أو دون وعي كافٍ بأنهما قد حرّضا على جريمة، وكلّفا شخصًا بها تقريبًا، حسب ما يُستنتج.

أريد رؤية ذلك الروبيبريث، لا بد أنه على وشك أن يودع وينصرف: رؤية وجهه، وكذلك معطفه الشهير، قبل أن يُتلفه. قررتُ الخروج، أحسستُ بدافع يدفعني إلى ارتداء ملابسي بسرعة. ولكنني إذا فعلت ذلك فسوف يخامر دياث - باريلا الشك بأنني أعرف منذ بعض الوقت أن هناك شخصًا آخر في البيت وبأنني ربما كنت أتنصّت، أتجسّس، وهذا الأمر الثاني على الأقل هو ما جعلني أتأخر في ارتداء بقية ملابسي. أما إذا اقتحمت الصالون بالحالة التي أنا عليها، فسوف أعطي الانطباع بأنني قد استيقظت للتو وليس لي علم بوجود أحد. لم أسمع شيئًا، وإني أحسب أنني أنا وإياه ما زلنا وحدنا، كما في كل مرة، بلا شهود محتملين على لقاءاتنا المتفرقة في بعض الأمسيات. خرجت للقائه بصورة عادية، بعد أن اكتشفت أنه خلال غفوتي لم يكن إلى جانبي في الفراش. من الأفضل أن أظهر شبه عارية، وبلا أي احتراس وأن أُحدث ضجة، كبريئة لا تزال في شبه غيبوبة.

لكنني لم أكن، في الواقع، نصف عارية، وإنما شبه عارية أو عارية بالكامل تقريبًا، لأن ما لا أرتديه من الملابس هو كل شيء باستثناء التنورة، فهي الشيء الوحيد الذي احتفظتُ به، لأن دياث - باريلا يروق له أن يراني انزعها عني أو أنه يزيحها هو بنفسه خلال احتدامنا، أما بقية ملابسي فينتهي به الأمر إلى خلعها عني بدافع المتعة أو الراحة؛ حسنًا، قد يقترح عليّ أحيانًا أن أنتعل حذائي مجددًا بعد أن يجردني من الجوربين، لكنه لا يفعل هذا إلا عندما أكون بحذاء ذي كعبٍ عالٍ. كثيرون من الرجال يظلّون أوفياء لبعض الصور الكلاسيكية، أنا أتفهمهم - لأن لديَّ نزواتي - ولا أعترض، فإرضاؤهم لا يكلفني شيئًا وأشعر بالممالقة لدى الاستجابة لتخيّلات تتمتّع بشيء من الشهرة، وباستمرارها عبر عدة أجيال، فهذه ليست ميزة قليلة. وهكذا فإن شح الملابس المبالغ فيه - التنورة ما فوق الركبة بالضبط حين تكون في موضعها وملساء، لكنها الآن مجعّدة ومتحرّكة وتبدو أكثر ضآلة - توقفت متجمّدة ومتردّدة، طرحت على نفسي مسألة أنني لو كنت أظن أنني وحدي في الشقة بالفعل وعلى انفراد مع دياث - باريلا، هل كنت سأخرج من الغرفة مكشوفة الصدر أم إنني سأغطي نهديَّ، لا بد من التأكد من أنهما لم يتهدّلا، وأنهما لن يشيا بتأرجحهما أو بتوثبهما المفرط، أثناء المشي بهذه الحال أمام أي شخص كان (لم أفهم قط استهتار وعدم مبالاة هواة التعري المتزايدين)؛ ليس الحال نفسه أن يراهما رجلٌ ساكنَيْن هادئين، أو بعد تأرجج مضطرب وقريب، أو رؤيتهما مواجهة وفي حركة غير مُتحكّم بها. لكنني لم أتوصّل إلى حلّ لشكوكي، لأن الحياء تدخّل وتغلّب على الفور. ففكرة ظهوري وعرض نفسي بهذه الطريقة لأول مرة أمام شخص مجهول تمامًا بدا لي أمرًا لا يطاق، لا سيما أنه شخص غامض وبلا وازع. دياث - باريلا أيضًا يخلو من أي وازع، حسب ما تكشّف لي للتو، وربما بدرجة أكبر، ولكنه يظل شخصًا يعرف كل ما هو غير مرئي من جسدي، وليس هذا فقط، فهو شخص ما زال محبوبًا، أشعر بمزيج من عدم التصديق الجذري والاشمئزاز الأولي المتسرّع، إنه غير قادر على الإقدام على ما أظن أنني عرفته الآن - ولا نقول تحليله -، وإذا ما قلتُ «أظن» فإنما لأنني واثقة من أنني قد سمعت بصورة سيئة، أو أسأت الفهم، وأنني قد فسّرت تلك المحادثة بطريقة خاطئة، وأن هناك تفسيرًا من نوع ما سيسمح لي بالتفكير في ما بعد: «كيف أمكن لي تصور ذلك، كم كنت بلهاء وغير منصفة». وأنتبهُ في الوقت نفسه إلى أنني قد توغّلت، قد اندمجت دون مناص في الوقائع التي تُستخلص منها، إنها مسجّلة في دماغي طالما لم يحدث أي تكذيب لا يمكن لي أن أطلبه منه دون أن أُعرّض نفسي، ربما، لمجازفة خطيرة. يجب عليّ التظاهر بعدم معرفتي أي شيء، ليس هذا كيلا أبدو لهما كجاسوسة وغير متكتّمة وحسب - بقدر ما يهمّني كيف يريانني وينظران إليّ وحينئذ يتواصل اهتمامي ذاك، إذ لا وجود لتغيير يحدث دفعة واحدة وبصورة فورية، بما في ذلك ما يُحدثه اكتشافٌ مرعبٌ -، وإنما من المناسب لي كذلك، أو أنه أمر حيوي بكل معنى الكلمة. لقد شعرتُ بخوف أيضًا، على نفسي، بقليل من الخوف، بدا لي من المحال الشعور بكثير من الخوف، تقدير أبعاد ما حدث وما يتضمّنه، ليس من السهل الانتقال من الوداعة أو من رقاد هادئ بعد المعاشرة إلى الشعور بالخوف من الشخص الذي كنت تنام إلى جانبه. بدا أن هناك في ذلك كله شيئًا غير قابل للتصديق، شيئًا غير واقعي، من حلم تشهيري ومشؤوم يُثقل على روحنا ولا نتحمّله. كنت عاجزة عن رؤية دياث باريلا فجأة كقاتل يمكن له أن يعود لارتكاب الجريمة بعد أن تجاوز الخط الفاصل، بعد أن جرّب ذلك مرة. لم يكن هو الفاعل،

أردتُ التفكير في ما بعد: هو لم يحمل سكينًا ولم يوجه طعنات إلى أحد، بل إنه لم يتبادل الحديث مع ذلك المدعو باثكيث كانييّا، القاتل الذي يدبّر مواقف للسيارات، لم يكلفه بشيء، لم يُجرِ أي تواصل معه، ولم يتبادل وإياه أي كلام، حسب ما يقول. وربما لم يكن هو نفسه من فكّر بتلك الآلية، يمكن أن يكون قد روى شجونه وهمومه للمدعو روبييريث، فخطط هذا الأخير بنفسه لكل شيء - رغبة منه في نيل الإعجاب، إنه رأس فارغ، رأس مجنون -، بل وجاء إليه ليخبره بالوقائع الناجزة، كمن يقدّم هدية غير متوقّعة: «انظر كيف مهدتُ لك الطريق، انظر كيف أخليت لك الميدان، كل شيء صار ملك يديك الآن». بل إن هذا المدعو روبييريث لم يكن هو نفسه المُنَفّذ، ولم يكن هو من حمل السلاح ولم يقدّم تعليمات محدّدة لأي شخص: لقد كان هناك شخص ثالث مبدئيًا، حسب ما فهمتْ، شخص مأمور، وقد اقتصر الأمر على تسميم مخيلة ذلك المعوز الهذيانية والتأكّد من أنه سيقوم بردة فعله أو باندفاعه العنيف ذات يوم، وهو ما يمكن له أن يحدث فعلًا أو أن لا يحدث أبدًا. ومع أنها كانت جريمة مدبَّرة ومبيَّتة فإنها تُركت للصدفة والقدر بصورة مثيرة للاستغراب. إلى أي حدّ كانا متيقنين، وإلى أي حدٍّ يتحمّلان المسؤولية. اللهم إلا إذا كانا قد أعطياه تعليمات أو أوامر محدّدة وشاركاه بالعملية، وزوّداه بسكينه التي من نوع الفراشة، ذات نصل السبعة سنتمترات التي تدخل كلها في اللحم، وهذا نوع من السكاكين لا يمكن الحصول عليه هكذا ببساطة، إذ إنها محظورة نظريًا على الأقل، وهي ليست رخيصة الثمن كذلك بالنسبة لمن لا يكاد يكسب سوى إكراميات ضئيلة وينام في سيارة مخلّعة مهجورة. وقد قدّما إليه هاتفًا محمولًا بكل تأكيد كي يتصلا به، وليس ليتصل هو نفسه - ربما ليس لديه من يمكنه أن يتّصل به، فابنتاه في مكان مجهول أو خارج متناول يده بصورة مقصودة، هاربتان من مثل ذلك الأب الغضوب، المترمّت ومشوَّش الذهن كمن يهربن من الطاعون -، ومن أجل إقناع مسمعه، كمن يُهمَس في أذنه. لا أحد يشعر بأن ما يقال لنا بالهاتف لا يصلنا من مكان بعيد وإنما يأتي من مكان قريب جدًا، ولهذا يُقنعنا أكثر ممن يخاطبنا وجهًا لوجه، فهذا الأخير لا يلامس أذننا، أو أنه يفعل ذلك في حالة نادرة جدًا فقط. لا نفع في هذه التأملات بصورة عامة، أو على العكس، إنها تزيد من الأذى، ولكنها في حالتي كانت مفيدة آنيًا في تهدئتي قليلًا وفي عدم الشعور بأنني مهددة، ليس من حيث المبدأ ولا آنذاك، ليس في بيت دياث - باريلا، ولا في حجرة نومه، في فراشه: من المؤكد أنه لم يلطخ يديه بالدم، دم صديقه المفضل، دم ذلك الرجل الذي كنت أستلطفه عن بُعد، أثناء تناولي الفطور خلال عدة سنوات.

هناك بعد ذلك الشخص الآخر، ذاك الذي أريد رؤية وجهه، والذي كنت مستعدة لأن أخرج شبه عارية، قبل أن يغادر وتضيع مني إمكانية رؤيته إلى الأبد. ربما يكون أشد خطورة ولا يجد أدنى ظرافة في رؤيتي، أو أنني سأحتفظ بصورة له منذ تلك اللحظة؛ ربما أجازف معه حقًا وأقرأ في نظرته هذه العبارة: «لقد احتفظتُ بصورة وجهكِ؛ ولن أجد صعوبة في الوصول إلى اسمكِ ولا التحرّي عن مكان إقامتك». وتراوده غواية القضاء عليّ.

ولكن عليّ أن أسرع، لا يمكنني التردد لوقت أطول، وهكذا وضعتُ حمالة الصدر وانتعلتُ الحذاء - كنت قد أعدت خلعه، بحك كعبيه بحافة السرير السفلية، وتركت فردتيه تسقطان هناك على الأرض قبل أن أتناوم بالضبط -. حمالة الصدر تكفي، ربما كنت سأضعها على أي حال، حتى لو لم يكن هناك شخص دخيل، مع العلم أنها تناسبني تمامًا وأنا واقفة، وأثناء الحركة: حتى أمام دياث -

باريلا الذي كان قد رآني للتو عارية بلا أية ملابس. إنها أصغر مقاسًا بنمرة واحدة مما يناسبني، وهذه خدعة قديمة جدًا تعطي على الدوام نتيجة جيدة في اللقاءات الغرامية، تجعل الصدر يبدو أكثر ارتفاعًا وأكثر امتلاء بعض الشيء، على الرغم من أنني لم أعاني، حتى الآن، من مشاكل كثيرة مع نهديّ. ولكن، حسنًا. إنهما فخّان صغيران ويتفاديان التعرض لخيبات، عندما أذهب إلى موعد مع فكرة متخيلة مسبقًا لما يجب أن يتضمّنه ذلك الموعد، إلى جانب أمور أخرى متنوّعة. ربما تجعلني حمالة الصدر هذه أكثر لفتًا للانتباه - أو حسنًا... لا: أكثر جاذبية - لعيني شخص مجهول، ولكنني أشعر كذلك بحماية أكبر، تخفّف من خجلي.

تأهبتُ لفتح الباب، وقبل ذلك كنت قد انتعلتُ دون إحساس بالقلق من وقع الكعبين على الأرضية الخشبية، إنها طريقة لتنبيههما، إذا كانا غير منتبهين، بما يكفي، وغير مستغرقين في تسرّعاتهما. عليّ أن أتحكّم بملامحي، ويجب أن تكون ملامح مفاجأة مطلقة عندما أرى ذلك المدعو روبيريث، وأما ما لم أجد له حلًا فهو ما الذي سيكون عليه ردّ فعلي المحتمل، من المؤكد أنني سأستدير بفزع وأدخل بأقصى سرعة إلى الغرفة كيلا أعود للظهور إلا بعد أن أكون قد ارتديت الجِرسيه مفتوحة الصدر التي أرتديها في ذلك اليوم، إنها مفتوحة الصدر قليلًا، أو بما يكفي. وربما أعمد إلى الإسراع لتغطية صدري بكلتا يدي، أم إن ذلك سيكون مبالغة في تصنع الحياء؟ ليس من السهل بأي حال وضع أنفسنا في حالة ليست من طبيعتنا، ولا أجد تفسيرًا لكيف يمكن لكثير من الناس قضاء حياتهم كلها في التصنّع، لأنه من المحال تمامًا أخذ كافة العناصر المحتملة في الاعتبار، بما في ذلك آخر تفصيل غير واقعي، عندما لا يكون هنالك وجود في الحقيقة لأي من تلك العناصر ولا بد من اصطناعها كلها.

تنفستُ بعمق وشددت قبضة الباب مستعدة لتقديم مهزلتي، وفي تلك اللحظة بالذات عرفتُ أنني قد اصطبغت بحمرة الخجل، قبل أن يدخل روبيبريث في مجال رؤيتي، لأنني أدركت أنه سيراني بحمالة الصدر وبتنورة قصيرة ضيقة، وأنني سأشعر بالخجل لظهوري أمام شخص مجهول، وقد تكوّنت لدي عنه فوق ذلك أسوأ فكرة ممكنة، ربما كان غضبي نتيجة جزئية لما كنت قد سمعته للتو، من مزيج السخط والذعر الذي لم أستطع معه مداراة عدم القدرة على التصديق التي تنتابني؛ لقد كنتُ متوتّرة على أي حال، بمشاعر وأفكار مشوشة، وحالة معنوية مضطربة جدًا.

كان الرجلان واقفين والتفتا على الفور، لا بد أنهما لم يسمعاني وأنا أنتعل الحذاء أو أي شيء آخر. لمحتُ في عيني ديات - باريلا على الفور برودة، أو ريبة، أو لومًا، أو حتى صرامة. أما في عيني روبيبريث فكانت المفاجأة وحسب، وومضة إعجاب ذكورية أستطيع تمييزها، ومن المحتمل أنه لم يكن قادرًا على تجنّبها؛ فهناك رجال بحدقة سريعة جدًا لمثل هذا النوع من الإعجاب، ولا يستطيعون كبحها، فهم لا يتورّعون عن إمعان النظر إلى فخذين مكشوفين لامرأة تعرّضت لحادث سير، ملقاة على الطريق العام ونازفة، أو إلى فتحة الصدر الناهد لمن تنحني لإسعافهم ومساعدتهم إذا كانوا هم من أصيبوا بالجراح، إنها مسألة خارجة عن إرادتهم أو لا علاقة للإرادة بها، إنها طريقة في الحياة تستمر حتى لحظة احتضارهم، وقبل أن يطبقوا جفونهم إلى الأبد، يرمقون من أجل المتعة رُكبة ممرضتهم، مع أنها تلبس جوربين أبيضين عليهما بقع دم متخثّرة.

غطيتُ صدري بكلتا يدي، بحركة غريزية وصادقة؛ ما لم أفعله هو الاستدارة والانصراف فورًا، لأنني ظننت أنه لا بد لي من قول شيء ما، إبداء الحرج... المفاجأة. فهذا الذي حدث ليس كثير الحدوث جدًا.

- آي، متأسفة، المعذرة - توجهتُ إلى ديات - باريلا -، لم أكن أعلم أن لديك زائرًا. اعذرني، سأذهب لأرتدي شيئًا.

- لا، فقد حان موعد انصرافي - قال روبيبريث، ومدّ إليّ يده.

- روبيبريث، صديق - قدّمه ليّ ديات - باريلا، متضايقًا ومختصرًا، ثم أضاف: - إنها ماريا. - ألغى كنيتي، مثلما فعلتْ لويسا في بيتها، ولكن ربما فعل ذلك مدركًا ما يفعله، كي يحميني على الأقل.

- تشرفتُ.

صافحتُ يده بسرعة - انكشف جانب مني خلال ثانية، فطارت عيناه نحو ذلك النهد - ودخلتُ إلى حجرة النوم، لم أغلق الباب، وهكذا اتضحت نيتي في العودة إليهما، فالزائر لن يذهب قبل أن يودّع من ما زلت في مجال رؤيته. تناولتُ الكنزة، وارتديتها أمام نظراته - لاحظتُ أنها موجهة نحو هيئتي، وكنت أقف جانبًا وأنا ألبس - وخرجتُ مجددًا. كان روبيبريث يضع فولارًا حول عنقه - مجرّد زينة، ربما لم يخلعه طيلة الوقت - وألقى فوق كتفيه معطفه الجلدي الشهير الذي يتهدّل عليه بطريقة أشبه بعباءة، فعل ذلك بطريقة مسرحية أو كرنفالية. كان المعطف طويلًا ومن جلد أسود، مثل المعاطف التي يظهر بها عناصر فرق الSS، أو ربما الغيستابو في الأفلام عن النازية، شخص ممن

يحبون لفت الانظار بطريقة سريعة وسهلة حتى مع المجازفة بمواجهة الصد، عليه الآن التخلي عن هذا الملبس، إذا ما انصاع لما طلبه منه دياث - باريلا. كان أول ما خطر لذهني هو أن أسأل دياث - باريلا كيف يمكن له أن يثق بشخص يبدو بكل وضوح، من مظهره، أنه صفيق ووقح، ويَظهر ذلك مرسومًا على وجهه وفي سلوكه، وفي تعقيد حركاته؛ تكفي نظرة واحدة لكشف جوهره. فقد أكمل الخمسين من عمره، ومع ذلك فإن كل شيء فيه يوحي بالشباب: الشَّعر اللطيف المسرّح إلى الخلف مع تجعدات فوق الصدغين، ملبَّد وطويل ولكنه متزمّت، مع خصل أو كتل من الشيب لا تمنحه وقارًا لأنها تبدو اصطناعية، كأنها من الزئبق؛ الصدر رياضي وإن يكن منتفخًا بصورة خفيفة، مثلما يحدث لمن يتجنّبون السمنة في البطن بأي ثمن ويرعون عضلات الصدر؛ الابتسامة المفتوحة التي تتيح رؤية أسنان لامعة، الشفة السفلى منثنية إلى أعلى، مُظهرة جانبها الداخلي الأكثر رطوبة ومُبرزة بذلك شبق هيئته بمجملها. له أنف مستقيم ومدبَّب، عظمه بارز جدًا، يبدو رومانيا أكثر منه مدريديًا ويُذكرني بذلك الممثل، فيتوريو غاسمان، ليس في شيخوخته ومظهره الأكثر نبلًا وإنما عندما كان يؤدي أدوار المحتالين والماكرين. أجل، أول ما يخطر لمن يراه أنه كان مرحًا ومهرِّجًا. قاطع ذراعيه بحيث استقرت كل يد على عضلة عضد الجانب المقابل - وتَّرهما على الفور، فعل انعكاسي -، كما لو أنه يداعبهما أو يقيسهما، كما لو أنه يريد جعلهما تنفران بارزتين بالرغم من أنهما قد تغطتا الآن بالمعطف، حركة غير مجدية. يمكن تخيلها في قمصان نيكس nikis، بالضبط، وحتى مع جزمة عالية، في محاكاة رخيصة للاعب بولو محبَط لم يُسمح له قطّ باللعب وهو يمتطي جوادًا. أجل، كان مستغربًا أن يتخذ منه دياث - باريلا شريكًا متواطئًا في عملية بالغة السرية والحساسية، في عمليةٍ تُلوّث كثيرًا: جلب الموت لأحدهم عندما «كان يجب أن يكون قد مات قبلًا he should have died hereafter»، عندما كان عليه أن يموت في ما بعد أو ابتداء من الآن، ربما غدًا وإلا غدًا أو غدًا، ولكن ليس الآن بأي حال. هنا تكمن المشكلة، لأننا جميعنا نموت، ولا شيء يتبدّل كثيرًا في نهاية المطاف - لا شيء يتبدّل جوهريًا - عندما يُستبق الدور ويجري اغتيال أحدهم، المشكلة تكمن في «متى»، ولكن من يدري ما هو المناسب أو الدقيق الذي يعني «ابتداء من الآن»، أو «ابتداء من الآن وما يلي»، إذا كان «الآن» متبدلًا بطبيعته، ويعني «في زمن آخر» إذا لم يكن هناك سوى زمن واحد وهو متواصل ولا يتجزأ ويمضي متتبعًا أعقابنا بصورة دائمة، جَزِعة وبلا هدف، يمضي متعثرًا كما لو أن رهن يديه القدرة على كبح نفسه والتوقّف، وجهله هو نفسه بهدفه. ولماذا تحدث الأمور عند حدوثها، لماذا في هذا الموعد بالتحديد وليس في ما سبقه ولا في ما يليه، وما هو الأمر الخصوصي أو الحاسم في هذه اللحظة بالذات، من يشير إليها ومن الذي يختارها، وكيف يمكن أن يقال ما قاله ماكبث بعد ذلك، ذهبتُ لرؤية النص بعد أن استشهد لي به دياث - باريلا، وما يضيفه بعد ذلك مباشرة هو ما يلي: «There would have been a time for such a word»، «كان هنالك وقت من أجل كلمة كهذه»، وهذا يعني «من أجل هذا الخبر/ هذه المعلومة»، أو «مثل هذه الجملة»، التي سمعها تخرج للتو من شفتي معاونه سيتون ناقل الخلاص أو الكارثة: «الملكة، يا مولاي، لقد ماتت». وكما في حالات كثيرة لدى شكسبير، لا يتوصّل الشرّاح إلى اتفاق حول الغموض والسر في بعض سطوره المشهورة جدًا. ما الذي يعنيه هذا؟ «أكان هناك وقت أكثر ملاءمة»؟ «مناسبة أفضل لهذا الحدث، لأن هذه الفرصة لا تناسبني»؟ ربما «وقت أكثر ملاءمة وسلامًا، كان يمكن لي خلاله تقديم التكريم، كان يمكن لي فيه أن أتوقّف وأن أبكي كما يتطلب فقدان من تقاسمتْ معي الطموح والجريمة، الأمل والسلطة والخوف»؟ ولا تتوافر

عندئذ لماكبيث سوى دقيقة كي يطلق، على الفور، أبيات شعره العشرة الشهيرة، ليست أكثر، مناجاته الاستثنائية لنفسه التي حفظها أناس كثيرون عن ظهر قلب في العالم بأسره والتي تبدأ: «غدًا، وغدًا، وغدًا...». وعندما أنهاها - ولكن من يعلم إذا ما كان قد أنهاها أو أنه كان يفكر في إضافة المزيد، لو لم تجرِ مقاطعته -، إذ يظهر مراسل يطالب بالانتباه، لأنه يحمل إليه خبرًا خارقًا للطبيعة، خبرًا يقول إن غابة بيرنام العظيمة آخذة بالتحرك، فينهض ويتقدّم باتجاه تل دنسينان المرتفع، حيث يوجد هو نفسه، وهذا يعني أنه سيُهزم. وإذا كان سيهزم فسوف يموت، وعند موته سيقطعون رأسه ويعرضونه كغنيمة، مفصولًا عن الجسد الذي ما زال يحمله، بينما هو يتكلّم، بلا نظرة. «كان عليها أن تموت في ما بعد، عندما لا أكون أنا موجودًا هنا لأسمع الخبر، ولا أرى ولا أحلم بأي شيء؛ عندما لا أكون في الزمان، وغير قادر حتى على الفهم».

خلافًا لما حدث لي حين سمعتهما دون رؤيتهما، عندما لم أكن قد عرفتُ بعد وجه روبيريث دي توريس، لم يسبّب لي كلاهما معًا الخوف خلال اللحظات القصيرة التي ظللتُ فيها معهما، على الرغم من أن ملامح وأساليب القادم الجديد لم تكن مُطَمئِنة. فكل شيء فيه يكشف عن شخص عديم الحياء بالفعل، ولكن ليس عن شخص مشؤوم. من المؤكد أنه قادر على اقتراف ألف دناءة صغرى، يمكن لها أن تقوده إلى اقتراف واحدة كبرى بين فترة متباعدة وأخرى، إنه آتٍ من حدود مجاورة، ولكنه أشبه بمن يطأ أرضًا في زيارة خاطفة، لهذا تراه يستفظع التنقل اليومي. لاحظتُ فيهما افتقاد الإلفة وحتى الانسجام، وبدا لي، بغضّ النظر عن قدراتهما المتبادلة كثنائي قتلة، أن حضور كل منهما يحيّد خطورة الآخر، ولا يتجرّأ أي منهما على إظهار ارتيابه ولا استجوابي أو عمل أي شيء ضدي حيال نظرة الشاهد، مهما كان هذا الشاهد متواطئًا معهما في آلية جريمة ما. بدا ذلك كما لو أنهما قد اتحدا صُدفة وبصورة عابرة، من أجل تنفيذ عملية منفردة ومعزولة، وأنهما يشكّلان، بطريقة ما، مؤسّسة مستقرّة وليس لديهما خطط مشتركة بعيدة المدى، وأنهما مرتبطان حصريًا من خلال تلك العملية التي قد نُفذِّت، وبسبب نتائجها المحتملة. إنه تحالف تفرضه الظروف، وربما هو غير مرغوب فيه لكليهما، وقد شارك به روبيريث، ربما من أجل المال، أو بسبب ديون، ودياث - باريلا لأنه لم يجد شريكًا أفضل - شريكٌ زائد شريك - ولم يبق له مفر من العثور على شخص انتهازي ونصّاب. «بادئ ذي بدء، لا مبرّر لديك للاتصال بي، منذ متى لم نتبادل حديثًا أنت وأنا؟ يمكن أن يكون مهمًا ما تريد قوله لي»، عنَّف الثاني منهما الأول حين سمح هذا الأخير لنفسه بأن يلومه لأن هاتفه المحمول مقفل. لم يكونا معتادَيْن على التواصل، والثقة بتأنيب أحدهما الآخر تأتي فقط من السِّر الذي يتقاسمانه، أو من الإحساس بالذنب، إذا ما كان مثل هذا الإحساس موجودًا لديهما، مع أنني لم أشعر بهذا الانطباع مطلقًا، كان لهما وقع المتهيّب. فالأشخاص يشعرون بأنهم مرتبطون عندما يرتكبون جريمة معًا، عندما يتآمرون أو يتواطأون في أمرًا ما، وأكثر من ذلك عندما ينفّذون ما دبَّروه. عندئذ يشعرون فجأة بالثقة بعضهم ببعض، لأنهم نزعوا القناع ولم يعد بإمكانهم التظاهر أمام أمثالهم الذين ليسوا مثلما هم، أو أنهم ما كانوا ليفعلوا قطّ ما فعلوه. إنهم مقيَّدون إلى هذه المعرفة المتبادلة، بطريقة مشابهة لما هي عليه حال العاشقين السريين أو حتى من هم ليسوا كذلك أو ليسوا مضطرين لأن يكونوا كذلك لكنهم يقرّرون الظهور بمظهر المحافظين، من يُقَدِّرون أن بقية العالم لا يعبأ بشؤونهم الحميمة، وأنه لا حاجة بهم إلى أن يقدّموا تقريرًا عن كل قُبلة وكل عناق، مثلما يحدث لدياث - باريلا ولي، إذ نصمت بشأن علاقتنا، والحقيقة أن ذلك المدعو روبيريث هو أول من عرف بعلاقتنا. كل مجرم يعرف ما الذي يمكن لشريكه في الجريمة أن يُقدم عليه، وهذا الأخير بدوره يعرف عنه الشيء نفسه بالضبط. كل عاشق يعي أن معشوقه يعرف نقطة ضعف فيه، وأنه لا يستطيع أمام هذا الآخر التظاهر بأنه لا يلمس ذلك جسديًا، وأنه يستثير فيه الصَدّ والقرف أو أنه غير مبالٍ به تمامًا، ولا يعود قادرًا على التظاهر بأنه يزدريه أو يستبعده، ليس على الأقل في هذا الميدان الجسدي الذي يبدو لمعظم الرجال، ولوقت لا بأس به - إلى أن يعتادوا، شيئًا فشيئًا، وعندئذ يتحوّلون إلى عاطفيين - يبدو مبتذلًا جدًا على الرغم منا. ونكون محظوظات إذا ما اتخذت لقاءاتنا بهم نوعًا من التلوّن الساخر، ويكون ذلك في أغلب الأحيان خطوة التدرّب الأولى لكثير من الذكور الأفظاظ.

إذا ما كانت مزعجة مظاهر الثقة التي يُبديها شخص مجهول أو معروف بعد مروره بفراشنا - أو مرورنا نحن في فراشه -، لا سيما عندما لا يكون ذلك نتيجة جريمة مشتركة، فإن أحد تلك المظاهر المزعجة هو، بكل تأكيد، الغياب التام للاحترام، لا سيما إذا كان محبو الإيذاء أشخاصًا عابرين وحسب، إذا كانوا أشخاصًا عاديين انتابهم الرعب لدى سماعهم قصة مآثرهم إذا ما نُسبت إلى آخرين، قبل قليل من تخيّل أفعالهم وربما كذلك بعد تنفيذها عمليًا. أناس بعد اقترافهم عملية قتل، أو حتى تكليف أحد باقترافها، يواصلون التفكير بكل قناعة: «أنا لستُ قاتلًا، لا أعتبر نفسي كذلك، ولا بأي حال. كل ما هنالك أن الأمور تحدث ويقوم أحدنا أحيانًا بالتدخّل في إحدى المراحل، ولا فرق في أن يكون ذلك في منتصف المسار أو في مصَبّه النهائي أو في بدايته، فليس هنالك مرحلة لا تعني شيئًا دون المراحل الأخرى. العوامل كثيرة على الدوام، لكن واحدًا منها فقط هو السبب. كان يمكن لروبييريث أن يرفض، أو الشخص الذي أرسله هو نفسه لوخز ذهن مدبّر مواقف السيارات. وكان يمكن لهذا الأخير ألا يرد على مكالمات الهاتف الجوال الذي ظل بحوزته فعلًا لبعض الوقت، نحن أهدينا إليه الهاتف ونحن رتبنا الأمور، وتوصلنا إلى إقناعه بأن ميغيل هو المسؤول عن تحول ابنتيه إلى الدعارة؛ كان يمكن له ألا يولي اهتمامًا للمكائد، أو أن يكون قد أخطأ حتى النهاية بالشخص المعني وقام بتوجيه طعنات سكينه الست عشرة إلى السائق، بما فيها الطعنات الخمس القاتلة، وليس عبثًا أنه قبل أيام من ذلك كان قد وجّه لكمة إلى السائق. وكان يمكن لميغيل ألا يأخذ السيارة في يوم عيد ميلاده، وما كان ليحدث عندئذ أي شيء، لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر ربما. ولما كان بالإمكان أن تتوافق كل تلك العناصر في أي وقت آخر... كان يمكن للمعوز ألا يملك سكينًا، تلك السكين التي أمرتُ أنا بأن تُشترى له، وهي تُفتح بسرعة كبيرة جدًا... ما هي المسؤولية التي أتحملها أنا في مجموع هذه المصادفات، فالخطط التي يضعها أحدنا ليست سوى محاولات وأدلة، إنها رسائل يأخذون باكتشافها، ومعظمها لا يخرج إلى العلن، ولا يتوافق مع الوقائع. التهمة الوحيدة التي يمكن توجيهها إلى المرء هي تناوله سلاحًا واستخدامه بيديه بالذات. وما سوى ذلك أمور عارضة، أشياء يتخيلها أحدنا - فيل شطرنج في حركة وترية، حصان شطرنج يقفز -، أشياء يرغب فيها، يخشاها، يُحرّض عليها، يلعب بها أحدنا ويبني تخيلات، وقد ينتهي بها الأمر إلى الحدوث بين حين وآخر. وحين تحدث فإنها تحدث حتى لو لم يشأ حدوثها أو أنها لا تحدث حتى لو كان يتلهّف إلى حدوثها، فحدوثها بالاعتماد علينا ضئيل جدًا في كافة الظروف، لا يمكن لأي مؤامرة أن تكون بمنجى من انحراف أحد خيوطها. فالأمر أشبه بإطلاق سهم نحو السماء وسط حقل: الأمر المعهود أنه حين يبدأ نزوله، وقد صار رأسه إلى أسفل، أن يسقط مستقيمًا، دون انحراف، ولا يصل إلى قتل أحد أو جرحه. أو أنه قد يسقط فقط على حامل القوس الذي رماه».

هذا الافتقاد التام للاحترام لاحظته لدى ديات - باريلا في طريقة توجّهه إلى روبييريث وحتى في إعطائه الأوامر كي يودّعه («حسنًا، لقد فهمتني بما يكفي ولا يمكنني إهمال زائرتي لمزيد من الوقت. هيا إذًا، اعمل معروفًا بالمغادرة. روبييريث: خفِّف»، هذا ما وصل إلى أن يقوله له مع انتهاء لحظة تبادلنا الحوار: لا شك في أنه قد دفع له نقودًا أو أنه ما زال يدفعها له، مقابل التوسّط، مقابل تدبيره الجريمة، مقابل متابعته لنتائجها)، أما هذا الأخير، ومن الطريقة التي تأمّلني بها منذ البداية إلى أن خرج عبر الباب: لم يؤكّد تقديره الأولي، المتسامح بفعل المفاجأة، بأنها ليست المرة الأولى

التي أتواجد فيها هناك، في ذلك المخدع، وهذا ما يمكن إدراكه على الفور؛ من خلال رؤية أن حضوري لم يكن خطِرًا ولا تجسسًا، وأنني لست امرأة صعدت إلى بيت رجل لأمسية واحدة - أو لنقل في زيارة افتتاحية، تظل في الغالب هي الزيارة الوحيدة - كما يمكن، ربما، أن تكون قد ذهبت إلى بيت رجل آخر، وربما يكون قد أعجبها، دون أن تكون «مشغولة»، إذا صح التعبير، بصديقه، على الأقل خلال تلك الفترة، مثلما هي الحالة فعليًا. لم يؤثّر فيه ذلك: لم يخفّف في أي لحظة من عينيه الذكوريتين المُلحَّتين ولا من ابتسامته الشبقة المتودّدة التي تكشف عن لثتيه، كما لو أن تلك الرؤية غير المتوقّعة لامرأة بحمالة صدر وتنورة، ومعرفته لها، جعلته يفترض انقلابًا في المستقبل القريب وأملًا بأن يعود للقاء بي قريبًا جدًا على انفراد أو في مكان آخر، أو التفكير بأن يطلب رقم هاتفي في ما بعد ممن قدّم كل منا للآخر رغمًا عن مشيئته، دون البحث عن وسيلة أخرى.

- المعذرة لظهورري، متأسّفة حقًا - كررتُ وأنا أدخل إلى الصالون من جديد، وقد لبستُ الكنزة -. ما كنت لأخرج على تلك الحال لو أنني تخيلتُ أننا لسنا وحيدين. - ألححت في التأكيد على ذلك كي أزيح بعيدًا كل الشكوك. واصل دياث - باريلا النظر إليّ بجدية، بتأنيب تقريبًا، أو أنها كانت قسوة؛ أما روبيريث فلم يكن كذلك.

- لا وجود لما يستدعي الاعتذار - تجرّأ على إفلات هذه الكلمات بتودّد على الطريقة القديمة -. ما كان للملابس أن تكون أشد إبهارًا. من المؤسف أن المشهد كان سريعًا وعابرًا.

قطّب دياث - باريلا وجهه، فهو لا يرى أدنى ظرافة في كل ما حدث: لا في مجيء شريكه في الجريمة ولا في الأخبار التي جاءه بها، ولا في ظهوري في المشهد وتعارفنا أنا وذلك الشخص، ولا في احتمال أن أكون قد سمعتهما من خلال الباب، حين كان يظنني نائمة؛ ولا كذلك، بكل تأكيد، في نهم روبيريث البصري تجاه حمالة صدري وتنورتي، أو تجاه القليل الذي تخفيانه، ومغازلاته التالية، وإن كانت مؤدّبة بما يكفي. شعرتُ بوهم صبياني، بعد أن اكتشفت للتو أنه غير لائق - ولكن ذلك الإحساس استمر لحظة واحدة فقط -، إذ خُيّل إليّ أنه يمكن لدياث - باريلا أن يشعر بسببي بشيء يشبه الغيرة، أو بذكرى مبهمة منها. كان سوء مزاجه ظاهرًا وقد ازداد ظهورًا عندما بقينا وحدنا، بعد أن غادر روبيريث ومعطفه على كتفيه، بمشيته المتمهّلة باتجاه المصعد، كما لو أنه سعيد بهيئته تلك ويريد منحي وقتًا للإعجاب بها من وراء ظهره: إنه شخص متفائل دون ريب، ممن لا يلحظون أنهم يتقدّمون في السن. وقبل أن يدخل إلى المصعد، التفت نحونا، وكنا نرافقه بنظرنا من مدخل البيت، كما لو أننا زوجان، ورفع يده إلى حاجبه، لمدة ثانية، ثم رفعها بعد ذلك بحركة تحاكي خلع قبعة. أما القلق الذي كان يشعر به عند مجيئه فيبدو أنه قد تلاشى، لا بد أنه رجل خفيف يتلهّى عن الهموم بأي شيء، بأي شيء راهن بديل يرفع من معنوياته. وخطر لي أنه لن يستجيب لرأي صديقه بإتلاف معطفه الجلدي، لأنه معجب به كثيرًا.

- من يكون؟ - سألتُ دياث - باريلا، محاولة استخدام نبرة عدم مبالاة -. ما عمله؟ إنه أول صديق لك أتعرّف عليه ولا تتشابهان كثيرًا، أليس كذلك؟ إن له مظهرًا غريبًا بعض الشيء.

- إنه روبيريث - أجابني بجفاء، كما لو كانت هذه المعلومة جديدة أو تحدّد هويته. بعد ذلك انتبه إلى مدى تفاهة ردّه وإلى أنه لم يقل شيئًا. ظل صامتًا للحظات، كما لو أنه يُقدّر ما الذي يمكن أن

يقوله لي دون أن يُلزم نفسه بشيء -. لقد تعرّفتِ أيضًا على ريكو - قال موضحًا، وأضاف: - إنه يعمل في أمور كثيرة، وليس في عمل محدَّد. وهو ليس صديقًا، تعرفتُ عليه بصورة سطحية، وإن يكن منذ زمن بعيد. يقوم بصفقات غامضة، ولكنها لم توفّر له الثراء، وهكذا تجدينه يعزف على عدة جهات، كل تلك التي يستطيعها. إذا استمال امرأة ثرية، يتكاسل بينما هي تساعده إلى أن تملَّ منه. أو أنه يكتب سيناريوات للتلفزيون، ويحضّر خطابات لوزراء ولرؤساء مؤسّسات ومصرفيين، ولكل من يرغب، ويعمل بالأسود. يبحث عن مواد توثيقية لكتّاب روايات تاريخية مبالغين في الدقة: أي نوع من الملابس كان يريديها الناس في القرن التاسع عشر أو في سنوات الثلاثينيات، كيف كانت شبكة المواصلات، أي أسلحة كانوا يستخدمون، من أي مادة كانت تُصنَع فراشي حلاقة الذقن أو دبابيس الشعر، متى شُيّد البناء الفلاني أو جرى العرض الأول لفيلم معيّن، جميع هذه الأمور غير المجدية التي يضجر منها القراء ويعتقد المؤلفون بأنهم يتألقون بها. ينبش في مكتبات الصحف والمجلات القديمة، ويقدّم معلومات عمّا يطلبونه منه. ومن خلال ذلك تراكمت لديه معارف كثيرة. أظن أنه قد نشر في شبابه روايتين لم تحققا نجاحًا. لست أدري. يقدِّمُ خدمات هنا وهناك، من المحتمل أنه يعيش على هذه الأمور بصورة أساسية، وعلى اتصالاته الكثيرة: إنه رجل مفيد في عدم فائدته أو العكس بالعكس. - توقّف عن الكلام، تشكّكَ إن كان من التهوّر إضافة ما تلا ذلك، وقرر أنه لا يوجد ما يجعل منه تهورًا أو رأى أنه سيكون من الأسوأ إعطاء انطباع بأنه لا يريد إكمال رسم صورة غير مؤذية -. إنه الآن نصف مالك لمطعم أو اثنين، لكن أمورهما سيئة، الأعمال التجارية لا تستمر معه طويلًا، يفتح المحلات التجارية ويغلقها. المثير للفضول أنه يتوصّل دومًا إلى فتح محل جديد، بعد بعض الوقت، فور استعادته تماسكه.

- وما الذي يريده منك؟ لقد جاء دون إشعار مسبق، أليس كذلك؟

ندمت على طرحي السؤال فور انتهائي من تلفظه.

- لماذا تريدين معرفة ذلك؟ ماذا يهمك هذا؟

قال بفظاظة، وبغضب تقريبًا. كنت متأكدة من أنه لم يعد يثق بي فجأة، ينظر إليّ كشخص مزعج، وربما مصدر تهديد، كشاهد غير مريح محتمل، وكان قد رفع درجة حذره واحتراسه، بدا غريبًا؛ فقبل لحظات كنتُ شخصية لطيفة وغير مؤذية، كنتُ أي شيء باستثناء أن أكون سببًا للقلق، بل على العكس من ذلك بكل تأكيد، كنت وسيلة تسلية شديدة اللطف بينما هو ينتظر مرور الوقت واكتمال آماله، أو أن يقدّم له هذا الوقت مهمات غريبة عنه، من الإقناع، التقرّب، الإغواء وحتى من الوقوع في الغرام؛ فأنا شخص لا ينتظر شيئًا لا يملكه ولا يطلب منه شيئًا غير مستعد لتقديمه. وقد خامره الآن شيء من الشك، من الريبة. لا يمكنه أن يسألني إذا ما كنت قد سمعتُ محادثته: إذا لم أكن قد فعلت ذلك، فإنه سيلفت انتباهي إلى تخمين ما دار من حديث بينه وبين روبيريث أثناء نومي، حتى لو لم يكن ذلك من واجباتي ولا يهمني بأي حال، فأنا موجودة هناك بصورة عابرة؛ وإذا ما سألني، فمن الجلي أنني سأجيب بلا، وسيبقى هو دون معرفة الحقيقة على أي حال. لم تكن ثمة طريقة لأن لا أكون مجرد شبح منذ تلك اللحظة، أو ما هو أسوأ من ذلك، أن أكون مصدر إزعاج، أو عقبة.

عندئذ داخلني مجددًا قليل من الخوف، هو مَنْ سبّبه لي، هو بمفرده، دون وجود أحد أمامه قادر على كبحه. ربما لن يجد طريقة أخرى للتأكد من أن سرّه سيكون بمنجى إلا بأن يزيحني جانبًا، يقال إنه بعد اقتراف جريمة لا يعود صعبًا تكرار ذلك، فبعد اجتياز الخط الفاصل لا يمكن الرجوع إلى الوراء ويتحوّل الكم إلى مسألة ثانوية حيال ضخامة القفزة التي تمّت، القفزة النوعية التي حوّلت الشخص إلى قاتلٍ إلى الأبد، حتى اليوم الأخير من وجوده وحتى في ذاكرة من بقينا على قيد الحياة، من كان مطلعًا منا على الأمر أو من سيعلم به في ما بعد. عندما لا نكون قادرين على محاولة مداراة الأمر أو إنكاره. يمكن للص أن يعيد ما سرقه، ويمكن للمُشهِّر أن يعترف بافتراءاته ويصلحها وينظف الاسم الحميد للشخص المتّهم، حتى الخائن يمكنه أن يصلح خيانته أحيانًا، قبل فوات الآوان. السيئ في القتل هو أن الوقت يكون قد فات دومًا ولا يمكن أن يُعاد إلى الدنيا من جرى حذفه منها، هذا أمر لا رجعة فيه ولا سبيل إلى إصلاحه، وإنقاذ حيوات أخرى في المستقبل، مهما كان عددها كبيرًا، لن يمحو أبدًا الحياة التي انتزعها أحدنا. وإذا لم يكن ثمة علاج - هذا ما يقال -، فلا بد من مواصلة الطريق الذي بُدِئ فيه كلّما تطلّب الأمر. فما هو جوهري لم يعد عدم التلوث، ذلك أن أحدنا يحمل في داخله لطخة لا تمحى أبدًا، ولكنها لا تُكتشف، لا تفوح رائحتها، وليس لها نتائج وهي لا تضيع، وإضافة لطخة أخرى عندئذ لا يصبح شديد الخطورة، فهي تختلط باللطخة الأخرى أو أن هذه تمتصها، وتصبح كلتاهما معًا اللطخة نفسها، ويعتاد أحدنا على فكرة أن القتل يشكّل جزءًا من الحياة، وأن ذلك كان من نصيبه مثلما كان من نصيب أشخاص كثر آخرين على امتداد التاريخ. يقول أحدنا إنه لا شيء جديدًا في الوضع الذي هو فيه، إذ لا حصر لأعداد الأشخاص الذين مرّوا بهذه التجربة وتعايشوا معها بعد ذلك دون كثير من العناء ودون استغراق في التأمل، بل توصّلوا إلى نسيانها بصورة قاطعة، في كل يوم هنيهة تسندنا وتجرّنا من يوم ليوم. لا يمكن لأحد أن يقضي الساعات كلّها متحسرًا على شيء محدّد، أو بوعي كامل لما فعله ذات مرة في يوم بعيد، أو مرتين أو أنها كانت سبع مرات، الدقائق الخفيفة التي بلا هموم تظهر دومًا ويستمتع أسوأ القتلة بها، ربما ليس أقل من أي بريء. ويواصل قُدُمًا ويتوقف عن رؤية القتيل كاستثناء ممسوخ أو كخطأ تراجيدي، وإنما كوسيلة إضافية تقدّمها الحياة لمن هم أكثر إقدامًا وصلابة، ومن هم أشد حزمًا وأكثر قدرة على التحمّل. يشعرون بطريقة ما أنهم معزولون، ولكن بوفرة من الرفقة الطويلة والقديمة، وأنهم يشكّلون جزءًا من السلالة التي تساعدهم على ألا ينظروا إلى أنفسهم كمغبونين أو غير أسوياء، وعلى تفهّم حالتهم وتبريرها: كما لو أنهم قد ورثوا أعمالهم، أو كما لو أنها قد رست عليهم في يانصيب أحد المهرجانات التي لم يتخلّف أحد عن المشاركة فيها، وبالتالي فإنهم لم يقترفوها بالكامل، وليسوا وحدهم.

- لا، لا يوجد أي سبب، اعذرني - سارعت في الرد عليه بالنبرة الأشد براءة، وبإبداء أعظم مفاجأة من ردّ فعله الدفاعي استطاعت حنجرتي التوصل إليها. وقد كانت حنجرة رعديدة، يمكن ليديه أن تحيطا بها في أي لحظة ويكون من السهل جدًا عليهما أن تضغطا، فعنقي نحيل وغير قادر على إبداء أدنى مقاومة، ويداي لا تملكان القوة القادرة على إزاحة يديه، على فتح أصابعه، وساقاي ستتراخيان، وسأسقط أرضًا، وسيرتمي فوقي كما في مرات أخرى، سألحظ ضغط جسده وحرارته - أم إنه سيكون باردًا -، لن يكون لديَّ صوت لأقنعه ولا لأتوسل إليه. لكن هذا كان خوفًا زائفًا، أدركتُ ذلك فور الاستسلام له: لن يتولّى دياث - باريلا أبدًا مهمة إزاحة أحد عن هذه الأرض بنفسه، مثلما لم يفعل ذلك بصديقه ديفيرني. اللهم إلا إذا شعر باليأس ووجد نفسه تحت تهديد وشيك، اللهم إلا إذا فكّر في أنني سأذهب مباشرة لأخبر لويسا بما سمعته صدفة بسبب تصرّفي المتهوّر. لم أستطع من قبل قطّ أن أستبعد أي أمر مع أي شخص، وهذا هو أسوأ الأشياء، الخوف يذهب ويجيء، وهو خوف مصطنع بعض الشيء -. فقد كنت أسأل لمجرد السؤال. - ومع ذلك وجدت الشجاعة أو التهوّر لأن أضيف: - ولماذا، حسنًا، إذا كان روبيريث هذا يقدّم لك خدمات، فإنني لا أدري إذا ما كان بإمكاني أن أفعل شيئًا من ذلك... لا أظن أنني قادرة على الكثير في نهاية المطاف، ولكن إذا كان بمقدوري أن أكون مفيدة في أمر ما، فأنا هنا تحت تصرّفك.

نظر إليّ بتمعّن لبضع ثوانٍ بدت لي طويلة جدًّا، كما لو أنه يروزني، كما لو أنه يريد حلّ رموزي؛ مثلما يُنظر إلى الناس الذين لا يعرفون أن هناك من ينظر إليهم، وكما لو أنني لستُ هناك، في ذلك البيت، وإنما على شاشة تلفزيون ويمكن له أن يتأمّلني مثلما يشاء، دون أن يقلق من ردّ فعلي على مثل ذلك الإلحاح أو التغلغل، وكان بالإمكان القول إنه يمكن لملامحه أن تكون أي شيء باستثناء كونها حالمة أو حسيرة البصر؛ فخلافًا لما هو معهود، كانت نظرته حادة ومخيفة. أبقيتُ عينيَّ ثابتتين (فنحن في نهاية المطاف عاشقَيْن وقد تأمل كل منا الآخر بصمت وبلا حياء تقريبًا) تنظران إليه وتعيدان الإمعان في النظر بملمح استجواب أو عدم فهم، أو أن هذا ما ظننته. إلى أن لم أعد قادرة على الاستمرار وأخفضت بصري نحو شفتيه، حيث كنت معتادة على النظر منذ اليوم الذي عرفته فيه، بينما هو يتكلّم وحين يكون صامتًا، النظر إلى الشفتين اللتين لا أملُّ منهما ولا تبثّان المخاوف فيّ وإنما الانجذاب. كانتا ملاذي الآني، ولم يكن هنالك أي استغراب في تصويب بصري إليهما؛ لقد كنت أفعل ذلك بكثرة، وكان أمرًا عاديًا، لا وجود لأي مسوّغ يزيد من حدّة الشكوك لديه، رفعتُ إصبعًا ولمستهما، جبتُ رسمهما بنعومة، بطرف الإصبع، مداعبة مطوَّلة، فكرتُ في أنها طريقة لإخماد حماسته، منحه ثقة وأمانًا، بالقول له دون كلام: «لم يتغيّر أي شيء، ما زلت هنا وما زلت أحبّك. لستُ أكشف لك، فأنت نفسك قد أدركت ذلك منذ زمن وأسلمت نفسك لحبي، لطيف هذا الشعور بأنك محبوب ممن لن يطلب منك شيئًا. أنا سأنسحب حين تقرِّر أن هذا يكفي، وأن الأمر قد انتهى، عندما تفتح لي الباب وتراني أمضي باتجاه المصعد وأنا أعرف أنني لن آتي مجدّدًا بعد اليوم. عندما يُستنفد أخيرًا حزن لويسا وتلقّى استجابة منها، سأتنحّى جانبًا دون أن أنبس ببنت شفة، أعرف أن مروري في حياتك أمر مؤقت، يوم إضافي آخر، ويوم آخر، ثم يأتي يوم وينتهي كل شيء. ولكن لا تتكدر الآن، لا تقلق، لأنني لم أسمع شيئًا، لم أعرف أي شيء ترغب في إخفائه أو الاحتفاظ به لنفسك، وإذا علمتُ به فلن يهمّني، ستكون بمنجى معي، لن أشي بك، بل إنني لستُ

متأكدة من سماع ما قد سمعته، أو أنني لم أعره اهتمامًا، فأنا مقتنعة بأنه لا بد من وجود خطأ ما، أو تفسير ما، أو حتى - من يدري - مسوّغ ما. ربما تسبب لك ديسفيرن بضرر كبير ما، ربما يكون هو نفسه قد حاول قتلك أولًا، من خلال طرف ثالث أيضًا، وبالاحتيال كذلك، وصار الأمر إما هو أو أنت، ربما وجدت نفسك مجبرًا، لم يكن هنالك متسع في العالم لكليكما، وهذا يشبه إلى حد بعيد الدفاع عن النفس. يجب ألا تخشاني، فأنا أحبك، أقف إلى جانبك، لن أحكم عليك حاليًا. وأضف إلى ذلك أنه عليك ألا تنسى أن هذا كله ليس سوى تهيؤات في مخيلتك، لا أعرف شيئًا منها في الواقع».

ليس الأمر في أنني قد فكّرت بهذا كله حقًّا وبوضوح، ولكن هذا هو ما حاولت إيصاله بإصبعي لوقت طويل على شفتيه، وقد تركني أفعل ذلك بينما هو يواصل النظر إليَّ بانتباه، يحاول البحث عن إشارات مناقضة لتلك التي أرسلها إليه بصورة طوعية، يلاحظ كيف أنه ما زال يرتاب بي. هذا أمر يصعب إصلاحه أو من غير الممكن إصلاحه، أمر لا يذهب أبدًا بالكامل، بل يتضاءل أو يتعاظم، يتكثّف أو يترقّق، ولكنه يبقى موجودًا على الدوام.

- لم يأتِ ليقدم لي معروفًا - ردّ عليّ - وإنما ليطلب معروفًا مني هذه المرة، ولهذا تعجَّل في المجيء لرؤيتي. أشكرك على عرضك على كل حال.

كنت أعرف أن ما قاله ليس الحقيقة، فكلاهما كان في الضيق نفسه، من الصعب على أحدنا أن يُخرِج الآخر، وأقصى ما كان في متناول يده هو الطمأنة المتبادلة والإلحاح على انتظار وقوع حوادث، الثقة بأنه لا مزيد، وأن تسقط كلمات ذلك المعوز في الفراغ ولا يزعج أحدٌ نفسه في التحرّي والتحقيق. كان هذا هو ما توصّلا إليه: الهدوء واستبعاد الهلع.

- لا وجود لما يستدعي الشكر.

عندئذ وضع يدًا على كتفي وأحسستُ بأنها ثقيلة، كما لو أن قطعة لحم هائلة قد سقطت عليه. لم يكن دياث - باريلا ضخمًا أو قويًا بصورة استثنائية وإن كان جيد القامة، ولكن الرجال يستخرجون قوة من حيث لا يدرون، جميعهم تقريبًا أو غالبيتهم العظمى، أو أنهم يبدون لنا أقوياء جدًّا من خلال المقارنة، من السهل عليهم إخافتنا بمجرّد إبداء حركة تهديد أو حركة عصبية أو غير محسوبة، بأن يمسكوا بمعصمنا أو أن يعانقونا باندفاع كبير أو يطرحونا فوق الفراش. أسعدني أن كتفي مغطى بالجِرسيه، فكرتُ بأنه كان يمكن لهذا الثقل أن يجعلني أرتجف لو كان فوق بشرتي مباشرة، لم تكن حركة معهودة منه. ضغط على الكتف دون أن يتسبّب لي بأذى، كما لو أنه سيقدم لي نصيحة أو سيؤكّد شيئًا، تكَوَّنت لدي فكرة عمّا يمكن أن تكون عليه هذه اليد فوق عنقي، يد واحدة فقط، دون ذِكر اليدين الاثنتين. خشيت أن ينقلها إلى العنق بحركة سريعة، ولا بد من أنه قد انتبه لتأهّبي، لتوتّري، واصل الضغط على كتفي أو بدا لي أنه قد زاد فيه، كمن يرغب في التملص مني، في استنزافي، كانت يده اليمنى على كتفي اليسرى، كما لو أنه أب أو أستاذ وأنا طفلة، تلميذة، أحسست بالتضاؤل، من المؤكد أن هذا هو الهدف، كي أجيب بصراحة، وإلا سيكون ردّي بقلق.

- أنتِ لم تسمعي شيئًا مما قاله لي، أليس كذلك؟ كنتِ نائمة عند وصوله، أليس صحيحًا؟ لقد دخلتُ للتأكد من ذلك قبل التحدّث معه ورأيتُ أنك كنت مستغرقة تمامًا في النوم، لقد كنتِ

نائمة، أليس كذلك؟ ما رواه لي أمر حميم جدًا، ولن يروق له أن يكون أحد سواي قد علم به. حتى ولو كنتِ مجهولة بالنسبة إليه. هناك أمور تسبّب الخجل إذا ما سمعها آخرون، بل إنها تكلّف مشقّة في إخباري أنا نفسي بها، مع أنه قد جاء لهذا الهدف ولا مفر له من إخباري إذا أراد أن أقدّم إليه ذلك الجميل. أنت لم تعلمي بأي شيء، أليس كذلك؟ ما الذي أيقظك؟

إنه يوجّه إليّ السؤال بوضوح وبصورة سافرة، وهو سؤال بلا جدوى أو ضئيل الجدوى: تبعًا لما سيكون عليه ردّي، يمكن له أن يتصوّر أو يستتج إذا كنت أكذب عليه أم لا، أو أن هذا ما ظننته. ولكن هذا هو ما ستتمخّض عنه المحصلة: استنتاج، تصوّر، افتراض، قناعة، أمر لا يُصدّق أنه بعد قرون طويلة من أحاديث لا تتوقّف بين الأشخاص لا نستطيع أن نعرف متى يقولون لنا الحقيقة. «أجل»، يُقال لنا، ويمكن للأمر أن يكون «لا» دومًا. يُقال لنا «لا»، ويمكن أن تكون «بلى» على الدوام. لا يمكن حتى للعلم ولا للتقدم التقني اللامتناهي أن يسمح لنا بتحرّي هذا الأمر بصورة مؤكّدة. ومع ذلك لم يستطع مقاومة الرغبة في استجوابي مباشرة، ما جدوى أن أرد عليه بـ «نعم» أو «لا». ماذا كانت ستفيد ديفيرني كل مظاهر المحبة من أحد أفضل أصدقائه على امتداد سنوات طويلة، إذا لم يكن أفضلهم على الإطلاق. آخر ما يمكن لأحدنا تخيله هو أن يُقدِم هذا الصديق على قتله، حتى ولو من بعيد ودون حضوره، دون تدخّله أو تلويث ولو إصبع واحد من أصابعه، بحيث يمكن له أن يفكّر في بعض الأحيان، في ما بعد، في أيام سعادته، أو أنها ستكون أيام الابتهاج: «الحقيقة أنني لم أفعل ذلك، لم تكن لي أي علاقة بالأمر».

- لا، لم أسمع شيئًا، لا تقلق. لقد نمت نومًا عميقًا، وإن لم يدم إلا لوقت قصير. أضف إلى ذلك أنني رأيت أنك أغلقت الباب، وما كان بمقدوري أن أسمعكما.

كانت اليد ما تزال تضغط على كتفي، بدا لي أن الضغط قد ازداد قليلًا، بمقدار لا يمكن الشعور به تقريبًا، كما لو أنه يريد غرسي في الأرض بصورة بطيئة جدًا، دون أن أنتبه أنا نفسي إلى ذلك. أو ربما لم يكن يضغط، وإنما لدى انكشاف ثقله ازدادت لديَّ حدّة الإحساس بالضغط. رفعت كتفي بلا فظاظة، بل على العكس تمامًا، برفق، برهبة، كما لو أنني أبيّن له أنني أُفضّل أن تكون كتفي طليقةً، وأنني لا أريد قطعة اللحم تلك المستقرّة فوقي على ذلك النحو، كان في تلك الملامسة غير المعهودة عنصر امتهان غامض: «دليل على قوتي»، هذا ما يمكن لها أن تكونه. أو «تصوّري ما الذي أنا قادر عليه». تجاهل إيماءتي الخفيفة - ربما كانت خفيفة جدًا - وعاد إلى سؤاله الأخير الذي لم أُجب عليه، ألحّ:

- ما الذي أيقظكِ؟ إذا كنت تظنين أنه لا وجود لأحد سواي، لماذا وضعتِ إذًا حمالة الصدر من أجل الخروج؟ لا بد أن همهمة صوتينا قد وصلت إليك، أليس كذلك؟ وقد سمعت شيئًا ما عندئذ، على ما أظن.

كان عليّ أن أحافظ على هدوئي وأن أنكر. فكلما ازداد ارتيابًا عليّ أن ازداد إنكارًا. ولكن عليّ أن أفعل ذلك بلا احتداد ولا تفخيم من أي نوع. فما الذي يهمني أنا بما يتداوله مع شخص لم أسمعه يتكلّم، كانت هذه هي ورقتي الرابحة الكبرى للتوصّل إلى إقناعه، كي أؤجّل يقينه على الأقل؛ ما هي مصلحتي أنا في التجسّس عليه، فكل ما يحدث خارج غرفة النوم تلك لا يعنيني بأي حال، وحتى ما

يجري داخل الغرفة عندما لا أكون فيها، يجب أن يكون هذا واضحًا، فعلاقتنا ليست عابرة وحسب، بل هي محدودة كذلك، تقتصر على تلك اللقاءات العارضة في بيته، في حجرة أو اثنتين من البيت، وماذا يهمني أنا كل ما سوى ذلك: ذهابه ومجيئه، ماضيه، صداقاته، خططه، مغازلاته، وحياته كلها، فأنا لم أكن فيها ولن أكون «hereafter» اعتبارًا من الآن ولا في ما بعد، أيام علاقتنا لها عددها وهي لم تكن بعيدة قطّ. ومع ذلك، مع كون هذا كلّه حقيقي في جوهره، فإنه ليس كذلك بالمطلق: كنت قد شعرت بالفضول، استيقظت عندما التقط مسمعي كلمة مفصلية - ربما كلمة «خالة»، أو «تعرف» أو «امرأة»، أو أنها بكلٍّ تأكيد توليفة من الكلمات الثلاث -، كنت قد نهضت من الفراش، وكنت قد ألصقت أذني، وكنت قد فتحت الباب قليلًا كي أسمع بصورة أفضل، وكنت قد شعرت بالسعادة عندما كان هو وروبيبريث غير قادرَيْن على خفض صوتَيهما، على الوصول إلى التهامس، لقد حال انفعالهما دون ذلك. بدأتُ أتساءل لماذا فعلتُ ذلك، وعلى الفور بدأت أتحسّر: لأنه عليّ أن أعرف ما عرفته، لأن الفكرة...، لأنه لم يعد من الممكن مدّ الذراعين إليه وتطويق خصره وتقريبه مني، كان من السهل جدًّا أن أزيح يده عن كتفي بهذه الحركة وحدها، حركة كانت ستبدو طبيعية وبسيطة قبل لحظات، وهناك كانت شفتاه الحبيبتان، وكنت راغبة، كعادتي دومًا، في تقبيلهما ولم أعد أتجرأ على ذلك الآن، أو أن شيئًا لم يكن فيهما راح يتكشّف لي - يا للشفتين المسكينتين، غير المذنبتين -، هنالك شيء فيه هو وليس فيهما. ما زلت أحبه وأشعر بالخوف منه، ما زلت أحبه ومعرفتي بما فعله تستثير قرفي؛ ليس هو من يستثير قرفي، وإنما معرفتي بما فعله.

- ولكن أي أسئلة هي هذه - قلت له باستياء -. ما يدريني أنا بما أيقظني، ربما حلم خبيث، أو وضع سيئ غير مريح، أو معرفتي بأنني أخسر لحظات معك، لا أدري، ما الفرق في ذلك. وما الذي يهمّني أنا بما سيخبرك به ذلك الرجل، بل إنني لم أكن أعلم بوجوده هنا. وإذا كنتُ قد وضعت حمالة الصدر فلأن الأمر ليس نفسه حين تراني مستلقية على مسافة قريبة، أو تحت ومضات ضوء، وحين أكون واقفة أو أمشي في أنحاء البيت كما لو أنني أظن نفسي واحدة من موديلات فيكتوريا سيكْريت أو أفضل منهن، فهن في نهاية المطاف يظهرن على الدوام بملابس داخلية. هل يجب عليّ أن أفسر لك كل شيء أو ماذا؟

- ما الذي تعنينه؟

الحقيقة أنه بدا مرتبكًا، بدا كمن لم يفهم، وهذا - انزياح اهتمامه، شرود ذهنه - منحني فرصة ضئيلة وآنية، فكرتُ في أنه لن يتأخّر في التخلي عن توجيه أسئلة ملتوية وسيكون بإمكاني عندئذ الخروج من هناك، كنت أستعجل إزاحة تلك اليد عني وإبعاده عن مجال رؤيتي. على الرغم من أن أناي السابق، الذي ما زال يهيم - لم يتبدّل بعد ولم يُستبدل، لم يكن لدي أي تعجّل للخروج من هناك: في كل مرة أغادر كنت أجهل متى سأرجع، أو إذا ما كنت لن أرجع أبدًا.

- يا لرعونتكم أحيانًا يا معشر الرجال - قلتُ متعمّدة، بدا لي أنه من المناسب إطلاق عبارة خرقاء مبتذلة وتحويل مجرى المحادثة، حملها إلى ميدان أكثر ابتذالًا، وهو ميدان يكون عادة أقل عدوانية وأكثر مدعاة للثقة وخفض حالة الحذر والاحتراس -. هنالك مناطق نعتقد فيها نحن النساء بأننا قد هرمنا أكثر ونحن في الخامسة والعشرين أو الثلاثين من العمر، وليس بعد عشر سنوات إضافية. وبالمقارنة مع أنفسنا بالذات، فإننا نحتفظ بذاكرة عن كل سنة مضت. ولهذا لا

يروق لنا عرض هذه المناطق بطريقة مفاجئة ومواجهة. حسنًا، أنا لا أستحسن ذلك، والحقيقة أن كثيرات لا يولين هذا الأمر اهتمامًا، فالشواطئ تغصّ بعروض لم تعد مواجهة وحسب وإنما فظّة، كارثية، بما في ذلك أولئك اللواتي يُركبن حطبتين صلبتين ويعتقدن بأنهن قد حللن بذلك المشاكل كلها. معظمهن يسببن تضرّس الأسنان. وضحكتُ باقتضاب بسبب العبارة المختارة، وأضفت أخرى مشابهة -: يثرن الاشمئزاز.

- آه - قال هو، وضحك باقتضاب أيضًا، وكانت تلك إشارة طيبة -. أنا لا يبدو لي أن هناك وجودًا لأي منطقة هرمة في جسدكِ، إنني أراكِ جيّدة بكاملك.

«إنه أكثر طمأنينة» فكرتُ، «أقل قلقًا وريبة، لأنه بعد الرعب بحاجة لأن يكون هكذا. ولكن في ما بعد، عندما يظل وحيدًا، سيعود إلى اقتناعه بأنني أعرف ما ليس عليّ معرفته، ما لا يمكن لأحد سوى روبييريث أن يعرفه. سيسترجع تصرفي، سيتذكر حيائي المبكر لدى خروجي من غرفة النوم وجهلي المتصنّع خلال تلك اللحظات كلها، سيقول لنفسه إنه بعد الاندفاعات الغرامية لن تكون ثمة أهمية للحال التي سيراني بها، أي حمالة صدر وأي هراء، فالمرء يسترخي، يتجاهل التستّر كثيرًا بعد الانتهاء؛ سيتخلّى عن تصديق التفسير الذي يتقبّله الآن بفعل المفاجأة، لأنه لم يخطر لمخيلته أن هنالك نساء يهتممن كثيرًا بمظهرهن في كل وقت، بما نخفيه وما نسمح برؤيته وحتى بشدة زخم لهاثنا، أو عدم تخلينا الكامل عن الحياء، حتى في منتصف الهياج. سيُقَلِّبُ الأمر مجددًا دون أن يعرف ما الذي يناسبه عمله، هل استبعادي تدريجيًا وبصورة طبيعية أم قطع كل تعامل معي بصورة مفاجئة، أم مواصلة العلاقة كما لو أن شيئًا لم يحدث، كي يراقبني عن قرب، من أجل التحكّم بي، كي يقدّر في كل يوم مدى خطر الوشاية، إنه وضع باعث على الضيق، محاولة تفسير أحدهم بصورة متواصلة ودون توقف، شخص يمسك بنا في قبضته ويمكن له السعي إلى تدميرنا أو يملك القدرة على ابتزازنا، لا يمكن تحمّل قلق كهذا لوقت طويل، يحاول علاجة كيفما اتفق، يكذب، يخوِّف، يخدع، يدفع، يتواطأ، يُزيح جانبًا، وهذا الأمر الأخير هو الأكثر ضمانة على المدى الطويل - إنه الحل الحاسم - وهو الأكثر مجازفة للوهلة الأولى، والأكثر صعوبة كذلك الآن وفي ما بعد، وهو الأكثر ديمومة بطريقة ما، إذ إن المرء يرتبط بالميت إلى أبد الآبدين، يُعرّض نفسه لأن يظهر له حيًّا في الأحلام فيظن أحدنا أنه لم يجهز عليه تمامًا، فيشعر عندئذ بالراحة لأنه لم يقتله أو يشعر بالرعب والتهديد ويخطط للعودة إلى قتله مجددًا؛ يعرّض نفسه إلى أن ذلك الميت يحوم كل ليلة حول وسادته بوجهه القديم الباسم أو المقطّب وبعينيه المفتوحتين جيدًا بعد أن كانتا مغمضتين منذ قرون أو أول أمس، ويهمس له بلعنات أو توسّلات بصوته الذي لا يمكن الخطأ فيه ولا يسمعه أحد سواه، وتبدو له المهمّة على الدوام غير مكتملة ومنهكة، انهماك متواصل غير متناهٍ، معلّق كل صباح قبل الاستيقاظ. لكن هذا كلّه سيكون في ما بعد، عندما يجترّ هو نفسه ما حدث أو ما يخشى أن يكون قد حدث. ربما يقرّر عندئذ إرسالي إلى روبييريث بذريعة ما، كي يسبرني، كي يستخلص الأسرار مني، ونأمل ألا يكون ذلك من أجل شيء أخطر، من أجل أن يقوم وسيط بتشويشي أو إضعاف الرابط، ولن أتمكّن أنا كذلك من العيش بسلام بعد اليوم. ولكن ليس الآن هي اللحظة ولسوف نرى، يجب أن أستغل أنني قد أبعدت انتباهه عن شكوكه وقدّمت إليه بعض اللطف، والخروج من هناك».

- شكرًا للضيافة، ليس من عادتك الإسراف - قلتُ له. ودون بذل أي جهد بدني، وبجهد ذهني متعب، قرّبت وجهي من وجهه وقبلت شفتيه بشفتيَّ المطبقتين والجافتين، بنعومة، كنت أشعر بالظمأ، بطريقة مشابهة لذرعي لهما بطرف إصبعي، داعب وجهي وجهه، هذا ما حدث، على ما أعتقد. هذا ما كان ولا شيء أكثر.

رفع عندئذ يده وحرر كتفي وأزاح الثقل البغيض عني، وبتلك اليد نفسها التي سببت لي الألم تقريبًا - أو هذا ما بدأت أعتقد بأنني أشعر به -، داعب خدي، مرة أخرى كما لو أنني طفلة وبإمكانه أن يعاقبني أو يكافأني بإيماءة واحدة، وكل شيء يعتمد على مشيئته. كنت على وشك تفادي تلك المداعبة، هناك الآن فرق بين أن ألمسه أنا وبين أن يلمسني هو، لحسن الحظ أنني كبحت نفسي وتركته يفعل. وعند خروجي من البيت بعد بضع دقائق من ذلك، تساءلتُ، كالعادة، إذا ما كنت سأرجع للدخول إلى هناك. في هذه المرة فقط لم يكن هناك أحساس بالأمل والرغبة، وإنما امتزجا، ماذا كان ذلك: لا أدري إذا كان اشمئزازًا أم هلعًا، أم إنه كان أقرب إلى الأسى والغم.

III

في كل علاقة غير متساوية وبلا تسمية محدّدة ولا اعتراف واضحًا وصريحًا، سيكون هنالك من يمسك زمام المبادرة، من يتصل ويقترح اللقاء، ولا يكون أمام الجانب الآخر سوى أحد احتمالين أو سبيلين من أجل بلوغ الهدف نفسه بعدم التلاشي والتواري الفوري، حتى لو كنت تعتقد بأن هذا ما سيكون عليه مصير تلك العلاقة النهائي في كل الأحوال. الاحتمال الأول هو الاكتفاء بالانتظار، وعدم الإقدام على أي خطوة بالمطلق، مع الثقة بأنه يمكن له أن يشتاق إليها وأن يكتشف أن صمتها وغيابها لا يُحتَمَلان، أو أنهما يستثيران القلق بصورة لا يمكن تحمّلها، لأن الجميع يعتاد سريعًا على ما يُقدَّم إليه أو على ما هو موجود. السبيل الثاني هو محاولة التسلل بمداراة إلى الحياة اليومية لذلك الشخص، بالمثابرة دون إلحاح، واتخاذ موقع بذرائع متعدّدة، الاتصال ليس من أجل اقتراح أي شيء - فهذا ما زال محظورًا - وإنما من أجل طلب استشارة في أي أمر ما، أو طلب نصيحة أو معروف، أو لرواية ما يحدث لنا - وهذه هي الطريقة الأكثر فعالية وتأثيرًا - أو تقديم معلومة ما؛ التواجد، والتصرف كمُذَكِّر لنفسه بالذات، الدندنة عن بعد، الأزيز، فسح المجال لعادة كي تستقر بصورة غير ملحوظة، خلسة، إلى أن يأتي يوم يكتشف فيه ذلك الشخص أنه افتقد مَن صار مألوفًا لديه، فيشعر بما يشبه الإساءة - أو أنه ظِل هجران - و، بتلهف، يرفع الهاتف بحركة غير تلقائية، ويرتجل عذرًا سخيفًا ويُفاجَأ بأنه يتّصل.

أنا لا أنتمي إلى هذا الصنف الثاني الجريء والمبادر، وإنما إلى الصنف الأول الصامت، الأكثر تكبّرًا والأكثر بُعد نظر أو دهاء، ولكنه الأكثر تعرّضًا كذلك لأن يُمحى أو يُنسى سريعًا، وابتداء من ذلك المساء سعدتُ بالمجازفة، وبأن أكون تابعة بفعل العادة لطلبات واقتراحات من هو بالنسبة إليّ ما زال خابيير ولكنه آخذ بالانتهاء إلى البدء بطريق التحوّل إلى كنية مركبة يصعب تذكّرها؛ وألا أكون مضطرة إلى الاتصال به ولا البحث عنه، وألا يكون، بالتالي، امتناعي عن عمل ذلك مثيرًا للشبهة أو الوشاية. فعدم اتصالي به لا يعني أنني أريد تجنّبه، ولا أنه قد خيّب أملي - هذه كلمة مخفَّفة -، ولا يعني أنني خفت منه، ولا أنني أرغب في قطع كل تعامل معه بعد معرفتي بأنه قد حاك مؤامرة طعن أفضل صديق له دون أن يكون موقنًا من أنه سيصل بذلك إلى هدفه، فما زالت أمامه المهمّة الأسهل أو الأصعب، وهذا ما لا يمكن معرفته أبدًا، مهمة الغرام (وهي الأكثر تفاهة والأكثر أهمية). عدم إبدائي ما يشير إلى أنني على قيد الحياة لا يعني أنني أعرف أي شيء عن هذا أو أي شيء جديد عنه، صمتي لا يخونني، كل شيء مثلما كان على الدوام خلال علاقتنا القصيرة، وكل شيء يعتمد على شعوره هو بحنين غامض أو بأن يتذكّرني ويدعوني إلى مخدعه، وعندئذ فقط سيكون عليّ أن أفكر بكيف أتصرّف وماذا أفعل. الوقوع في الغرام لا مغزى له، وانتظاره بالمقابل أمر جوهري.

عندما حدّثني دياث - باريلا عن الكولونيل شابير، طابَقَ بين هذا الكولونيل وديسفيرن: الميت الذي يجب أن يواصل الموت لأن موته قد وُثّق في الحَوليات وتحوّل إلى حدث تاريخي ورُوي وفُصّل،

وأن حياته الجديدة التي لا سبيل إلى فهمها ما هي إلا زيف مزعج وتدخل في حيوات الآخرين؛ وأنه آت لتعكير صفو الكون الذي لا يعرف ولا يستطيع أن يصوّب ما جرى له وواصل بالتالي مساره دونه. كون لويسا لم تنفض عنها ديفيرني فورًا، وواصلت بطريقة خاملة أو روتينية ارتباطها به أو بذكراه التي ما زالت قريبة العهد - حديثة العهد بالنسبة للأرملة ولكنها بعيدة بالنسبة لمن كان يفكّر قبل وقت طويل بإلغائه من الوجود -، لا بد من أن ذلك قد بدا لدياث - باريلا كتدخّل شبح، مجرّد طيف مزعج مثلما هي حال شابير، والفرق الوحيد هو أن هذا الأخير قد عاد بلحمه وعظمه وندبة جرحه بعد أن كان قد نُسي، وكانت عودته عقبة تعرقل حتى مسار الزمان، ذلك أنه راح يسعى جاهدًا إلى حرف الزمن عن مساره وتصويبه خلافًا لطبيعته، بينما ديسفيرن لم يغادر بالكامل كروح، بل تأخّر، وهو يتمكّن من ذلك تحديدًا بمساعدة من زوجته التي ما زالت مستغرقة في العملية البطيئة لتجاوز هجرانها وانشقاقها عنه، بل إنها كانت تحاول استبقاءه، أكثر قليلًا، وهي تعلم أنه سيأتي يوم بصورة لا يمكنها تصديقها، تُطمس فيها ملامح وجهه وتتجمّد في أي واحدة من الصور التي تعكف على مواصلة النظر إليها، بابتسامة بلهاء أحيانًا ووسط نحيب ونشيجٍ في لحظات أخرى، وهي وحدها وعلى انفراد طوال الوقت، مختبئة دومًا.

ومع ذلك فإن دياث - باريلا هو الذي أراه الآن أكثر شبهًا بشابير. فهذا الأخير عانى مرارات ونوائب لا تُعَد ولا تُحصى، بينما ذاك أنزلها وألحقها بآخرين، وكان هذا ضحية الحرب، والإهمال والبيروقراطية وعدم التفهّم، أما ذاك فنصَّب نفسه جلادًا وعكّر صفو الكون بصورة خطيرة بقسوته، وبأنانيته التي ربما تكون قاحلة، ورعونته المفرطة. لكن كليهما ظلّا بانتظار إيماءة، نوع من المعجزة، تشجيع ودعوة، ينتظرها شابير من عودة غرام تبدو شبه مستحيلة من جانب زوجته، وينتظرها دياث - باريلا من غرام غير محتمل من جانب لويسا، أو على الأقل مواساته بأن يكون بالقرب منها. كان هناك شيء مشترك في أمل كليهما، في الصبر، بالرغم من أن آمال العسكري العجوز كانت تسيطر عليها النظرة الارتيابية وعدم التصديق، بينما آمال عشيقي العابر يسودها التفاؤل والوهم، أو ربما الحاجة. كلاهما كانا أشبه بشبحَين يبديان تجهّمات وإيماءات وحتى حركة متصنّعة بريئة، بانتظار أن يُرَيا ويجري التعرف عليهما وربما استدعاؤهما، تملأهما الرغبة بأن يسمعا في نهاية المطاف هذه الكلمات: «أجل، لا بأس، أتعرف عليك، إنك أنت»، على الرغم من أنهم، في حالة شابير، اقترحوا فقط منحه رسالة الوجود التي كانوا ينكرونها عليه، أما في حالة دياث - باريلا فتعني أكثر بكثير: «أريد أن أكون بجانبكِ، اقترب وأظل هنا، أملأ المكان الشاغر، تعالي إليّ وعانقيني». ولا بد من أن الاثنين كليهما يفكّران بشيء مشابه، شيء يمنحهما القوة ويدعمهما في انتظارهما ويحول دون استسلامهما: «من غير الممكن أن أكون قد مررت بما مررت به، وأن تكون قد قتلتني ضربة سيف في الجمجمة وحوافر ما لا يحصى من الخيول التي تعدو، ومع ذلك خرجت من وسط جبل من الموتى بعد المعركة الطويلة وغير المجدية التي حوّلت أربعين ألف شخص مثلي إلى جثث حقيقية، كان عليّ أن أكون واحدًا منهم، ميت آخر وحسب؛ من غير الممكن أن أكون قد شفيت بصعوبة، بما يكفي لأن أنهض وأمشي، لقد جبت أنحاء أوروبا على امتداد سنوات، وعانيت البؤس والعوز دون أن يصدّقني أحد، وكنت مضطرًا لاقناع أي أبله بأنني أنا وما زلت أنا، وبأنني لستُ متوفّيًا بالمطلق على الرغم من أنني مثبت بهذه الصفة في السجلات؛ وقد وصلتُ أخيرًا إلى هنا، حيث كانت لي امرأة، وبيت، ومرتبة وثروة، هنا حيث اعتدت العيش، ولكن أكثر من أحببت

ومن ورثتني، لم توافق حتى على أنني موجود، تتظاهر بعدم التعرف عليّ وتصفني بالنَّصّاب. ما مغزى أن أكون قد ظللت حيًا بعد موتي المتكرّر، وأن أكون قد خرجت من الحفرة التي كنت قد استسلمتُ للمقام فيها، عاريًا بلا تمييز أو علامة فارقة، مشابهًا في كل شيء من سقطوا قتلى مثلي، سواء أكانوا ضباطًا أو جنودًا عاديين، من مواطنيّ أو ربما من الأعداء، ما مغزى هذا كلّه إذا كان ما يُخبَّأ لي في نهاية هذا الطريق هو الإنكار وتجريدي من هويتي، من ذاكرتي ومن كل ما توالى حدوثه بعد الموت. وتحولي إلى فائض عن الحاجة، ومحنتي، وجهدي العظيم، وما يشبه القدر إلى حدّ بعيد...». هذا ما لا بد من أن الكولونيل شابير قد فكّر فيه بينما هو يمضي ويجيء في أنحاء باريس، وبينما هو يتوسّل أن يستقبله ويصغي إليه المحامي ديرفيل ومدام فيرو، التي بفضل انبعاثة لم تعد أرملته، بل هي امرأته، وهكذا ستكون، من أجل تعاسته، تعاسته المدفونة أيضًا والماضية، والتي كانت تمقتها مدام شابير. وكان لا بد لديات - باريلا بدوره من التفكير: «من غير الممكن أن أكون قد فعلتُ ما فعلته أو ما دبّرته وأطلقت مساره، ما فكرت فيه لزمن طويل، وبعد أن استُنزفتُ في الشكوك، تمكنتُ من تدبير آلية موت، موت أفضل صديق لي، متظاهرًا بترك الأمر للأقدار قليلًا، فقد يتحقّق وقد لا يتحقّق، قد يحدث أو لا يحدث أبدًا، أو ربما أنني لم أكن أتظاهر، بل إنني كنت كذلك حقًّا؛ أضع تصورًا لخطة غير محكمة ومليئة بثغرات رخوة وأطراف مفلتة، كل ذلك بالتحديد من أجل إنقاذ ماء وجهي أمام نفسي بالذات والتمكّن من القول لنفسي إنني قد سمحت في نهاية المطاف بوجود شروخ ومهارب كثيرة لم أضبطها بإحكام، وإنني لم أرسل قاتلًا مأجورًا ولم أصدر لأحد أمرًا: «اقتله». من غير الممكن أن أكون قد أدخلت شخصين أو ربما كانوا ثلاثة، أعني روبيريث ومرؤوسه الذي أجرى مكالمات هاتفية، ومدبّر مواقف السيارات نفسه الذي كان يسمع تلك المكالمات، بهدف أن أظل بعيدًا جدًا عن تنفيذ عملية القتل، وعن الواقعة نفسها عندما ستجري العملية، إذا ما جرت بالفعل، لم يكن هنك يقين مؤكّد حول ردّ فعل مدبّر مواقف السيارات، إذ كان يمكن له أن يتجاهل الأمر أو أن يكتفي بشتم ميغيل، أو أن يوجّه إليه لكمة مثلما فعل مع سائقه عندما أخطأ بينهما، وكان يمكن كذلك لمحاولة زرع الشقاق أن تسقط في قربة مثقوبة منذ البدء دون أن يكون لها أدنى تأثير، ولكنها كانت ذات مفعول وعندئذ...؛ لا، لا يمكن أن تكون الأمور قد جرت وفق رغبتي، خلافًا لكل الاحتمالات تقريبًا، وأنها عند حدوثها فقدت طابعها المحتمل كلعبة أو رهان وتحوّلت إلى مأساة، وبالتأكيد إلى عملية قتل موجهة حوّلتني أنا بدوري إلى قاتل غير مباشر، فأنا صاحب التصور وقرار البدء، ورمي نردَيّ الافتتاح، ودفع عجلة الإجراءات لتبدأ دورانها، وكنت أنا من قلت «احصل له على هاتف محمول لإفساد مسمعه، فعبر هذا السبيل يمكن الوصول إلى الذهن، إلى اختلال العقل وإلى ما هو غير موجود؛ واشترِ له سكينًا لإغوائه، كي يداعبها ويفتحها ويُطْبقها، فمن يملك سلاحًا هو وحده من يملك الرغبة في استخدامه»، لا، لا يمكن أن أكون أنا قد تدخلتُ في الأمر وألقيتُ لطخة من المحال انتزاعها كيلا تفيد في شيء بعد ذلك ولا تتحقّق نواياي. أي مغزى سيكون لتضمّخي على ذلك النحو بالجريمة، بالمؤامرة، بالرعب، وحملي في أعماقي إلى الأبد الخديعة والخيانة، وعدم القدرة على إزاحتهما عن كاهلي ولا نسيانهما إلا في لحظات ذهول قصيرة أو ربما في لحظات الاستغراب التام التي لم أعرفها، لستُ أدري، فكَوْني قد أقررت رابطًا يعود للظهور لي في أحلامي ولا يمكنني قطعه أبدًا، أي مغزى سيكون له إذا لم أبلغ هدفي الوحيد، إذا كان ما تخبئه لي نهاية هذا المسار هو الصَد أو عدم المبالاة أو الشفقة، أو محض المودّة القديمة التي تبقيني في مكاني وحسب، لماذا كل تلك الدناءة، أو ما هو أسوأ،

الوشاية، انكشاف الأمر، الازدراء، إدارة الظهر وصوتها الجليدي يقول لي كما لو أنه يخرج من خوذة حديدية: «أغرب عن ناظري ولا تعود للظهور أمامي». كما لو أنها ملكة تستبعد إلى الأبد أشد رعاياها حماسة، والمخلص لها إلى حدّ العبادة. ويمكن لهذا أن يحدث الآن، يمكن له أن يحدث بكل سهولة إذا ما كانت هذه المرأة، ماريا، قد سمعت ما كان يجب ألا تسمعه وقررَت الذهاب للإخبار عنه، وحتى لو أنكرتُ ذلك كله فإن الشك سيكون كافيًا لتلاشي احتمالات قبولي وتبديدها تمامًا من الوجود. أعرف أنه ليس لدي ما أخشاه من جهة روبييريث ولهذا كلّفته بالعملية، فأنا أعرفه منذ زمن بعيد ولا يمكن له أن يفلت لسانه أبدًا، حتى لو جرى استجوابه أو توقيفه، وإذا ما تعرّف المتشرّد عليه، ووصلوا إليه، فلن يأتي على ذكري مهما اشتدت عليه الضغوط، بسبب الأموال التي أغدقها عليه ولأنه في وضع قانوني. أما الآخرون، كانييّا ومن اتصل به، من راح يُذَكّره عدة مرات كل يوم بابنتيه العاهرتين ويجبره على تخيّلهما وهما في أوج عملهما بتفاصيل تعذّبه، من تسلط على ذهنه واتهم ميغيل، هؤلاء الأشخاص لم يروني في حياتي كلها ولم يسمعوا باسمي، كما أنهم لم يسمعوا صوتي، وأنا لا وجود لي بالنسبة إليهم، فالموجود هو روبييريث بقمصانه النايك أو معاطفه الجلدية وابتسامته الشهوانية. لكنني أجهل كل شيء عن ماريا في الواقع، ألاحظ أنها آخذة بالوقوع في غرامي أو أنها قد أُغرمت بي وانتهت، وقد فعلت ذلك بسرعة كبيرة لا تتردّد معها عن التجاوب مع قرار سخي يمكنني التراجع عنه عندما تتاح الفرصة، بسبب التعب أو الاستياء أو التعقل أو خيبة الأمل، الأمر الثاني لا يبدو أنها تشعر به أو ستشعر به، فهي راضية عن أنه لا وجود لأكثر مما هو موجود وتعرف أنني سأتخلى عن اللقاء بها ذات يوم وسأمحوها من ذاكرتي لأن لويسا ستكون قد استدعتني أخيرًا، وهذا غير مؤكّد بطريقة ما ولكن يمكن حدوثه، بل أكثر من ذلك، يجب أن يحدث عاجلًا أو آجلًا. اللهم إلا إذا امتلكت ماريا إحساسًا غبيًا وقويًا بالعدالة، وخيبة أمل اكتشافها أنني مجرم ستفرض نفسها عليها فوق أية اعتبارات أخرى وهكذا تجد ما يكفي لإنكاري والابتعاد عني، بل ستحتاج إلى إبعادي عن حبي. وعندئذ، إذا علمت لويسا بالأمر، أو إذا دخلت الفكرة إلى رأسها، فلا حاجة للمزيد، أي معنى سيظل بعد توغّلي في أقذر الدروب وافتقاد أي أمل، بما في ذلك أبعد الآمال، الآمال غير الواقعية التي تساعدنا على الحياة. ربما سيكون حتى الانتظار نفسه عندئذ محظورًا عليّ، ليس الأمل وإنما مجرد الانتظار، الملاذ الأخير لأتعس التعساء، للمرضى وخائبي الرجاء والمحكومين المدانين والمحتضرين ممن ينتظرون مجيء الليل مرة أخرى، لمجرد أن يتبدّل الضياء كي يعرفوا على الأقل ما عليهم أن يكونوا عليه، هل عليهم أن يكونوا مستيقظين أم نائمين. حتى الحيوانات تنتظر. الملاذ لكل الكائنات على هذه الأرض، الجميع باستثنائي أنا...

راحت الأيام تمضي دون أخبار عن دياث - باريلا. مضى يوم، يومان، ثلاثة، أربعة أيام، هذا عادي تمامًا. خمسة، ستة، سبعة، ثمانية أيام، هذا عادي أيضًا. تسعة أيام، عشرة، أحد عشر، اثنا عشر، هذا ليس عاديًا جدًا، ولكنه غير مستغرب أيضًا، فهو يسافر في بعض الأحيان وقد أسافر أنا أيضًا في بعض الأحيان، لم يكن من عادتنا أن يخبر أحدنا الآخر بسفره مسبقًا وأقل من ذلك أن يودّع كل منا الآخر عند سفره، لم نصل إلى مثل هذا التآلف قطّ ولم يكن أحدنا يروي للآخر من أجل تقدير ما هو ضروري أو لا بد منه للإخبار عن تحركاتنا، وعن غيابنا عن المدينة. في كل مرة كان يتأخّر في الاتصال بي، أو في إعطاء إشارة، مثل هذا العدد من الأيام أو أكثر، كنت أفكر بأسف - ولكن برضى على الدوام، أو ربما باستسلام - أنه عليّ الخروج من المشهد، وأن الوقت الذي اقتطعته من حياته كان قصيرًا جدًا في نهاية المطاف؛ وأفترض أنه قد تعب، أو أنه، في وفاء لميوله وعاداته، قد بدّل من جديد رفيقة لهوه (لم أنتظر قطّ ما هو أكثر، بالرغم من أنني كنت أريد الشعور بأني أكثر بعض الشيء) خلال ما أراه الآن انتظارًا طويلًا له لا ترقى إليه الذاكرة، أو ربما كترصّد؛ أو أن تكون لويسا آخذة بتقبله بأسرع مما هو متوقع وأنه لم يعد هنالك مكان لي ولا لأي واحدة أخرى بكل تأكيد؛ أو أنه يتقرَّب منها في زياراته واهتمامه بها، وإيصال طفليها إلى المدرسة ومساعدتها بما يستطيعه... بأن يرافقها ويكون تحت تصرفها. «قضي الأمر، لقد ذهب، ألقى بي جانبًا، انتهى كل شيء»، هذا ما فكرتُ به. «كل ذلك استمر لوقت قصير أتكتَّم عليه مع أخريات، وذكراه تختلط عليّ. أصير غير مميزة، أصير علاقة سابقة، صفحة بيضاء، ما هو نقيض «منذ الآن»، وسأنتمي إلى ما لم يعد يُحكى عنه. ليس مهمًا، لا بأس، كنت أعرف ذلك منذ البدء، لا بأس». وإذا ما رنّ الهاتف في اليوم الثاني عشر أو الخامس عشر وسمعتُ صوته، لا أستطيع منع نفسي من القفز بسعادة داخلية والقول لنفسي: «حسنًا، انظري، ليس بعد، ستكون هناك مرة أخرى إضافية على الأقل». وخلال فترات الانتظار غير الطوعي من جانبي، والصمت المطبق من جانبه، في كل مرة يرن فيها الجرس أو ينبّهني الهاتف المحمول إلى وجود رسالة قصيرة تنتظر القراءة، أثق بتفاؤلِ أن يكون هو وراءها.

يحدث لي الآن الشيء نفسه، ولكن بتوجّس. أنظر إلى الشاشة الصغيرة بارتباك، راغبة في عدم رؤية اسمه ورقمه و- هذا هو ما يثير القلق، ما هو مستغرب - راغبة فيه في الوقت نفسه. كنت أفضل ألا تكون لي أية علاقة أخرى معه وألا أُعرّض نفسي للقاء جديد بطريقتنا الوحيدة نفسها، أجهل خلاله كيف سيكون ردّ فعلي، كيف يمكن لي أن أتصرف. لقد كان أسهل عليَّ أن يلحظ أني متهرّبة أو فاترة الهمّة إذا كنا سنلتقي لتبادل الحديث فقط. ولكن عدم الرد سيكون له التأثير نفسه، لأنني لم أكن قد فعلت ذلك من قبل قطّ. إذا ما رضيت الذهاب إلى بيته فسوف يقترح عليّ هناك أن ننام معًا، مثلما يقترح عادة بطريقته تلك قليلة الكلام التي تسمح له بالتصرف كما لو أن ما يحدث لا يحدث، أو أنه غير جدير بأن يعترف بحدوثه، وأرفض أنا بذريعة ما، ويمكن لهذا أن يستثير شكوكه. وإذا حدّد موعدًا وتجاهلته فسوف يستثير ذلك شكوكه، إذ إنني كنت أتوافق دومًا، ضمن ما هو ممكن، مع مبادراته. وقد اعتبرتُ صمته منذ ذلك المساء أشبه بمباركة وحسن حظ، عدم طلبه لي، ورؤية نفسي متحرّرة من تحرّياته ومخادعاته، وتشمّمه الحقيقة، ومواجهتي معه مجددًا، وعدم معرفتي على أي شيء سأستند ولا كيف سأتعامل معه الآن، وأنه سيثير فيّ الخوف والنفور مختلطين بكل تأكيد مع جاذبية أو ميل غرامي، لأن هذين الأمرين الأخيرين لا يمكن إلغاؤهما فجأة

وحسب المشيئة، وإنما يستمران عادة كفترة نقاهة أو كالمرض نفسه؛ الغيظ لا يكاد يساعد، فاندفاعه يُستنفد في الحال، لا يمكن الحفاظ على استمرار حدّته، فهو يأتي ويذهب وعندما يذهب لا يُخلّف أثرًا، إنه غير تراكمي، لا يقوّض شيئًا وعندما يهدأ يُنسى، مثل البرد عند انقضائه وذهابه، أو مثل الحمّى والوجع. تصويب المشاعر أمر بطيء، ومتدرّج بصورة تبعث على اليأس. يستقر أحدنا فيها ويصبح الخروج صعبًا جدًا، تُكتسب عادة التفكير بأحدهم بتفكير محدد وثابت - تُكتسب أيضًا الرغبة فيه - ولا يمكن التخلي عن ذلك بين ليلة وضحاها، أو خلال شهور وسنوات، يمكن لالتصاقها أن يكون طويلًا جدًا. فإذا كان الأمر خيبة أمل، تُجرى عندئذ مكافحتها خلافًا لكل إمكانية تخفيف منها، ينكرها، يحاول استبعادها. أحاولُ التفكير للحظات بأنني لم أسمع ما سمعته، أو تدور في ذهني الفكرة الضعيفة بأنه لا بد من أن يكون ثمة خطأ، سوء فهم، بل لا بد من وجود تفسير مقبول لكون دياث - باريلا قد رتّب مسألة موت ديسفيرن - ولكن كيف يمكن لهذا أن يكون مقبولًا -، انتبهت إلى أنني خلال تطاول أمد ذلك الانتظار كنت أستبعد كلمة «قاتل» من ذهني. وهكذا، في الوقت الذي أقدر فيه أن من حسن الحظ أن دياث - باريلا لا يستدعيني ويتركني أستعيد السيطرة على نفسي والتنفس، يقلقني ويؤلمني أنه لا يفعل ذلك. ربما يبدو لي مستحيلًا - نهاية شاحبة، نهاية سيئة - أن يُحل كل شيء ويتلاشى على هذا النحو، بعد اكتشافي سره وبعد اشتباهه بذلك، بعد أن استجوبني قليلًا ثم لا شيء آخر بعد ذلك. هذا أشبه بأن ينقطع العرض قبل أن ينتهي، كما لو أن كل شيء يظل معلّقًا في الهواء، متأرجحًا وغير مؤكد، يطفو بإلحاح في عدم حلّه، مثل رائحة كريهة في مصعد. كنتُ أفكّر بتشوّش، أريد ولا أريد أن أعرف أخباره، كانت أحلامي متناقضة، وعندما أظل ليلة بطولها مؤرقة، لا أعود قادرة في الحقيقة على التمييز، ألاحظ أن رأسي ممتلئ وأنني عاجزة بصورة مقيتة عن إخراجه.

كنت أتساءل في أرقي عمّا إذا كان عليّ أن أكلّم لويسا التي لم أعد أتصادف وإياها أبدًا في موعد تناول الفطور في الكافتيريا، لا بد أنها تخلت عن تلك العادة كيلا تزيد من أحزانها، أو كي تأخذ بالنسيان بصورة أفضل، أو ربما أنها تأتي إلى الكافتيريا في وقت متأخر، عندما أكون أنا قد ذهبت إلى العمل (ربما أن زوجها هو من كان عليه الخروج باكرًا وأنها كانتّ ترافقه كي تؤخر ابتعاد كل منهما عن الآخر). كنت أتساءل عمّا إذا كان من واجبي تنبيهها، إطلاعها على حقيقة من يكون ذلك الصديق المتودّد غير الملحوظ ربما، وحاميها الدائم؛ ولكن لا أدلة لديّ، ويمكن أن تعتبرني مجنونة أو مغتاظة، انتقامية أو مختلة، فمن المعقّد الذهاب إلى شخص بمثل هذه الحكاية المشؤومة والغائمة. عندما تكون القصة أكثر مبالغة وتعقيدًا يكون تصديقها أسهل. هذا ما يثق به، بصورة جزئية، من يرتكبون فظاعات، من تلك التي يصعب تصديقها بسبب ضخامتها تحديدًا. ولكن هذا الأمر لم يكن ضخمًا بقدر ما هو غريب، بسبب ندرة حدوثه: معظم الناس لديهم استعداد مسبق، معظم الناس يفتنهم أن يشيروا بالإصبع خفية وأن يتهموا ويندّدوا. أن يتهموا أصدقاءهم، جيرانهم، مسؤوليهم وقادتهم، الشرطة، السلطات... أن يكتشفوا ويعرضوا مذنبين في أي أمر، حتى لو كانوا كذلك في مخيّلتهم فقط؛ أن يقوّضوا لهم حياتهم إذا استطاعوا أو أن يصعّبونها عليهم على الأقل، يسعون إلى أن يكون هنالك موبوؤون، إلى خلق فضلات، التسبب بإصابات في ما حولهم واستبعادهم من مجتمعهم، كما لو أنهم يجدون الراحة والسعادة بالقول لأنفسهم بعد كل ضحية أو عملية قتل مأجورة: «لقد أزيح هذا جانبًا، استُبعد، لقد سقط ولم أسقط أنا». بين جميع هؤلاء

الناس توجد قلة - ونحن نتناقص كل يوم - ممن نشعر، خلافًا للسائد، بنفور لا يوصف من تولي هذا الدور، دور الواشي. ونصل إلى حدود قصوى في هذا النفور الذي يصعب علينا التغلّب عليه حتى عندما يكون ذلك مناسبًا لنا، يكون لمصلحتنا ومصلحة الآخرين. هناك ما يثير اشمئزازنا من الاتصال برقم هاتف والقول دون تقديم اسمنا: «انظر، لقد رأيت إرهابيًا تبحثون عنه، صورته في الصحف وقد دخل للتو من بوابة كذا». من المحتمل أن نفعل ذلك في حالة كهذه، ولكن حين نفكر في الجرائم التي يمكن لنا منعها والحيلولة دون وقوعها أكثر من تفكيرنا بإنزال العقاب عن الجرائم السابقة، لأن هذه الأخيرة لم يعد بمقدور أحد منع وقوعها والنجاة من العقاب واسعة جدًا في العالم ومن غير الممكن الإحاطة بها، إنها قديمة ومديدة وفسيحة إلى حدّ لا نجد معه فارقًا بأن يضاف إليها ميلمتر آخر. لهذا القول وقع غريب ووقع سيئ، ومع ذلك يمكن له أن يحدث: من نشعر بهذا النفور نُفضّل في بعض الأحيان أن نكون جائرين وأن يظل هنالك شيء بلا عقاب مقابل ألا نرى أنفسنا كوشاة؛ لا نستطيع تحمّل ذلك - فالعدالة في نهاية المطاف ليست مسألة من اختصاصنا، ليست مهنتنا -؛ ويكون هذا الدور بغيضًا أكثر عندما يتعلّق الأمر بالكشف عن شخص أحببناه، أو ما هو أسوأ من ذلك: عن شخص، مهما صعب علينا تفسير ذلك - بالرغم من رعب وعينا واشمئزازه، أو معرفتنا، لم نتخلَّ تخليًا كاملًا عن حبه. ونفكّر حينئذ بشيء لا يصل إلى صياغة كاملة، إلى لعثمة غير متماسكة ومكرورة، شبه محمومة، شيء شبيه بهذا: «أجل، إنه خطير جدًا، إنه خطير جدًا. ولكنه هو، ما زال هو نفسه». في زمن الانتظار ذاك أو زمن الوداع غير المنطوق لم أكن أتوصل إلى رؤية دياث - باريلا كخطر مستقبلي على أحد، ولا حتى عليّ بالذات، أنا التي شعرتُ بخوف لحظي منه وما زلت أشعر به متقطّعًا في غيابه، في ذاكرتي أو في تصوراتي الاستباقية. ربما أخطئ بالتفاؤل، ولكنني لا أراه قادرًا على تكرار الأمر. فهو لا يزال في نظري هاوٍ، دخيل آنيّ. رجل عاديّ في مشهد؛ قام بعمل استثنائي وحيد.

اليوم الرابع عشر اتصل بي على الموبايل، عندما كنت أجتمع في دار النشر مع أوجيني ومع مؤلف شبه شاب أوصانا به غاراي فونتينا كمكافأة على التملّق الذي يغدقه عليه ذلك الشاب في مدوِّنته وفي مجلة أدبية متخصّصة يديرها، هذا يعني أنها مجلة مدعية وأقرب إلى الهامشية. خرجتُ من المكتب للحظة، قلت له إنني سأتصل به في ما بعد، بدا غير واثق واستوقفني هنيهة.

«دقيقة واحدة فقط» قال. «ما رأيك أن نلتقي اليوم؟ لقد كنتُ في الخارج بضعة أيام وبي رغبة في رؤيتك. إذا كان يناسبكِ سأنتظرك في البيت عند خروجك من العمل».

«لا أدري إذا ما كنت سأتأخّر اليوم، هنالك الكثير من المشاكل هنا»، ارتجلتُ بصورة عاجلة؛ كنت أريد التفكير في الأمر، أو أن يكون لديَّ وقت على الأقل للاعتياد على فكرة الذهاب لرؤيته مرة أخرى. ما زلت لا أعرف ما الذي أفضّله، صوته المنتَظر وغير المتوقَّع حمل إليّ إنذارًا وراحة، ولكن سرعان ما تغلّب زهو الشعور بأنني محبوبة، والتأكد من أنه لم يُزِح ملفّي جانبًا، وأنه لم يتجاهلني ولم يتركني أتلاشى بصمت، وأن موعد استبعادي لم يحن بعد. «دعني أخبرك بعد قليل، فحسب ما ستجري به الأمور، سأحضر أو سأخبرك بأنني لن أستطيع».

عندئذ ذكر اسمي، وهو ما لم يعتد على فعله.

«لا يا ماريا. تعالي». وصمت قليلًا، كما لو أنه يريد لكلمته أن تكون آمرة، وقد كان لها هذا الوقع. ولأنني لم أجب بشيء في الحال، أضاف مخفّفًا من وقع ذلك الانطباع. «ليست المسألة في أنني راغب في رؤيتك فقط، يا ماريا». يذكر اسمي مرتين، هذا حدث فريد، نذير شؤم. «يجب أن أستشيركِ في أمر مستعجل. حتى لو كان الوقت متأخرًا، لا يهمني، فأنا لن أتحرّك من هنا. سأنتظركِ على أي حال. وإلا سأذهب إليك بنفسي»، أنهى بقرار.

أنا أيضًا لم أكن أنطق اسمه كثيرًا، وقد فعلتُ هذه المرة على سبيل المحاكاة أو كيلا أتخلّف عن محاكاته، كثيرًا ما يجعلنا سماع اسمنا نتخذ جانب الحذر، كما لو أننا نتلقّى تنبيهًا أو يكون ذلك مقدّمة لتحذير أو لوداع.

«خابيير، منذ أيام طويلة لم نلتق ولم نتبادل الحديث، ولا أظن أن الأمر مستعجل جدًا، يمكن الانتظار ليوم آخر أو اثنين، أليس كذلك؟ أعني، إذا لم أستطع المجيء اليوم في النهاية».

كان يتوسّل إليّ ولكنني كنت أرغب في ألا يتراجع، ألا يرضى بعبارة «سوف نرى»، أو كلمة «ربما». وكان تلهّفه يغويني، مع أنني لاحظت أن الأمر، في ذلك اليوم، لم يكن لهفة جسدية محضة. بل ربما لم يكن فيها أدنى أثر جسدي، وإنما هي استجابة لتسرّع من أجل تحديد مسألة نهائية ما وحسمها: حين يُتخذ القرار بأن الأمور لا تطفو، وأنها لا تتحلّل ولا تموت صامتة ولا نفع في محصلتها، يتحوّل الأمر عندئذ، بصورة عامة، إلى العُسر ومن شبه المستحيل انتظاره؛ يجب قوله وإفلاته فورًا، يجب إخبار الآخر من أجل التملّص دفعة واحدة، كي يعرف ما له ولا يظل مخدوعًا ومزهوًا، وكيلا يواصل الاعتقاد بأنه ما زال يتمتّع بأهمية في حياتنا بينما هو لم يعد كذلك، ويظن بأنه يشغل مكانًا في تفكيرنا وفي قلبنا بينما جرى استبداله وجاء من حلّ فيهما، كي يُمحى من حياتنا دون إبطاء.

ولكن لا فرق لديّ. لا فرق لديَّ إذا ما كان دياث - باريلا يدعوني كي يطردني، أو كي يودّعني؛ فمنذ أربعة عشر يومًا لم أره وقد خشيت ألا أعود لرؤيته وهذا هو الشيء الوحيد الذي يهمّني: إذا كان سيراني من جديد فربما سيجد صعوبة في الحفاظ على قراره، يمكن لي غوايته، جعله يقرّب موعد اشتياقه القادم إليّ، التوصل بحضوري إلى إقناعه بالتراجع. فكّرت بهذا كله وانتبهت إلى مدى بلاهتي: إنها غير لطيفة هذه اللحظات، عندما لا نخجل حتى من الانتباه إلى بلاهتنا ونسلّم أنفسنا لها في كل الأحوال، وبوعي كامل، مع معرفتنا أننا سننتبه إلى ذلك سريعًا جدًا: «ولكنني كنت أعرف ذلك وكنت واثقة منه. ولكن كم كنت بلهاء، رجاء». جاءني ردّ الفعل هذا كاندفاع الحديد نحو المغناطيس، وفي عدم توافق أكبر وبلاهة أعظم، وعندما كنت نصف مصممة على قطع أي علاقة معه إذا ما عاد إلى طلبي. لقد عمل على قتل صديقه المفضل، وهذا أكبر مما يمكن لضميري المتيقّظ أن يتحمّله. الآن يُثبت أنه لم يكن كذلك، وما زال، أو أن ضميري يتشوّش، أو أنه يغفو لدى أدنى سهو، ويقودني ذلك إلى التفكير بالشيء نفسه: «كم أنا مجنونة، الرجاء».

لقد كان دياث - باريلا على أي حال معتادًا على العادة السيئة بأنني لا أبدي أية مقاومة لمقترحاته باستثناء تلك التي يفرضها عملي عليّ، وأن هنالك مهمات قليلة لا يمكن تركها إلى اليوم التالي، على الأقل في دار للنشر. لم يكن ليوبولدو يشكّل عقبة قط، وقد كان في ما يتعلّق بي في الوضع نفسه الذي كنتُ فيه مع دياث - باريلا، أو ربما في حالة أسوأ، فقد كان عليّ أن أضيف شيئًا من جانبي كي أكون سعيدة في علاقتي الحميمة معه، ولم يبد لي قطّ أنه يمكن لدياث - باريلا أن يعمد إلى طوعية مماثلة معي، مع أن هذا قد يكون مجرّد وهمٍ من جانبي، فمن ذا الذي يعرف أي شيء بصورة مؤكّدة عن شخص ما. مع ليوبولدو أنا من أقول له متى نستطيع اللقاء ومتى لا يكون ذلك ممكنًا وأحدّد له مدة اللقاء، فقد كنت في نظره على الدوام امرأة مستغرقة في نشاطات لا تنتهي ولا أكاد أحدّثه عنها، لا بد أنه يتصوّر عالمي الصغير والمتوقّف على أنه دوامة يصعب تحمّلها، مرات قليلة جدًا كنت أضع فيها وقتي تحت تصرّفه، وكنتُ أُظهر نفسي مشغولة جدًّا أمامه. وقد استمر معي قدر استمرار دياث - باريلا في حياتي: مثلما يحدث بكثرة عندما تتزامن علاقتان، لا يمكن لإحداهما البقاء دون بقاء الأخرى مهما كانتا مختلفتين أو متناقضتين. كم من المرات لا يكمل عاشقان قصتهما الزائفة عندما ينفصل من كان متزوّجًا منهما أو يترمّل، كما لو أنهما يرتعبان فجأة من رؤية نفسيهما وحيدين وجهًا لوجه أو أنهما لا يدريان ماذا يفعلان حيال غياب ما يحول دون أن يعيشا ويطوّرا ما كان حبًّا محدودًا حتى ذلك الحين، ومحكوم عليه بكل راحة أن يبقى طي الكتمام، وعدم الخروج خارج حجرة وحيدة؛ كم من المرات لم يُكتشف أن ما بدأ بطريق الصدفة يجب أن يظل مرتبطًا إلى الأبد بتلك الطريقة، وأن التهاون والإهمال في طريقة أخرى يُشعر به ويُرفض من الجانبين على أنه خدعة أو تزييف. ليوبولدو لم يعرف قطّ بأمر دياث - باريلا، وليس لديه معرفة بكلمة واحدة عن وجوده، لم يكن يهمّه أمره، ولم يكن لديه سبب لأن يكون كذلك. لقد انفصلنا بتوافق طيب، لم أسبب له ضررًا كبيرًا، وهو ما زال يتّصل بي في أوقات متباعدة، للحظات قليلة، نشعر بالضجر، فبعد العبارات الثلاث الأولى لا نعود نجد ما نتحدّث فيه. لا أرى سوى انقطاع وهم قصير، ذي قوة ضئيلة ومشكوك فيه بعض الشيء، فغياب الحماسة ليس خفيًا ويمكن لأشد المتفائلين أن يلحظه. هذا ما أظنه، لم أكد أسبب له أي أذى، لم يعلم بذلك. وليست المسألة كذلك في أن نتحرّى عنه الآن، ما الفرق في ذلك أو ما الذي يعنيني منه. دياث - باريلا لن يزعجه أن يعرف كم من الأذى سبّبه

لي، أو لم يسببه لي: فأنا في نهاية المطاف كنت ارتيابية على الدوام، حتى إنه لا يمكنه القول إنه قد سبّب لي أي خداع حقيقي. مع آخرين بلى، أما معه فلا. لقد تعلّمتُ شيئًا من هذا العشيق، أن أمرّ فوقه دون النظر كثيرًا إلى الوراء.

ما تلا كان له وقع المبالغة، على الرغم من رداءة تنكّره بالتضرّع والاستعطاف:

«أقول لك أن تمرّي يا ماريا، لن يكون الأمر مستحيلًا. ربما يمكن للاستشارة بحد ذاتها أن تنتظر ليوم أو يومين آخرين. أنا من لا يمكنه الانتظار، وأنت تعرفين كيف هي حالات التلهّف المباغتة، لا توجد طريقة لإخمادها. ومن المناسب لك أنت أيضًا أن تأتي. أرجوكِ أن تمرّي».

تأخّرتُ بضع ثوان في الردّ، لماذا لا يبدو له كل شيء سهلًا جدًا كالعادة، لا بد أن شيئًا مرعبًا قد حدث في المرة الأخيرة، حتى لو لم يكن يعرف ذلك أو ربما يعرفه. الواقع أنني كنت أتحرّق رغبة لرؤيته، وأن نضع نفسينا في الاختبار، أن أتلهّى بوجهه وشفتيه مرة أخرى، بل وأن أنام معه... مع «أناه» السابقة على الأقل، إذ يجب أن يكون ما زال موجودًا في الجديد، في أي مكان آخر يمكن أن يكون. وأخيرًا قلتُ:

«لا بأس، ما دمتَ تُلحّ إلى هذا الحدّ. سوف أمرّ، ولكنني لا أستطيع أن أحدّد في أي ساعة. ومن ناحية أخرى، إذا ما مللتَ من الانتظار فأخبرني، كي توفّر عليّ المشوار. أما الآن فلم يعد بإمكاني تبديد مزيد من الوقت في الحديث».

أغلقتُ الموبايل وأطفأته، رجعت إلى اجتماعي غير المجدي. ومنذ تلك اللحظة أحسست بعدم القدرة على إبداء أي اهتمام بالكاتب شبه الشاب الموصى عليه، وقد نظر إليّ بعينين خبيثتين لأن هذا هو ما يريده، جمهور وكثير من الاهتمام. وقد كنتُ في نهاية المطاف متأكدة من أن ما يكتبه لن ينشر في دار النشر، في ما يتعلّق بي على الأقل.

توافر لي فائض من الوقت في نهاية الأمر، ولم يكن الوقت قد تأخّر بعد عندما مضيتُ باتجاه بيت دياث - باريلا. بل كان لدي ما يتيح لي الفرصة لأن أتوقّف وأخمّن وأرتاب، وللقيام كذلك بعدة جولات في المناطق القريبة وتأجيل لحظة الدخول. بل إنني دخلت إلى «إمباسي»، ذلك المكان القديم الذي ترتاده سيدات ودبلوماسيون يتناولون فيه وجبة خفيفة أو يشربون الشاي، جلستُ إلى منضدة، طلبتُ وانتظرت. لم أنتظر الوصول إلى توقيت محدّد - كنت أعي فقط أنني كلما تأخّرت أكثر سيصبح هو أكثر عصبية -، انتظرتُ أن تمر الدقائق وأن أتسلّح بما يكفي من التصميم أو أن يتكثّف نفاد صبري إلى حدّ دفعي إلى أن أنهض، وأن أخطو خطوة، وأخرى، ثم أخرى لأجد نفسي أمام بابه أقرع الجرس بارتباك. ولكنني عندما قرّرت المجيء، وعندما أدركتُ أن قرار العودة لرؤيته في ذلك اليوم كان في يدي. «فلأتأخر قليلًا»، فكّرتُ، «لا حاجة إلى التسرّع، سأنتظر لبعض الوقت. فهو سيبقى في البيت، لن يهرب مني، لن يغادر. كل ثانية ستبدو له طويلة وهو يَعُدّها، فليقرأ بضع صفحات بلا اهتمام، فليشعل ويطفئ التلفاز بلا هدف، فليغتظ، فليحضّر أو يحفظ في ذاكرته ما سيقوله لي، فليُطلّ باتجاه الدرج كلّما سمع صوت المصعد ويتلقى خيبة الأمل بتأكده من أن المصعد قد توقّف قبل الوصول إلى طابقه أو أنه واصل صعوده إلى أعلى. ما الذي يريد استشارتي فيه؟ إنه التعبير الذي استخدمه، فارغ وبلا معنى، نوع من الذريعة، طريقة معهودة لإخفاء هدف آخر، حيلة تُحاك لشخص كي يشعر بأنه مهم ولإيقاظ فضوله في الوقت ذاته». ثم أفكّر، بعد عدة دقائق: «لماذا لا أعترض؟ لماذا لا أرفض، لماذا لا أهرب منه وأختبئ، أو ما هو الأفضل: لماذا لا أشي به وكفى؟ لماذا أرضى بالتعامل معه وأنا أعرف ما أعرفه، ولماذا سماعه إذا ما أراد الشرح، والنوم معه بكل تأكيد إذا ما اقترح ذلك بمجرد إيماءة أو مداعبة، أو حتى بمجرد القيام بتلك الحركة الرجولية والمبتذلة برأسه، التي تشير بصورة مبهمة إلى غرفة النوم دون توسط كلمة مجاملة متملّقة، متكاسلة باللسان مثلما هم رجال كثيرون؟». تذكّرتُ جملة من «الفرسان الثلاثة» كان أبي يحفظها عن ظهر قلب بالفرنسية ويلقيها بين حين وآخر دون مناسبة، كما في تكرار ساهٍ كيلا يظل صامتًا، ربما كان يروق له الإيقاع والرنين وسلاسة العبارات، أو ربما كان قد انبهر بها وهو طفل، حين قرأ الرواية أول مرة (مثلما هي حال دياث - باريلا، فقد درس في مدرسة فرنسية، مدرسة سان لويس الفرنسيسكان، إذا لم تخنّي الذاكرة). آتوس يتكلّم عن نفسه بصيغة الغائب، أي إنه كان يروي لدارتنيان قصته كما لو أنه ينسبها إلى صديق أرستوقراطي قديم، تزوّج وهو في الخامسة والعشرين من صبية بريئة وتبعث على النشوة في السادسة عشرة، «جميلة كالحُب»، أو «كالاستغراق في الحب»، أو «كالغراميات»، هذا ما يقوله آتوس الذي لم يكن هو الفارس نفسه في ذلك الحين، بل كان كونت دولافير. وفي أثناء حفلة صيد، تتعرّض امرأته الشابة الفتية جدًا والملائكية، والتي تزوجها دون أن يعرف الكثير عنها، ودون أن يتحرّى عن أصلها ومنشأها متخيّلًا إياها بلا ماض، تتعرّض لحادث، تسقط عن صهوة الحصان ويغمى عليها. وعندما يقترب آتوس لنجدتها، يلحظ أن الثوب يضغط عليها، يكاد يخنقها؛ فيستل خنجره ويشقه كي تستطيع التنفس، فيكشف بذلك عن كتفها. وعندئذ يرى على الكتف وشمًا بالنار، زهرة زنبق، العلامة التي يَسِم بها الجلادون إلى الأبد المومسات والسارقات والمجرمات عمومًا، لستُ أدري. «كان الملاكُ شيطانًا» قال آتوس. ثم أضاف بصورة مناقضًا نفسه قليلًا: «كانت الفتاة المسكينة قد سرقت». فسأله دارتنيان عمَّ فعله

الكونت، فجاءه ردّ صديقه ببرود مقتضب (وهذه هي العبارة التي كان يردّدها أبي والتي تذكّرتها):
«‘Le Conte était un grand seigneur, il avait sur ses terres droit de justice basse et haute: il acheva de déchirer les habits de la Comtesse, il lui lia les mains derrière le dos et la pendit à un arbre.’». أو ما يعني الشيء نفسه: «كان الكونت سيدًا عظيمًا، له على أراضيه حق إقرار العدالة الدنيا والعليا: انتهى به الأمر إلى شق ملابس الكونتيسة، ثم قيّد يديها خلف ظهرها وشنقها على شجرة». هذا ما فعله آتوس في شبابه، دون تردّد، ودون الاستناد إلى مسوغات، ودون بحث عن أسباب مخففة، ودون أن يرف له جفن، بلا رحمة أو شفقة على صغر سنها، وقد فعله بالمرأة التي أحبّها كثيرًا إلى حدّ اتخاذها زوجة له بإرادة شريفة ونزيهة، مع أنه، كما يعترف، كان بإمكانه غوايتها أو أخذها بالقوة، وفق ما يشتهي: فلكونه سيد المكان، ما كان يمكن لأحد أن يهرع لمساعدة غريبة، فتاة مجهولة لا يعرف عنها شيئًا سوى اسمها آن دوبريه، سواء أكان اسمها هذا حقيقيًا أو زائفًا؟ ولكن لا: «فالأحمق، المغفل، الأبله» تزوج منها، يتوجّه آتوس بالتأنيب لأناه القديمة، حين كان يدعى كونت دولافير شديد الاستقامة بقدر ما هو شرس، فما إن اكتشف الخديعة، الخزي، الوصمة المشينة التي لا تُمحى، حتى تخلى عن التحريات وعن المشاعر، وعن التردّد، وعن التأجيل، وعن الشفقة - ولم يتخلَّ مع ذلك عن الحب، لأنه ظل يحبّها على الدوام أو لم يتعافَ على الأقل من حبها -، ودون أن يمنح الكونتيسة فرصة تقديم تفسير أو الدفاع عن نفسها، فرصة إنكار أو إقناع، فرصة تضرّع الرحمة أو سحره من جديد، أو حتى إمكانية أن تموت «في ما بعد»، مثلما تستحقّ أشد مخلوقات الأرض خسّة ودناءة، «قيّد يديها خلف ظهرها وعلّقها على شجرة»، دون تردّد. شعر دارتنيان بالهول وهتف: «يا للسماء يا آتوس! إنها عملية قتل!». فكان ردّ آتوس مبهمًا أو أشبه بأحجية: «أجل، عملية قتل، لا أكثر ولا أقل»، ثم طلب المزيد من الخمر والجامبون، منهيًا بذلك القصة. الغريب في الأمر، بل اللغز فيه هو عبارة «لا أكثر ولا أقل»، وترد بالفرنسية ‘pas davantage’ لا مزيد. فآتوس لا يدحض صرخة استنكار دارتنيان، ولا يبرّرها ولا يصوِّبها بالقول له: «لا، لقد كانت عملية إعدام وحسب»، أو «كان فعل قصاص»، بل إنه لم يحاول أن يضفي التفهّم على تسرّعه، على قسوته، أو على إضفائه المشروعية على الشنق المتفرّد للمرأة التي يحبّها، من المؤكد أنه كان هو وهي ولا أحد سواهما وسط غابة. عملٌ مرتجل بلا شهود، بلا نصيحة ولا مساعدة ولا أحد يمكن اللجوء إليه: «كان أعمى بالغضب ولم يستطع كبح نفسه؛ كان بحاجة للانتقام؛ وقد ندم مدى الحياة». يوافق أنه كان قاتلًا، أجل، ولكن، «ليس أكثر»، هكذا فقط وليس أي شيء مقيت ومثير للاشمئزاز، كما لو أن القتل ليس هو أسوأ ما يمكن تصوره أو كأنه أمر عادي ومألوف لا متّسع حياله لإبداء الاستنكار أو المفاجأة، إنه في العمق مماثل لما ارتآه المحامي ديرفيل، من تولّى قضية الميت الحي الذي كان عليه أن يواصل الموت، الكولونيل العجوز شابير، فالمحامي الذي يرى، مثل جميع أبناء مهنته، «تكرار المشاعر الخبيثة نفسها» دون أن يكون هناك من يصلحها، وكيف أن مكاتب محاماتهم قد تحوّلت إلى «بالوعات مجارير لا سبيل إلى تنظيفها»: القتل أمرٌ يحدث ويمكن لأي شخص أن يُقدِم عليه، وهو يحدث منذ ليل العصور وسيتواصل الحدوث إلى ما بعد اليوم الأخير، حيث لا يوجد ليل ولا يبقى مزيد من الوقت لإيوائها؛ القتل أمر يومي، تافه ومبتذل، أمر زماني؛ صحف وتلفزيونات العالم ممتلئة به، فلماذا كل هذا الصراخ الذي يصل إلى عنان السماء، ولماذا كل التصنّع. أجل، إنها عملية قتل. ليستْ أكثر.

«لماذا لا أكون أنا مثل آتوس أو مثل كونت دولافير، الذي كان في البدء ثم لم يعد كذلك؟»، كنت ما أزال أتساءل وأنا في «إمباسي»، محاطة بالأزير المتواصل للسيدات اللاتي يتكلمن بسرعة كبيرة مع شخص دبلوماسي بليد. لماذا لا أستطيع رؤية الأمور بالصفاء نفسه والتصرف وفق ذلك، أن أذهب إلى الشرطة أو إلى لويسا وأخبرهم بما أعرفه، وهذا كافٍ لأن يبحثوا ويتقصّوا ولأن يذهبوا بعد ذلك في طلب روبييريث دي توريس، وهذا من أجل البدء على الأقل؟ ولماذا أنا عاجزة عن ربط يديّ الرجل الذي أحب وراء ظهره وتعليقه على شجرة وحسب، إذا ما تأكّد لي أنه قد ارتكب جريمة فظيعة، قديمة قِدم الكتاب المقدس وباستخدام جهاز موبايل مُتَابع، وتصرفه فوق ذلك بطريقة خسيسة، باستعانته بسلسلة وسطاء توفر له الحماية وتخفي أثره، واستخدام شخص بائس تعيس، مختل عقليًا، معوز بلا عقل وغير قادر على الدفاع عن نفسه وسيظل دومًا تحت رحمته؟ لا، ليس لي أن أكون صارمة في هذا الشأن لأنني لا أتمتّع على الأرض بحق إقرار عدالة عليا أو دنيا، ولأن الميت فوق ذلك غير قادر على الكلام بينما الحي قادر، فهذا الأخير قادر على التعبير عمّا يريد، وعلى الإقناع والمحاججة، بل إنه قادر كذلك على تقبيلي وممارسة الحب معي، بينما ذاك لا يرى ولا يسمع وهو يتعفّن ولا يردّ، وليس بمقدوره التأثير ولا التهديد، ولا تقديم أدنى متعة لي؛ كما أنه غير قادر على محاسبتي ولا على إظهار خيبة أمله ولا النظر إليّ نظرة اتهامية بأسف غير متناهٍ وألمٍ هائلٍ، ولا حتى المَسّ بي أو قطع أنفاسي، ليس بالإمكان عمل أي شيء معه».

تسلّحتُ أخيرًا بقرار، أو ربما كان ضجرًا، أو حماسة التخلي عن الخوف الذي يداهمني بين حين وآخر، أو التململ من رؤية أناي القديمة الذي ما زلتُ أحبه لأنه لم يتهالك كليًا ولأنه يطغى عليه الجانب الملطخ والقاتم، كالصورة الحية لأي ميت حتى لو كان قد مات منذ زمن بعيد. طلبتُ الحساب، دفعتُ، خرجتُ إلى الشارع من جديد وبدأتُ المشي بالاتجاه الذي أعرفه جيدًا، نحو ذلك البيت الذي لم أزره مرات كثيرة ولم يعد موجودًا - أو الذي لم يعد يسكنه دياث - باريلا، وبالتالي لم يعد له وجود بالنسبة لي -، ولكنني لن أنساه أبدًا. خطواتي ما زالت بطيئة، لست مستعجلة في الوصول، أتقدّم كما لو أنني أقوم بنزهة، وليس متوجهة إلى مكان محدّد حيث ينتظرني منذ بعض الوقت كي يستشيرني في أمر ما، أجل، من أجل أن يستجوبني مجدّدًا، أو ليخبرني بشيء ما، أو ربما ليطلب مني شيئًا، أو ربما كذلك من أجل إسكاتي. ورَدَت إلى ذهني عبارة أخرى من «الفرسان الثلاثة»، لم يكن أبي يلقيها بالفرنسية عن ظهر قلب وإنما كنتُ أعرفها أنا نفسي بالإسبانية، فما يؤثر فينا ويبهرنا في الطفولة يبقى كزهرة زنبق محفورة في مخيلتنا: تلك المرأة الموسومة والمعلّقة على شجرة هي في الأصل آن دوبريه، المتدينة خلال فترة قصيرة والهاربة من ديرها، وهي بعد ذلك الكونتيسة دولافير لوقت قصير، وستُعرف في ما بعد باسم شارلوت، وليدي كلارك، وليدي ونتِر، وبارونة شفيلد (في طفولتي كانت تلفت انتباهي إمكانية الكثرة في تبديل الاسم على امتداد حياة واحدة)، فتثبيتها في الأدب على أنها «ميلادي» دون إضافات أخرى، ما كانت لتموت، مثلما هي حال الكولونيل شابير. وهكذا مثلما يشرح بلزاك بالتفصيل معجزة بقاء الكولونيل على قيد الحياة وكيف سحب نفسه جرجرة من وسط هرم الموتى الأشباح الذي أُلقي به فيه بعد المعركة، بينما دوماس، ربما بسبب ضغط مواعيد تسليم الفصول أو بسبب متطلّبات الأكشن، وهو بكل تأكيد أكثر تفلتًا وتهاونًا كراوٍ، لم يزعج نفسه برواية - أو أنني أنا نفسي لا أتذكّر ذلك - كيف أمكن للشابّة أن تتحرّر من الموت، بعد عملية الشنق المؤثّرة التي أملاها الغضب والشرف الجريح متنكرين بحق إحقاق العدالة العليا والدنيا التي يتولّاها سيد عظيم. (وكذلك تفسير كيف يمكن لزوج ألا يرى أبدًا في الفراش وشم زهرة الزنبق المأساوي). ومستفيدة من جمالها المبهر ودهائها وعدم تحرّجها - ولا بد من توقّع حقدها أيضًا -، تحوّلت إلى قوية متسلّطة، تعتمد على أفضال الكردينال ريشيليو بالذات، وكانت قد اقترفت عدة جرائم بلا وازع من ضمير. على امتداد رواية دوماس تقترف بضع جرائم أخرى، مما يحوّلها - ربما - إلى الشخصية النسائية الأشد خبثًا، وسُمّيّة وقسوة في تاريخ الأدب، وهي الشخصية التي جرت محاكاتها في ما بعد إلى حدّ الإشباع. ففي فصل يحمل بسخرية عنوان «مشهد زوجي»، يحدث اللقاء بينها وبين آتوس، تتأخّر بضع ثوانٍ في التعرّف، مع رعشة رعب، على زوجها وجلادها القديم، من كانت تظنّه ميتًا أيضًا، مثلما كان يظن هو نفسه كذلك أن زوجته المحبوبة ميتة وبمسوغات أكبر من مسوغاتها. «لقد تقاطعت دروبنا ذات يوم»، يقول لها آتوس كلامًا من هذا النوع، ويتابع: «كنت أظن أنك قد قضيت نحبك يا مدام؛ ولكن، إما أن أكون مخطئًا وإما أن يكون الجحيم قد أعاد بعثك». ثم يضيف، في ردّ على شكوكه بالذات: «أجل، الجحيم جعلك ثرية، الجحيم منحك اسمًا آخر، ورمم لك الجحيم وجهًا آخر، لكنه لم يمحُ لطخات الروح ولا دنس جسدك». وبعد قليل من ذلك ترد العبارة التي تذكّرتها وأنا في طريقي إلى دياث - باريلا للمرة الأخيرة أو المرة ما قبل الأخيرة: «كنتِ تظنين بأنني ميت،

أليس كذلك؟ مثلما كنت أظن بأنكِ ميتة. وضعنا غريب حقاً؛ فقد عاش كل منا حتى الآن لمجرد أنه يظن أن الآخر قد مات، لأن الذكرى أقل إزعاجًا من الكائن الحي، مع أن الذكرى في بعض الأحيان تكون نوعًا من النهش».

إذا ما كانت قد ظلّت في ذاكرتي، أو أن ذاكرتي قد استعادتها، فإنما ذلك لأننا كلما واصلنا العيش تصبح كلمات آتوس هذه أكثر شبهًا بحقيقة: يمكن العيش بمحاكاة للأمان، أو ببساطة الاستمرار، عندما يُعتقد بأن من سبب لنا أذى وغمًّا هائلين قد صار خارج الأرض وميتًا، عندما يكون قد صار مجرد ذكرى ولم يعد مخلوقًا، لم يعد كائنًا حيًّا يتنفّس ويجوب العالم بخطواته المسمومة، وقد نعود للقاء به ورؤيته؛ شخص نعلم أنه مطلوب - بمعرفتنا أنه ما زال هنا -، نريد العودة للهروب بأي ثمن، أو ما هو أشد قهرًا، جعله يدفع ثمن شروره. موت من جرحنا أو قتلنا في الحياة - تعبير مبالغ فيه انتهى به المطاف لأن يكون عاديًا - لا يشفينا تمامًا ولا يطمئننا ويتركنا نعيش، التنفّس يصبح محتملًا أكثر إذا ما بقيت لنا ذكرى جوّالة وإحساس بأن الحسابات قد صُفيت في هذا العالم الذي هو العالم الوحيد، مهما تواصلت آلام تلك الذكرى كلما جرى استحضارها في الذاكرة، أو حضورها دون أن تُستدعى. وبالمقابل، يمكن أن يكون من غير المحتمل معرفة أننا ما زلنا نتقاسم الهواء والزمان مع من حطم قلبنا أو خدعنا أو خاننا، مع من دمَّرَ حياتنا أو فتح عيوننا أكثر مما يجب أو فعل ذلك بفظاظة مفرطة؛ قد تشلنا معرفة أن ذلك المخلوق ما زال موجودًا، وأنه لم يُصعق ولم يُعَلّق على شجرة، ويمكن له أن يعود إلى الظهور. هذا سبب إضافي آخر من أجل عدم عودة الموتى، على الأقل أولئك الذين يَبعث فينا وضعهم هذا الراحة ويسمح لنا بالمضي قُدمًا، ولو كأشباح بعد دفن أنانا القديمة: فآتوس كما ميلادي، وكونت دولافير كما آن دوبرويه، أتيح لهم طوال سنوات اعتقادهم بأن الآخر مجرّد ميت لم يعد بإمكانه أن يحرّك ورقة، وأنه ما عاد قادرًا على التنفس؛ وكذلك مدام فيرو التي أعادت تشكيل حياتها بلا عقبات لأن زوجها، الكولونيل القديم شابير، لم يكن في نظرها بكل تأكيد سوى ذكرى، وليس ناهشًا بأي حال.

«ليت خابيير قد مات»، فاجأت نفسي وأنا أفكّر في ذلك المساء، بينما كنت أقوم بجولة بعد أخرى وأخرى. «ليته يموت الآن بالذات، فلا يفتح لي الباب عندما أرن جرس بيته، ويكون مرميًا على الأرض متجمدًا بلا حراك إلى الأبد، فلا يكون هنالك ما يستشيرني فيه، ويكون من المحال التكلّم معه. إذا كان ميتًا ستتبدّد شكوكي ومخاوفي، ولا يكون عليّ أن أسمع كلمات ولا أن أفكّر في كيف سأتصرّف. ولا يمكن لي كذلك أن أقع في غواية تقبيله أو النوم معه، أو خداع نفسي بأنها ستكون آخر مرة. وسيكون بإمكاني الصمت إلى الأبد دون أن أهتم بلويسا، وأقل من ذلك بالعدالة، وأن أنسى ديفيرني، فأنا لم أتوصل في نهاية المطاف إلى التعرّف عليه، عرفته بالرؤية فقط طيلة سنوات، بالنظر فقط خلال تناول الفطور. فإذا فقد حياته مثلما انتزع الحياة منه وتحوّل مثله إلى ذكرى فلن يكون هنالك مخلوق لاتهامه بالقتل، ولا تعود هنالك أهمية للنتائج ولا لما حدث. لن يكون ثمة نفع لقول أو رواية أي شيء، بل لماذا التحرّي، الاحتفاظ بالصمت هو الأكثر طمأنينة، لا حاجة لمزيد من الإثارة في العالم بقصص من صاروا جثثًا ويستحقون شيئًا من الرحمة، وإن يكن فقط لأنهم وضعوا نهاية لمرورهم، فانتهوا ولم يعد لهم وجود. ولم نعد في تلك الأزمنة حيث لا بد من المحاكمة على كل شيء، أو معرفته على الأقل؛ فاليوم لا حصر لأعداد الجرائم التي لا يمكن التوصّل إلى حلّ لها، ولا التوصّل إلى إنزال عقوبات لعدم معرفة من هم الذين اقترفوها تلك الجرائم - إنها

جرائم كثيرة ولا وجود لعيون كافية لرؤية كل شيء - ونادرًا ما يُعثر على أحد يجلس في مقعد المتهم مع احتمال ضئيل: هجمات إرهابية، قتل نساء في غواتيمالا أو مدينة ثيوداد خواريث المكسيكية، تصفية حسابات بين عصابات مهربين، مجازر بلا تمييز في أفريقيا، قصف على مدنيين تقوم به طائراتنا هذه التي بلا طيار وبالتالي بلا وجه... وأكثر من أن تحصى تلك التي لا يهتم بها أحد، بل لا تجري تحريات بشأنها، يُنظر إليها كعملية احتيال وتؤرشَف وتحفَظ فور حدوثها؛ وأكثر من هذه كلها تلك التي لا تخلّف أثرًا، وغير المسجَّلة، والتي لا تُكتشف أبدًا، والأعمال المجهولة. هذه الأصناف جميعها كانت موجودة على الدوام بلا شك، وربما لم تُنزل عقوبات خلال قرون طويلة إلا على تلك الجرائم التي ارتكبها تابعون وفقراء ومحرومون من الميراث. وقد ظلّت بلا عقاب - ما عدا استثناءات - أفعال المتنفذين والأغنياء، للتكلم بمصطلحات غامضة وسطحية. ولكن كان هناك تظاهر بالعدالة، أمام الخارج على الأقل، ونظريًا على الأقل، يتم التظاهر بملاحقتهم جميعًا، وتجري محاولات في بعض المناسبات، ويُشاع شعور بـ«تعليق» ما لم يتّضح بعد، أما الآن بالمقابل فلم يعد الأمر كذلك: صار معروفًا أن أمورًا كثيرة لا يمكن توضيحها، وربما لا يُراد ذلك أيضًا، أو يُقدَّر أنها لا تستحق عناء الجهد ولا الأيام ولا المجازفة. كم صارت بعيدة تلك الأزمنة حين كانت الاتهامات تُعلَن بوقار شديد والأحكام تصدر دون رعشة في الصوت، مثلما فعل آتوس مرتين بامرأته آن دوبرويه، وهي شابة في البدء، ثم حين لم تعد كذلك: عندما حاكمها في المرة الثانية لم يكن وحده، بل برفقة الفرسان الثلاثة الآخرين، بورتوس ودارتنيان وآراميس، إضافة إلى لورد وِنتر، ورجل مقنَّع كذلك يلتف بعباءة حمراء، تبين في ما بعد أنه جلاد مدينة ليل، وهو نفسه قبل ألف سنة - في حياة أخرى في الواقع، ولشخصية أخرى - كان قد ختم على جسد ميلادي وسمًا بالنار: وسم زهرة الزنبق المشين. عرض كل واحد منهم اتهامه، وقد بدأوا جميعهم بصيغة لا يمكن تخيّلها في أيامنا هذه: «أمام الله وأمام البشر، أتَّهِمُ هذه المرأة بأنها سمَّمت، بأنها قتلت، بأنها حرَّضت على القتل، بأنها دَفعت إلى القتل، بأنها تسبّبت بالموت بمرض غريب، بأنها قامت بتدنيس المقدّسات، بأنها سرقت، بأنها أفسدت، بأنها حثّت على الجريمة...». «أمام الله وأمام البشر» لا، فعصرنا هذا ليس عصر أبهة ومهابة. وعندئذ يعمد آتوس، ربما من أجل إظهار خداع نفسه، كي تعتقد دون طائل بأنه ليس هو من يحاكمها ويدينها في هذه المرة، يعمد إلى سؤال الآخرين، واحدًا فواحدًا، عن العقوبة الذي يطلبون إنزالها بتلك المرأة. فيأخذون في الرد واحدًا بعد الآخر: «عقابها الموت، عقابها الموت، عقابها الموت، عقابها الموت». وبعد سماع الحكم، كان آتوس هو الذي التفت إليها وكمعلم مراسيم وقورة قال لها: «آن دوبرويه، كونتيسة دولافير، ميلادي دي وِنتر، جرائمك قد استُنفدت ضد البشر على الأرض وضد الرب في السماء. إذا كنتِ تعرفين صلاة فردِّديها، لأنك مدانة وستموتين». من قرأ هذا المشهد في طفولته أو في شبابه المبكر سيتذكّره إلى الأبد، لا يمكنه نسيانه، لا يمكنه كذلك نسيان ما يأتي استكمالًا له: قيّد الجلاد قدمي المرأة ويديها وكانت لا تزال «جميلة كالغراميات»، أمسك بها بذراعيه واقتادها إلى مركب، اجتاز به النهر القريب إلى الضفة الأخرى. خلال العبور تمكّنت ميلادي من فك الحبل الذي يقيد قدميها، وعند وصولها إلى اليابسة انطلقت راكضة، لكنها انزلقت على الفور وسقطت على ركبتيها. لا بد أنها أحسّت بالضياع عندئذ، لأنها لم تحاول النهوض بل ظلّت في ذلك الوضع، برأس منحنٍ ويدين متلاصقتين، ولا ندري إذا ما كانت أمام السيف أم خلفه، مثلما جرى، وهي شابة، قبل قرون، عندما قتلوها أول مرة. رفع جلاد ليل السيف وهوى به، وهكذا وضع حدًا للمخلوقة محوّلًا أياها بصورة نهائية إلى ذكرى، ليس مهمًا

إذا ما كانت ذكرى ناهشة أم لا. نزع عنه بعد ذلك العباءة الحمراء، بسطها على الأرض ووسّد فيها الجسد المقطوع ورمى الرأس، ثم ربط قماش العباءة من زواياها الأربع. حمل الحزمة على كتفه ونقلها مجددًا إلى الزورق. وفي طريق العودة، وهو في منتصف النهر، حيث أعمق موضع في مجراه، أسقط الحزمة في الماء. شاهد قُضاتها غرقها من الضفة، رأوا كيف انفتح الماء لبرهة وعاد للانغلاق. ولكن هذه رواية، مثلما قال لي خابيير عندما سألته عمّا حدث للكولونيل شابير: «ما حدث هو الأقل أهمية، وما يجري في الروايات لا فرق فيه ويُنسى عند إنهائها. المهم هي الاحتمالات والأفكار التي تُلقِّحنا بها وتحملها إلينا من خلال حالاتها وقضاياها المتخيّلة، وهذه تبقى لدينا بوضوح أكبر من الحوادث الحقيقية ونأخذها أكثر في الاعتبار». ليس صحيحًا، أو بلى في أحيان كثيرة، ولكن ليس دومًا يُنسى ما حدث، ليس في رواية عرفها أو يعرفها الجميع، بمن في ذلك الذين لم يقرؤوها قطّ، ولا في الواقع عندما يحدث فيه ما يحدث لنا ويكون قصتنا، يمكن له أن ينتهي بطريقة أو بأخرى دون أن يقوم أي روائي بتثبيته ودون أن يستند إلى أي شيء آخر... أجل، أتمنّى لو أن خابيير قد مات وتحوّل كذلك إلى ذكرى»، عدتُ إلى التفكير. «سيوفّر عليّ مشاكل الضمير وخوفي، شكوكي ووساوسي واضطراري إلى القول، وحاجتي إلى التكلّم. وما ينتظرني الآن، ونحو ماذا أمضي، ربما يكون شيئًا شبيهًا (بمشهدٍ زوجي)».

- حسنًا، ما سبب كل هذا التسرع - واجهتُ دياث - باريلا فور فتحه الباب، لم أقدم له ولو قبلة على الخد، حييته بسرعة لدى دخولي، وحاولت تجنب النظر إليه مواجهة، وكنت لا أزال أفضّل الملامسة معه. إذا ما بدأت بمحاسبته، فربما أتمكّن من استباقه، إحراز بعض الأفضلية في التحكّم بالوضع، أيًّا تكن الحال: فهو من رتّب الأمر، بل من فرضه تقريبًا، وأنا لا أستطيع أن أعرف -. ليس لديَّ متسَع من الوقت، لقد كان يومًا منهكًا. هيا، أخبرني، ما الذي تريد استشارتي فيه.

كانت ذقنه حليقة جيدًا ولامعة، لا يبدو كمن أمضى وقتًا طويلًا وهو ينتظر في البيت، ودون ضمانة فوق ذلك بأنه لن يكون انتظارًا بلا جدوى - فهذا يؤدّي على الدوام إلى تردّي المظهر، دون أن ينتبه أحدنا إلى ذلك -، وإنما كما لو أنه على وشك الخروج. لا بد أنه قاوم التشكّك والعطالة بإعادة المرور على ذقنه مرة بعد أخرى، وتسريح شعره ثم إعادة تشعيثه، واستبدال القميص والبنطال عدة مرات، وارتداء السترة وخلعها وتقدير التأثير الذي سيُحدثه وهو بها أو دونها، وأخيرًا تركها كما لو أنه بهذه الطريقة يريد تنبيهي، ربما، إلى أن ذلك اللقاء لن يكون كاللقاءات الأخرى، وأن الأمر لن ينتهي بنا، بالضرورة، إلى حجرة النوم التي ننتقل إليها في كل مرة بصورة غير متعمَّدة ظاهريًا. سوف يكون في نهاية المطاف بقطعة ملابس إضافية أخرى أكثر من المعهود؛ على الرغم من أن كل قطعة ملابس بالإمكان خلعها، أو قد لا يحتاج الأمر ذلك. رفعتُ الآن بصري وقاطعته مع نظرته، إنها نظرة حالمة أو حسيرة البصر كالعادة، هادئة بالمقارنة مع زيارتي السابقة أو بعبارة أدق بالمقارنة مع الدقائق الأخيرة - عندما صار كل شيء مراوغة واعوجاجًا - عندما وضع يده على كتفي وجعلني أفهم أنه قادر على أن يقوّضني بمجرد الضغط ببطء. رأيته جذابًا بعد تلك الأيام العديدة، الجزء الأكثر بدائية فيَّ كان مشتاقًا إليه - يشتاق أحدنا عندما يصل في حياته إلى حيث لا متسع من الوقت لديه من أجل الاستقرار؛ توجّه نظري على الفور إلى حيث هو معتاد، إنها لعنة حقيقية، عندما يحدث لنا هذا مع أحدهم. أن يكون المرء عاجزًا عن إزاحة بصره: يشعر بأنه منقاد، منصاع، إنها أشبه بمهانة مذلة.

- لا تتعجَّلي كثيرًا. استريحي قليلًا، تنفسي، تناولي كأسًا، اجلسي. ما أريد الحديث معك بشأنه لا يُحل بثلاث عبارات ولا وقوفًا. هيا، تحلّي بالصبر وكوني كريمة. اجلسي.

وهذا ما فعلته، جلست على الصوفا التي اعتدنا الجلوس عليها عندما كنا نظل في الصالون. لكنني لم أخلع سترتي، وجلست على حافة الصوفا، كما لو أن حضوري هناك ما زال مؤقتًا وأنه تقديم معروف له. وقد لاحظ ذلك بهدوء وبتركيز شديد في الوقت نفسه، مثلما يكون كثير من الممثلين قبل خروجهم إلى المنصّة بالضبط، هكذا تمامًا، هدوء مصطنع، يضطرون إلى اتخاذه كيلا يندفعوا راكضين ويذهبوا إلى البيت لمشاهدة التلفاز. لم يبدُ أن شيئًا قد تبقى من إلحاح وتعجُّل وضيق مكالمة الصباح، عندما اتصل بي وأنا في العمل وطلب مني المجيء بما يشبه التهديد. لا بد أنه يشعر بالرضى والراحة لوجودي في متناول يده، لأنني هناك، لقد عدت بطريقة ما إلى وضع نفسي بين يديه، ليس بالمعنى المجازي وحسب. ولكنني الآن متحرّرة من ذلك النوع من الخوف، فقد أدركت أنه لن يفعل أبدًا هو نفسه أي شيء لي، لن يفعل شيئًا بيديه وبلا وساطة. بل بأيدي آخرين ودون أن يكون هو حاضرًا، ودون أن يعلم متى سيحدث ذلك وإنما يعلم في ما بعد، في وقت متأخّر،

حين يصير الأمر واقعًا ولا يكون هناك من خلاص، ويكون لديه احتمال أن يقول لنفسه كمن يسمع شيئًا يجهله: «كان لا بد من مجيء وقت لمثل هذه الكلمة، كان يجب أن تموت في ما بعد»، هذا ممكن.

ذهب إلى المطبخ وجاءني بكأس وسكب كأسًا لنفسه. لم يكن هنالك أثر لكؤوس أخرى، ربما حظّر على نفسه تذوّق قطرة واحدة خلال انتظاره، كي يظل متيقظًا، ربما استغل الوقت في اختيار وترتيب ما سيقوله لي، بل وفي حفظ جزء مما سيقوله عن ظهر قلب.

- حسنًا، ها قد جلستُ. قل ما لديك.

جلس إلى جانبي، قريبًا جدًا مني، مع أنه لم يفكر بعمل ذلك في أي يوم آخر، وكان الأمر سيبدو لي عاديًا أو أنني ما كنت لأدقّق بالمسافة التي تفصل بيننا نحن الاثنين. ابتعدتُ قليلًا.. قليلًا فقط، فأنا لا أريد أن أعطيه كذلك انطباعًا بالصَدّ، وهو أمر لم يكن موجودًا بصورة مادية، فقد اعترفت لنفسي بأن القرب منه ما زال يروق لي. شرب رشفة من كأسه. أخرج سيجارة، أشعل الولاعة وأطفأها عدة مرات كما لو أنه ساهٍ بعض الشيء أو أنه يستعد ويتحفز، وأخيرًا أشعلها. مرَّ بيده على ذقنه، لم تكن تبدو ضاربة إلى الزرقة مثلما هي على الدوام تقريبًا، لقد ألحّ على حلاقة ذقنه كثيرًا هذه المرة. كانت هذه هي كل المقدمة، وعندئذ كلمني، بابتسامة يبذل جهدًا لإظهارها بين حين وآخر - كما لو أنه ينصح نفسه كل بضع دقائق أو أنه برمج ذلك ويتذكر تفعيله متأخّرًا -، ولكن بنبرة جدية.

- أعرف أنكِ قد سمعتِنا يا ماريا، أنا وروبييريث. لا معنى لأن تنكري ذلك أو أن تحاولي إقناعي بعكس هذا، كما في المرة الأخيرة. لقد كانت غلطتي، التكلّم معك هكذا في البيت، معك هنا، فالمرأة المهتمة برجل يكون لديها فضول لمعرفة أي شيء يتعلّق به: عن أصدقائه، عن أعماله، عمّا يروق له، أي شيء. تشعر بأنها مهتمة بكل شيء، تريد أن تعرفه بصورة أفضل وحسب. - «كان يجتر ذلك مثلما خمّنتُ مسبقًا»، فكّرتُ «لقد راجع كل تفصيل وكل كلمة، وتوصّل إلى هذه النتيجة. لحسن الحظ أنه لم يقل «المرأة المغرمة برجل»، حتى لو كان هذا ما أراد قوله وكونه حقيقة فوق ذلك. أو أنه كان حقيقية، ولم يعد كذلك، لم يعد ممكنًا أن يكون كذلك. لكنه كان منذ أسبوعين، وهو بهذه الحال يمكن أن يكون محقًّا» -. لقد حدث ذلك ولا وجود لإمكانية قلب الصفحة. أوافق، لا أريد أن أخدع نفسي: لقد سمعتِ ما كان يجب ألا تسمعيه، لا أنت ولا أي شخص آخر، ولكن أنت بصورة خاصة، كان علينا أن ننفصل بصورة نظيفة، دون أن نخلف أي علامة. - ففكرتُ: «إنه يحمل الآن وسم زهرة الزنبق» -. انطلاقًا مما سمعتِه، لا بد أنكِ قد كوّنتِ فكرة، وزانتِ بين ما لكِ وما عليكِ. فلننظر إلى هذه الفكرة، من الأفضل تحاشيها أو التظاهر بأنها ليست في ذهنك، أنها غير موجودة. لا بد أنك تفكّرين أسوأ تفكير بي ولست ألومك، لا بد من أن وقع الأمر عليك كان رهيبًا. إنه مقرف وبغيض، أليس كذلك؟ وتستحقّين الشكر لأنك قد جئتِ على الرغم من ذلك كله، لا بد من أنك قد أجبرت نفسك على العودة لرؤيتي.

حاولت الاعتراض، دون كثير من الإصرار؛ كنت أراه مصمّمًا على طرح الموضوع وعدم ترك مخرج لي، التحدّث إليّ على المكشوف عن قيامة بتدبير عملية القتل بالوكالة. لا يمكن أن تكون لديه

القناعة المطلقة بأنني كنت على علم بالأمر، ومع ذلك كان يستعد لأن يقدّم لي اعترافًا أو شيئًا مشابهًا. أو ربما أراد أن يضعني في الحيثيات، أو إطلاعي على الظروف، وتبرير موقفه بطريقة من يدري كيف ستكون، أن يروي لي ما أُفضِّل، ربما، أن أجهله. لأنني إذا ما عرفت تفاصيل سيكون أصعب عليّ عدم الاكتراث أو عدم فعل أي شيء، وهو ما كنت، دون تدبير مسبق، قد توصّلتُ إليه حتى ذلك المساء دون أن يعني ذلك استبعاد ردّ فعل مستقبلي آخر، فالغد يمكن أن يبدّلنا ويستحضر أنانا التي لا نعترف بها: كان يمكن لي أن أبقى هادئة وأن أترك الأيام تمضي، فهذه هي الطريقة الأفضل لأن تذوب الأمور، لأن تتحلّل في الواقع، وإن كانت ستبقى إلى الأبد في تفكيرنا وفي معرفتنا، وهناك تظل، ولو كانت متعفّنة وصلبة تطلق نتانة فظيعة. لكن هذا يمكن تحمّله، ويمكن التعايش معه. ومن ذا الذي لا يحمل شيئًا من هذا النوع.

- خابيير، لقد تكلّمنا في هذا الأمر. وقد قلت لك إنني لم أسمع أي شيء، واهتمامي بك لا يصل بعيدًا إلى الحدّ الذي تفترضه...

أوقفني بحركة من يده كحركة مروحة متوسّطة الارتفاع («لا تأتني بقصص»، هذا ما تقوله حركة تلك اليد؛ «لا تأتني بالتكلّف والتصنع»)، لم يسمح لي بمواصلة الكلام. ابتسم الآن بقليل من التنازل، أو ربما كانت سخرية من نفسه بالذات، وهو يرى نفسه في الموقف الذي يمكن تجنّبه والذي وجد نفسه فيه، لأنه كان مكشوفًا جدًا.

- لا تصرّي. لا تعتبريني أبله. مع أنني قد كنت أخرق جدًا دون شك. كان عليّ أن أقتاد روبيريث إلى الشارع فور ظهوره. لقد سمعتِنا بالطبع: عندما دخلتِ إلى الصالون قلتِ إنك لم تكوني تعلمين بوجود أحد سواي هنا، ولكنك وضعتِ حمالة الصدر لتغطي نفسك بأدنى الحدود أمام شخص مجهول، وليس بسبب البرد أو أي سبب آخر منتقى بعناية، لم يُخجلك ما وجدتِه، لأنك كنتِ قد خجلتِ أنتِ وحدكِ قبل ذلك مما ستُقدمين عليه، ظهورك شبه عارية أمام شخص غير مرغوب فيه ولم تريه من قبل قطّ؛ لكنكِ سمعتِه يتكلّم، وليس عن أي موضوع عادي، ليس عن كرة القدم ولا عن الطقس، أليس صحيحًا؟ - «لقد انتبه إذًا إلى ما كنتُ أخشى أن ينتبه إليه»، هذا ما فكّرت به بصورة عابرة. «لم تُفِدْ في شيء إعداداتي المسبقة، حيَلي الصغيرة، احتياطاتي الساذجة» -. إظهاركِ ملامح المفاجأة لم تكن سيئة ولكنها لم تكن جيدة كذلك. وفضلًا عن كل ذلك، وهذا هو الأكثر شفافية: شعرتِ فجأة بالخوف مني. كنتُ قد تركتُكِ واثقة ومطمئة في السرير؛ بل مُحبة وسعيدة، هذا ما بدا لي. وقد نمتِ بوداعة وهدوء، ولدى استيقاظك وبقائك على انفراد معي، شعرتِ بالخوف مني فجأة، هل ظننتِ أنني لن ألحظ ذلك؟ إننا نلحظُ ذلك دومًا، عندما نبث الخوف. ربما النساء لا يلحظنه، أو أنكن نادرًا ما تسبّبن الخوف وتجهلن هذا الإحساس، اللهم إلا مع الأطفال، حسنًا: يمكنكن إرعابهم. وهذا غير لطيف بالنسبة لي بأي حال، مع أن رجالًا كثيرين يفتنهم ذلك ويبحثون عنه، إحساس بالقوة، بالسيطرة، بالمنعة العابرة والزائفة. أما أنا فأشعر بانزعاج شديد من النظر إليّ باعتباري مصدر تهديد. إنني أتكلم عن الخوف البدني بالطبع. عن صنف آخر من الخوف تسببنه أنتن معشر النساء. إلحاحكن يبعث على الخوف. تعنتكن يبعث على الخوف، وهذا في معظم الحالات مجرّد عمى. غيظكن يبعث على الخوف، وهذا نوع من الغضب الأخلاقي الذي يداهمكن، وبلا أدنى سبب أحيانًا. ولا بد أنكِ قد شعرت بهذا الشعور نحوي

قبل أسبوعين. لست ألومك في حالتك هذه. فتفهّم ذلك كان ممكنًا في حالتك، لقد كان لديك سبب. ولم تكوني مخطئة تمامًا. وإنما بصورة وسطية فقط. - توقّف عن الكلام، رفع يده إلى ذقنه، داعبها وهو يتطلّع بنظرة غائمة (أزاح بصره لأول مرة عني)، كما لو أنه يفكّر حقًّا، أو يتساءل بصراحة عمَّ عبّر عنه بعد ذلك -: ما لا أفهمه هو لماذا ظهرتِ لنا، لماذا خرجتِ، لماذا عرَّضت نفسك لحدوث هذا الذي يحدث الآن. لو أنك ظللت هادئة، لو أنك انتظرتِني في السرير، لكنتُ اعتبرتُ بالطبع أنك لم تسمعينا، وأنك لم تعرفي أي شيء، وأن كل شيء سيستمر مثلما كان حتى ذلك الحين، بصورة عامة وبينك وبيني. وإن كان الاحتمال الأكبر أن الخوف كان سيُلحظ عليكِ بالطريقة نفسها، قبل أو بعد، في ذلك اليوم أو في هذا اليوم. فهذا أمر لا يتبدّل إذا ما حدث، ولا يمكن إخفاؤه.

توقّف، شرب جرعة أخرى، أشعل سيجارة أخرى، نهض واقفًا وجال جولتين في الصالون، ثم توقّف بعد ذلك وراء ظهري. عند نهوضه فزعت، وارتعشتُ بصورة لفتت انتباهه، وعندما توقّف بضع ثوان بلا حركة، وكانت يداه على مستوى رأسي، التفتُّ على الفور، كما لو أنني لا أريد فقدانه عن مجال رؤيتي أو وجوده وراء ظهري. عندئذ قام بحركة بيده المفتوحة، كما لو أنه يشير إلى أمر جلي («أترين؟»، قالت اليد. لا يروق لكِ عدم معرفة أين أنا. قبل أسابيع لم تكن حركاتي حولك تسبب لك أدنى قلق، وما كنتِ تهتمين بحركتي»). الحقيقة أنه لم يكن هناك مبرر لذعري ولا لقلقي. فقد كان ديات - باريلا يتكلّم بهدوء وبأسلوب متحضّر، بلا غضب وبلا انفعال، بل إنه لم يؤنّبني ولم يطلب مني الحساب على فضولي، ربما كان هذا هو ما يسترعي الانتباه. إنه يكلّمني هكذا عن جريمة خطيرة، عملية قتل مُقترفة بطريقة غير مباشرة أو دبرها هو، أمر لا يجري الحديث عنه بصورة طبيعية أو أنه غير معهود على الأقل، في ماض ما زال غير بعيد، بل حديث العهد تقريبًا: عندما كان يُكتشف أو يُعترف بشيء مشابه، لم تكن تتلوه تفسيرات ولا أبحاث ولا أحاديث مطمئنة ولا تحليلات، وإنما رعب وغضب، استنكار، صراخ واتهامات محتدّة، أو يجري تناول حبل وتعليق القاتل المعترف على شجرة، بينما يحاول هذا بدوره الهرب ويَقتُلُ مجددًا إذا تطلّب الأمر. «زمننا هذا غريب»، فكّرت. «يُسمح فيه الحديث عن أي شيء ويُسمع ما يقوله الجميع، لقد فعل ما فعله، ليس للدفاع عن نفسه فقط، بل كما لو أن قصة فظاعاته لها بحد ذاتها أهمية». وأضيفت لي فكرة أثارت استغرابي أنا نفسي: «هذه هشاشة جوهرية فينا. لكن مخالفتها ليس في يدي، لأنني أنا أيضًا أنتمي إلى هذا العصر، ولستُ أكثر من بيدق».

لا معنى لمواصلة الإنكار، مثلما قال دياث - باريلا منذ البداية. فقد تقبّل هو نفسه الظلال الكثيرة («لقد كانت غلطتي»، «كان عليّ اقتياد رويبيريث إلى الشارع»، « لقد كان لديك سبب. ولم تكوني مخطئة تمامًا. وإنما بصورة متوسّطة فقط»)، قال ذلك كيلا يكون لدي متسع لخيار آخر سوى سؤاله عن أي شياطين تحدّثني، إذا ما بقيت مصرّة على موقفي. إذا ما أصررت على التظاهر بأن ذلك كله مستجدات تفاجئني وأنني أجهل ما الذي يتحدّث عنه، وحتى في هذه الحال لن أتحرّر: عليّ أن أطالبه بقصته والاستماع إليها، منذ البداية فقط. من الأفضل لي أن أبدي أنني مطلعة على الأمر، كي أوفر على نفسي التكرار وربما بعض الاختلاقات المغالية. كل شيء سيكون مزعجًا، وقد كان كذلك. كلما كان وقت روايته أقصر يكون أفضل. أو ربما أنها ستكون طويلة وخارجة عن الموضوع الأساس. كنتُ راغبة في المغادرة، لم أجرؤ على محاولة ذلك، لم أتحرّك.

- حسنًا، لقد سمعتكما. لكنني لم أسمع كل ما قلتماه؛ ولم أستمع طوال الوقت. سمعتُ ما يكفي، هذا صحيح، لأن أشعر بالخوف منك، أو مما تنتظره. حسنًا، ها أنت تعرف الآن بصورة مؤكّدة ما لم تكن على يقين مطلق منه، الآن تعرف ذلك. وما الذي ستفعله؟ ألهذا السبب طلبت مني المجيء، من أجل أن تتأكّد؟ لقد كنتَ أكثر من مقتنع بذلك، وكان يمكن لنا ترك الأمر يمضي وعدم تسجيل مزيد من الوسوم، من أجل المتابعة بكلمتك هذه. وكما ترى، أنا لم أفعل شيئًا، لم أخبر أحدًا بالأمر، حتى لويسا نفسها لم أخبرها. أظن أنها ستكون آخر شخص يمكن أن أخبره. غالبًا ما يكون أشد المتأثرين بموضوع ما هم أقل من يريدون معرفته، أكثرهم قربًا: الأبناء بما فعله الآباء، والآباء بما فعله الأبناء... عرضُ كشفٍ عليهم - ترددتُ، لم أدر كيف أنهي الجملة، أستبعدت ذلك فورًا -، هذه مسؤولية كبيرة. بالنسبة لشخص مثلي. «فأنا في نهاية المطاف هي الشابة الرصينة»، هذا ما فكرت به. «لم يكن لي اسم آخر عند ديسفيرن» -. يجب ألا تخاف مني بكل تأكيد. كان عليك أن تسمح لي بأن أبتعد جانبًا، أن أنسحب من حياتك بصمت وتكتم، مثلما دخلتُها تقريبًا ومثلما استمريتُ فيها، إذا ما كنتُ قد استمريت. وما كان يمكن لشيء أن يجبرنا على أن نعود لرؤية كل منا الآخر. فبالنسبة لي، كنت أرى أن كل مرة كنا نلتقي فيها هي المرة الأخيرة، لم أحسب حسابًا للمرة التالية قَطّ. حتى إشعار آخر، حتى يأتي أمرك المعاكس، فأنت من كنت تبادر دومًا، أنت من كنت تقترح. وما زلتَ في الوقت المناسب لأن تتركني أنصرف دون مزيد، فأنا لا أدري ما الذي يعنيه وجودي هنا.

خطا بضع خطوات، تحرّك، لم يعد يقف خلفي، لكنه لم يجلس ثانية إلى جانبي، بل ظل واقفًا، متمترسًا الآن وراء كرسي، في مواجهتي. لم أرفع بصري عنه في أي لحظة، هذه هي الحقيقة. كنت أنظر إلى يديه وأنظر إلى شفتيه، لأنه يتكلم من خلالهما ولأنها كانت عادتي، إنهما مغنطيساي. عندئذ نزع عنه السترة وعلّقها على مسند الكرسي، مثلما اعتاد أن يفعل. ثم رفع بعد ذلك كمي قميصه بتمهل، ومع أن هذا الأمر كان عاديًا أيضًا - إنه يرفع كمي قميصه دائمًا وهو في البيت، ولم أره يزرر المعصمين إلا في ذلك اليوم وخلال وقت قصير فقط -، إلا أن فعله ذلك جعلني أحترس أكثر، ففي أحيان كثيرة تكون هذه هي حركة من يتأهّب لعمل ما، لبذل جهد بدني، وهناك لم يكن أي عمل مُنتظر. عندما انتهى من ثني كمَّيّ القميص، أسند ذراعيه إلى أعلى الكرسي، كما لو أنه

يتأهب لإلقاء خطاب. ظل لبضع ثوانٍ يتأملني بتمعن شديد وهي طريقة أعرفها فيه، وحدث لي مع ذلك ما حدث في مناسبة سابقة: أزحت نظري عنه، أقلقتني عيناه الثابتتان بنظرته التي لا تحمل شيئًا من الشفافية أو النفاد، ربما هي نظرة غائمة أو إحاطية أو أنها مجرد نظرة لا يمكن تفسيرها، يخفف على كل حال من وطئها انحسار بصره (يضع عدسات لاصقة)، بدا كما لو أن تينك العينين المشقوقتين تقولان لي: «لماذا لا تفهميني؟»، ليس بتلهّف وإنما بأسى. ووضعه لم يكن مختلفًا عن الوضع الذي كان يتخذه في أمسيات أخرى، وهو يحدّثني عن الكولونيل شابير أو عن أي شيء آخر يخطر له أو يكون قد دقّق فيه، وكنت أستمع لأي شيء يقوله بإعجاب. «وفي أمسيات أخرى أو في ساعات غروب»، فكرتُ، «لا شك في أنها أسوأ ساعة بالنسبة للويسا مثلما هي بالنسبة للجميع، ساعة الضوأين، الأشد صعودًا، وتلك الأماسي التي كنا نلتقي أنا وهو فيها»، انتبهتُ على الفور إلى أنني أفكر بصيغة الماضي، كما لو أننا قد تبادلنا الوداع وصار كل واحد منا في أول أمس الآخر؛ لكنني واصلتُ بالطريقة نفسها، «لم يكن خابيير يرافقها أو يساعدها، من المؤكد أنه يحتاج إلى الراحة أحيانًا - استراحة كل عشرة أيام أو اثني عشر يومًا - من الحزن اللجوج لتلك المرأة التي يحبها بثبات، والتي ينتظرها بفارغ الصبر؛ يحتاج إلى استعادة النشاط من مكان ما، منّي، من علاقة حميمة أخرى، من شخص آخر، كي يأتي إليها بعد ذلك بنشاط متجدد. ربما أكون قد ساعدته في ذلك قليلًا، دون أن أكون قد نويت ذلك أو تخيّلته، وهذا لا يضايقني. ممن سيحصل على ذلك الآن، إذا ما ابتعدتُ أنا عنه. لن يواجه مشكلة في استبدالي، هذا أمر أنا متأكدة منه». وحين فكرتُ بهذا الأمر الأخير، رجعت إلى الزمن الحاضر.

- لا أريد أن تظل لديكِ إشارة غير صحيحة، أو علامة غير ملائمة، أو فقط في ما حدث ولكن ليس في الأسباب ولا في النيّات، وأقل من ذلك في المفهوم، في المبادرة. فلننظر إلى هذه الفكرة التي كونتِها أنت، هذا التركيب للمكان، هذه القصة التي رويتِها لنفسكِ: أنا أمرت بقتل ميغيل، عن بُعد كبير. وضعتُ خطة غير مستثناة من المجازفة (لا سيما المجازفة بإخفاقها)، لكنها تُبقيني بعيدًا عن أي شبهة. فأنا لم أقترب، لم أكن هناك، لا وجود لما يشير إلى أن لي أية علاقة بموته، ومن المحال الربط بيني وبين مدبّر مواقف السيارات الذي لم أتبادل معه كلمة واحدة قطّ. آخرون تكفّلوا بهذا كله: بالتحري عن تعاسته وتوجيه عقله الخفيف والتحكم به. لقد ظلَّ موت ميغيل كحادث رهيب، كحالة سوء حظ كبير. لماذا لم أستعن ولو بقاتل محترف، وهو أمر أكثر أمنًا وسهولة في الظاهر؟ ففي هذه الأيام يجري إحضارهم لهذا الهدف من أي مكان في أوروبا الشرقية أو أميركا، وكلفتهم ليست غالية جدًا: تذكرة السفر جيئة وإيابًا، بدل طعام وثلاثة آلاف يورو أو أقل، أو أكثر قليلًا، حسب الحالة، فلنقل ثلاثة آلاف إذا كان المرء لا يريد أي شيء غير متقن أو الاستعانة بشخص غير خبير. ينفّذون عملهم ويغادرون، وعندما تبدأ الشرطة تحرياتها يكونون قد صاروا في المطار أو مسافرين في الطائرة. المشكلة أنه لا وجود لضمانة بعدم إعادتهم الكرَّة، وبألا يعودوا إلى إسبانيا من أجل تنفيذ عمل آخر أو قد تروق لهم البلاد ويستقرّون فيها. بعض الأشخاص الذين استفادوا من خدماتهم يصبحون مهمِلين جدًا في ما بعد، ولا تخطر لهم أية فكرة سوى نصيحة صديق أو زميل بخدماتهم (ولكنهم للحقيقة يفعلون ذلك بصوت خافت جدًا) ذلك الشخص نفسه الذي قدم إليهم خدمته، أو الوسيط نفسه الذي يتكاسل بدوره، ويتّصل أو يستدعي القاتل نفسه. أي شخص ممن عملوا هنا لا يكون سجله نظيفًا تمامًا. وعندما يطأ أرض البلاد، يكون

الاحتمال الأكبر أنهم سيصطادونه في النهاية، ولكنه قبل أي شيء آخر أيضًا سيتذكّرك أو سوف يتذكّر الشخص الذي قدّم لك اسمه، وأقام رابطًا يمكن ألا يكون من السهل قطعه، هناك أشخاص لا يرتضون أن يبقوا واضعين يدًا على يد ومدّ إحداهما بين حين وآخر. وإذا ما تم اصطيادهم يغرّدون. حتى من يعملون مأجورين لإحدى المافيات ويظلّون لهذا السبب، كعاملين ثابتين؛ هناك الآن في إسبانيا كثيرون منهم، فالعمل آخذ بالتوافر هنا. واحترام قوانين الاحتفاظ بالصمت ضئيلة أو معدومة. وحس الرفاقية لم يعد يعمل، لا وجود لحِسّ الانتماء: إذا ما قُبض على أحدهم فليتدبّر أمره، سيُعتبر سوء حظ أو خطأً ممن وقع في الفخ، وهذا ذنبه. أمر لا بد منه، والمنظمات لا تتحمّل المسؤولية، فقد اتخذت إجراءاتها كيلا تجد نفسها ملطخة بالدموع، والقتلة المأجورون يصبحون أكثر فأكثر عماءً، يعرفون عنصرًا واحدًا أو أنهم لا يعرفونه: صوت على الهاتف، وصور الأهداف تُرسل على الهاتف المحمول. وهكذا فإن المعتقلين يردّون بالعملة نفسها. الجميع في هذه الأيام لا يسعون إلا إلى النجاة بجلودهم، التوصّل إلى أن يخففوا من التهم ضدهم. يبوحون بكل ما يتطلّبه الأمر وبعد ذلك يرون ما يحصل، الأمر الأساسي عدم الارتهان لوقت طويل في السجن. فكلما طالت مدة مكوثهم هناك، هادئين ومتواجدين في مكان محدّد، يكونون معرضين لأن تقوم عصابتهم نفسها بتصفيتهم: فهم غير مفيدين، مجرد وزن خامل، غير فاعل. ولأن ما يمكن لهم أن يبوحوا به عنها ليس شيئًا مهمًا، فإنهم يستعرضون مزاياهم: «انظر، لقد نفّذتُ مهمةً أيضًا، منذ سنوات، لرجل أعمال بارز، أو ربما كان سياسيًا، أو مصرفيًا. أظن أنني سآخذ بالتذكر. إذا ما عصرت ذاكرتي، ما الذي سأحصل عليه؟». أكثر من رجل أعمال انتهى بهم المطاف إلى السجن لهذا السبب. وأكثر من سياسي بلنسيّ، وهم هناك محبّون للتباهي كما تعرفين، لا يتفهّمون مسألة التكتّم.

«كيف أمكن لخابيير معرفة ذلك كله»، تساءلتُ بينما أنا أستمع إليه. وتذكّرت محادثتي الحقيقية الوحيدة مع لويسا، فهي أيضًا كانت مطّلعة بعض الشيء على تلك الممارسات، وقد حدّثتني عنها، بل إنها استخدمت بعض العبارات المشابهة جدًّا للتي يستخدمها المغرَم بها: «يأتون بشخص، يقوم بعمله، يدفعون له ويغادر، كل ذلك خلال يوم واحد أو يومين، ولا يعثرون عليهم أبدًا...». ظننتُ في ذلك الحين أنها قد قرأت عن الأمر في الصحافة أو أنها سمعت ديفيرني يتحدّث عنه، فهو رجل أعمال في نهاية المطاف. وربما تكون قد سمعته من دياث - باريلا. ومع ذلك هناك اختلاف بينهما في موضوع فعالية المنهج، فهو في نظره غير نافع أو مليء بالعقبات غير المواتية، ولكلامه وقع من هو أوسع اطلاعًا. وكانت لويسا قد أضافت: «لو أن شيئًا كهذا قد حدث، لما كان بمقدوري ولو مجرد الشعور بكراهية كبيرة تجاه ذلك القاتل المجرّد... ولكن أجل تجاه المحرّضين، ستكون لدي إمكانية الشك بهؤلاء وبأولئك، بأي منافس أو حاقد أو متضرّر، فكل رجل أعمال يُوقع ضحايا دون أن يدري أو برغبة منه وبإرادته؛ بل يمكن للضحايا أن يكونوا كذلك من الزملاء الأصدقاء، كما قرأت مرة أخرى منذ أيام، في معجم الكوباروبياس». وكانت قد تناولت المعجم، إنه مجلد ضخم، وقرأت لي مقطعًا من تعريف كلمة «حسد» في العام 1611 فقط، خلال حياة شكسبير وثربانتس، منذ أربعمئة عام وما زال ذلك التعريف صالحًا، من المحزن أن بعض الأشياء لا تتغير أبدًا في جوهرها، وإن يكن من المريح أيضًا وجود شيء مستمر في ثباته، لا يتزحزح ميلمترًا ولو في النطق: «السيئ هو أن هذا السُّم ينشأ عادة في صدور من هم أقرب أصدقائنا...». كان خابيير

يروي لي أو يعترف بهذه الحالة، ولكن كفرضية فقط، ويفعل ذلك من أجل إنكارها كما هو متوقَّع؛ كان يصف ما كنت أتخيله أنا، والنتيجة التي استخلصتها بعد سماع حديثه هو ورويبيريث، وكنت أفترض أنه يفعل ذلك من أجل أن يفنّد على الفور ما استخلصته. «ربما سيخدعني بالحقيقة»، فكرت للمرة الأولى، لأنها لم تكن المرة الوحيدة. «ربما يروي لي الحقيقة الآن كي تبدو لي أكذوبة. كما لو أنها تشبه الكذب، كما لو أنها كذلك».

- كيف تعرف هذا كله؟

- علمتُ به. عندما يريد أحدنا معرفة شيء، فإنه يعرفه. يتحرّى عن الرؤى المؤيدة والمضادة، ويعرف. - هذا ما أجابني به سريعًا جدًّا وبعد ذلك ظل صامتًا. بدا أنه سيضيف شيئًا ما، أن يضيف مثلًا كيف علم بذلك. لكنّ الأمر لم يجر على هذا النحو. شعرت كما لو أن مقاطعتي له قد أغضبته، وأنها جعلته يفقد الدافع بصورة آنية، إذا لم يكن قد فقد خيط التسلسل. ربما كان أكثر عصبية مما يبديه. خطا بضع خطوات وجلس على الكرسي الذي كان قد علّق سترته على مسنده وحيث كان يستند بيديه. ما زال في مواجهتي، ولكنه بجلوسه الآن عاد ليصبح في مستواي نفسه. وضع سيجارة أخرى بين شفتيه، لم يشعلها، صارت تتراقص عندما بدأ الكلام من جديد. لم تكن تخفي فمه، وإنما تُبرزه أكثر -. وهكذا فإن مسألة القتلة المأجورين تبدو جيدة الوقع في البدء لمن يريد أن يزيح أحدهم من طريقه. ولكن يتبين في النتيجة أن من الخطر دومًا التواصل معهم، مهما كانت الاحتياطات التي يتّخذها أحدنا وحتى لو كان الاتصال بهم عن طريق طرف ثالث. أو حتى رابع أو خامس؛ والحقيقة أنه كلما كانت السلسلة أكثر طولًا، وكلما كانت حلقاتها أكثر، تكون السهولة أكبر بتسلل أحدهم إليها، وبفقدان السيطرة على عنصر ما. وسيكون من الأفضل، بطريقة ما، التعاقد بصورة مباشرة وبلا وسطاء: ابتداء ممن سيضع تصورًا لطريقة القتل وحتى من سيتولى التنفيذ. ولكن لن يظهر بالطبع أي دافع أموال نهائي، ولا أي رجل أعمال، ولا أي سياسي، لأنه سيَكشف نفسه بذلك وتعرّض لكثير من الابتزاز. الحقيقة أنه لا وجود لطريقة مضمونة، لا وجود لأسلوب ملائم لترتيب ذلك أو طلبه. فضلًا عن شبهات غير الضرورية ستأتي في ما بعد. فإذا ما ظهر رجل مثل ميغيل ضحية تصفية حسابات أو اغتيال بالوكالة، فسوف يبدأ النظر في كافة الجهات: سيتحرّون في البدء عن خصومه ومنافسيه، بعد ذلك عن زملائه، عن جميع أولئك الذين عقد صفقات معهم أو له تعاملات معهم، وعن الموظفين المسرّحين من العمل أو المتضرّرين، وأخيرًا عن زوجته وأصدقائه. من الأفضل بكثير، ومن الأنظف بكثير ألا يظهر ذلك كله أبدًا. أن تكون النكبة شديدة الشفافية بحيث لا تكون ثمة حاجة لاستجواب أحد. أو اقتصار ذلك على من قام بالقتل فقط.

على الرغم من أن ذلك لن يروق له، فقد تجرأت على التدخل من جديد. أو أنها لم تكن جرأة، وإنما كنتُ قد انفلَتُّ، ولم أعد أستطع التحمل.

- من قَتَلَ لا يُعرف عنه أي شيء، بل لا يُعرف أنه لم يكن هو نفسه من قرر ذلك، وأنهم قد أدخلوا الفكرة في رأسه، وأنهم قد حرضوه. وأنه كان على وشك أن يخطئ في الرجل، لقد قرأتُ صحف تلك الأيام؛ فقد أقدم قبل قليل من ذلك على ضرب السائق وكان يمكن له أن يطعنه ويقوّض بذلك خططكم كلها، أفترضُ أنكم اضطررتم إلى دعوته إلى الانضباط: «حذار، فالمطلوب ليس هذا، إنه الآخر الذي يأخذ السيارة؛ من ضربته لا ذنب له، إنه مأمور وحسب». من قام بالقتل غير قادر على التعبير عن نفسه أو يشعر بالعار من أن يخبر الشرطة، وهذا يعني إخبار الصحافة والعالم بأسره أن ابنتيه عاهرتان، فيفضّل الصمت. يرفض التصريح بأي كلام، مجنونك مسكين، إنه لا يشير إلى أحد، وإلى ما قبل أسبوعين كان يسبب لكم رعبًا مميتًا.

نظر إليّ دياث - باريلا بابتسامة خفيفة، لا أدري كيف أقول ذلك، ابتسامة ودودة ولطيفة. لم تكن وقحة، لم تكن أبوية، لم تكن مستهزئة، لم تكن مزعجة حتى في ذلك السياق القاتم. بدت فقط كما لو أنها قد أكدت له أن ردّ فعلي هو المناسب، وأن كل شيء يمضي في الطريق المتوقع. أشعل الولاعة مرتين لكنه لم يشعل السيجارة. أما أنا فاشعلتُ الآن سيجارة لي. واصل الكلام وسيجارته في فمه، فقد انتهت إلى الاتصاق بإحدى شفتيه، الشفة العليا بكل تأكيد، وأنا يروق لي لمسها. لم يبدُ لي أن مقاطعتي له قد أزعجته.

- كانت ضربة حظ غير متوقعة، أعني امتناعه عن الكلام، إصراره على الصمت. لم أكن أنتظر ذلك، لم أكن أنتظر كل هذا. أجل، كنت أتوقع أن يقدّم روايةً مشوشة، تفسيرًا غير متماسك، مع هذيانه، بحيث يتوصلون في المحصلة إلى أنه قد أُصيب بنوبة غضب، نتيجة حالة استغراق مَرَضية غير معقولة وأصواتٍ مُتخيَّلة. أي علاقة يمكن أن تكون لميغيل مع شبكة دعارة، مع شبكة رقيق أبيض؟ لكن الوضع صار إلى أنه قرر عدم إفلات لسانه، أليس كذلك؟ وأنه لن يكون هنالك أدنى خطر في احتمال توريطه أطرافًا ثالثة، وإن كان هؤلاء سيبدون أشباحًا؛ أو ذكرى اتصالات هاتفية غريبة بجهاز موبايل لا وجود له أو لا يمكن العثور عليه بأي حال ولم يُسجّل رقمه قطّ، وعن صوت يهمس في أذنه بأشياء، يشير له إلى ميغيل، ويقنعه بأنه هو من تسبب بنكبة ابنتيه. وقد بلغني أنه قد تم تحديد مكان البنتين وأنهما رفضتا الذهاب لرؤيته. يبدو أنه لم يكن لهما أي تعامل معه منذ بضع سنوات، واعتبرتا أنه من المحال أن يكون قد حُمل إلى القتل من أجلهما، وتجاهلتاه تمامًا؛ فمدبّر مواقف السيارات أمضى زمنًا طويلًا وهو يعيش وحيدًا في الدنيا. ويبدو أن البنتين تعملان في الدعارة فعلًا، ولكن بإرادتهما، بالقدر الذي يسمح للإرادة أن تظل سليمة حيال الحاجة: ولنقل إنهما، بين احتمالات عدة أنواع من العبودية، اختارتا هذا الاحتمال وحالهما ليست سيئة فيه، وهما لا تتذمران. وأظن، إذا لم تكونا في المكانة العالية، فإنهما في المتوسطة، تحميان نفسيهما جيدًا، وليستا مهملتين. لم يشأ الأب معرفة المزيد عنهما ولم ترغبا كذلك في معرفة المزيد عنه، لا بد أنه كان معطوب الذهن منذ الأزل. ومن المحتمل أنه في ما بعد، في وحدته، في عدم اتزانه المتزايد، كان يتذكرهما كطفلتين أكثر من كونهما شابتين، كواعدتين وليس كمخيبتين للآمال، وقد

أقنع نفسه بأنهما تصرفتا على ذلك النحو مكرهَتَيْن. لم يَمْحُ المعلومة من ذهنه ولكنه ربما يكون قد حذف الأسباب والظروف، واستبدلها بأخرى مقبولة أكثر بالنسبة إليه، وإن كانت أكثر إثارة للغيظ، ولكن الغيظ يمنح قوة وحياة. وما أدراني أنا: كي يحتفظ بصورة أفضل في مخيلته لتينك الطفلتين، لا بد أنهما من القليل الذي يمكن إنقاذه مما تبقى له، فهاتان الصورتان هما أفضل ذكرى من الأزمنة الأفضل. لا أدري من كان أو ماذا كان قبل أن يصبح مدبر مواقف للسيارات؛ ولماذا عليَّ القيام بتحريات؛ فهذه القصص جميعها حزينة، يمكن التفكير بمن كانه أحد هؤلاء الرجال، أو ما هو أسوأ من ذلك، واحدة من أولئك النسوة، عندما لا تكون قادرة على رؤية وتوقع ما سيكون عليه مستقبلها المتجرجر، ويصير مؤلمًا إلقاء نظرة على الماضي المجهول للشخص النكرة. أعرف فقط أنه كان أرمل منذ سنوات، وربما بدأ انحداره آنذاك. لا معنى للاستعلام عن أي شيء، وقد منعتُ روبييريث من إخباري إذا ما علم بشيء، لأنه سيولد لديّ وخزة ضمير بسبب استخدامي له كأداة، كنت قد أسكتُّ ضميري بفكرة أنه سيكون هناك حيث يحتجزونه، حيث هو الآن، في حال أفضل مما كان عليه في السيارة المخلعة التي ينام فيها. إنه يَلقى معاملة أفضل وعناية أكبر، وقد اكتُشف بالفعل فوق ذلك أنه كان يشكل خطرًا. من الأفضل ألا يكون في الشارع. - «هذا سيولد لديه سوء نية» فكرتُ. «إنّ لديه فظاظة. فوسط ما يرويه لي، عما أعرفه إلى هذا الحد أو ذاك، يحاول ألا يُظهر نفسه كشخص بلا وازع أخلاقي أو يبدي تحرّجًا. لا بد أن ذلك عادي في نظره، وأتوقعُ أن هذا ما يحاول إظهاره معظم من يَقتلون، لاسيما عندما يُكتشفون؛ على الأقل من هم ليسوا من القتلة المأجورين، من يفعلون ذلك مرة واحدة وكفى، أو هذا ما ينتظرونه، ويعيشونه كاستثناء، كحادث رهيب وجدوا أنفسهم متورطين فيه رغم مشيئتهم (كما لو أنه، بطريقة ما، مجرد معترضة يمكنهم بعدها أن يواصلوا قُدُمًا): «لا، أنا لم أشأ ذلك. لقد كانت لحظة غشاوة، لحظة هلع، الواقع أن ذلك الميت قد دفعني مجبرًا. لو أنه لم يشد الحبل ويمضي في الأمور بعيدًا جدًا، لو أنه كان أكثر تفهّمًا، لو أنه لم يحشرني ولم يخسفني إلى ذلك الحدّ، لو أنه اختفى من أمامي... إنه يسبب لي حزنًا شديدًا، لا يمكنك أن تتصور ذلك». أجل، يجب ألا يكون الضمير قادرًا على تحمل ما فعله، وأن يضيع قليلًا بالتالي. وهو محق، أجل، سيكون مؤلمًا النظر إلى الماضي المجهول لذلك اللاأحد، إلى حالة المسكين ديسفيرن عاثر الحظ في صباح يوم عيد ميلاده، يا للرجل المسكين، بينما كان يتناول الفطور مع لويسا وأنا أراقبه برضى عن بُعد، كما في أي صباح عادي آخر لا يحمل أي أذى. إنني أصدق الآن أن الأمر ليس مزاحًا». كررتُ، وانتبهت إلى أن وجهي يتأجج. ولكنني صَمَتُّ، لم أقل شيئًا، احتفظتُ بغيظي، هذا الغيظ الذي يخشاه هو في النساء، ولاحظتُ كذلك في الوقت نفسه أنني قد فقدتُ، في إحدى لحظات مداخلته (في أي لحظة منها)، إدراك أن ما يرويه لي دياث - باريلا لا يزال فرضية، أو تأويلًا لاستنتاجاتي استنادًا إلى ما كنت قد سمعته، وأن هذا الذي سمعته مجرد قصة متخيلة، بكل تأكيد، حسب قوله. قصته أو مراجعته بدأت هكذا، كمجرد توضيح لتخميناتي، صياغة لفظية لشكوكي، وقد تحولتُ إلى سماعها كما لو أنها اعتراف نظامي وكما لو أنها صحيحة. مازال هنالك متسع لاحتمال ألا تكون كذلك، حسب رأيه دائمًا (لن أعرف قطّ أكثر مما سيقوله لي، وبعد ذلك لن أعرف أي شيء مؤكد بصورة مطلقة؛ أجل، من المضحك أنه بعد قرون طويلة من الممارسة، ومن التقدم والاختراعات التي لا تُصدَّق، لم توجد بعد طريقة لمعرفة متى يكذب أحدهم؛ وهذا أمر يفيدنا ويضرنا جميعنا بالتساوي طبعًا، وربما هو حصن الحرية الوحيد المتبقي لنا). تساءلتُ لماذا تسامح ووافق، لماذا حاول أن تبدو حقيقية نبرة ما سيكون، بصورة متوقعة،

مرفوضًا في ما بعد. فبعد كلماته الأخيرة، صار من الصعب عليّ انتظار هذا الإنكار المحتمل، المعلن («لا أريد أن تظل لديك أي إشارة غير صحيحة»، هكذا بدأ)؛ ومع ذلك كان هذا هو ما يعنيني، لم يعد بإمكاني المغادرة الآن: سماع ما هو فظيع، الانتظار أكثر، التحلي بالصبر. تقاطعت هذه الأفكار كلها كومضة، لأنه لم يتوقف؛ اكتفى بوقفة قصيرة جدًا -. وهكذا كان صمته غير المتوقع أشبه بمباركة، أشبه بإثبات أنني قد أصبتُ في خططي المحفوفة بالمخاطر، وقد كانت كثيرة الخطورة، لاحظ ذلك: كان يمكن لهذا النذل أن يكون محصَّنًا من مكائدي، أو يمكن له أن يكون قد أقنعه بأن ميغيل هو المذنب في ضياع ابنتيه، ولكن لا شيء أكثر من هذا، وكان من الممكن ألا تترتب على ذلك أية نتيجة.

انفلت لساني من جديد، بعد أن كنت قد كبحته قبل لحظات بالضبط، ولم يفدني ذلك في شيء يستحق الذكر. حاولت أن يكون لعباراتي وقع التذكير أكثر مما هو وقع الاتهام، ما يشبه التأنيب، وإن كان كذلك دون شك (حاولت كيلا أبالغ في استفزازه).

- حسن، لقد أعطيتموه سكينًا، أليس كذلك؟ ولم تكن سكينًا عادية، وإنما خطرة ومؤذية، وممنوعة. وقد كانت لهذا التصرف نتائجه، أليس كذلك؟

نظر إلي دياث - باريلا متفاجئًا للحظة، رأيته مرتبكًا لأول مرة. ظل صامتًا، ربما كان يقوم بمراجعة ذهنية سريعة ليرى إن كان قد تحدث مع رويبيريث عن تلك السكين عندما كنت أتجسس عليهما. خلال الأسبوعين اللذين مضيا منذ ذلك الحين، لابد أن يكون قد أعاد تركيب كل تفاصيل ما قاله كلاهما يومذاك، يجب أن تكون هنالك مقاييس دقيقة لكل ما علمت به ومتى علمتُ به - وبكل تأكيد بالتعاون مع صديقه الذي أخبره بهذا الظرف غير المواتي؛ وفجأة لم أشعر بأي لطف في فكرة أن يكون صديقه ذاك على إطلاع على فضولي، نظرًا للطريقة التي تطلع بها إليّ -، إذ إنه يجهل أنني قد بدأت الاستماع إلى المحادثة متأخرة وأنه لم تكن تصلني في بعض اللحظات سوى أجزاء متقطعة. لقد افترض الأسوأ تحسّبًا، فاعتبر أنني قد سمعت كل شيء، ولهذا قرر استدعائي وتحييدي بإخباري بالحقيقة، أو بالمظاهر، أو بشطر منها. ومع ذلك لم يكن مسجلًا في ذهني أنه قد ورد ذكر السلاح، وأقل من ذلك واقع إذا ما كانوا هم من اشتروا السكين وزوّدوا بها مدبر مواقف السيارات. أنا نفسي لم أكن متأكدة وأظن أن ذلك لم يحدث، تنبهت إلى الأمر عندما لاحظت ارتباكه، أو عدم الثقة المفاجئ الذي سيطر عليه، من ذكرياته ومراجعاته المدقّقة. من المحتمل جدًا أن أكون أنا نفسي قد استنتجت ذلك، ثم اعتبرته حقيقة مؤكدة فيما بعد. داخلته شكوك، وكان عليه أن يتساءل بسرعة عما إذا كنت أعرف شيئًا آخر مما يعنيني، وكيف عرفته. أما أنا فمنحني ذلك وقتًا لأدرك أنني بينما كنت أستخدم صيغة الجمع عدة مرات، مضمنة رويبيريث ومبعوثه المجهول (انتهيت إلى القول «أعطيتموه»)، هو يتكلم دومًا بصيغة الشخص المفرد (لقد انتهى للتو إلى القول «كنت قد أصبت في مخططاتي المؤسفة»)، كما لو أنه يتولى وحده تحمل مسؤولية الجريمة، كما لو أنها أمر خاص به حصريًا، على الرغم من أن التحكم بالمنفّذ ومساعدة متواطئين اثنين على الأقل، أنجزوا له العمل دون أن يضطر هو نفسه إلى التدخل أو الاختلاط بهم. فقد بقي بعيدًا جدًا عن العمل القذر والدموي، عن مدبر مواقف السيارات وطعناته، وعن الهاتف المحمول والأسفلت، عن جسد صديقه المفضَّل الملقى وسط بركة دم. لم يكن له تواصل مع أحد؛

وبدا غريبًا أنه عند روايته ما حدث لم يستغل ذلك، بل على العكس. لم يوزع المسؤولية على من شاركوا. فهذا يخفف دومًا من المسؤولية الفردية الخاصة، وإن كان واضحًا من الذي حرك الخيوط ومن الذي حاك وأصدر الأمر. لقد عرف المتآمرون ذلك منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة، وكذلك الحشود العفوية التي بلا رأس، تهيّجها رؤوس غريبة لا تبرز ولا أحد يميزها: لا يوجد مثل توزيع الأدوار من أجل الخروج نظيفًا على أحسن وجه.

لم تستمر بلبلتة طويلًا، فقد استعاد استجماع أفكاره فورًا. وبعد أن راجع ذاكرته ولم يجد شيئًا واضحًا فيها، لا بد أنه توصل إلى أنه لا أهمية في العمق لما أعرفه وما أفترضه؛ فالأمر في نهاية المطاف يتوقف عليه الآن في الميدانين كليهما، مثلما يتوقف على الدوام على من يروي لنا شيئًا، فهذا الذي يروي هو من يقرر من أين يبدأ ومتى يتوقف، ماذا يكشف وإلى ماذا يُلمّح وعن أي شيء يصمت، متى يقول الحقيقة ومتى يكذب أو يدمج بين الأمرين دون أن يسمح بمعرفتهما، أو إذا ما كان يخدع في الحالة الأولى مثلما خطر لي أنه ربما كان يفعل؛ لا، ليس هذا صعب جدًا، يكفي عرضه بطريقة لا تُصدَّق، أو أن توجد فيه صعوبة كبيرة إلى حدّ الانتهاء إلى استبعادها. الحقائق البعيدة عن المعقول تُقدم هكذا والحياة مليئة بها، أكثر بكثير من أسوأ رواية، إذ لا تتجرأ أي من الروايات على أن تمنح في سياقها متسعًا لكافة التقلبات والمصادفات المحتملة، غير المتناهية في حياة واحدة، ولا نقول في مجمل الحيوات التي كانت وتلك التي مازالت سارية. يبدو خانقًا ألا تفرض الحياة حدودًا.

- أجل - أجاب -، لقد أتى ذلك بنتيجة، ولكن كان يمكن عدم حدوث شيء أيضًا. فقد كان لدى كانينّا حرية رفض السكين أو أخذها ثم رميها بعد ذلك أو بيعها. أو الاحتفاظ بها وعدم استخدامها. ولم يكن خارج الاحتمال كذلك أن يفقدها أو أن تُسرَق منه قبل الموعد، فالسكين بين المعوزين ملكية معتبرة جدًا؛ فهم جميعهم يشعرون بأنهم مهدَّدون وبلا حماية. وباختصار، أن يتوافر لأحدهم دافع وأداة لا يضمن بالضرورة أنه سيستخدمهما، بالمطلق. لقد كانت خططي تعيسة يرثى لها حتى بعد إنجازها. فالرجل كان على وشك الخطأ بالشخص فعلًا. قبل شهر تقريبًا. أجل، بالطبع، كان لا بد من تلقينه، من الإلحاح عليه، من التوضيح له، ما كان ينقصنا هو تدخل من هذا النوع. وما كان لهذا كله أن يحدث مع قاتل محترف، ولكنني أخبرتكِ من قبل بالمشاكل والعوائق التي قد يتسبب بها هؤلاء، إن لم تكن على المدى القريب، فإنها ستأتي على المدى البعيد. أُفضّل أن أجازف بوقوع الخطأ، وبألا يتحقق الأمر، على أن ينتهي الموضوع إلى الانكشاف. - توقف عن الكلام، كما لو أنه قد ندم على قول الجملة الأخيرة، أو ربما على أنه أفلتها في تلك اللحظة، من المحتمل كما يبدو أن دورها لم يأتِ بعد؛ فمن يروي شيئًا كان قد أعده في وقت سابق، شيئًا مشغولًا وجاهزًا، يكون قد قرر عادة، بصورة مسبقة، ما سيقوله أولًا وما سيقوله تاليًا، ويهتم بألا يخالف ذلك الترتيب أو يبدله. شرب، رفع كميه المرفوعين مسبقًا في حركة آلية يقوم بها بين حين وآخر، ثم أشعل سيجارته أخيرًا، إنه يدخن نوعًا من السجائر الألمانية الخفيفة جدًا، يصنعها بيت آل ريمتسما، اختُطف صاحب المصنع ذات يوم وكان عليه أن يدفع أكبر فدية في تاريخ بلاده، مبلغ خرافي، وكتب بعد ذلك كتابًا حول تجربته، تصفحتُه في دار النشر بنسخته الإنكليزية، ونظرنا في أمر نشره في إسبانيا، ولكن أوجيني رأى في النهاية أنه كتاب باعث على الاكتئاب ولم يشأ طباعته. أتصور أنه يواصل تدخين تلك السجائر اللهم إلا إذا كان قد ترك التدخين، ولا أظن ذلك، فهو ليس ممن يتقبلون الإملاءات الاجتماعية، مثله مثل صديقه ريكو الذي يبدو أنه يفعل ويقول ما يخطر له وفي أي مكان دون أن يولي اهتمامًا للنتائج (أتساءل أحيانًا عما إذا كان ريكو مطلعًا على ما فعله دياث - باريلا، إذا ما كان يشم ذلك على الأقل: هذا غير محتمل، فقد أعطاني الانطباع بعدم اهتمامه كثيرًا بما هو قريب ومعاصر، وعدم الدراية به). بدا أن دياث - باريلا متردد في المواصلة في

ذلك الطريق. لقد فعل لوقت قصير جدًا، ربما كيلا يؤكد بعد ذلك على ندمه باستدارة فظة جدًا -. ومهما بدا لك الأمر غريبًا في قضية قتل، فإن قتل ميغيل كان أقل أهمية بكثير من ألا يُلقى القبض عليه ولا يكون متورطًا ولا مشاركًا. أريد أن أقول إنه ليس هنالك ما يستحق التأكد من أنه سيموت عندئذ، في هذا اليوم أو أي يوم آخر قريب، إذا ما كنتُ سأتعرض لأدنى قدر من الخطر ببقائي تحت الشبهة ذات مرة، وحتى لو كان ذلك منذ الآن حتى ثلاثين عامًا. لا يمكنني السماح بذلك تحت أي مفهوم، حيال مثل هذا الاحتمال سيكون من الأفضل أن يظل حيًا، وتجاهل أي خطة والتخلي عن موته عندئذ. ولا بد من القول على الهامش، لستُ أنا من اخترت اليوم بكل تأكيد، وإنما مدبر مواقف السيارات. فبعد أن أُنجزتُ مهمتي، صار كل شيء بين يديه. كان يمكن للأمر أن يبدو قلة ذوق مبالغ فيها لو أنني أنا من اخترت يوم عيد ميلاده بالتحديد. لقد كانت مصادفة، من كان يدري متى سيقرر ذلك الرجل التحرك، أو إذا كان لن يُقدم على عمل ذلك أبدًا. لكن هذا كله سأوضحه لك فيما بعد. فلنواصل بفكرتك، بتخيلك أنك في موقع الحدث، لقد توافر لك الوقت للتأمل وإقرار تصور محدد خلال هذين الأسبوعين.

أراد قمعي فتركته يتكلم إلى أن يتعب وينتهي، ولكنه لم يكن قادرًا على التكلم من جديد، كان دماغي قد التقط أمرين أو ثلاثة أمور بصورة خاطفة، فكانت تستثيرني كثيرًا ولا أستطيع إسكاتها جميعها في الحال. «إنه يتكلم عن القتل عند هذا المستوى من الحكاية، وليس عن الاغتيال، كيف يمكن ذلك مادام الأمر لم يعد مستترًا»، فكرتُ. «من وجهة نظر مدبر مواقف السيارات سيكون هذا هو الأهم، وكذلك من وجهة نظر لويسا، ووجهة نظر الشرطة والشهود، وكذلك وجهة نظر قراء الصحف الذين وجدوا الخبر ذات صباح وشعروا بالهول لرؤيتهم ما يمكن أن يحدث لأي شخص في مناطق مدريد الأكثر أمنًا، ثم نسوا الأمر بعد ذلك لأنه لم تكن هنالك استمرارية ولأن المأساة فوق ذلك، بعد أن خمدت في مخيلاتهم، ساهمت في إحساسهم بالنجاة: «لم أكن أنا»، قالوا لأنفسهم، «وشيء كهذا لا يحدث مرتين». إنه اغتيال، ولكن ليس من وجهة نظرهم، وإنما من وجهة نظر خابيير، لا يمكن أن يفيده وجود شروخ كبيرة في خطته، وعنصر المجازفة، واحتمال عدم تحقق حساباته، إنه ذكي بحيث لا يمكن له أن ينخدع بذلك. ولماذا قال «عندئذ» وكررها؟ «التأكد من أنه سيموت عندئذ»، «موته عندئذ»، كما لو أن هنالك متسع لتأجيل موته أو تركه إلى ما بعد، هذا يعني إلى "hereafter"، مع اليقين بأن المابعد سيأتي. و«قد كان في سوء مزاج مبالغ فيه»، لقد قال هذا أيضًا، كما لو أنه لا يكفيه إصدار الأمر بقتل صديق. ظللتُ مع الجملة الأخيرة، مثلما يحدث دومًا، مع أنها لم تكن الأكثر لفتًا للانتباه؛ ولكنه ربما الأكثر إهانة.

- في سوء مزاج مبالغ فيه - كررت -. ولكن، ما الذي تقوله يا خبير؟ أتظن أنه يمكن لهذا التفصيل أن يغيّر شيئًا مما هو أساسي؟ إنك تحدثني عن عملية اغتيال. - وانتهزتُ الفرصة كي أحدد التسمية -. أَوَتظن أن تحديد يوم أو آخر يمكن أن يضيف أو يقلل من خطورة الأمر؟ أن يضيف مذاقًا طيبًا أو ينقص شيئًا من السوء؟ لستُ أفهمك. حسن، ولا أتطلع كذلك إلى فهم أي شيء، بل إنني لا أدري لماذا أستمع إليك. - وكنتُ أنا الآن من أشعلتُ سيجارة ثانية وشربت رشفة، كنت غاضبة؛ تلعثمت، اختنقت تقريبًا، فقد شربتُ دون أن أكون قد نفثت مجّة الدخان الأولى.

- بل أنت تفهمين الأمر بالطبع يا ماريا - ردّ عليّ بسرعة -، ولهذا تستمعين إليّ، كي تنتهي إلى تصديق ما أقول، كي تتأكدي منه. لقد رويته لك وأعدتُ روايته بلا توقف، في كل أيام وليالي هذين الأسبوعين. أنت تدركين أن تطلعاتي فوق أي اعتبار آخر وفوق كل كابح وكل تحرُّج. وفوق كل وفاء، فتصوري. لقد كان واضحًا جدًا لديّ، منذ بعض الوقت، أنني أريد قضاء ما تبقى من عمري إلى جانب لويسا. وليس لي سوى حياة واحدة وهي هذه، ولا يمكن الوثوق بالحظ، بأن الأشياء تحدث من تلقاء ذاتها وأنها تتجاوز العقبات والموانع، كما في السحر. على أحدنا أن يقوم بالعمل. العالم يغص بالكسالى وبالمتشائمين الذين لا يتوصلون إلى أي شيء لأنهم لا ينكبّون باجتهاد على أي شيء، وبعد ذلك يسمحون لأنفسهم بالتذمر والشكوى ويشعرون بالإحباط ويُغذّون ضغينتهم على ما حولهم: هكذا هم معظم الأفراد، إنهم كسالى بلهاء، مهزومون سلفًا، لوجودهم في الحياة وبسبب حالهم هذه بالذات. لقد ظللتُ أعزب طوال هذه السنوات؛ أجل، مع قصص وعلاقات متكافئة جدًا، أدمر نفسي في الانتظار. أولًا في انتظار ظهور من يحمل إليّ ضُعفًا، ومن يملك ذلك الضعف. بعد ذلك... إنها الطريقة الوحيدة، في نظري، للتعرف على هذا المصطلح الذي يستخدمه الجميع بطلاقة، لكنه يجب ألا يكون بهذه السهولة، لأن لغات كثيرة لا تعرفه، فالإيطالية وحدها إضافة إلى لغتنا هما اللتان تعرفانه، على حدّ علمي، وأنا لا أعرف طبعًا سوى لغات قليلة... ربما الألمانية، الحقيقة أنني أجهل ذلك: الوقوع في الغرام أو العشق. هذا الاسم الموصوف، هذا المفهوم، أو الفكرة أو هذه الصفة، الحالة، أجل، إنه معروف في حالات أكثر، موجود على الأقل في الفرنسية، أما الإنكليزية فلا، ولكن يُبذل جهد ويُقترب منه... أشخاص كثيرون يبدون لنا لطفاء جدًا، يسلوننا، يفتنوننا، يوحون لنا بالمودة، بل إنهم يهزون مشاعرنا أو يستثيرون إعجابنا، يسحروننا، حتى إنهم يصيبوننا بالجنون آنيًا، ونستمتع بجسدهم أو برفقتهم أو بالأمرين كليهما، مثلما يحدث لي معكِ وما حدث لي في مرات أخرى، وهي قليلة. بل إن بعضهم يصبحون ضرورة لا يمكن لنا الاستغناء عنها، قوة العادة الهائلة ينتهي بها الأمر إلى أن تحل محل كل شيء تقريبًا، الحلول محله. يمكنها أن تستبدل الحب، على سبيل المثال؛ ولكن ليس العشق، من المناسب التمييز بين الاثنين، فعلى الرغم من الخلط بينهما إلا أنهما ليسا الشيء نفسه... الغريب جدًا هو الإحساس بالضعف، بضعف حقيقي تجاه أحدهم، يسببه لنا، ويجعلنا ضعفاء. هذا هو الأمر الحاسم، إنه يحول دون أن نكون موضوعيين ويجردنا من سلاحنا بصورة أبدية دائمة ويجعلنا نستسلم في كافة المنازعات، مثلما انتهى الأمر بالكولونيل شابير إلى الاستسلام في مواجهة زوجته حين عاد لرؤيتها على انفراد، لقد حدثتُكِ عن هذه القصة، وقد قرأتِها. يتوصل إلى ذلك الأبناء، هذا ما يقال، وليس لدي ما يمنعني من تصديقه، ولكن يجب أن يكون من طبيعة مختلفة، إنهم كائنات عزلاء بلا حماية منذ ظهورهم، منذ اللحظة الأولى، الضعف الذي يأتوننا به لا بد أن يأتينا مفروضًا بانعدام دفاعهم المطلق، وهو يستمر كما يبدو... الناس بصورة عامة لا يلحظون ذلك لدى شخص بالغ، ولا يبحثون عنه في الواقع. لا ينتظرون، إنهم نافدو الصبر، عاديون، ربما لا يريدون ذلك لأنهم لا يدركونه أيضًا، وهكذا يلتقون أو يتزوجون من أول من يتقرَّب منهم، وهذا ليس مستغربًا جدًا، فقد كانت هذه هي القاعدة خلال الحياة كلها، هنالك من يفكرون أن العشق هو اختراع حديث خرج من الروايات. ومهما يكن الأمر، هو موجود لدينا، الاختراع، الكلمة والقدرة على الإحساس. - كان دياث - باريلا قد ترك جملة ما غير مكتملة أو شبه معلقة في الهواء، كان قد رفع الكلفة في الحديث، وكان يحاول القيام باستطرادات على استطراداته، ثم كبح نفسه؛ لا يريد الإسهاب في الكلام، على الرغم من ميوله،

وإنما يريد أن يروي لي شيئًا. راح يتقدم نحو الأمام، إنه يجلس الآن على حافة الكرسي، مرفقاه فوق ركبتيه ويداه مضمومتان معًا؛ لقد صارت نبرة صوته حادة ضمن البرود وسياق العرض، شبه التعليمي، الذي يستخدمه عندما يُسهب في الكلام. ومثلما يحدث في كل مرة يتكلم فيها بصورة متواصلة، لم أعد قادرة على رفع بصري عن وجهه، عن شفتيه اللتين تتحركان بسرعة وهما تفلتان الكلمات. ليس الأمر أنني لم أكن معجبة بما يقوله، لقد كنت مهتمة بكل أموره، وكان اهتمامي أكبر الآن بما يعترف لي به، بما فعله ولماذا وكيف فعله، أو بما يظن أنني أصدقه، وأوافق عليه. ولكن حتى لو لم أكن مهتمة، فإنني كنت سأواصل الاستماع إليه بصورة لا نهائية، أستمع له بينما أنا أنظر إليه. أضاء نورًا آخر، من المصباح الذي إلى جانبه (إنه يجلس للقراءة على هذا الكرسي أحيانًا)، وكان الظلام قد بدأ ينتشر بكثافة ولم يعد المصباح الذي كان مضاءًا يكفي. رأيته بصورة أفضل، رأيت رموشه الطويلة وملامحه الحالمة بعض الشيء، آنذاك أيضًا. لم يكن في وجهه ما يشي بارتباك ولا عنف بتأثير ما كان يرويه. فكان عليّ أن أتذكر كم بدت طمأنينته الطاغيةُ بغيضةً في تلك الظروف، لأنه في الحقيقة لم يكن يبدو لي لائقًا -. يعرف أحدنا أنه في وضع غير مشروط مع هذا الشخص - واصل الكلام -، الذي سيساعده ويدعمه في أي شيء، حتى لو كان يتعلق بعمل رهيب (مثل تصفية إنسان، يفكر أحدنا أنهم قد قدموا له أسبابًا أو أنه لا وجود لسبيل آخر)، وسيفعل من أجله عندما تحين الفرصة. إنهم أشخاص ليسوا ممن يستلطفهم أحدنا، بأكثر معاني الكلمة نُبلًا؛ إذ إنهم يستحوذون على إعجابه، وهذا مختلف وأكثر قوة وديمومة بكثير. فعدم المشروطية هذا، مثلما نعرف جميعنا، لا تكاد تكون له علاقة بالعقل، ولا حتى بالمسوغات. والواقع أنه من المثير للفضول أن التأثير هائل ولا وجود لأسباب، فليس من المعهود التحدث إليهم أو أنهم ليسوا متميزين. يبدو لي شخصيًا أن القرار يتدخل بصورة غير ضئيلة، إنه قرار متعسف... ولكن هذه قصة أخرى في نهاية المطاف. - ومن جديد رغب في أن يحاضر ببلاغة، كان يجاهد كيلا يقع في ذلك. يحاول قدر الإمكان التوجه نحو ما هو مهم، وخامرني شعور بأنه إذا كان يوسع الأمر على هذا النحو، فليس ذلك ضد مشيئته ولعدم قدرته على تجنبه، وإنما كان يبحث عن شيء ما بذلك، ربما إحاطتي بما يجعلي أعتاد أكثر على الوقائع. كنت أتوقف بين حين وآخر وأفكر: «إننا نتحدث في ما نتحدث فيه، نتحدث عن عملية قتل، عن شيء غير مألوف؛ وأنا أعيره انتباهًا بدل أن أعلقه على شجرة». وعلى الفور ورد إلى ذهني رد آتوس على دارتنيان عندما هتف هذا بالشيء نفسه: «أجل، إنها عملية قتل، لا أكثر». وفي كل مرة أفكر أقل في الأمر -. لا يمكن لأحد تقريبًا أن يجيب عن هذا السؤال الذي يسأله الآخرون عن شخص ما، عن أي شخص: لماذا أُغرم بها؟ ما الذي رآه فيها يا ترى؟». لاسيما إذا كانت شخصًا يحكم عليه بأنه لا يُطاق، وليست هذه هي حال لويسا، حسب اعتقادي؛ ولكن لا بأس، لستُ من هي مؤهلة لأن تقول هذا، بسبب ما سبق أن عرضته، بالضبط. ولكن حتى أنتِ يا ماريا، دون أن نذهب بعيدًا، لن تعرفي كيف تجيبين عن سبب غضبك عليّ خلال هذه الفترة، على الرغم من جميع عيوبي، وأنت تعلمين أن اهتمامي الحقيقي موجَّه منذ البدء نحو وجهة أخرى، وأن لدي منذ زمن هدفًا لا يمكنني التخلي عنه، وأنه من غير المحتمل أن نصل أنت وأنا إلى ما هو أبعد مما وصلنا إليه. ما أعنيه، أما كنتِ تعلمين، أنه باستثناء التلعثم بأربعة أمور ذاتية غير دقيقة وقليلة الرشاقة، ويمكن أن تكون قابلة للنقاش بقدر ما هي غير قابلة للنقاش: فهي غير قابلة للنقاش بالنسبة لكِ أنت (من يتجرأ على مخالفتك؟)، وقابلة للنقاش لدى الأخرين. - وفكرتُ: «هذا صحيح، لم أكن أعرف. كنت أشبه ببلهاء. ماذا سأقول، أأقول إنه كان يروق لي النظر إليه

وتقبيله، والاستماع إليه؟ أجل، إنها أسباب غبية ولا تُقنع أحدًا، أو هكذا يبدو وقعها دائمًا في مسمع من لا يشعر بالإحساس نفسه أو من لم يجرب شيئًا مشابهًا في حياته. وهي ليست أسبابًا، كما قال خابيير، من المؤكد أن لها علاقة أكبر بظاهرة إيمانية من أي شيء آخر؛ مع أنها ربما تكون أسبابًا بالفعل. وتأثيرها هائل، هذا صحيح. إنها لا تُهزم». لا بد أن وجهي قد تورد قليلًا، أو أنني تململت بخجل في مجلسي على الصوفا. تزعجني إيماءته السافرة إليّ، وأزعجني أنه قد أشار إلى مشاعري نحوه في حين أنني كنتُ متكتمة على الدوام وقليلة الكلام، لم أزعجه مطلقًا بمطالب أو بتصريحات غرامية، ولا حتى بعبارات غير مباشرة وخفية يمكن لها أن تدعوه لأن يعبّر لي عن شيء من العاطفة، لقد امتنعتُ عن إشعاره بأدنى قدر من المسؤولية أو الواجب أو الحاجة إلى الرد، ولا حتى مجرد ظل من ذلك؛ كما أنني لم أكن أعلل نفسي بآمال تغيير الحال، حتى وأنا بمفردي في حجرة نومي أتطلع إلى الأشجار، بعيدًا عنه، وبصورة سرية، كمن تريد أن تتخيل عندما يبدأ النعاس بالمجيء، للجميع الحق بشيء من هذا، بتخيُّل المحال عندما يبدأ الأرق أخيرًا بالتراجع، على الأقل، ويُختتم اليوم. يضايقني أنني قد دخلت في ذلك كله، كان يمكن لي أن أوفره على نفسي؛ لم أفعل ذلك ببراءة، فقد كنت أخبئ نية مسبقة ما، ولم يغب عنه ذلك. راودتني الرغبة مرة أخرى في النهوض والمغادرة، الخروج نهائيًا من ذلك البيت المحبَّب والمرهوب وعدم العودة إليه؛ لكنني كنت أعرف الآن أنني لن أغادر قبل أن ينتهي، قبل أن يروي لي حقيقته أو كذبه كله، أو حقيقته وكذبه، كليهما معًا، ليس بعد. انتبه دياث - باريلا إلى تورّدي أو اضطرابي، أو أي شيء آخر، لأنه سارع إلى أن يضيف قائلًا، كمن يحاول التهدئة -: حذار، لستُ ألمّح إلى أنك مغرمة بي ولا إلى أن تكوني على علاقة غير مشروطة ولا أنني قد نلت إعجابك، لا شيء من هذا. لستُ مغرورًا ومدَّعيًا إلى هذا الحدّ. أعرف أن الأمر لم يصل إلى هذا المستوى، وأنه بعيد عنه جدًا، ولا إمكانية لمقارنة ما تشعرين به نحوي منذ وقت قصير، بما أشعر به أنا نحو لويسا منذ سنوات. أعرف أنني مجرد تسلية لك، وأنني قد نلتُ إعجابك. مثلما نلتِ أنت إعجابي، لا يوجد فرق تقريبًا، هل أنا مخطئ؟ وإذا كنت أذكر هذا كله فإنما كدليل على أنه يمكن حتى لأشد النزوات العابرة والخفيفة أن تخلو من الأسباب. لا نقول ما هو أكثر من ذلك بكثير، بل إنه أكثر بصورة لامتناهية.

ظللتُ صامتة، لبرهة أطول مما أردت. لم أكن متأكدة بماذا أردّ عليه، وقد توقف في هذه المرة كما لو أنه يحثني على قول شيء ما. فبعبارات قليلة، استخف دياث - ياريلا بمشاعري وأطلعني على مشاعره غارسًا فيّ إبرة صغيرة لا لزوم لها، إذ إنني كنت أدرك ذلك دون أن أكون قد سمعتُ منه قطّ شيئًا بهذا الوضوح في الأمر، أو كلمات جارحة كهذه التي انتهى من النطق بها. فمهما كانت بلهاء، مثلما هي في الواقع، كل المشاعر عندما توصف أو تُشرح أو عندما تُعرض ويُعبَّر عنها بكل بساطة، فإنه قد وضع مشاعري في مرتبة نوعية أخفض بكثير جدًا من نوعية مشاعره نحو شخص آخر، كيف يمكن مقارنتهما. ما الذي يعرفه هو عني، وأنا شديدة الصمت والحذر مثلما كنتُ على الدوام؟ مهزومة مسبقًا، ومعدومة التطلعات، ضئيلة الاستعداد للصراع والنضال، أو غير مستعدة لكل ذلك بالمطلق؟ فأنا لم أكن قادرة بكل تأكيد على التخطيط لعملية قتل وتكليف من يقوم بها، ولكن من كان يمكن له أن يعلم فيما بعد، بأن علاقتنا الحالية قد تكيست لعدة سنوات، أو إذا ما كانت هذه العلاقة قد وجدت إلى ما قبل أسبوعين، وأن المحادثة مع روبييريث قلبت كل شيء، أو بكلمة أدق، أن سماعي لها قد قلب كل شيء. كان يمكن لدياث - باريلا أن يواصل انتظار الشفاء البطيء والتنبؤ بغرام لويسا إلى أجل غير محدود وما كان ليستبدلني ولا أن يستغني عني في أثناء ذلك، ولما كنت أنا نفسي قد ابتعدت عنه وإنما كنت سأواصل اللقاء به ضمن الحدود نفسها. وعندئذ، من يكون بمنجى من البدء بمحبة أكثر، وتلهّف أكبر والرضى بالشعور بأنه قد اكتسب الحق بذلك من مرور الشهور والسنوات المتشابهة، بتراكم الزمن وحسب، كما لو أن شيئًا غير ذي مغزى ومحايد جدًا مثل توالي الأيام يفترض ميزة لمن يجتازها، أو ربما لمن يتحملها دون أن يغادر أو يستسلم؟ من لم يكن ينتظر شيئًا ينتهي به المطاف إلى المطالبة، ومن يقترب بورع أو بتواضع يتحول إلى طاغية أو محطم أيقونات، ومن كان يتسول ابتسامات أو اهتمامًا أو قبلات من الشخص المحبوب يتحول عن التوسل ويصبح شخصًا متعجرفًا، ويبخل بها الآن على ذلك الشخص نفسه الذي أذلّه رذاذ الزمن نفسه. مرور الزمن يستثير السخط ويُكثف أي عاصفة، حتى لو لم تكن هنالك في البدء أي غيمة ضئيلة في الأفق. فأحدنا يجهل ما يفعله الطقس بنا في طبقاته الرقيقة التي تتراكب وتتكاثف دون تمييز. تتقدم بخفة، يومًا فيومًا وساعة فساعة وخطوة فخطوة مُسَمّمةً، لا تُلحظ في عملية تحولها الخفية، وقورة ومنظورة لا تُقدم على دفعنا ولا تسبب لنا أية مفاجأة. في كل صباح تظهر بهيئتها المطمئنة والثابتة التي لا تتغير، وتؤكد لنا عكس ما يحدث: أن كل شيء على ما يرام ولا شيء يتغير، وأن كل شيء كما في الأمس - توازن القوى -، لا ربح ولا خسارة، وأن وجهنا هو نفسه وكذلك شعرنا ومحيطنا، وأن من يكرهنا مازال يكرهنا ومن يحبنا يواصل حبنا. ويكون كل شيء معكوسًا في الواقع، وكل ما هنالك أنها لا تسمح لنا بالتنبه إليه بدقائق خيانتها وثواني احتيالها، إلى أن يأتي يوم غريب، لا يخطر على بال، لا شيء فيه مثلما كان دائمًا: فيه ابنتان مستفيدتان من مغادرة أبيهما إلى الموت في مستودع غلال، ليس لديهما قرش واحد، فتحرقان الوصايا غير المحببة للأحياء؛ حيث الأمهات يسلبن أبناءهن والأزواج يسرقون ممتلكات زوجاتهم، أو تقتل النساء أزواجهن مستغلات الحب الذي يوحين به إليهم ليحولونهن إلى مجانين أو بُلهاء، من أجل أن يعشن بسلام مع عشيق؛ وحيث نساء أخريات يعطون ابن فراشهن الأول قطرات تجلب له الموت، بهدف توفير الثراء لابن آخر، ابن الغرام الذي يشعرن به الآن، وإن كن لا يعلمن

كم سيدوم لهن؛ وحيث أرملة ورثت أملاكًا وثروة عن زوجها الجندي الذي سقط في معركة أيلو وسط البرد الأشد برودة، تتنكر له وتتهمه بالخداع عندما يتمكن بعد سنوات ومشقات من العودة من بين الموتى؛ وفيه تتوسل لويسا إلى دياث - باريلا، بعد أن تأخر كثيرًا في العودة، ألا يتخلى عنها ويبقى إلى جانبها، وتتنصل من حبها القديم لديفيرني الذي سيرخص ولا يعود شيئًا يذكر ولا يمكن له أن يُقارن مع من يبوح لها بحبه الآن، هذا الزوج الثاني غير المتقلب الذي يهدد بتركها؛ الذي سيكونه دياث - باريلا، هذا الذي يتضرع إليَّ الآن ألا أبتعد، أن أظل قريبة منه وأن أشاركه وسادته إلى الأبد، ويسخر من الحب اللجوج والساذج الذي أحسَ به نحو لويسا لزمن طويل وأوصله إلى أن يقتل صديقه، وأن يقول لنفسه، ويقول لي: «كم كنتُ أعمى، كيف لم أعرف أن أراكِ، كم مازال أمامي من الوقت»، يوم غريب، لا يخطر على بال، سأطرح فيه أنا مسألة قتل لويسا، لأنها تقف بيننا نحن دون أن تدري حتى بوجود ما «بيننا نحن» والتي ليس لدي أي شيء ضدها، وربما أُنجز العملية، فكل شيء ممكن في هذه الأيام. أجل، كل شيء مسالة وقت يضيع فيه الأمل، ولكن ما بيننا قد انقطع، لقد انتهى بالنسبة لنا ذلك الشيء الذي يترسخ ويمتد وفي الوقت نفسه يتعفن ويتقوَّض ويعيد التعامل بالمثل، ولا يُلحظ ذلك في أي قضية. لن أصل إلى ذلك اليوم، فلا وجود بالنسبة لي لما «سيأتي لاحقًا» أو «منذ الآن»، مثلما كان الأمر مع الليدي ماكبث، إنني بمنجى من هذا التأجيل الإحساني المتفضل أو المؤذي، هذه هي نكبتي وحسن حظي.

- من قال لك إنني لستُ مغرمة بك؟ ما الذي تعرفه أنت، إذا لم أكن قد كلمتك في الأمر قطّ.. وإذا كنت لم تسألني قطّ.

- ما هذا، ما هذا، لا تبالغي - ردّ عليها دون أن يُفاجَأ. كان يمكن لكلماته الأخيرة أن تكون ساخرة، كان في نهاية شارع ما أشعر به، أو ما كنت أشعر به إلى ما قبل أسبوعين. ربما أشعر به الآن أيضًا، ولكن مع لطخة ومزيج مما لا يمكن أن يتلوث ولا أن يختلط، ليس في الغراميات على الأقل. كان في نهاية الشارع، من هو محبوب يلحظ ذلك، إذا كان سليم العقل وليس في حالة جزع، لأن من يجزع لا يميز، ويفسر الإشارات تفسيرًا خاطئًا. أما هو فكان متحررًا من ذلك، لا يريدني أن أقع في حبه، وقليل ما فعله لتشجيعي، ومن العدل الاعتراف بهذا -. لو كان الأمر كذلك - أضاف -، لما كنتِ مذعورة جدًا بسبب ما اكتَشَفتِهِ، ولما كنت خرجتِ بنتائجكِ بتلك السرعة. ولكنتِ في ترقب قلق، بانتظار تفسير مقبول. تفكرين بأنه ربما لم يكن ثمة مخرج آخر لسبب تجهلينه. ولكنتِ مستعدة، ولكنتِ راغبة في خداع نفسك.

تجاهلتُ هذه التعليقات المخادِعة التي ترمي لاقتيادي إلى مكان يرتئيه هو. فاكتفيت بالرد على ما قاله أولًا:

- ربما أنني لم أبالغ. ربما لم أبالغ مطلقًا، وأنتَ تعرف ذلك. كل ما في الأمر أن هذه المسؤولية لا تروق لك، مع أنني أعرف أن هذه ليست الكلمة المناسبة: فلا يمكن لأحد أن يتحمل مسؤولية أن آخر قد أُغرم به. لا تهتم، فأنا لا أحملك مسؤولية مشاعري البلهاء التي تعنيني أنا وحدي. ولكن لا مفر لك من أن تراها كمسؤولية صغيرة. لو أن لويسا تعرف مدى زخم مشاعرك (ربما أنها في استغراقها المهموم لم تنتبه إلا إلى المظهر السطحي، إلى لُطفك ومودتك تجاه أرملة صديقك المفضَّل)؛ ولن نقول شيئًا عما لو أنها علمت بأمر من كانوا السبب، سوف تشعر بأنهم عبء لا

يُطاق. بل يمكن أن يصل بها الأمر إلى قتل نفسها، إذا لم تكن قادرة على تحمل الأمر. ولهذا، فضلًا عن أسباب أخرى، لن أخبرها بأي شيء. عليك ألا تقلق بهذا الشأن، فلستُ شريرة قاسية. - لم أكن قد اتخذت قرارًا نهائيًا بهذه الشان، فنيَّتي كانت تتذبذب وفق استماعي له ومقدار ارتفاع استثارته لحفيظتي أو انخفاضها («سأفكر بالأمر فيما بعد، بهدوء أكبر، وعلى انفراد، وببرود أعصاب»، هذا ما فكرتُ به)، ولكن من المناسب لي، على أي حال، أن أطمئنه كي أتمكن من الخروج من هناك بلا شعور بالتهديد، آنيًا أو مستقبلًا، على الرغم من أن هذه الحالة الأخيرة لن تختفي نهائيًا، كما أتوقع، طوال حياتي. وتجرأتُ على أن أضيف بقليل من المزاح، فالمزاح يناسبني أيضًا -: وهذه ستكون بالطبع أفضل طريقة لإزاحتها من طريقي، لأفعل بها ما فعلته أنت بديسفيرني، والفرق الوحيد أن تلويثي ليديّ سيكون أقل بكثير.

وبعيدًا عن تقدير السخرية - مع أنها سخرية كئيبة -، جعلته هذه الملاحظة يبدو جديًا وكمن هو في حالة دفاع. الآن رفع كُمّيه أكثر بالفعل، بحركات متحمسة كمن يتأهب للصراع أو لأن يقدم لي عرضًا بدنيًا، رفع كميه إلى ما فوق المرفقين مثل عاشق تروبيكالي من سنوات الخمسينيات، مثل ريكاردو مونتالبان أو جيلبيرت رولاند، واحد من أولئك الرجال اللطفاء الذين نسيهم الجميع تقريبًا. لم يكن يتأهب للصراع بكل تأكيد، ولا لضربي، فهذا ليس من طبعه. أدركت أن هنالك ما ضايقه وأنه يريد تفنيد ما قلته.

- أنا لم ألوّث يدي، لا تنسي ذلك. لقد توخيتُ الحذر كله. أنت لا تعلمين ما الذي يعنيه التلوث حقًا. لا تعلمين أن الإنابة تُبعد أحدنا عن الوقائع، ليس لديك فكرة كم هو مفيد وضع أناس في الوسط. لماذا تظنين أن كل من هو قادر على ذلك يفعله، حيال أي وضع غير مريح أو غير لطيف قليلًا؟ لماذا تظنين أن المحامين يتدخلون في النزاعات، وفي قضايا الطلاق؟ ليس بسبب معارفهم أو نزواتهم فقط. لماذا تظنين أن هنالك ممثلين شخصيين للممثلين والممثلات، وأن للكتّاب وكلاء أدبيين، ولمصارعي الثيران مفوَّضين، وللملاكمين مديري أعمال، إذا كان لا يزال هنالك ملاكمة؟ فقد قضى على ذلك كله متزمتو هذه الأيام. لماذا تظنين أن رجال الأعمال يستخدمون محامين أوصياء، أو أي مجرم يملك أموالًا يرسل قتلة أو يتعاقد مع قتلة مأجورين؟ ليس فقط لأنهم لا يريدون تلويث أيديهم بصورة حرفية فحسب، وليس لأنهم جبناء، كيلا يكشفوا وجوههم ولا يغامروا بالخروج متأذين. معظم الأشخاص الذين يلجؤون عادة إلى تلك الجهات، (مسألة أخرى هم أولئك الذين يفعلون ذلك بصورة استثنائية، مثلي أنا بالذات) بدأوا بممارسة مهماتهم وربما كانوا معلمين فيها: إنهم معتادون على الضرب والشجار وحتى على إطلاق رصاصة على أحدهم، سيكون من غير الممكن أن يخرجوا مهزومين من أحد هذه اللقاءات. لماذا تظنين أن السياسيين يرسلون قواتًا عسكرية إلى الحروب التي يعلنونها، إذا كانوا لا يزالون يزعجون أنفسهم بإعلانها؟ فهم، على خلاف الآخرين، لا يمكنهم القيام بعمل الجنود، ولكن هناك ما هو أكثر من هذا. ففي جميع الحالات هنالك إيحاء ذاتي هائل، توفره الوساطة والبعد عما يحدث، وامتياز عدم حضور ما يحدث. يبدو ذلك غير معقول، ولكن الأمور تسير على هذا النحو، لقد تأكدتُ من ذلك شخصيًا. ويصل الأمر بأحدهم إلى إقناع نفسه بأن لا علاقة له بما يحدث على وجه الأرض، أو الصراع بالالتحام جسدًا بجسد، حتى لو كان هو الأصل أو المتسبب فيه وأنه دفع المال من أجل حدوثه. وينتهي الأمر بالمُطَلَق إلى إقناع نفسه بأن تشدده البائس وسخطه ليسا منه، وإنما هو من محاميه. فالممثلون

والكتّاب المشهورون، ومصارعو الثيران والملاكمون يعتذرون عن مطالب ممثليهم المادية أو العراقيل التي يضعونها، كما لو أن هؤلاء لا ينصاعون لأوامرهم ولا يعملون بما يملونه عليهم. السياسي يرى في التلفزيون أو في الصحافة آثار القصف الذي أمر به هو نفسه، أو أنه يعلم بأمر الفظائع التي يرتكبها جيشه في الميدان؛ يستنكر بهز رأسه بعدم رضى وبقرف، ويتساءل كيف يمكن لجنرالاته أن يكونوا بهائم وسفلة إلى هذا الحدّ، كيف يمكن لهم ألا يتحكموا برجالهم منذ بدء القتال ويطلبون منهم القليل من النظر، ولكنه لا يرى نفسه مذنبًا أبدًا في ما يحدث على بعد آلاف الكيلومترات، لأنه غير مشارك وليس شاهدًا: ففي الحال يتمكن من نسيان أن كل شيء يتوقف عليه، وأنه هو من أطلق صرخة «إلى الأمام». ومثله زعيم العصابة الذي أفلت قتلته: يقرأ أو يجري إخباره بأن هؤلاء قد تجاوزوا الحدود، وبأنهم لم يكتفوا بقتل بضعة أشخاص، وفق تعليماته، بل إنهم قطعوا رؤسهم وخصياتهم ودسوها في أفواههم؛ يقشعر بدنه هنيهة وهو يتخيل ذلك ويفكر بأن عناصر شرطته هؤلاء ساديون حقًا، ولا يتذكر أنه ترك لهم حرية إطلاق مخيلتهم وأيديهم، وقال لهم: «أن يرعب الأمرُ الجميع. أن يكون أمثولة للجميع. بمثل هذا يشيع الرعب والهلع».

توقف ديات - باريلا، كما لو أن هذا التعداد قد أنهكه آنيًا. سكب لنفسه كأسًا أخرى وتناول منها رشفة كبيرة، رشفة ظامئ. أشعل لفافة أخرى. ظل ينظر إلى الأرض، مستغرقًا. وخلال بضع ثوان رأيتُ صورة رجل يائس، مسحوق، وربما ممتلئ بتأنيب الضمير، وربما بالندم. ولكن لم يحدث شيء من هذا حتى الآن، لا في روايته ولا في استطراداته. بل كان أقرب إلى ما هو عكس ذلك. وفكرتُ: «لماذا يربط نفسه بأولئك الأشخاص؟ لماذا يأتي بهم إلى ذاكرتي بدل أن يبعدهم عني؟ ما الذي يكسبه بجعلي أرى أفعاله بهذه الإضاءة المقززة؟ يمكن العثور على الدوام على إضاءة تُجمّل أشد الجرائم قبحًا، تبرّرها بأدنى الحدود، العثور على قضية غير مشؤومة بالكامل تتيح على الأقل فهمها بلا تقزز. «هكذا تجري الأمور، لقد تأكدتُ من ذلك شخصيًا»، قال وهو يضم نفسه إلى القائمة. يمكن فهم ذلك في حالة المُطلّقين ومصارعي الثيران، ولكن ليس في حالة السياسين الكلبيين الوقحين وممتهني الإجرام. يبدو كما لو أنه لا يبحث عن مهدئات، كما لو أنه يريد، أحيانًا، أن يرعبني أكثر مما فعل حتى الآن. ربما كي يخلق ميلًا أو استعدادًا لتقبل أي عذر، فما سيأتي بعد ذلك، لا بد له أن يصل عاجلًا أو آجلًا، من غير الممكن أن يُعَرّفني فورًا ودون تمهيد على أنانيته ونذالته، على خيانته وإنعدام الوازع لديه، بل إنه لا يلح كثيرًا على عشقه للويسا، عن حاجته العاطفية المتأججة إليها، لم يتنازل لقول عبارات مضحكة لكنها تهز المشاعر أحيانًا وتليّن العواطف، مثل «لا يمكنني العيش بدونها، أتفهمينني؟ لم أعد قادرًا على تحمل المزيد، إنها ضرورية كالهواء بالنسبة لي، كنت أختنق بلا أية آمال، أما الآن فلديّ أمل وحيد. لم أكن أرغب في التسبب بأي أذى لميغيل، بل على العكس، كان صديقي المفضل؛ ولكنه كان عقبة وسط حياتي الوحيدة، الوحيدة التي أريدها، إنه سوء الحظ، وما يحول دون أن نعيش حياتنا يجب أن ننتزعه ونزيحه جانبًا». تقبل تجاوزات المغرمين، ليس كلها بالطبع، ولكن في بعض المناسبات يكفي القول إن أحدهم مغرم جدًا أو كان مغرمًا من أجل أن نوفر على أنفسنا البحث عن مسوغات أخرى. يُقال: «لقد كان يحبها كثيرًا»، ويقال: «لم يكن يعرف ما الذي يفعله»، فيهز الناس رووسهم موافقين ويتفهمون، كما لو من يجري الحديث عنه معروف للجميع. «كانت تعيش له ومن أجله، لم يكن هناك أحد سواه على الأرض، كان مستعدًا للتضحية بأي شيء، فكل ما سواها لا أهمية له»، وبهذا يتم تَفَهم كثير من

الأفعال الخسيسة والدنيئة، بل يتم التسامح مع بعضها. لماذا لا يلح خابيير على شرطه المَرَضي الذي يظن أنه يمكن للعالم كله أن يعانيه؟ لماذا لا يحتمي به أكثر؟ يعتبره افتراضيًا لكنه لا يشدد على ذلك، لا يضعه نصب عينيه، وخلافًا لما يناسبه، يرتبط بشخوص مزدرين وباردين. أجل، ربما يكون هذا: كلما خفت أكثر وخضعت للهلع، كلما شعرت بانجراف دواري، وأصير أكثر ميلًا إلى التشبث بأي مخفِّف. لن يعدم مبررًا، إذا كان هذا هو هدفه. إنني أتمنى أن يظهر تفسير ما أو تخفيف يحمل عني قليلًا من الثقل. لم أعد قادرة على هذه الوقائع، مثلما هي ومثلما أتخيلها منذ اليوم اللعين الذي استمعتُ من وراء ذلك الباب. كنت في الجانب الآخر في ذلك اليوم، حيث لم أعد إلى الذهاب قطّ، وهذا مؤكد الآن. حتى لو اقترب مني خابيير واحتضنني من ظهري، وداعبني بيديه وشفتيه. حتى لو همس في مسمعي كلمات لم ينطق بها قطّ. حتى لو قال لي: «كم كنتُ أعمى، كيف لم أعرف أن أراكِ، ولكن لم يَفُت الوقت بعد». حتى لو شدني نحو ذلك الباب، وتوسل إليّ.

لن يحدث أي شيء من هذا بأي حال. ولا حتى عن طريق الابتزاز، إذا ما هُدد برواية ذلك أو كنتُ أنا من أتوسل إليه. يظل مندسًا في أفكاره، منطويًا وغير مبال بصورة غريبة، يواصل النظر بثبات إلى الأرض. أخرجته من استغراقه في التفكير بدل أن أستغل ذلك للمغادرة، لقد تأخر الوقت: كنت أفضل البقاء مع تخميناتي القاتمة وعدم معرفة أي شيء مؤكد، بعد أن سمعته؛ أما الآن فأريد أن ينهي، لأرى إذا ما كانت قصته أقل سوءًا بعض الشيء، أقل كآبة مما تبدو عليه.

- وأنتَ، ما الذي فكرت به؟ ما الذي تمكنت من إقناع نفسك به؟ ما الذي لم يكن لك به أي دور أو علاقة في مقتل صديقك المفضل؟ يبدو من الصعب تصديق الأمر، أليس كذلك؟ مهما كان ما تضفيه عليه من إيحاء ذاتي.

رفع عينيه وأنزل كمَّيْ قميصه مجددًا حتى الساعدين، كما لو أنه أحس بالبرد. ولكن لم يغادره تمامًا ذلك النوع من القنوط أو الإنهاك الذي يبدو أنه قد داهمه. تكلم ببطء أشد، بقدر أدنى من الثقة وبتألق أقل، النظرة المستقرة على وجهي والشارة بعض الشيء في الوقت نفسه، كما لو أنني على مسافة بعيدة جدًا.

- لست أدري - قال -. أجل، صحيح أن أحدنا يعرف، يعرف الحقيقة بعمق، كيف لا، كيف سيتجاهلها. يعرف أنه قد أطلق آلية عمل، وأنه قادر فوق ذلك على وقفها، فليس هنالك ما لا يمكن تحاشيه إلا ما يكون قد حدوث و«المابعد» الذي نعتمد عليه جميعنا يتلاشى وجوده بالنسبة لأحدهم. ولكن ثمة شيء غامض في الإنابة، كنت قد أخبرتُكِ به. أنا كلفت روبيريث، وبدأت أشعر منذ تلك اللحظة أن الآلية ليست بيدي تمامًا، أو أنها متقاسَمَة على الأقل. روبيريث بدوره أمر شخصًا آخر بأن يحصل على هاتف محمول لمدبر مواقف السيارات وأن يُجري اتصالات معه، وقد فعل كلاهما ذلك، بالتناوب، إذ يمكن لصوتين أن يكونا أكثر إقناعًا من صوت واحد، وحوَّلا رأسه إلى طبل؛ بل إنني لا أعرف جيدًا كيف زوده ذلك الشخص الآخر بالهاتف المحمول، تُرك الهاتف في السيارة التي كان يعيش فيها، على ما أعتقد، فظهر له هناك كما لو أنه سحر، ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن السكين في ما بعد، كيلا يُرى من وضعهما، وكان من المحال استباق النتيجة التي سيتمخض عنها ذلك كله. وعلى أي حال، لم يكن هذا الشخص الآخر، هذا الشخص الثالث، يعرف اسمي ولا وجهي مثلما لم أكن أنا أيضًا أعرف اسمه أو وجهه. وبتدخله المجهول كان كل شيء يبتعد عني أكثر فأكثر، وتصبح علاقتي به أقل، ومشاركتي تصير غائمة، لم يعد كل شيء بين يدي وإنما صار يتوزع أكثر فأكثر. فما إن يُفَعِّل أحدهم شيئًا ويسلمه فإنه يكون أشبه بإفلاته والتحلل منه، لا أدري إذا ما كنتِ قادرة على فهم هذا، ربما تكونين غير قادرة، فأنت لم تضطري قطّ إلى ترتيب وتهيئة مِيته. - تمعّنتُ في التعبير المُستخدم، «لم تضطري إلى أن»؛ بدت هذه الفكرة عبثية، فهو نفسه لم يكن «مضطرًا إلى أن» يفعل أي شيء، لم يجبره أحد على ذلك. وكان قد قال «مِيتَة»، المصطلح الأكثر حيادية ضمن المتاح، ليس «عملية قتل»، ولا «اغتيال» ولا «جريمة» -. يتلقى أحدنا تقارير مقتضبةً عن كيفية سير الأمور ويُشرف، ولكنه لا يهتم مباشرة بأي شيء. أجل، يحدث خطأ، كأن يخطئ كانييّا بالرجل ويصل الخبر إليّ، وحتى ميغيل نفسه يذكر لي الحادث الخبيث الذي تعرض له بابلو المسكين، دون أن يخطر له أن للحادث

علاقة برغبته، ودون أن يربط بين أمر وآخر، ودون أن يتخيل أن أكون أنا وراء ما حدث، أو أن يكون قد وارى ذلك جيدًا، كيف لي أن أعرف. - لاحظتُ أنني كنت آخذة بالضياع (أية رغبة؟ أية علاقة؟ أية مواراة؟)، ولكنه واصل كما لو أنه قد أخذ نفسًا فجأة، ولم يسمح لي بمقاطعته - الأحمق روبيريث لا يثق بالشخص الثالث بعد حدوث ذلك، إنني أدفع له جيدًا وهم مدينون لي بخدمات، وهكذا يمسك زمام الأمور بنفسه ويظهر أمام مدبر مواقف السيارات، بحذر، خفية، صحيح أنه لا يوجد أحد في ذلك الشارع ليلًا، ولكنه يسمح لنفسه بالظهور أمامه بمعطفه الجلدي، آمل أن يكون قد تخلص من تلك المعاطف كلها وألقى بها بعيدًا، يظهر أمام الرجل كي يتأكد من أنه لن يخطئ مجددًا وينتهي به الأمر إلى طعن السائق المسكين، طعن بابلو، وتقويض الخطة كلها. أجل، يصلني مثلًا هذا الحادث الصغير، ولكنه بالنسبة لي مجرد قصة يرويها لي في بيتي، أنا لا أتحرك من هنا، لا أطأ أبدًا أرض الحدث ولا ألوث نفسي، وهكذا لا أشعر بأنني مسؤول عن أي شيء من ذلك أو أنه من تدبيري، بل هي أحداث بعيدة ونائية. لا تتفاجئي، فهنالك من يمضون أبعد من ذلك بكثير: هناك من يأمرون بتصفية شخص ما ولا يريدون بعد ذلك الاطلاع على أي شيء من مسار العملية، على الخطوات المتخذة، وكيف جرى الأمر. يثقون بأن مبعوثًا سيأتي إليهم في النهاية ويخبرهم بأن ذلك الشخص قد مات. يقول لهم إنه قد وقع ضحية حادث، أو إهمال طبي خطير، أو أنه ألقى بنفسه من الشرفة، أو أنه قد دُهس، أو أن لصوصًا مسلحين قد تعرضوا له أو اعتدوا عليه ليلًا، فحاول بكل غباء أن يواجههم فأجهزوا عليه. ومهما يمكن للأمر أن يبدو غريبًا، فإن من أملى موت ذلك الشخص، دون أن يحدد كيف ولا متى، يمكن أن يهتف بصدق نسبي، أو بجرعة من الذهول: «فليرحمه الله، يا للمأساة»، كما لو أنه لا علاقة له بالأمر وأن القدر هو من تولى تنفيذ رغباته. هذا ما حاولته أنا، أن أرى نفسي أبعد ما يمكن، وإن كنت قد خططتُ الطريقة جزئيًا: تحرى روبيريث عن مأساة حياة ذلك الفقير المعوز، عن سبب غضبه الكبير، سبب مهانته، لست أدري إذا ما كان ذلك صدفة أم أنه ليس كذلك، فقد جاءني ذات يوم بقصة أن ابنتيه دُفعتا إلى الدعارة بالقوة أو بالخداع، هو يلمس المفاتيح كلها، لا غياب للتواصل في أي مجال، وفي النتيجة كنت أنا من وضع الخطة، حسن، كانت من تدبيرنا كلينا معًا، كانت خطتنا. ولكن حتى في هذه الحال ظللتُ بعيدًا، نائيًا بنفسي: كان روبيريث نفسه في الميدان، ومعه صديقه، ذلك الشخص الثالث، وقبل ذلك كله كان هناك كانييّا المتشرد، ولم يكن هو من سيحدد متى وحسب، وإنما كان بإمكانه أن يقرر عدم التنفيذ، الواقع أنه لم يكن هنالك أي شيء في يدي. وكان هنالك عندئذ الكثير من التفويض، والكثير مما تُرك تحت تصرف آخرين، وكثير للصدفة والظروف أيضًا، وكثير عن بُعد، مما يجعل المرء نصف قادر على أن يقول، بعد وقوع الحدث: «ما علاقتي أنا بكل ذلك، بما فعله مختلٌ عقليًا في الشارع، في منطقة آمنة وتوقيت آمن؟ من الواضح أنه كان يشكل خطرًا عامًا، وأنه شخص عنيف، ما كان يجب تركه يتجول طليقًا، ولا سيما بعد ما حدث مع بابلو. السلطات هي التي تتحمل المسؤولية لأنها لم تتخذ أية إجراءات، وكذلك سوء الحظ الكبير الذي مازال قائمًا».

نهض ديات باريلا وقام بجولة في الصالون إلى أن عاد للتوقف ورائي، ووضع يديه على كتفيَّ، ضغط عليهما بنعومة، لا وجود لأي شبه مع ما فعله منذ أسبوعين، قبيل مغادرتي، عندما كنتُ وإياه واقفَين، واستوقفني، لقد كان يومذاك أشبه ببلاطة. لم أشعر الآن بالخوف، اعتبرت تصرفه إيماءة مودة، كما كانت نبرة صوته قد تغيرت. فقد اصطبغت بنوع من التثاقل أو بيأس خفيف حيال ما لا

مفر منه - خفيف لأنه صار مستعادًا - ولأنه تخلص من الصفاقة، كما لو أنها كانت مفروضة عليه. كما أنه بدأ يخلط بين أزمنة الأفعال، المضارع الدلالي، والماضي غير المحدد والماضي الناقص، مثلما يحدث أحيانًا لمن يستعيد تجربة خبيثة أو يعيد رواية سيرورة يظن أنه قد خرج منها ولا يكون ذلك صحيحًا. كان قد اكتسب، شيئًا فشيئًا، نبرة صدق، ليس دفعة واحدة؛ فجعله ذلك أكثر قابلية للتصديق. ولكن ربما كان ذلك هو المصطنع. عدم معرفته المقيتة، كما لو أن كل ما سبق صار يبدو لي أن له وقع الحقيقة، وقد اكتسب النبرة نفسها، أو أنها ليست نفسها وإنما نبرة أخرى مختلفة، لكنها مشابهة. لقد صمتَ الآن وصار بإمكاني أن أسأله عما بدا لي غير مفهوم، وعما غاب عنه. أو ربما لم يغب عنه بالمطلق، وإنما أدخله وهو مُدرك لما يفعل وينتظر ردّ فعلي عليه، واثقًا من أنني قد اكتشفته.

- لقد تكلمتَ عن رغبة لديفيرني، وإلى تغاضٍ محتمل منه. أي رغبة هي تلك؟ ما الذي سيرغب هو فيه؟ لم أفهم ذلك. - ولدى قولي هذه الكلمات فكرتُ: «أية شياطين هذه التي أفعلها، كيف يمكن لي الإشارة بتحضر إلى ذلك كله، كيف يمكن لي توجيه أسئلة إليه عن تاصيل عملية اغتيال؟ ولماذا نتحدث في هذا الأمر؟ لأنه ليس موضوع حوار، أو ربما هو كذلك بعد أن تكون قد انقضت سنوات طويلة، مثلما هي قصة آن دوبريه الميتة على يد آتوس عندما لم يكن هذا قد صار آتوس بعد. أما خابيير بالمقابل فلا يزال خابيير، لم يُتَح له الوقت للتحول إلى شخص آخر».

أعاد الضغط على كتفي بنعومة، كانت أشبه بمداعبة. وكنت قد تكلمت دون أن ألتفت إلى الخلف، لست بحاجة الآن لأن يكون تحت نظري، لم تكن مجهولة لي تلك الملامسة ولا مثيرة لقلقي. اجتاحني إحساس بعدم الواقعية، كما لو أنني في يوم آخر، يوم سابق لتنصّتي، عندما لم أكن قد اكتشفتُ شيئًا ولم يكن هنالك أي رعب، بل متعة مؤقتة فحسب وانتظار غراميّ مستسلم، كنت أنتظر أن أُستبقى أو أن أُستبعد من جانبه عندما تكون لويسا هي المحبوبة، أو ترضى على الأقل النوم والاستيقاظ يوميًا في فراشه. ورغبت الآن في تصور أنه لم يتبق وقت طويل لذلك، منذ زمن طويل لم أتصوره، ولو من بعيد. من كان يدري كيف تطور الأمر، إذا كانت قد راحت تتعافى من الصدمة، وإلى أي حدّ قام دياث - باريلا بتعزيز ذلك، وتوصل إلى أن يكون لا غنى عنه في حياتها المتوحّدة كأرملة لها أطفال تحزن لحالهم أحيانًا، عندما ترغب في الانزواء للبكاء أو من أجل عدم فعل أي شيء. وهو الشيء نفسه الذي حاولته أنا معه في حياته المتوحّدة كعازب، بفارق أنني كنت أفعل ذلك بخجل وبلا قناعة أو مثابرة، وكمهزومة منذ البداية.

في يوم آخر كان يمكن ليديّ دياث - باريلا أن تنزلقا من كتفيَّ حتى نهديّ، وما كنت سأسمح له بذلك وحسب، وإنما كنت سأشجعه بتفكيري: «فُكّ زرّين وأدخل يديك تحت كنزتي أو بلوزتي»، تأمر إحدانا ذهنيًا، أو تتوسل. «هيا، افعل ذلك، ماذا تنتظر؟» اخترقني دافع طلب ذلك منه هكذا، بصمت، فقوة الترقب والإلحاح غير العقلاني للشهوة، كثيرًا ما تدفع إلى تجاهل ما هي الظروف ومن هو كل شخص، وتمحو الرأي الذي لدى أحدنا عن الشخص الذي يستثير الشهوة، وفي أي لحظة يكون الازدراء هو المسيطر عليّ. لكنه لن يستجيب اليوم لهذا، لأنه يحتفظ أكثر مني بوعي أننا لسنا في أي يوم آخر، وإنما في اليوم الذي اختاره هو كي يخبرني بمؤامرته وأفعاله، وليقول لي بعد ذلك وداعًا إلى الأبد، فبعد تلك المحادثة لن يكون بإمكاننا مواصلة اللقاء، لأن اللقاء لن يكون ممكنًا، وكلانا يعرف ذلك. وهكذا لم يُنزل يديه ببطء وإنما رفعهما كمن تلقى تأنيبًا لأنه منح نفسه ثقة أكثر مما يجب أو لأنه تجاوز الحدود - ولكنني لم أكن قد قلت شيئًا، ولم أُقدم على اتخاذ أي موقف أيضًا - ورجع إلى مقعده، جلس مجددًا قبالتي ونظر إليّ بإمعان بعينيه الغائمتين والعصيتين على التفسير اللتين لا تتمكنان أبدًا من النظر بثبات تام، وبذلك التثاقل أو اليأس الاسترجاعي الذي تَبدى في نبرة صوته قبل قليل ولن يغادره، لا في النبرة ولا في النظرة، كما لو أنه يقول لي مرة أخرى: «لماذا لا تفهمينني؟»، ليس بنفاد صبر وإنما بأسى.

- كل ما رويته لكِ صحيح، في ما يتعلق بالأحداث - ردّ عليّ -. ما لم أخبرك به بعد هو الأساسي فقط. - أجابني -. الأساسي وحده هو ما أخبرك به. فالأساسي لا يعرفه أحد، أو أن روبيبريث يعرفه فقط بصورة وسطية، وهو لحسن الحظ لم يعد يوجه أسئلة كثيرة؛ إنه يستمع فقط، يجامل، ينفذ التعليمات ويتقاضى أجوره. لقد تعلم. المصاعب حوّلته إلى رجل مستعد لأشياء كثيرة مقابل أجر، ولا سيما إذا كان يدفعه له صديق قديم لن يُحَمّله أية تبعات، ولن يخونه أو يضحّي به، حتى إنه تحول إلى شخص حريص ومتكتم. الطريقة التي فعلنا بها ذلك حقيقية، ولم نكن متأكدين من أن الخطة سوف تنجح، بل كانت العملية كلها أشبه بإلقاء قطعة عملة في الفضاء. لكنني لم أشأ اللجوء إلى قاتل محترف، وقد بيَّنتُ لكِ السبب. أنتِ استخلصتِ نتائجك ولستُ ألومك، أو شيء من هذا القبيل، ولكنني أتفهمك جزئيًا: فالأمور تبدو مثلما يجري تصورها، إذا ما تجاهل أحدنا السبب. لن أنكر كذلك أنني أحببت لويسا ولا أنني فكرت في البقاء إلى جانبها، وأن أكون قريبًا منها ومتأهبًا، إذا ما نَسِيَتْ ميغيل ذات يوم وتقدَّمتْ خطوات باتجاهي: لقد كنتُ قريبًا، وقريبًا جدًا، بحيث لا يُتاح لها الوقت للتفكير في الأمر ولا الإحساس بالندم خلال الطريق. أظن أن ذلك سيحدث عاجلًا أو آجلًا - وعاجلًا هو الاحتمال المرجَّح - بعد أن تتعافى مثلما يحدث للجميع. لقد أخبرتُكِ ذات يوم أن الناس يسمحون للموتى بالذهاب، مهما كان حزنهم عليهم، حين يلاحظون أن بقاءهم أحياء هم أنفسهم، مسألة في مهب الريح وأن الموتى ثِقَلٌ كبير؛ وأسوأ ما يمكن أن يفعله الموتى هو المقاومة، التشبث بالأحياء والطواف حولهم ومنعهم من المضي قدمًا، ولا نقول عودتهم إذا ما استطاعوا العودة، مثلما استطاعها الكولونيل شابير في الرواية، فملأ حياة زوجته بالمرارة وتسبب لها بأذى أكبر مما سببه لها موته في تلك المعركة البعيدة.

- هي من سببت له أذى أكبر - رددتُ عليه -، بإنكارها إياه وبحيلها الماكرة لإبقائه ميتًا وحرمانه من الوجود القانوني، لدفنه حيًا للمرة الثانية، ولكن ليس عن طريق الخطأ في هذه المرة. لقد عانى كثيرًا، فما جرى له قد جرى له وهو غير مذنب ببقائه حيًا في الدنيا، وأقل من ذلك ذنبه بأنه ظل يتذكر من هو. حتى إن المسكين قد قال تلك العبارة التي قرأتها لي: «لو أن المرض انتزع مني ذكريات حياتي الماضية كلها، لجعلني ذلك سعيدًا».

لكن دياث - باريلا لم يكن في وارد الدخول في نقاش عن بلزاك، لأنه يريد مواصلة قصته حتى النهاية. «ما حدث هو الأقل أهمية»، قال لي عندما حدثني عن الكولونيل شابير. «فهي رواية، وما يحدث فيها لا أهمية له ويُنسى بعد الانتهاء من قراءتها». ربما كان يفكر بأنه في الوقائع الحقيقية لا تجري الأمور على هذا النحو، في وقائع حياتنا. من المحتمل أن تكون حقيقية لمن عاشها، ولكن ليس للآخرين. كل شيء يتحول إلى قصة وينتهي إلى أن يطفوِ في المجال نفسه، ويكاد التمييز أن يكون غير ممكن عندئذ بين ما حدث وما اختُلق. ينتهي كل شيء إلى أن يكون قصة ويكون له بالتالي وقع القصة، إنه تخيل حتى لو كان حقيقة. وهكذا واصل كما لو أنني لم أقل شيئًا.

- أجل، ستخرج لويسا من هوَّتها، لا مجال للشك في ذلك. بل إنها بدأت بالخروج عمليًا، ومع كل يوم يمر تخرج أكثر قليلًا، أنا ألحظ ذلك وهذا أمر لن يكون فيه قلب للصفحة عند بدء الوداع، الثاني والنهائي، والذي هو وداع ذهني فقط ويحمل لنا وعيًا خبيثًا يبدو معه أننا نتخلص به من الميت، إنه يبدو وهو كذلك حقًا. يمكن أن يكون هنالك تراجع ظرفي، حسب ما تأتي به الحياة لأحدنا أو بفعل صدفة ما، ولا شيء أكثر. فليس للموتى سوى القوة التي يمنحهم إياها الأحياء، وإذا ما سحبوها... سوف تفلت لويسا من ميغيل، بقدر أكبر مما يمكن تخيله الآن بالذات، وهذا ما يعرفه هو جيدًا. بل أكثر من هذا، قرر تسهيل ذلك ضمن إمكانياته، وكان هذا هو ما جعله، جزئيًا، يطرح عليّ التماسه. جزئيًا فقط. وقد كان هنالك، بكل تأكيد، سبب أكبر وزنًا.

- عن أي اِلتماس تحدثني مرة أخرى؟ أي اِلتماس؟ - لم أستطع تجنب نفاد صبري، فقد تولد لدي شعور بأنه يريد توريطي بالاستناد إلى الفضول.

- هذا ما سأصل إليه، هذا هو السبب - قال -. اسمعي جيدًا. قبل شهور من موته، كان ميغيل يشعر بنوع من الإرهاق العام الذي ليس له أي مغزى كبير، شيء غير كاف للذهاب إلى الطبيب، لم يكن فزعًا أو متوجسًا، بل كان بصحة جيدة. بعد قليل بدا عليه عارض غير مثير للقلق، رؤية ضبابية خفيفة في إحدى عينيه، فكر في أنها مسألة عابرة وتأخر في الذهاب إلى طبيب العيون. وعندما ذهب أخيرًا، لأن تلك الرؤية لم تنجلِ بصورة تلقائية. أجرى له الطبيب فحصًا دقيقًا وجاءه بتشخيص بالغ السوء: إسوداد كبير الحجم داخل العين، وأرسله إلى طبيب أمراض باطنية من أجل إجراء دراسة عامة. فحصة طبيب الباطنية من أعلى إلى أسفل، مع تصوير طبقي محوري ورنين مغناطيسي لكامل الجسم، إضافة إلى تحاليل موسعة شاملة. فكان تشخيصه أسوأ من السابق، كان الأسوأ من كل ما سبق: «انتشار عام متقدم جدًا»، على الرغم من أنه لم تكن تظهر على ميغيل تقريبًا أية أعراض مرَضية حتى ذلك الحين، ولم يُلحظ لديه أي توعك آخر.

«وهكذا لم يستطع ديسفيرن أن يقول للخبير، مثلما تخيلتُ أنا في إحدى المناسبات: «لا، لستُ أحتاط لحدوث شيء لي، لا شيء مباشر، ولا قريب، لا شيء محدد، إنني بصحة جيدة وأموري كلها على ما يرام» وإنما عكس ذلك»، فكرتُ. «أو، لا بأس، هذا الذي يقوله الآن خابيير». كنتُ لا أزال أدعوه باسمه الأول في ذلك المساء، ولسوف أتحول عن ذلك قريبًا، لم أكن قد قررت بعد أن أتذكره وأن أتحدث عنه والإشارة إليه بلقبه، من أجل أن أنأى بنفسي عن تقاربنا السابق أو إيهام نفسي بذلك.

- هكذا، وهذا كله، ما الذي يعنيه بالضبط، فضلًا عن كونه شيئًا سيئًا جدًا؟ - سألته، وحاولت أن تكون لنبرة صوتي وقع من الريبة وعدم التصديق: «تكلم، تكلم وواصل الكلام، لن أتقبل بسهولة ابتلاع قصتك الأخيرة هذه، أشم فيها رائحة ما تسعى إليه». ولكنني في الوقت نفسه كنت مهتمة بما بدأ يرويه، سواء أكان حقيقيًا أم لم يكن. كان دياث - باريلا يتمكن في حديثه من تسليتي وإمتاعي بكثرة واستثارة اهتمامي على الدوام. وهكذا أضفت، وخرجت معي الآن نبرة قلق صريح، وبعد ذلك تصديق أيضًا -: وهل يمكن حدوث ذلك، الإصابة بتلك الخطورة دون ظهور أعراض تقريبًا؟ حسن، أعرف أن ذلك ممكن، ولكن أإلى هذا الحدّ؟ ودون أي إشعار؟ وتقدم الداء بذلك المقدار الكبير؟ إنه أمر يبعث على القشعريرة، أليس كذلك؟

- أجل، يمكن حدوث ذلك، وقد حدث لميغيل. ولكن لا يصيبنك الذعر، لحسن الحظ أن هذا النوع من سرطان الميلانوما ليس شائع الانتشار وهو نادر جدًا. أنتِ لن تصابي بأي شيء منه. ولا لويسا، ولا أنا، ولا البرفيسور ريكو، ستكون مصادفة كبيرة. - كان قد انتبه إلى توجّسي الفوري. انتظرَ أن ينتهي مفعول نبوءته التي لا أساس لها وطمأنني كما لو أنني طفلة، ثم انتظر بضع ثوانٍ كي يواصل: - لم يخبرني ميغيل بكلمة واحدة قبل حصوله على كافة المعطيات، ولم يخبر لويسا منذ البداية، عندما لم يكن هنالك ما يخشى منه: لم يخبرها بذهابة إلى طبيب العيون، ولا بأنه يرى الأشياء غائمة بعض الشيء، فآخر ما كان يريده هو استثارة قلقها دون مبرر، لأنها تقلق بسهولة كبيرة. ولم يخبرها كذلك فيما بعد. لم يخبر أحدًا بأي شيء، مع استثناء وحيد. فمنذ تشخيص طبيب الباطنية صار يعرف أن الأمر قاتل، ولكن هذا الطبيب لم يعطه كافة المعلومات، أو لم يقدمها إليه بكل تفاصيلها، أو ربما خفف من وقعها عليه، أو أنه هو نفسه لم يسأل الطبيب، لست أدري، ولهذا فضَّل أن يسأل طبيبًا صديقًا لن يخفي عنه شيئًا إذا ما طلب منه ذلك: صديق قديم من أيام المدرسة، طبيب أمراض قلب، يُجري له مراقبة دورية ويثق به بكل ما في الدنيا من الثقة. ذهب لرؤيته وللتوصل إلى تشخيص مؤكد، وقال له: «قل لي ما الذي ينتظرني، قل لي بكل وضوح. أخبرني بالخطوات. قل لي كيف سيكون ذلك». فرسم له صديقة الطبيب مشهدًا لم يستطع تحمله.

- أيوه - كررتُ، كمن يسعى إلى التشكيك، إلى عدم التصديق. ولم يخرج معي أكثر مما قلته. حاولتُ، بذلتُ جهدًا، وتمكنت أخيرًا من النطق بهذه العبارة، وهي محايدة تمامًا في الواقع: - وماذا كانت تلك الخطوات الرهيبة؟ وحتى لو كان ذلك كذبًا، فقد أرعبتني رواية العملية، والاكتشاف.

- لم تكن المسألة هي عدم إمكانية الشفاء فقط، بسبب انتشار الداء في كامل الجسم. إضافة إلى أنه لا يكاد يوجد علاج شافٍ، أو أن العلاج الموجود أسوأ من الداء نفسه. التنبؤ بالأمل بالبقاء على قيد

الحياة، دون استخدام هذا العلاج، يقدر بنحو أربعة إلى ستة شهور، وفي حالته بالتحديد لن يكون الوقت أكثر من ذلك بكثير. سيكسب قليلًا من الوقت، ولكن بمعاناة شديدة، مقابل جرعات علاج كيماوي شديدة الفعالية وذات تأثيرات جانبية مُدمِرة. ولكن هنالك ما هو أكثر: سرطان الميلانوما في العين يؤدي إلى تشوه العين مع آلام مرعبة، الألم كما يبدو لا يُحتمل، هذا ما أخبره به صديقة طبيب القلب، مستجيبًا بذلك لرغبته بألا يخفي عنه شيئًا مما أراد معرفته. الإجراء الوحيد الممكن ضد هذا الداء يتلخص في تجفيف العين، وهذا يعني اقتلاعها، وهو ما يسميه الأطباء «استئصال العين»، على حدّ قول ميغيل، بسبب ضخامة حجم الورم. أترين يا ماريا؟ ورم ضخم داخل العين، يدفعُ نحو الخارج ونحو الداخل، كما أفترض؛ عين بارزة، وجبهة ووجنة تتورمان، تتضخمان؛ وبعد ذلك فجوة، محجر عين فارغ وهذا ليس آخر التحولات المسوخية، هذا في أحسن الحالات ودون أن تكون له أية فائدة علاجية. - ذلك الوصف التصويري المقتضب سبب لي مزيدًا من الريبة وعدم الثقة، إذ كان أول تساهل له مع القسوة والتخيل، فحتى ذلك الحين كان يعتمد على التحفظ والبساطة -. يبدأ مظهر المريض باتخاذ هيئة مرعبة، ويصير تردّيه المتفاقم محزنًا، ليس في الوجه وحده بالطبع، فكل شيء فيه يذوي وبسرعة أكبر في كل مرة، والشيء الوحيد الذي يحصل عليه من ذلك الاستئصال والعلاج الكيماوي الفظ هي بضعة شهور إضافية في الحياة. حياة على ذلك النحو، حياة ميتة أو مقدمة موت، معاناة وتشوه، ولا يعود من كان وإنما يتحول إلى شبح قلق يقتصر وجوده على دخول المستشفى والخروج منه. تحولات المظهر لن تكون فورية بالضرورة، وهذا هو الشيء الوحيد الذي لن يكون كذلك: أمامه شهر ونصف أو شهران قبل أن تظهر الأعراض على الوجه أو تصبح مرئية، قبل أن ينتبه الآخرون، يتوافر له هذا الوقت كي يختفي عن الجميع ويتظاهر بالمرض. - كان لصوت دياث - باديلا رنة تأثر حقيقي، ولكن هل للتأثر تأثير. يجب أن أعترف بأنه لم يبدُ لي كذلك عندما أضاف، برنّة مرارة أو قدَرية محتمة -: شهر ونصف أو شهران، هذه هي المهلة التي منحني إياها.

كنت أعرف الجواب إلى هذا الحد أو ذاك، ولكنني سألته مع ذلك، فهنالك قصص توجد صعوبة في مواصلتها دون سؤال روتيني عابر في منتصفها. وكان يمكن لهذه القصة أن تتواصل بكل الأحوال، وكل ما هنالك أنني سرّعتها قليلًا، إذ كنت أريد الانتهاء بأسرع ما يمكن على الرغم من اهتمامي. أريد سماع كل شيء كي أنصرف إلى بيتي وأتوقف عندئذ عن الاستماع.

- منحَكَ أنت؟ لأي شيء؟ - ومع ذلك لم أعرف الاحتفاظ بالرغبة في القول له إن ما سيرويه لي مُتوقع -. ستأتي الآن بقصة أنه هو نفسه طلب منك أن تفعل به ما فعلته كمعروف: كمية من طعنات سكين يتولاها شخص به مَسّ شيطاني في منتصف الشارع، أليس كذلك؟ طريقة دقيقة التعقيد وغير لطيفة للانتحار، هنالك أقراص وأشياء كثيرة أخرى. ومتعبة جدًا لكم، أليس كذلك؟

وجه إليّ دياث - باريلا نظرة نزق وتأنيب، فقد بدت له تعليقاتي في غير مكانها.

- هنالك أمر يجب أن يكون واضحًا لك يا ماريا، اسمعيني جيدًا. لستُ أروي لك ما حدث من أجل أن تصدقيني، لا يهمني في شيء تصديقك لي أو عدمه، أما لويسا فستكون قصة أخرى، لا أنتظر أن يكون لي معها حديث مماثل، وهذا أمر سيعتمد عليكِ جزئيًا. أنا أُخبرك بهذا كله بسبب الظروف وكفى. فالأمر لا يبدو لي لطيفًا، كما يمكن لك أن تتصوري. فما فعلناه أنا وروبييريث لم يكن طبَقًا شهيًا، وهو جناية كالقتل على أي حال. بل أكثر من ذلك، فهذا هو التصنيف التقني لما حدث، ولن يهتم أي قاض أو هيئة محلفين أدنى اهتمام بالسبب الحقيقي الذي دفعنا إلى اقتراف تلك الجناية، ولا يمكن لنا كذلك أن نثبت ما كان قد حدث. فهم يحاكمون الأفعال، وهذه على ما هي عليه، ولهذا نُستثار ونفزع عندما يبدأ كانييّا بالكلام عن مكالمات على الهاتف المحمول وغيرها. وشاء لنا سوء الطالع أنكِ سمعتنا في ذلك اليوم، أو بعبارة أدق، كنتُ أنا نفسي متهوّرًا وأتحتُ حدوث ذلك. وبناء على ما سمعتِه قمتِ بوضع فرضية زائفة وغير دقيقة للأمر. وهذا لا يروق لي، كما هو طبيعي، مثلما لا يروق لي أن تغيب عنك معلومة حاسمة. ولهذا سأخبرك بها، بصفة شخصية، لأنك لست قاضيًا ويمكن لك أن تفهمي ماذا كان وراء ذلك كله. ولتنظري أنت في الأمر بعد ذلك. وستعرفين عندئذ ما الذي ستفعلينه أيضًا بالمعلومات. أما إذا كنت غير راغبة في المعرفة فلن أتابع، ولن أجبرك على ذلك أيضًا. إما أن تصدقيني أو لا تصدقيني فهذا أمر ليس بيدي، وهكذا أنت من يمكنها القول إذا كنا سنضع الآن بالذات حدًا لهذا الحديث. الباب أمامك، إذا كنت تظنين أنك صرتِ تعرفين كل شيء ولا ترغبين في سماع المزيد.

أما إذا كنت ترغبين في سماع المزيد. مثلما قلتُ لك، سيكون ذلك حتى النهاية، من أجل الانتهاء.

- لا، لا، واصل الكلام. اعذرني - قلتُ مصوّبة - واصل، من فضلك، للجميع الحق بأن يُسمع ما لديهم، كل شيء إلا هذا. وحاولتُ حتى في هذا الوضع أن يكون هنالك أثر من السخرية في هذه الكلمات الأخيرة «لا ينقص إلا هذا» - منحك تلك الفرصة من أجل ماذا؟

لاحظتُ أن شكوكًا خفيفة قد داخلتني، حيال نبرة دياث - باريلا الغاضبة أو الموجوعة، وإن تكن هذه النبرة هي الأسهل في التظاهر أو المحاكاة، فجميع المذنبين في أمر ما يلجؤون إليها فورًا.

وكذلك الأبرياء بالطبع. انتبهتُ إلى أنه كلما روى لي أكثر تزداد شكوكي أكثر، وإلى أنني لن أتمكن من الخروج من هناك متخلصة من أي شك، هذا هو السيئ في ترك الناس يتكلمون ويعبّرون عن أنفسهم، ولهذا تجري المحاولة لمنع ذلك مرات كثيرة، من أجل الحفاظ على ما هو يقيني ومؤكد وعدم إفساح المجال للشكوك، أي للكذب. أو للحقيقة. تأخر قليلًا في الردّ أو العودة لمواصلة الكلام، وعندما فعل ذلك، عاد إلى نبرة صوته السابقة، نبرة الغَمّ أو اليأس المستعاد، الحقيقة أنه لم يكن قد هجر تلك النبرة تمامًا، بل أضاف إليها فقط، للحظات، نبرة شخص مجروح.

- لم يكن لدى ميغيل اعتبار كبير لموته، إذا كان هذا القول ممكنًا، افهميني، فنحن نتكلم عن شخص على وشك أن يكمل الخمسين من عمره، حياته تمضي على ما يرام، له ابنين صغيرين وزوجة يحبها، أو حسن... نعم، كان مغرَمًا بها، أجل. لقد كانت مأساة بالطبع، مثلما هي لأي شخص آخر. ولكنه هو بالذات كان يعي جيدًا أننا إذا كنا موجودين هنا فإنما ذلك بسبب مصادفات غير معقولة ولا تُصدَّق، وبالتالي لا يمكن لنا الاعتراض على انتهاء ذلك. الناس يعتقدون أن لهم الحق في الحياة. بل أكثر من ذلك، فهذا ما تتبناه الأديان أيضًا وكذلك القوانين في جميع الأمكنة تقريبًا، عندما لا تكون الدساتير هي التي تتبناه، ومع ذلك لم يكن هو نفسه يرى الأمر على هذا النحو. وقد اعتاد أن يقول: كيف يمكن لأحدنا أن يمتلك الحق في شيء لم يبنِه ولم يكسبه؟ هذا ما اعتاد أن يقوله. لا يمكن لأحد أن يشكو من أنه لم يولد، أو أنه لم يوجد من قبل في العالم، أو أنه لم يوجد فيه منذ الأزل، ولهذا، لماذا على أحدنا أن يتذمر من الموت، أو من أنه لن يوجد بعد ذلك في الدنيا، أو من عدم بقائه فيها دائمًا؟ هذا مطلب يبدو له عبثيًا مثل المطلب الآخر. لا أحد يعترض على تاريخ ميلاده، وليس له أن يعترض بعد ذلك على موعد موته، المرتبط أيضًا بالأقدار. حتى المِيتات العنيفة، وحتى الانتحارات، جميعها مرتبطة بالصدفة. وإذا كان المرء قد كان في العدم، أو في اللاوجود، فليس من المستغرب ولا الخطير أن يرجع إليه، على الرغم من أن هنالك الآن حدًا للفهم ونعرف ملكة الاشتياق. عندما عرف ما يحدث له، حين عرف أنه سينتهي، لعن حظه مثلما يفعل الجميع وأحس بالأسى، ولكنه فكر كذلك بأن كثيرين آخرين قد اختفوا في أعمار مبكرة أكثر منه بكثير؛ وأن الصدفة الثانية قد ألغت وجودهم دون أن تمنحهم الوقت لمعرفة أي شيء تقريبًا ودون أن تقدم لهم فرصة ما: شبان، أطفال، حديثو ولادة لم يُطلق عليهم اسم بعد... هكذا كان منطقيًا ولم ينهار. حسن، ولكن ما لم يستطع مقاومته، ما أغرقه وأخرجه عن طوره، هو الشكل، الطريقة المقيتة، البطء ضمن السرعة، التردي، الألم والتشوه، كل ما أخبره به صديقٌ طبيب. ولهذا لم يكن مستعدًا للمرور، وأقل من ذلك كان استعداده السماح بأن يشهد إبناه ولويسا ذلك كله. أن يشهده أي شخص في الواقع. كان يتقبل فكرة الانتهاء والتوقف، ولكن ليس المعاناة بلا معنى، رفض فكرة المعاناة طوال شهور بلا هدف وبلا تعويض، وأن يُخلف وراءه كذلك صورة له مشوَّهة وعوراء، وبانعدام كامل لأية قدرة على الدفاع. لم يكن يرى حاجة إلى ذلك، ولكنه يجد بالمقابل وجوب التمرد، الاحتجاج، لوي ذراع القدر. لم يكن بمقدوره البقاء في الدنيا، ولكنه قادر على الخروج منها بطريقة أكثر أناقة من الطريقة المتوافرة، يكفي أن يخرج قبل قليل من الموعد المحدد. - «لدينا حالة إذًا»، فكرتُ، «ليس من المناسب فيها القول «“He should have died hereafter”»، لأن هذه الـ «فيما بعد» تعني أسوأ بكثير، مع كثير من المعاناة والمهانة، وقدر أقل من الكمال ومزيد من الرعب لمحيطه وأهله، وهو ما ليس مرغوبًا على الدوام، وكل ذلك من أجل أمر ضئيل: أن

يستمر كل شيء أكثر قليلًا، سنة، بضعة شهور، بعض الأسابيع، عدد من الساعات، لا يبدو لنا باكرًا على الدوام وضع حدّ للأمور أو للأشخاص، وليس صحيحًا أننا لا نرى أبدًا اللحظة المناسبة، يمكن أن تكون هنالك لحظة نقول فيها نحن أنفسنا: «نعم، يكفي، حسن. هذا كاف وهو الأفضل. فما سيأتي منذ هذه اللحظة سيكون أسوأ، سيكون إذلالًا، مهانة، لطخة». اللحظة التي نتجرأ فيها على الاعتراف: «هذا الوقت قد مضى، حتى ولو كان وقتنا». وحتى لو كانت بين أيدينا نهاية كل شيء، فليس دومًا سيتواصل كل شيء بصورة غير متناهية، حاملًا إلينا التلوث والوسخ، دون أن يتحول أي حي إلى أن يصير ميتًا. ليس المطلوب هو ترك الموتى ينصرفون عندما يتأخرون أو عندما نحتجزهم؛ بل يجب إفلات الأحياء أيضًا في بعض الأحيان.» وأنتبهتُ إلى أنني عند هذا التفكير، رغم إرادتي، كنت أمنح مصداقية لحظية للقصة التي يرويها لي الآن دياث - باريلا. فبينما أحدنا يسمع شيئًا أو يقرأه يميل إلى تصديقه. أمر آخر هو المابعد، عندما يكون الكتاب قد أُطبق أو يكون الصوت المتحدث قد توقف عن قول المزيد.

- ولماذا لم ينتحر؟

نظر إليّ دياث - باريلا مجددًا كما لو أنني طفلة. هذا يعني كساذجة.

- يا للسؤال - سمح لنفسه بأن يلاحظ -. لأنه مثل معظم الناس، كان عاجزًا عن ذلك. لم يكن يتجرأ، هو لا يمكنه أن يحدد الـ «متى»: لماذا اليوم بدلًا من الغد، إذا كنتُ لم ألحظ اليوم تبدلات بعد ولا أشعر بأنني في حالة سيئة جدًا. لا أحد تقريبًا يجد اللحظة، إذا كان عليه أن يحددها. يرغب في أن يموت قبل تفاقم أضرار الداء، ولكن يبدو له مستحيلًا تثبيت موعد ذلك الـ «قبل»: لديه شهر ونصف أو شهران، لقد قلتُ لكِ هذا، من يدري إذا لم يكن أكثر بعض الشيء. ومثل الأغلبية أيضًا، لم يكن يريد معرفة الحدث مسبقًا وبصورة مؤكدة، لا يريد أن يستيقظ ذات يوم وهو يعلم علم اليقين أن: «هذا هو اليوم الأخير. اليوم لن أرى الغروب». لم يكن ينفعه كذلك أن يتولى آخرون أمره، إذا ما كان يعرف إلى أين يمضي، وبماذا يهتم، إذا كانت المعلومة متوافرة لديه مسبقًا. لقد حدثه صديقه عن مكان في سويسرا، عن منظمة جدّية ويشرف عليها أطباء تسمى «كرامة»، وهي شرعية تمامًا بالطبع (حسن، هي شرعية هناك)، وفيها يمكن لأشخاص من أي بلد في العالم أن يطلبوا انتحارًا بالمساعدة عندما تتوافر لديهم أسباب كافية، وهذا أمر يقرره فريق الجمعية، وليس الشخص المعني. ما على هذا الأخير إلا أن يقدم ملفه الطبي النظامي ويجري التأكد من صحة المعلومات وصدقيتها؛ ويبدو أن هنالك مسارًا تحضيريًا طويلًا، باستثناء حالات الطوارئ القصوى، وفي البدء تجري محاولة إقناع المريض بأن يواصل العيش على المسكنات، إذا كانت متوافرة، وأنه لسبب ما لم يكن يتناولها حتى ذلك الحين؛ يجري التحقق مما إذا كان بكامل قواه العقلية وأنه لا يمر بحالة اكتئاب مؤقتة، إنه مكان جدّي، كما أخبرني ميغيل. وعلى الرغم من كثرة المطالب والإجراءات، كان صديقه يعتقد بأنه لن تكون هنالك ممانعة في حالته. لقد حدثه عن ذلك المكان كوسيلة محتملة، كأهون الشرور، ولم يشعر ميغيل أنه قادر على ذلك أيضًا، ولم يجرؤ. كان يريد أن يموت، ولكن دون أن يدري بذلك. لا يريد أن يعرف كيف سيتم ذلك ولا متى، ليس بالضبط على الأقل.

- من هو ذلك الطبيب الصديق؟ - خطر لي أن أسأله فجأة، مجبرة نفسي على تعطيل سرعة التصديق التي تستحوذ، شيئًا فشيئًا، على من يسمع ما يُروى.

لم يُفاجأ دياث - باريلا كثيرًا؛ أجل، ربما يكون قد فوجئ قليلًا. ولكنه أجاب بلا تردد:

- أتعنين اسمه؟ يدعى الدكتور بيدال.

- بيدال؟ أي بيدال؟ هذا كمن لا يعني شيئًا. هنالك بيدال كثيرون.

- ما الذي جرى؟ أتريدين الحصول على إثباتات؟ أتريدين الذهاب للتحدث إليه من أجل أن يؤكد لك روايتي؟ افعلي ذلك، إنه رجل لطيف وحميم جدًا، لقد التقيت به مرتين. الدكتور بيدال سيكانيل. خوسيه مانويل بيدال سيكانيل، سيكون من السهل عليكِ الوصول إليه، ما عليك سوى البحث في قائمة نقابة الأطباء أو لا أدري كيف تسمّى، من المؤكد أنها موجودة على الانترنت.

- وماذا عن طبيب العيون؟ وطبيب الأمراض الباطنية؟

- هذان لا أعرفهما. فميغيل لم يأتِ على ذكر اسمَيهما قطّ، أو ربما يكون قد ذكرهما ولم أحفظهما أنا. أعرف الدكتور بيدال لأنه كان صديقًا له منذ الطفولة، وقد قلتُ لكِ هذا. أما هذان الآخران فلا أعرفهما. ومع ذلك، أعتقد أنه لن يكون من الصعب عليكِ التحري عمن كان طبيب عينيه، إذا كان هذا ما تريدينه، هل ستنهمكين في التحري؟ أجل، هذا أفضل من أن تتوجهي لسؤال لويسا مباشرة، اللهم إلا إذا كنتِ مستعدة لأن تروي لها كل شيء، أن تخبريها بكل ما تبقى. فهي لم تعرف أي شيء من هذا قطّ، لا عن سرطان الميلانوما ولا أي شيء آخر، وقد كانت هذه هي رغبة ميغيل.

- هذا غريب جدًا، أليس كذلك؟ يمكن لأحدنا أن يقول إن معرفة مرضه كان أقل تعذيبًا لها من رؤيته ممزقًا بطعنات السكين ونازفًا على الأرض. كم ستكون المشقة أكبر في شفائها من مشهد موت بمثل ذلك العنف والوحشية. أو أن تتصالح مع ذلك المشهد مثلما صار الناس يقولون الآن، أليس كذلك؟

- ربما - ردّ دياث - باريلا -. ولكن، على الرغم من أهمية هذا التقدير، إلا أنه كان في ذلك الحين مسألة ثانوية. فما كان يُرعب ميغيل هو التحول إلى المرحلة التي وصفها له بيدال؛ ستفكر لويسا في الأمر أيضًا، لكن هذا سيكون من مسافة معينة، إنه قلق أدنى عند المقارنة. عندما يعي أحدنا أنه سيغادر، يكون منطويًا جدًا على نفسه وقلما يفكر في الآخرين، حتى بمن هم أقرب المقربين إليه، من هم أحب إليه، وإن كان يلحّ على إبداء عدم المبالاة، وعلى عدم استبعادهم عن نظره وسط محنته. فالمرء يعرف أنه سيرحل وحيدًا بينما هم سيبقون، وهنالك في هذا الأمر على الدوام عنصر يستثير الغيظ ويؤدي إلى الإحساس بأنهم بعيدون وغرباء، وإلى النظر إليهم بما يشبه الضغينة تقريبًا. وهكذا، صحيح أنه كان يريد أن يوفر على لويسا فترة احتضاره، ولكنه كان يريد قبل ذلك أن يوفرها على نفسه بالذات. إضافة إلى ذلك، خذي في الاعتبار أنه كان يجهل الطريقة المفاجئة التي سيموت بها. هذا ما قاله لي. لم يكن يدري إذا ما كان هنالك ذلك الموت المفاجئ أم أنه لم يبق له سوى التحمل ومعاناة تطور مراحل المرض حتى النهاية، أو انتظار استجماع القوة لإلقاء نفسه من

نافذة عندما تسوء حالته ويبدأ برؤية نفسه يتشوّه ويشعر بالآلام الشديدة. أنا لم أضمن له أي شيء قطّ، لم أقل له نعم أبدًا.

- نعم عن أي شيء؟ لم تقل له قطّ نعم عن أي شيء؟

عاود دياث - باريلا النظر إليّ بذلك الثبات الخاص به والذي لا ينتهي أحدنا أبدًا إلى إدراكه على أنه نظرة، ربما يتلقاه كإحاطة، كتطويق. بدا لي الآن رؤية ومضة انزعاج في عينيه. ولكنها مثل جميع الومضات كانت خاطفة وسريعة، لأنه أجاب على الفور، وحين فعل ذلك تلاشى عن وجهه ذلك التعبير.

- وعن أي شيء سيكون. عن رغبته. «أزحني من الطريق»، هذا ما طلبه مني. «لا تخبرني كيف ولا متى ولا أين، فليأتني ذلك فجاءة، لدينا شهر ونصف أو شهرين، ابحث عن طريقة وضَعْها موضع التنفيذ. لا يهمني أي طريقة ستكون. كلما كانت أسرع يكون أفضل. وكلما كانت المعاناة أقل والأذى أضأل يكون أفضل. وعندما يتم الأمر حيث لا أتوقعه يكون أفضل. افعل ما تشاء، تعاقد مع شخص يوجه إليّ رصاصة، أعمل على أن يصدموني بسيارة وأنا أجتاز الشارع، أن ينهار جدار عليّ أو أن تتعطل مكابح سيارتي، أو مصابيحها، لستُ أدري، لا أريد معرفة ذلك أو التفكير فيه، فكر به أنت، أي طريقة، ما هو في متناول اليد، ما يمكن أن يخطر لك. عليك أن تقدم لي هذا الجميل، عليك أن تنقذني مما ينتظرني. أعرف أنني أطلب الكثير، ولكنني غير قادر على قتل نفسي، ولا الانتقال إلى مكان مثل سويسرا وأنا أعلم أنني لست ذاهبًا إلى هناك إلا كي أموت بين أناس مجهولين، يمكن لهم إخضاع أنفسهم لرحلة بالغة الكآبة، في الطريق إلى إعدامهم، سيكون ذلك أشبه بالموت عدة مرات خلال الطريق وخلال المكوث هناك، موت متواصل بلا توقف. أُفضّل أن يطلع عليّ الصباح هنا كل يوم مع مظهر حدّ أدنى من التلقائية، وأن أواصل حياتي طالما ذلك متاح لي مع الخشية والأمل بأن يكون ذلك اليوم هو الأخير. ولكن مع عدم اليقين قبل كل شيء، فعدم اليقين هو الشيء الوحيد الذي يمكن له أن يساعدني؛ والذي أعرف أنني قادر على تحمله. ما لا أستطيعه هو معرفة ما الذي يعتمد عليّ. يجب أن يعتمد عليكَ. أزحني أنت من الطريق قبل فوات الأوان، عليكَ أن تقدم لي هذا الجميل.» هذا هو تقريبًا ما جاء ليقوله لي. كان يائسًا ويكاد يموت خوفًا كذلك. ولكنه لم يكن غائبًا عن الوعي. لقد فكَّرَ في الأمر كثيرًا. وفعل ذلك ببرود أعصاب، إذا كان بالإمكان التكلم على هذا النحو. أنا لم أكن أرى حلًا آخر. الحقيقة أنني لم أكن أرى أي حلّ آخر.

- وماذا أجبته أنت؟ - سألتُه، وما إن سألته حتى أدركتُ أن هنالك شيء من المصداقية ضمن قصته، وأن تكن مصداقية افتراضية وعابرة، مع أنني قلتُ لنفسي إن سؤالي كان يجب أن يكون: «ومع افتراضنا أن كل ذلك قد جرى على هذا النحو، فلنفترض ذلك للحظة، ماذا أجبته أنت؟». ولكنني في الحقيقة لم أصغ السؤال بهذه الطريقة، لم أفعل بكل تأكيد.

- في البدء رفضتُ بحزم، دون أن أُفسح المجال للإلحاح. قلت له إن ذلك غير ممكن، وإن ما يطلبه كثير جدًا بالفعل، ومن غير الممكن له أن يطلب من أحد إنجاز مهمة تخصه هو وحده فقط. فليجد الشجاعة وليتعاقد هو نفسه مع قاتل مأجور، ولن تكون المرة الأولى التي يتولى فيها شخص ذلك ويدفع بنفسه ثمن إعدامه. قال إنه يعرف جيدًا عدم امتلاكه مثل هذه الشجاعة ولا يجد

نفسه قادرًا كذلك على التعاقد مع أحد، لأن هذا يعني معرفته المسبقة، وإطلاعه على كيف ومتى تقريبًا سيحدث ذلك: فما إن يتم التواصل والاتفاق حتى يبدأ القاتل المأجور بوضع مسار العملية، فهؤلاء أناس سريعون لا يعرفون التأجيل، ينجزون ما عليهم إنجازه كي ينتقلوا إلى أمر آخر. وهذه وسيلة لا تختلف كثيرًا عن زيارة سويسرا، قال، وكان الأمر لا يزال قرارًا يتخذه هو نفسه، تحديد تاريخ معين والتخلي عن العزاء الضئيل بعدم اليقين، وإذا كان يشعر بأنه عاجز عن أمر ما فإن حسمه يجب أن يكون اليوم أو غدًا أو بعد غد. وإلا سيأخذ بتأجيل الأمر من يوم إلى آخر، وسيأخذ الوقت بالانقضاء دون أن يتجرأ، لن يرى اللحظة أبدًا وعندئذ ينتهي به الأمر إلى أن تدركه حِدّة الداء، وهو ما يجب عليه أن يتجنبه بأي ثمن... لأنه إذا حدث ذلك، وأنه أفهمه في هذا الشأن، سيكون من السهل جدًا أن يقول لنفسه: «ليس بعد، ليس بعد، ربما غدًا. أجل، لن أتجاوز يوم غد. أما هذه الليلة فسأنام في البيت، في فراشي، سأنام إلى جانب لويسا. يوم آخر فقط». «كان يجب أن أموت فيما بعد، أن أكبح نفسي بشحوب»، فكرتُ. «وفي نهاية المطاف، لا يعود بمقدوري العودة بعد ذلك. وحتى لو استطعت: فالموتى يسيئون التصرف حين يرجعون» -. يتمتع ميغيل بكثير من الفضائل، ولكنه كان ضعيفًا ومترددًا. ربما نكون جميعنا تقريبًا هكذا في وضع كهذا. وأفترض أنني أنا كذلك.

ظل دياث - باريلا صامتًا وشارد النظرة، كما لو أنه يضع نفسه في مكان صديقه أو يستحضر الزمن الذي فعل فيه ذلك. فكان عليَّ أن أُخرجه من شروده، سواء أكان ذلك جزءًا من المشهد أم لا.

- قلتَ إن هذا كان في البدء. وبعد ذلك؟ ما الذي جعلك تغيّر رأيك؟

ظل ساهمًا للحظات، مرّ بيده على وجهه عدة مرات، كمن يتأكد مما إذا كانت حلاقة ذقنه لا تزال مقبولة أم أن الشعر قد بدأ بالنمو. وعندما تكلم من جديد، كان لصوته رنة تعب، ربما كان مشبعًا بشروحاته وبتلك المحادثة التي تحمّل هو فيها الثقل كله. ظلت عيناه هائمتان ودمدم كما لو أنه يكلم نفسه:

- لم أغيّر رأيي. لم أبدل رأيي قطّ. منذ اللحظة الأولى عرفت أنه ليس أمامي سبيل آخر. وأنه، مهما بدا الأمر صعبًا، لا بد لي من تلبية رغبته. ما قلته له كان شيئًا. أما ما كان عليّ عمله فشيء آخر. كان عليّ أن أزيحه عن الطريق، مثلما كان هو نفسه يقول، لأنه ما كان ليتجرأ أبدًا على فعل ذلك بنفسه، لا فعليًا ولا سلبيًا، وما كان بانتظاره شديد القسوة حقًا. ألح عليّ وتوسل إليّ، عرض عليّ أن يُوَقّع وثيقة يتحمل فيها المسؤولية، بل إنه اقترح الذهاب إلى موثّق عقود. لم أوافق على ذلك. لو أنه فعل لأحس بأنه قد وقّع شيئًا أكثر، نوع من التعاقد أو الاتفاقية، ولاعتبر ذلك تأييدًا مني، وهذا ما كنت أريد تجنبه، فأنا أفضل أن يظنني غير موافق. ولكنني في النهاية لم أغلق الباب أمامه بالكامل. طلبت منه أن يتروّى ويفكر أكثر قليلًا في الأمر على الرغم من تأكدي من أنه لن يغير رأيه. وألا يعود إلى التحدث معي في الموضوع ولا سؤالي عن أي شيء في هذا الشأن. وأنه من الأفضل ألا نلتقي ولا نتصل أحدنا بالآخر حاليًا. لأنه سيكون من المحال ألا يلح عليّ، إذا لم يكن بالكلام، فسيفعله بالنظرة وبنبرة الصوت والسلوك المترقّب، وهذا ما لم أكن مستعدًا له: مرة واحدة لا أكثر، تلك التوصية المأتمية، تلك المحادثة الكئيبة. قلتُ له إنني سآخذ بالتواصل معه، كي أتابع حالته، ولن أتركه وحيداً، وليبحث في أثناء ذلك عن الحياة، هذا يعني أن يبحث عن الموت دون أن يعتمد

على مشاركتي. لا يمكن توريط صديق في أمر من هذا النوع، عليه أن يتدبر الأمر بنفسه. ولكنني أدخلته في الشك. لم أعطه أملًا وفي الوقت نفسه منحته إياه: بما يكفي لأن يتمكن من الاستقرار في ارتيابه المُنقِذ، كيلا يفقد الأمل نهائيًا بمساعدتي، كيلا يشعر كذلك بوجود تهديد حقيقي وشيك، وأن مسار إزاحته قد انطلق. بهذه الطريقة فقط سيكون قادرًا على مواصلة عيش ما تبقى له من حياة «سليمة» بحد أدنى من المظهر العادي، مثلما قال وحاول متوهمًا. ولكن من يدري، ربما يكون قد توصل إلى ذلك ضمن ما هو ممكن. إلى حدّ عدم الربط، ربما، بين هجوم مدبر مواقف السيارات على بابلو، وشتائمه واتهاماته، وبين رغبته التي طلبها مني، لا يمكنني معرفة ذلك، لا أعرفه. لقد اكتفيت بالاتصال به بين حين وآخر، بالفعل، لأسأله كيف حاله، وإذا ما كانت قد ظهرت له الآلام والأعراض أم لم تظهر بعد. بل إننا التقينا في مناسبتين ونفّذ بصرامة ما طلبته منه، ولم يعد إلى التحدث معي في الموضوع ولا الإلحاح عليّ، تصرفنا كما لو أن تلك المحادثة لم تكن. ولكنه بدا كمن هو واثق بي، كنتُ ألحظ ذلك؛ كما لو أنه مازال ينتظر أن أُخرجه أنا من المأزق، وأقدم له الضربة القاضية بصورة مفاجئة، في ذات يوم قبل أن يكون الأوان قد فات، وكان لا يزال يرى خَلاصة فيّ، إذا ما كان بالإمكان إطلاق هذه التسمية على تصفيته العنيفة. أنا لم أقل له نعم ولا بأي طريقة، ولكنه كان محقًا في العمق: فمنذ اللحظة الأولى، منذ أن أخبرني بوضعه، بدأ رأسي يعمل. تحدثت مع روبييريث كي يمد لي يد المساعدة ويهتم بطريقة إخراج العملية، وما تبقى صرتِ تعرفينه. كان على دماغي البدء بالعمل، وأن يشتغل ويدار كدماغ مجرم. كان عليّ أن أفكر كيف يتم القتل في الوقت المناسب، قبل موعد الداء، كيفية جعل صديق يموت ضمن مهلة محددة دون أن يبدو ذلك اغتيالًا ودون أن يُشتبَه بي. أجل، رحت أضع وسطاء، تجنبتُ تلويث يديّ، تدخلت إرادة آخرين، رحتُ أفوّض غيري، وكنت أترك خيوطًا مشوشة وأُبعد الفعل عني وعن مجالي إلى أن أوهمت نفسي بأنه لا علاقة لي به. ولكنني عرفتُ على الدوام أنه لا بد في الأصل من التفكير والتصرف كقاتل. وهكذا لم تكن غريبة في الواقع هذه الفكرة التي تكونتْ لديكِ عني. ما تعتقدينه أنت يا ماريا، بالرغم من كل شيء، ليس له أهمية تذكر. وهو ما يمكن لك تصوّره.

عندئذ نهض كما لو أنه قد انتهى أو لم تعد لديه رغبة في أن يواصل، كما لو أنه يعلن انتهاء الجلسة. لم أرَ شفتيه بمثل ذلك الشحوب قطّ، على الرغم من أنني كنت قد نظرت إليهما كثيرًا. فالإنهاك وخمود الهمة، واليأس المستعاد التي ظهرت ملامحه عليه منذ قليل قد تبدت بوضوح فظ. الحقيقة أنه يبدو الآن مستنفَدًا، كما لو أنه قد بذل جهدًا بدنيًا هائلًا، الجهد الذي كان يتبدى منذ البداية تقريبًا في كمَّيْ قميصه المرفوعين، وليس لفظيًا فقط. ربما يبدو مُستنزَفًا بالطريقة نفسها من انتهى للتو من توجيه تسع طعنات إلى رجل، أو ربما عشر طعنات، أو ست عشرة طعنه. وقلت لنفسي: «أجل، إنه قاتل، ليس أكثر».

IV

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأيتُ فيها دياث - باريلا على انفراد، مثلما خُيّل إليّ، ومرّ زمن لا بأس به قبل أن أعود إلى اللقاء به، مع رفقة، وبمحض الصدفة. ولكن خلال ذلك الوقت كله تقريبًا كان يحوم في نهاراتي وفي لياليّ، بزخم في البدء، وبعد ذلك «بصورة شاحبة»، مثلما يقول نصف بيت شعر لجون كيتس. أفترضُ أنه كان يفكر بأنه لم يكن لدينا سوى تبادل الكلام، ولا بد أنه كان يشعر بأنه قد أنجز، أكثر مما يجب، المهمة غير المنتظرة بتقديمه تفسيرات لي يرى أنه عليه عدم تقديمها إلى أحد أبدًا. لقد كان متهورًا مع الشابة الرصينة (مع أنني لم أعد ولم أكن شابة)، ولم يبق له مفر من أن يخبرني بقصته المشؤومة أو الكئيبة، وفق روايته لها. بعد ذلك لم تعد هنالك حاجة للحفاظ على تواصل معي، وعلى تعريض نفسه لريبتي وظنوني، لنظراتي، لتفلتي، لمحاكماتي الصامتة، ولم أشأ أنا نفسي كذلك أن أُخضعه لذلك كله، لأن أجواءً من الصمت والضيق كانت ستلفنا. لم يبحث عني ولم أبحث أنا عنه. كان هناك وداع مضمر، وتم الوصول إلى نهاية لا يمكن لأي انجذاب جسدي مشترك ولا لأي شعور غير مشترك أن يؤجلها.

في اليوم التالي، وعلى الرغم من إنهاكه، لا بد أن يكون قد أحس بأنه أزاح ثقلًا كبيرًا عنه، أو ربما أنه استبدله بآخر - فأنا أعرف الآن أكثر، لقد شهدتُ اعترافًا -، وكان هذا أقصر بكثير - ويبدو أقل احتمالًا من السابق، ومن أن أتوجه إلى أحد بمعلومات ليس لدي القدرة على إثباتها في الحالتين -. وانتقل إليَّ على أي حال احتمالٌ آخر: أسوأ من الارتياب الحرج ومن التكهنات التي ربما تكون متسرعة وجائرة: معرفة روايتين دون أن أدري بأيهما أحتفظ، أو بعبارة أخرى معرفتي أنه عليّ الاحتفاظ بالروايتين كلتيهما وأن كلتيهما ستتعايشان في ذاكرتي إلى أن تستبعدهما هذه الذاكرة، متعبة من التكرار. عندما يُروى شيء لأحدهم يظل عالقًا معه ويأخذ بالتحول إلى أن يصبح جزءًا من وعيه، حتى لو كان أحدنا لا يصدقه أو كان يعرف أنه لم يحدث قطّ وأنه مختلق وحسب، مثل الروايات والأفلام، مثل القصة القديمة عن صاحبنا الكولونيل شابير. وحتى لو كان دياث - باريلا قد أخذ في الاعتبار المفهوم القصصي القديم حيث يُروى في المقام الأخير ما يجب اعتباره حقيقيًا، وفي المقام الأول ما يجب أن يُفهم على أنه زائف، فالحقيقة أن هذه القاعدة لا تكفي لمحو ما كان البداية أو ما هو سابق لها. فقد سمعه أحدنا أيضًا، وإن بدا بصورة مؤقتة أنه قد استُبعد من خلال ما يجيء تاليًا، ذلك أن هذا التالي يناقضه ويكذبه، إلا إن ذكراه تدوم، فقبل كل شيء تدوم ذكرى تصديقنا بينما نحن نسمعه، عندما نكون لا نزال نجهل أنه سيلي ذلك تكذيب فنعتبره حقيقيًا. حين يكون قد قيل، سوف يُستعاد ويدوّي رنينه، إذا لم يكن في اليقظة ففي تهويم اضطرابات النوم وفي الأحلام، حيث لا أهمية للتسلسل المنتظم، ويظل يضطرب وينبض كما لو أنه مدفون حيًا أو أنه ميت يعود إلى الظهور لأنه لم يمت في الحقيقة، لا في معركة إيلو ولا معلقًا على شجرة وهو في طريق العودة ولا في أي مكان آخر. ما يُقال يترصدنا أو يعايننا أحيانًا مثل الأشباح، وعندئذ يبدو لنا

دومًا أنه كان غير كافٍ، وأن أطول محادثة كانت قصيرة جدًا وأن أكثر الشروح كمالًا تتخلله ثغرات؛ وأنه علينا أن نسأل أكثر بكثير وأن نبدي المزيد من الاهتمام، والتمعن في ما لم يكن شفويًا، لأنه يَخدع أكثر قليلًا مما هو شفوي.

لقد خطر لي، على ما أظن، احتمال البحث والذهاب للقاء الدكتور بيدال، بيدال سيكانيل، فمع اسم الكنية الثاني لن يكون ثمة ضياع. بل إنني اكتشفتُ في الانترنت أنه يعمل في مكان يدعى «الوحدة الطبية الأنجلوأمريكية»، تسمية مثير للفضول، ومقرها في شارع كوندي آراندا، في حي سلمنكا. كان من السهل عليّ أن أطلب موعدًا لإجراء فحص بالتسمّع وتخطيط للقلب، فمن الذي لا يشعر بالقلق على قلبه. ولكن روحي ليست روحًا تحرية، أو أن سلوكي ليس كذلك، وقد بدا لي الأمر كحركة متهوّرة بقدر ما هي غير مجدية: إذا كان دياث - باريلا لم يجد مانعًا من أن يقدّم لي المعلومات عن الطبيب، فإنما لأنه واثق من أن هذا الطبيب سيؤيد روايته، سواء أكانت صحيحة أو لم تكن كذلك. ربما كان الدكتور بيدال المذكور زميلًا قديمًا له وليس لديسفيرن، وربما يكون قد أُخبر بالطريقة التي عليه أن يرد بها عليَّ إذا ما ذهبتُ إليه واستجوبته؛ ويمكن له في كل الأحوال أن يمنع وصولي إلى ملف طبي ربما لم يكن له أي وجود قطّ، ففي هذه الأمور تكون الأولوية للسرية، ومن أكون أنا في نهاية المطاف؛ كان عليّ أن أذهب إلى لويسا كي تطالب هي نفسها بذلك، ولكنها ليست على علم بأي شيء وليس لديها أدنى قدر من الشك، فكيف أذهب لأفتح عينيها فجأة، هذا أمر يتطلب اتخاذ عدة قرارات وتحمل مسؤولية هائلة، الكشف لأحدهم عما قد لا يكون راغبًا في معرفته، ولا يمكن قطّ معرفة ما لا يرغب أحدهم في معرفته إلا بعد أن يُماط له اللثام عنه، ومن المحتمل عندئذ ألا يكون ثمة علاج للضرر ويكون الوقت قد فات للتراجع وإلغاء ما كُشف. كما يمكن لبيدال ذاك أن يكون متعاونًا آخر، يدين لدياث - باريلا بأفضال هائلة، ويشكل جزءًا من مؤامرة. أو ربما لا حاجة إلى ذلك كله. لقد انقضى أسبوعان مذ تجسّستُ على الحديث مع روبييريث؛ وقد توافرت لدياث - باريلا أيام كثيرة كي يضع تصورًا ويهيء قصة لتحييدي أو لتهدئتي، كما يقال؛ كان يمكن لي أن أسأل طبيب القلب ذاك، بأي ذريعة (روائيو دار النشر، وعلى رأسهم المتعجرف غاراي فونتينا، يقومون دومًا بهذا النوع من الاستشارات ذات الطابع المهني)، أي مرض مؤلم، بغيض وقاتل يبرر احتمال أن يُفضّل رجل قتل نفسه أو التوسل إلى صديق كي يزيحه من الطريق لأنه لا يتجرأ هو نفسه على فعل ذلك. يمكن أن يكون نزيهًا وساذجًا ذلك الطبيب المدعو بيدال، ويمكن أن يكون قد قدّم إليه المعلومات بحسن نية؛ وأن يكون دياث - باريلا قد اعتمد على أنني لن أذهب أبدًا لزيارة الطبيب، ولو على سبيل المحاولة، وهذا ما كان (فما كان أنني شعرت بالغواية ولم أذهب). فكرت بأنه يعرفني أكثر مما كنت أتوقعه، وأنه خلال الفترة التي أمضيناها معًا كان أقل سهوًا مما يُظهره، وأنه قد درسني بدأب، فأشعرني هذا التفكير ببعض الرضا، ببلاهة، أم أنها كانت بقايا عشقي له؛ فهذه لا تنقضي أبدًا دفعة واحدة بصورة مفاجئة، ولا تتحول في لحظة إلى كراهية أو ازدراء أو عار أو مجرد دهشة، هناك طريق طويل قبل الوصول إلى هذه المشاعر المتبدلة المحتملة، فهنالك فترة وعرة من التدخلات وخليط من النغولة والتلوث، ولا يمكن للعشق بأي حال أن ينتهي تمامًا ما لم يمر بعدم المبالاة، أو بتعبير أدق بالنفور، طالما المرء لا يفكر: «كم هو فائض عن الحاجة وغير مُجد الرجوع إلى الماضي، يا لبلادة فكرة العودة إلى خابيير. بل يا للكسل الذي يشعرني به تذكري له. فذلك الزمن، خارج ذهني، هو ما لا تفسير له، مجرد حلم

خبيث. لا يبدو صعبًا جدًا، لأنني لم أعد تلك التي كنتها. العقبة الوحيدة، على الرغم من أنها لم تعد عقبة، هي أنني في لحظات كثيرة لا أتمكن من نسيان هذا الذي كان، وعندئذ، على الدوام، يصبح اسمي مقيتًا وأرغب في ألا أكون أنا. الذكرى على أي حال تكون أقل إزعاجًا من المخلوق، على الرغم من أنه يمكن لذكرى ما أن تكون أحيانًا أشبه بنهش. ولكن لم تعد هذه هي الحال، لم تعد هكذا».

أفكار مشابهة تأخرتْ في الوصول إليّ، مثلما كان متوقعًا، وهذا أمر طبيعي. ولم أستطع تجنب أن أُقلّبَ ألف مرة (أو أنها كانت عشر مرات فقط، وتتكرر) ما رواه لي دياث - باريلا، في روايتيه إذا ما كانتا اثنتين، وسؤالي عن تفاصيل لم تتضح لي في إحدى الروايتين أو في الأخرى، لا وجود لقصة وإنما نقاط مظلمة، ولا لتناقضات أو ظلال أو أخطاء، الحقيقية منها والمختلقة، وفي هذا المظهر - مظهر الظلمة الذي يحيط ويحدق بأي قصة -، ليس مهمًا بأي حال من كان هذا ومن هو ذاك.

عدتُ لاستعراض الأخبار التي كنت قد قرأتها في الانترنت حول موت ديفيرني، فوجدت في أحدها العبارات التي تجول في ذاكرتي: «تشريح جثة رجل الأعمال كشف عن أن الضحية قد تلقى ست عشرة طعنة سكين من قاتله. وجميع الطعنات أثرت على أعضاء حيوية. إضافة إلى أن خمسًا منها كانت قاتلة»، بحسب ما استنتجه الطبيب الشرعي. لم أفهم جيدًا ما هو الفرق بين جرح قاتل وآخر يؤثر على أعضاء حيوية. فللوهلة الأولى، وبالنسبة لشخص جاهل بالموضوع، يبدو أن الأمرين كليهما يعنيان الشيء نفسه. لكن ذلك بدا ثانويًا في ضيقي: إذا كان طبيبٌ شرعيّ قد تدخل وكان هو من قام بصياغة تقرير؛ وإذا كان هناك تشريح للجثة، مثلما هو واجب مفروض في كل حالة وفاة عنيفة أو على الأقل في كل عملية قتل، فكيف كان ممكنًا ألا يُكتشف في التشريح «وجود انتشار عام للداء في الجسم كله»، حسب ما قال دياث - باريلا أن طبيب الباطنية قد شخصه لديسفيرن؟ لم يخطر لي في ذلك المساء أن أسأل دياث - باريلا، لم أنتبه إلى ذلك، والآن لا أريد أو لا أستطيع الاتصال به، لاسيما من أجل هذا الأمر، سيستثير ذلك ريبته، ربما سيحترس أو سيبدي الضجر، ربما يكون قد فكر بإجراءات أخرى من أجل تحييدي، بعد أن تبين له أنني لم أكتفِ بشروحاته أو تمثيله. يمكن تفهّم أن الصحف لم تُحدِث صدى حول ذلك الأمر، أو أن المعلومة لم تصل إليها أصلًا، لعدم وجود علاقة بالحدث، ولكن ما بدا لي أكثر غرابة هو عدم إطلاع لويسا على وضع كهذا. فعندما تكلمتُ إليها بدا واضحًا أنها تجهل كل شيء له علاقة بمرض ديفيرني، لأن هذا ما أراده هو نفسه، ودائمًا حسب صديقه وجلاده غير المباشر، أو «في الأصل». ويمكن لي أن أتخيل أيضًا جواب هذا الصديق، لو أن الفرصة أتيحت لي لسؤاله، فالرد سيكون: «هل تظنين أن طبيبًا شرعيًا يقوم بفحص شخص وُجهت إليه ست عشرة طعنة سيزعج نفسه بإمعان النظر أكثر، لتقصى الحالة الصحية السابقة للضحية؟ من المحتمل أنه لم يجر حتى فتح للجثة، بل لم يكن هنالك تشريح بكل معنى الكلمة وأنه تم ملء استمارة التقرير بعيون مغمضة: فقد كان السبب في موت ميغيل واضحًا». وربما يكون على حق في قوله: فهكذا كان، في نهاية المطاف، تصرف طبيبين جرّاحَيْن مهملين، قبل قرنين من الزمان، على الرغم من أن من كلفهما بالمهمة هو نابليون شخصيًا: وهما يعرفان ما يعرفانه، لم يزعجا نفسيهما بجس نبض الكولونيل شابير المجندل والملقى على الأرض. أضف إلى ذلك أن الجميع تقريبًا في إسبانيا يقومون فقط بما هو ضروري بالضبط من أجل تغطية الملف، دون توافر أي رغبة في التعمق، أو في هدر ساعات على ما هو غير ضروري.

وبعد ذلك كانت هناك تلك المصطلحات المفرطة في حِرفيتها تخرج من فم دياث - باريلا. لم يكن من الممكن أن يكون قد حفظها عن ظهر قلب بعد أن سمعها فقط من ديسيفرن في وقت مضى، بل من غير المحتمل أن يكون ديسيفرن نفسه قد أعاد قولها في روايته لقصة نكبته، مهما كان عدد المرات التي استخدمها فيها أطباؤه، طبيب الفم، والباطنية، والقلب. إذ لا يمكن لرجل يائس ومرعوب أن يلجأ إلى الأسلوب المعجمي كي يُطلع صديقه على وضعه المحسوم بصورة نهائية، ليس هذا هو المألوف. «ميلانوما عينية»، «ميلانوما ميتاستاتيكا متقدمة جدًا»، ومصطلح «داء عديم الأعراض»، و«تجفيف العين»، و«استئصال العين»، جميع هذه العبارات كان لها وقع أنها قد عُرفت للتو، سُمعت للتو من الدكتور بيدال. ولكن ربما كان ارتيابي بلا أساس: فأنا أيضًا قد نسيتها بعد أن انقضى وقت طويل مذ سمعتها منه، في تلك المرة فقط. وربما يكررها ويستخدمها من يعاني الداء، كما لو أنه يستطيع بذلك التعبير عن حالته بصورة أفضل.

وفي سبيل إضفاء مصداقية على قصته، أو روايته النهائية، كان هنالك بالمقابل واقع أن دياث - باريلا قد امتنع عن توسيع الأبعاد المتعلقة بتضحيته، بمعاناته، وبالتناقض المحزن، وألمه الهائل لأنه وجد نفسه مضطرًا إلى أن يُزيل بطريقة فظة وعنيفة - الطريقة الوحيدة تقريبًا التي تكون فيها عملية الإزالة سريعة، هي التعاسة - صديقه المفضل، صديقه الذي سيفتقده أكثر من الجميع. فالزمن يمضي مسرعًا ضده وسيقضي عليه ضمن مهلة قصيرة، فضلًا عن أنه في هذه الحالة، أكثر من أي وقت مضى، كان هناك متسع لهذه العبارة، (there would have been a time for 'such a word) مثلما أضاف ماكبث بعد علمه بموت امرأته المفاجئ في غير أوانه. وهو بلا شك «ما كان سيتوافر له زمن، في وقت آخر، من أجل مثل تلك الكلمة»، «من أجل العبارة» أو «الخبر» أو «المعلومة»: كان يكفي دياث - باريلا الامتناع عن فعل أي شيء، أن يكتفي بحرف التكليف ورفض طلب السماح بوصوله، وصول ذلك الزمن الآخر الذي لم يأت به ولم يُسَرّعه ولم يعرقل مجيئه؛ بتركه الأمور تواصل مسارها الطبيعي المعلن، القاسي، عديم الرحمة والجنائزي مثل كل الحالات الأخرى. أجل، يمكن أن يكون قد كُتب الكثير من الأدب حول لعنته، وكان يمكن أن يطلق على مهمته هذه تسميات، وأن يكون لفت الانتباه إلى وفائه، وأكد على نكرانه للذات، بما في ذلك محاولته إيقاظ شفقتي. لو أنه وجّه ضربات إلى صدره وعبّر لي عن غمّه، وكيف كان عليه أن يخفي مشاعره ويجعل من أحشائه قلبًا من أجل إنقاذ ديفيرني ولويسا من معاناة أعظم، معاناة بطيئة وقاسية، من التردّي والتشوّه وكذلك من تأمله، كنت سأرتاب به أكثر وكانت ستظل لدي شكوك ضئيلة عن زيفه. ولكنه كان متزنًا ووفر عليّ ذلك؛ اكتفى بأن عرض عليّ الوضع والاعتراف بدوره. بما كان منذ اللحظة الأولى، هذا ما قاله، قد عرف أنه عليه القيام به.

كل شيء ينتهي إلى التضاؤل بصورة ملطفة، شيئًا فشيئًا في بعض الأحيان وبكثير من الجهد وبتقديم إضافة من إرادتنا؛ بسرعة غير متوقّعة أحيانًا وخلافًا لهذه الإرادة، بينما نحن نحاول بلا جدوى الحيلولة دون أن تبهت الوجوه أو تصبح غائمة، وألا تصبح الوقائع والكلمات غير واضحة وتطفو في ذاكرتنا بالقيمة الضئيلة نفسها لما يُقرأ في الروايات وما يُرى ويُسمع في الأفلام: فما يحدث فيها سيّان ويُنسى مع انتهائها، حتى لو كانت لها القدرة على تعليمنا ما لا نعرفه وما لا يُعطى، كما قال دياث - باريلا عندما حدثني عن الكولونيل شابير. ما يرويه لنا أحدهم يبدو شبيهًا به دومًا، لأننا لا نعرفه من المرة الأولى وليس لدينا اليقين بأنه قد حدث، ومهما بلغت كثرة تأكيدهم لنا بأن القصة حقيقية، لم يختلقها أحد وإنما جرت فعلًا. إنها على أي حال جزء من كون الحكايات الشاردة، بنقاطه المظلمة وتناقضاته وظلاله وأخطائه، المحدقة منها والمواربة المغطاة جميعها بالظلال أو بالظلام القاتم، دون الاهتمام بما تريد أن تكونه من الإسهاب والشفافية، إذ لا شيء من هذا في متناول الأيدي، لا الشفافية ولا الاستفاضة.

أجل، كل شيء يخفت ويتضاءل، ولكن من الصحيح أيضًا أن لا شيء يختفي ولا يتلاشى بالكامل أبدًا، تبقى منه أصداء ضعيفة وذكريات متفلتة مبهَمة تبرز في أي لحظة كمقاطع محفورة على لوحة قبر في قاعة متحف لا يزوره أحد، جثمانية كأنقاض قنطرة بوابة عليها كتابات متقطعة وممحوّة، مادة قديمة، مادة بكماء، لا سبيل تقريبًا إلى فك رموزها، يكاد لا يكون لها معنى، بقايا عبثية يُحتفظ بها بلا أي هدف، لأنه لا سبيل إلى إعادة تركيبها أبدًا وقد صارت أقل إضاءة من الظلمة، وأقرب كثيرًا إلى ذكريات منها إلى النسيان. ومع ذلك، هي موجودة هناك، دون أن يُتلفها أحد أو يجمع شمل أجزائها المبعثرة أو المفقودة منذ قرون: محفوظة هناك مثل كنوز صغيرة وتمائم شؤم، كشواهد ثمينة على أن أحدًا ما قد وُجد ذات مرة وأنه مات وكان له اسم، وإن كنا لا نراه كاملًا وإعادة ترميميه ستكون مستحيلة، وليس هنالك من يهمه أمر ذلك «الأحدهم» الذي ليس أحدًا. لن يختفي تمامًا اسم ميغيل ديسفيرن، مع أنني لن أعرفه أبدًا، وكنت أراه من بعيد فقط، كل صباح، بطيبة نفس، بينما هو يتناول الفطور مع زوجته. كما لن تغيب تمامًا الأسماء المتخيَّلة للكولونيل شابير ومدام فيرو، وكونت دولافير وميلادي دي وِنتر أو مَنْ كانت تُدعى في شبابها آن دوبرويه، التي قُيّدتْ يداها وراء ظهرها وعُلقت على شجرة، كيلا تموت وتعود بصورة غامضة، جميلة كالغراميات أو كالعشق. أجل، يخطئ الموتى حين يرجعون، وإن كان الجميع تقريبًا ربما يفعلون ذلك، لا يتراجعون، ويصارعون بإلحاح للتحول إلى ثقل على الأحياء إلى أن يزيحهم هؤلاء عن كاهلهم كي يتقدموا قُدمًا. لا نُصفّي كل آثارهم دائمًا، ومع ذلك، لا نتوصل أبدًا إلى جعل المادة الماضية تصمت حقًا وإلى الأبد، فنسمع أحيانًا تنفسًا شبه مكتوم، كأنفاس جندي يحتضر أُلقي به عاريًا إلى قبر جماعي مع رفاقه الموتى، أو ربما مثل تأوهات أنين هؤلاء المتخيلة، مثل التنهدات المكتومة التي مازال ذلك الرجل يظن أنه يسمعها في بعض الليالي، ربما بسبب ملامسته المتأخرة أو وضعه القريب جدًا، لأنه كان على وشك أن يكون واحدًا منهم أو ربما أنه كان كذلك، وعندئذ يمضي في مساراته التالية، تشرّده في باريس، إعادة عشقه ومشقاته وتلهّفه إلى الاستعادة والاسترداد، كلها كانت قطعة فقط من لوحة ضريح في قاعة متحف، بقايا بعض أجزاء قنطرة عليها كتابات لم تعد مقروءة، مهشّمة، ظلال أثر، صدى لصدى، إنحناءة دنيا، رماد، بقايا مادة من الماضي وصامتة

رفضت أن تخرس. كان يمكن لي أن أكون شيئًا كهذا لديفيرني، ولكنني لم أعرف أن أكون كذلك. أو ربما لم أشأ حتى لأخف تأوهاته ضعفًا أن تتسرب إلى الدنيا، من خلالي.

لا بد أن عملية التخفف تلك قد بدأت في اليوم التالي لزيارتي الأخيرة لديات - باريلا، اليوم التالي لوداعه، مثلما تبدأ حالات التخفف جميعها عندما ينتهي شيء ما، مثلما كان قد بدأ لدى لويسا، دون شك، التخفيف من حزنها في اليوم التالي لموت زوجها، وإن كانت هي وحدها القادرة على رؤيته على أنه اليوم الأول من ألمها الأبدي.

كان الليل ظلمة مطبقة عندما خرجتُ من هناك، وفي تلك المناسبة فعلت ذلك دون أن يكون لدي أدنى شك. لم أشعر أبدًا بيقين أنه ستكون هناك مرة تالية، أو بأنني سأرجع، بأنني سأعود للمس شفتيه ولا النوم معه بكل تأكيد، كل شيء كان يبقى دائمًا بلا تحديد بيننا، كما لو أننا في كل مرة نلتقي يكون علينا أن نبدأ منذ البداية من جديد، كما لو أن لا شيء يتراكم ولا يترسب، ولم يتم اجتياز مسافة معينة من قبل، ولا أن ما حدث ذات مساء يشكل ضمانة - ولا حتى إشعارًا، ولا حتى احتمالًا - بأن الشيء نفسه سيحدث في مساء آت آخر، قريب أو بعيد؛ فقط فيما بعد سيُكتشف أن بلى، دون أن يكون لذلك أي نفع مطلقًا للفرصة التالية: هنالك مجهول دومًا؛ وعلى الدوام يترصد احتمال اللاحدوث، وإن يكن ذلك جنبًا إلى جنب مع احتمال نعم، كما هو طبيعي، أو عدم حدوث ما انتهى من الحدوث.

في تلك المناسبة بالمقابل، كنت متأكدة من أن ذلك الباب لن يُفتح لي أبدًا مرة أخرى، وأنه بعد أن يغلقه خلفي وأتوجه نحو المصعد سيكون ذلك البيت محرَّمًا عليّ، كما لو أن صاحبه قد انتقل أو نُفي أو مات، واحد من تلك البوابات التي يحاول أحدنا عدم المرور أمامها منذ أن يُقصى عنها، وإذا ما مرَّ سهوًا أو لأن الالتفافة ستكون طويلة وليس هنالك وسيلة أخرى، فإنه ينظر إليها بطرف عينه مع ارتعاشة غمّ - أو أنه شبح العاطفة القديمة - ويحثّ الخُطى، كيلا يغرق بذرى ما كان ولم يعد له وجود. في ليل حجرتي، بعد أن اضطجع قبالة أشجاري المهتزة والقاتمة دومًا، قبل أن أغمض عينيّ لأنام أو لا أنام، كان واضحًا لدي وهو ما قلته لنفسي: «الآن صرت أعرف أنني لن أرى خابيير بعد اليوم، وهذا هو الأفضل، على الرغم من أن حنينًا بدأ يداخلني إلى روعة ما كان، وكم كان يروق لي الذهاب إلى هناك. لقد انتهى ذلك، قبل اليوم. غدًا بالذات سأبدأ مهمة التخلص من أنه كان مخلوقًا بشريًا وسيتحول إلى ذكرى، وإن ظل، خلال بعض الوقت، ذكرى نهمة. فصبرًا، لأنه سيأتي يوم لا يكون فيه كذلك».

ولكن بعد أسبوع، أو أنه كان أقل، قطع حدثٌ ذلك التحول، عندما كنت لا أزال أناضل من أجل الإقلاع. كنت خارجة من العمل مع مديري أوجيني وزميلتي بياتريث، كان الوقت متأخرًا بعض الشيء، إذ كنت أحاول أن أقضي هناك أطول عدد ممكن من الساعات، مع رفقة وبرأس مشغول بأمور لا تستثير اهتمامي، مثلما يفعل الجميع عندما ينكبّون على هذه المهمة البطيئة وعلى عدم التفكير في ذلك الذي عليهم أن يفكروا فيه دون مفر. وعلى الفور، حين كنت أقول لهم وداعًا، لمحتُ هيئة طويلة تخطو خطوات قصيرة من جهة إلى أخرى وبيدين مدسوستين في جيبي المعطف، على الرصيف المقابل، كمن يشعر بالبرد لأنه أمضى وقتًا لا بأس به هناك، بالقرب من تلك الكافتيريا في الجهة العليا من برينثيبي دي بيرغارا حيث مازلتُ أتناول فطوري كل صباح، وأتذكر دومًا في إحدى اللحظات زوجيّ الثنائي الكامل الذي تفكك. بدا لي كما لو أنه ينتظر أحدًا

تواعد معه وتخلف عن موافاته. ومع أنه لم يكن يرتدي معطفًا من الجلد، بل كان معطفًا قديمًا بني اللون وربما هو كذلك بلون جلد الجَّمل تمامًا، عرفته على الفور. لا يمكن أن تكون مصادفة، من المؤكد أنه ينتظرني أنا، وفكرت: «ما الذي يفعله هنا، لقد أرسله خابيير»، وكان خاطرًا اختلط فيه - مرة أخرى، ما هو متعلق بخابيير الساعة الأخيرة ذاك، من يمزج بين وجهين أو منزوع القناع، من أجل إطلاق تسمية عليه - خوفٌ غير عقلاني ووهم أبله. «إنه يرسله ليتأكد من أنني مُحَيّدة وهادئة، أو ليستطلع أخباري بكل بساطة، كي يعرف كيف صرت بعد ما كشفه من أحداث وقصص، لم يتمكن بعد من إبعادي عن ذهنه، أيًا يكن السبب. أو ربما هو تهديد، إنذار، ويريد روبيريث تحذيري مما يمكن أن يحدث إذا لم أظل صامتة حتى نهاية الأزمنة أو إذا ما رحتُ أبحث واتقصّى وذهبت لرؤية الدكتور بيدال، فخابيير من الأشخاص الذين يقلبون الوقائع بعد حدوثها، وهذا ما فعله بعد سماعي محادثتهما». وبينما أنا أفكر في ذلك، وأتشكك حول إذا ما كان عليّ تجنبه والذهاب مع بياتريث، ومرافقتها إلى حيث يتطلب الأمر، أم أظل وحدي، مثلما كنت سأفعل في البدء، والسماح بأن يقترب مني. اخترت هذا الخيار الأخير، فقد تغلب عليّ الفضول من جديد؛ انتهيت من وداعهما وخطوت سبع أو ثمان خطوات نحو موقف الحافلة التي استقلها، دون أن أنظر إليه. فقط سبع أو ثمان خطوات، لأنه اجتاز الشارع فورًا متفاديًا السيارات وأوقفني، لمس مرفقي بخفة، كيلا يخيفني، وحين التفتُّ وجدت نفسي في مواجهة بريق أسنانه، ابتسامة واسعة جدًا مثلما رأيتها أول مرة، تكشف عن الجانب الداخلي من شفتيه بقلبه الشفة العليا إلى أعلى، أمر لافت للانتباه، كما لو أنه يجعلها مقلوبة. ويحتفظ كذلك بنظرته الذكورية التقيمية، على الرغم من أنني في هذه المرة كنت بملابسي الكاملة ومغطاة جيدًا وليس بتنورة مجعدة بعض الشيء أو مرفوعة وبحمالة صدر. لا فرق، فقد كان بلا شك شخصًا ذا نظرة مصطنعة أو إجمالية: قبل أن تنتبه له أي امرأة يكون قد تفحصها بكُلِّيتِها. لم أشعر بميل نحوه، بدا لي واحدًا من أولئك الرجال الذين كلما تقدموا في السن ينخفضون بمستوى تقديرهم، لا يدققون بحافز كبير وينتهون إلى السعي وراء كل ما يتحرك بشيء من اللطافة.

- يا للروعة يا ماريا، يا للمصادفة - قال لي، ورفع إحدى يديه إلى حاجبه، محاكيًا حركة رفع قبعة، مثلما فعل عندما ودّع في المرة السابقة، وهو على وشك الدخول إلى المصعد -. أتتذكرينني، آمل ذلك؟ لقد تعارفنا في بيت خابيير، خابيير دياث - باريلا. حالفني الحظ بأنك لم تكوني تعلمين بوجودي هناك، هل تتذكرين؟ لقد فوجئتِ يومذاك، وأنا أصبتُ بالانبهار، للحظة سريعة عابرة لسوء الحظ.

تساءلتُ عن ماهية اللعبة التي يلعبها. يسمح لنفسه بالتظاهر بلقاء المصادفة، بينما كنت قد رأيته ينتظر ولا بد أن يكون هو نفسه قد رآني بكل تأكيد وأنا أراه، لم يكن يرفع عينه عن باب دار النشر بينما هو يتمشى من جانب إلى آخر، وهكذا من يدري منذ متى كان هناك، ربما منذ نهاية الموعد النظري ليوم عملنا، إذ يمكن له أن يكون قد سأل عبر الهاتف، وليس هنالك في الموعد النظري ما له علاقة بالحقيقة. قررت أن أجاريه في اللعبة، للوهلة الأولى على الأقل.

- آه، هكذا - أجبته، ورسمتُ ابتسامة بدوري، بدافع اللباقة، وكذلك الردّ -. كان ذلك مربكًا لي بعض الشيء. أنت روبيريث، أليس كذلك؟ إنها كنية ليست معهودة جدًا.

- روبيريث دي توريس، إنها كنية مركبة. لا شيء عادي. عائلة عسكريين ورؤساء أديرة، وأطباء ومحامين وكتّاب بالعدل. أجل سأخبرك. أنا يضعونني على القائمة السوداء، إنني النعجة السوداء، يمكنني أن أؤكد لك هذا، مع أنني أرتدي لونًا فاتحًا. - ولمس ثنية ياقة المعطف بظاهر يده، حركة ازدراء، كما لو أنه لم يعتد عليه بعد، كما لو أنه يشعر بالضيق وعدم الراحة حين يرى نفسه بدون معاطف الجلد السوداء موديل الجستابو. ضحك لنكتته المصغرة في غير وقتها. أو أنه كان يتظارف بنفسه لنفسه أو يحاول نقل العدوى إلى محدّثه. كانت له كافة مظاهر الصعلوك المحتال. لكنه للوهلة الأولى يبدو صعلوكًا حميمًا وأقرب إلى أن يكون غير مؤذ، يجد المرء صعوبة في تصديق أنه كان مشاركًا في تدبير عملية اغتيال. ويبدو شخصًا عاديًا، مثل دياث - باريلا، كلٌ بأسلوبه. إذا كان قد شارك في ذلك (ولقد شارك بفعالية، هذا مؤكد لأسباب كانت، بصورة غامضة، مخلصة أو خسيسة لا نزاع فيها)، لم يكن يبدو أنه قادر على إعادة ارتكاب الجريمة. وفكرت: ولكن ربما تكون الأغلبية العظمى من المجرمين هكذا، ظرفاء ولطفاء، عندما لا يكونون منهمكين في ارتكاب جرائمهم -. أدعوكِ لنتناول شيء للاحتفال بلقائنا، هل لديكِ وقت؟ هنا بالذات إذا شئتِ. - وأشار إلى كافيتريا وجبات الفطور -. مع أنني أعرف مئات الأمكنة الأكثر متعة وأفضل أجواء، أمكنة لا يمكنك تخيل أنها موجودة في مدريد. إذا كنت تتحمسين في ما بعد، نستطيع الذهاب إلى واحد منها. أو للعشاء في مطعم جيد، إن كنت تشعرين بالجوع؟ ويمكننا الذهاب للرقص إذا كنت تفضلين.

أعجبني هذا الاقتراح الأخير، الذهاب للرقص، له وقع حقبة أخرى. وكيف سأذهب إلى الرقص فور خروجي من العمل، في توقيت سخيف ومع شخص مجهول، كما لو كنت في السادسة عشرة؟ وبما أن ذلك بدا لي طريفًا، ضحكت ضحكة سافرة.

- ماذا تقول، كيف أذهب إلى الرقص في مثل هذه الساعة، وبهذه الملابس. إنني هنا منذ التاسعة صباحًا. - وأومأت برأسي نحو باب دار النشر.

- حسن، أنا أقول فيما بعد، بعد تناول العشاء. ولكن كما يروق لكِ، إذا أردتِ نمر ببيتك، تستحمين، تستبدلين ملابسك ونذهب للهو. أنت لا تعرفين، ولكن توجد أمكنة للرقص في أي وقت. حتى في منتصف النهار - وأفلت قهقهة. كانت ضحكته ماجنة -. سأنتظرك طوال ما تحتاجين من وقت، أو أمر لأخذك من البيت حين تطلبين.

كان متقحمًا وداهية. سلوكه وتصرفه لا يشيران إلى أن دياث - باريلا هو من أرسله، مع أنه لا بد أن يكون كذلك. وإن لم يكن كذلك، فكيف عرف أين أشتغل؟ ولكنه يتصرف في الحقيقة كما لو أنه يفعل كل شيء بمبادرة شخصية، كما لو أنه ظل يحتفظ، بكل بساطة، بصورتي وأنا بملابس خفيفة، قبل بضعة أسابيع، وقرر أن يُقدم على اللعبة بلا أي مداراة. نزوة متعجلة، إنه تكتيك بعض الرجال ولا تكون نتيجته سيئة عادة، إذا ما كانوا شبانًا. تذكرتُ أن إحساسًا انتابني، آنذاك، بأنه لا يسجل وجودي في الحال وحسب، وإنما صار يقدر أنه يسجل خطوة إلى الأمام أو استثمار واقع أننا قد تعارفنا، بكل هذه السطحية؛ بأن يسجلني، لقول ذلك بهذه الطريقة، في مفكرة ذهنية كما لو أنه سينتظر العودة للقاء قريبًا جدًا على انفراد أو في مكان آخر، أو حتى أن يطلب رقم هاتفي فيما بعد من دياث - باريلا، دون أن يقطع شعرة واحدة. ربما يكون هذا قد أشار إليّ أيضًا على أنني «خالة» لأن هذا هو المصطلح الوحيد الذي يمكن لروبيريث دي توريس أن يفهمه: فأنا في نظره

مجرد «خالة» حصريًا. لا يزعجني ذلك، فهناك في نظري أيضًا أشخاص هم «أخوال» لا أكثر. وهو ينتمي إلى هذا النوع من الأشخاص الذين لا حدود لهذرهم، إلى حدّ يبدو مثيرًا للاستهجان أحيانًا. كنت قد اعتدت على أسلوب قلة الاحترام لدى الاثنين كليهما، لمعرفتهما أنهما متواطئان، وتعرّف كل منهما على أسوأ نقطاط الضعف لدى الآخر، ولكونهما رفيقين في الجريمة. كان يبدو أن روبيريث لا يولي أي اهتمام لنوع علاقتي مع دياث - باريلا. أو ربما، خطر لي، أن هذا الأخير قد أخبره بأنه لم تعد هنالك أية علاقة بيننا. هذه الفكرة كانت مزعجة فعلًا، إحتمال أن يكون قد أعطاه الضوء الأخضر بلا أدنى شعور بالأسى، بلا بقية من إحساس بالتملك، ومهما كان الانتشار - بمعنى الاكتشاف، إذا تطلب الأمر -، دون أدنى بصيص من الغيرة، فساعدني هذا كله على أن أصير أكثر جدّيّة، أن أوقف الوقح عند حدّه، بنعومة، بلا كلام، فظهوره مازال يشغلني. وافقتُ على تناول كأس في الكافيتريا، ونبهته: بسرعة؛ وليس أكثر. جلسنا إلى المنضدة التي بمحاذاة النافذة الواسعة، المنضدة التي اعتاد أن يشغلها الثنائي الكامل عندما كانا موجودين، فكرتُ «يا للانحدار». خلع هو معطفه بحركة حاسمة، كحركات لاعبي السيرك تقريبًا، وما إن انتهى من عمل ذلك حتى نفخ صدره، لا شك في أنه كان فخورًا بعضلات صدره. ترك الفولار معلقًا حول عنقه لظنه أنه يناسبة تمامًا، ويتناسب مع بنطاله المُحكم على مقاسه، وكلاهما بلون أبيض ضارب إلى الصفرة. لون متميز، ولكنه مناسب للربيع، ولا بد أنه لا يولي اهتمامًا كبيرًا لما توحي به الفصول.

راح يوجه إليّ مغازلات، وتحدّث بسوقية مبتذلة. كانت عبارات غزله مباشرة، وبكلمات سافرة، ولكنها ليست سيئة الوقع، يحاول أن يغازل وأن يبدو ظريفًا - وكان يبدو ظريفًا عندما لا يسعى إلى ذلك، وكانت دعاباته متوقعة، رديئة، وساذجة بعض الشيء -، هذا هو كل شيء. فقدتُ الصبر، وراح لطفي الأولي يتضاءل، صرت أجد صعوبة في الضحك، انهال عليّ إرهاق يوم العمل الطويل، ولم أكن أنام جيدًا كذلك منذ وداعي لديات - باريلا، تحاصرني الكوابيس واضطراب استيقاظي. لم يكن روبيريث مزعجًا لي على الرغم مما يعرفه - حسن، ربما يكون قد ردّ جميلًا فقط أو ساعد صديقًا عليه أن يتحمل الجرعة المقيتة بتقديم العون في موت سريع لصديق آخر كان يجب أن يموت يوم أمس، قبل الوقت أو قبل موعده الطبيعي أو المحدد (قدره الثاني، فهما الشيء نفسه) -، ولكن لا يهمني في شيء، إنه يخلو من التعاريج، بل يبدو غير قادر على تقدير تودده إلى النساء. لم يكن يعي أنه يتقدم في السن، لا بد أنه أقرب إلى الستينات منه إلى الخمسينات، يتصرف كرجل في الثلاثين. ربما يكون السبب في ذلك أنه يحتفظ ببنية جسدية جيدة، وهذا لا يمكن إنكاره، فهو يبدو للوهلة الأولى في الأربعين وبضع سنوات.

- لماذا أرسلك خابيير؟ - سألته فجأة، مستغلة لحظة صمت أو محادثة فاترة: أو أنه لم يكن يلحظ أن تغزله راح يفقد اندفاعه وأي احتمال في النجاح أو أن إصراره كان لا يقبل الهزيمة بعد دخوله في مهمة.

- خابيير؟ - بدت مفاجأته حقيقية -. لم يرسلني خابيير، لقد جئت بنفسي، لديّ بعض الأمور هنا في مكان قريب. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك: لا تتظاهري بالتواضع، أنت تعرفين أن التقرب منك لا يحتاج إلى تشجيع من أحد. - إنه لا يسمح بمرور فرصة إلا ويستغلها لتملّقي، يتوجه إلى صلب الموضوع. مثلما قلت، نزوة متسرعة، وهنالك تعجل كذلك في معرفة إذا ما كان إرضاء نزوته ممكنًا أم انه غير ممكن. فإذا كان ممكنًا، فالأمر رائع. وإن كان لا، فلينصرف إلى شأن آخر، فما لا يُرى هو أن يكون شخصًا يقبل أن يجرِّب مرتين، ولا الإلحاح إلى الأبد على غزوة واحدة. فإذا لم ينجح الأمر من الهجمة الأولى، يتخلى عنه دون إحساس بالفشل ولا يعود إلى تذكر الموضوع كله. كانت تلك هي هجمته الأولى، وربما ستكون الوحيدة، لأنه لن يضيع يومًا آخر، ولديه خيارات أخرى بسعة قدرته على الإغواء.

- ماذا، أليس صحيحًا؟ كيف عرفت إذًا مكان عملي؟ لا تقل لي أنك كنت تمر من هنا مصادفة. لقد رأيتُك كيف كنت تنتظر. منذ أي ساعة كنت تقف هناك؟ الجو بارد اليوم لمن ينتظر في الشارع، إزعاج شديد أن تأتي من تلقاء نفسك ولحسابك، وأنا أيضًا لا أستحق كل هذا. عندما عرّف خابيير كل منا على الآخر، لم يذكر حتى كنيتي. عليك أن تخبرني كيف عرفت مكاني بكل هذه الدقة، إذا لم يكن هو من أرسلك. ما الذي يريد معرفته، مادمتُ قد صدَّقتُ قصته عن الصداقة والتضحية؟

قطع روبيريث ببطء واحدة من ابتساماته؛ أو بكلمة أدق ابتسامته، لأنها في الحقيقة ابتسامة واحدة لم تفارقه في أية لحظة، ومن المؤكد أيضًا أنه كان يعطي اعتبارًا كذلك لفعالية بريق أسنانه التي على طريقة فيتوريو غاسمان، فالشبه مع ذلك الممثل كان بارزًا ويسهم في جعله يبدو لطيفًا. أو أنه لم

يقطع الابتسامة ببطء، وإن ما حدث هو أن الشفة العليا المنحنية إلى أعلى ظلت عالقة أو ملتصقة باللثة، وهذا ما يحدث عندما يُفتقد اللعاب، وقد تأخر في إفلاتها لوقت أطول مما هو متوقع. لا بد أن يكون هذا هو ما حدث، لأنه قام ببعض إيماءات مناورة بدت غريبة بعض الشيء.

- أجل، لم يذكر كنيتك يومذاك - أجاب بملامح استغراب من ردّ فعلي -، ولكننا تبادلنا الحديث عنك فيما بعد في الهاتف، وأفلتت منه المعلومات الكافية لأن لا أتكلف أكثر من عشر دقائق للقاء بك. لا تسيئي تقديري. البحث والتقصي لا يخذلاني، ولدي أيضًا علاقاتي، وفي أيامنا هذه بوجود الانترنت والفيسبوك وكل ذلك، لا وجود لمن يتفلت مني عندما أريد معرفة تفصيل ما. ألا يدخل في رأسك أنني مذ رأيتك تظهرين أعجبتني كثيرًا؟ هيا، هيا. لقد أعجبتني أكوامًا، يا ماريا، وها أنتِ ترين. واليوم أيضًا، على الرغم من أنني وجدتك في ظروف وبملابس مختلفة جدًا عن المرة الأولى، فجائزة اليانصيب لا تصيب أحدنا دومًا. ولكنها لم تكن في الحقيقة سوى فلاش، ومضة. وإذا كنت تريدين حقيقة الحقيقة، لم أنزع منذ أسابيع تلك الصورة من رأسي. - واستعاد ابتسامته وكأن شيئًا لم يكن. لا يهمه أن يعيد الإشارة مرة بعد أخرى إلى مشهدي ذاك وأنا شبه عارية، لا يقلقه كونه سفيهًا، فهو يفترض في نهاية المطاف أن مجيئه يومذاك قد حال دون مجامعة بيني وبين دياث - باريلا، أو ما هو أقل من ذلك. لم يكن الأمر كذلك، ولكن تقريبًا. لقد قال «أكوامًا» وقال «فلاش»، عبارات صارت ذات وقع قديم؛ والفعل «يتفلت» آخذ بالانسحاب: ألفاظه تشير إلى أن عمره أكبر من مظهره، فهو يحتفظ بشيء من اللياقة.

- هل تكلمتما عني؟ ما السبب؟ العلاقة التي قامت بيننا عمليًا لم تكن عامة بمعنى الكلمة. بل على العكس تمامًا. ولم ترق له بأي حال رؤيتك لي، أم أنك لم تنتبه إلى ذلك، إلى أنه قد تضايق؟ أستغرب كثيرًا أن يذكر اسمي بعد ذلك، لا بد أنه كان يرغب في محو ذلك اللقاء... - صمتُّ فجأة، لأني تذكرت عندئذ ما كنت قد فكرتُ فيه، أن دياث - باريلا قد حاول أن يستعيد مع روبيريث ترميم الحوار الذي دار بينهما بينما كنت أسمعهما وراء الباب، من أجل تقدير كم وماذا استطعتُ أن أسمع، وما الذي اطلعتُ عليه؛ وأن ذاك قد توصل، بعد مراجعة كلامهما، إلى أنه من الأفضل مواجهتي، وتقديم تفسيراته لي، اختلاق قصة أو الاعتراف لي بما حدث، أن يقدّم لي على أي حال حكاية أفضل من مخيلتي، ولهذا استدعاني والتقى بي بعد أسبوعين. وهكذا، أجل، من المحتمل أن يكونا قد تحدثا عني، وأن يكون خابيير قد أفلت ما يكفي من الكلام لجعل روبيريث يبحث عني بنفسه ولحسابه ودون تصريح، إذا كان يصح هذا القول. لا شك أنه لم يكن بالشخص الذي يطلب الإذن من أحد عندما يريد التقرب من إحداهن. سيكون ممن لا يَحترمون ولا يُحرمون على أنفسهم زوجات وخطيبات أصدقائهم، وهؤلاء يتزايدون بأعداد أكبر مما يُعتقد ويمرّون فوق كل الاعتبارات. ربما يجهل دياث - باريلا تقربه، وغزوته في ذلك المساء -. لا بأس، انتظر - أضفتُ في الحال -. لقد كلمك عني، أليس كذلك؟ كمشكلة. كلمك بقلق، أخبرك بأنني قد سمعتكما، وأنه يمكن لي أن أضعكما في مأزق إذا ما خطر لي أن أذهب بقصتي إلى أحدهم، إلى لويسا، أو إلى الشرطة. لقد حدَّثك عني لهذا السبب، أليس كذلك؟ وماذا اختلقتما فضلًا عن قصة الميلانوما، أم أن بيدال قد مدّ لكما يد المساعدة؟ أو ربما قد خطر لك أنت وحدك، كرجل ذي موارد؟ أم خطر له هو؟ لا أدري عنك، فأنت قد سقطت الآن، أما هو فقارئ روايات، وهكذا لديه بعض الأساليب.

عاد روبييريث إلى فقدان الابتسامة، بلا مرحلة انتقالية هذه المرة، كما لو أن هناك من مروا عليه بخرقة. أظهر ملامح جدّيّة، رأيت شيئًا من الإنذار في عينيه، ولم يعد سلوكه مغازلًا وخفيفًا في المشهد، حتى إنه أبعد كرسيّه عن كرسيَّ، حاول الابتعاد.

- أتعرفين مسألة المرض؟ ماذا تعرفين أكثر؟

- حسن، لقد روى لي الميلودراما كلها. ما فعلته بمدبر مواقف السيارات المسكين، مسألة الموبايل، مسألة السكين. يمكن لك أن تكون شاكرًا، فقد كان من نصيبك الجزء الأسوأ بينما كان يظل هو في البيت، أليس كذلك؟ يوجه العمليات، إنه روملِ. - لم أستطع تجنب السخرية، فأنا مدينة لديات - باريلا بإساءات.

- أتدرين ما الذي فعلناه؟ - كان تأكيدًا أكثر من كونه سؤالًا. تأخر بضع ثوان عن مواصلة الكلام، كما لو أن عليه أن يهضم الاكتشاف، فهو يرى الأمر على هذا النحو. أنزل شفته العليا تمامًا بأصابعه، حركة سريعة وخفية: لم تبق معلقة ولكنها ظلت مرتفعة قليلًا. ربما أراد أن يؤكد أن ملامحه لم تعد حالمة. فما انتهى إلى معرفته استثار قلقه، أو شعر به كطلقة، اللهم إلا إذا كان يتظاهر. ثم أضاف أخيرًا، وكانت نبرة خيبة أمل -: ظننت أنه لن يخبرك بشيء في النهاية، هذا ما قاله لي. قال إن ما يبدو له أكثر حذرًا هو ترك الأمور على حالها والثقة بأنك لم تسمعي كثيرًا، أو أنك لن تستطيعي ربط الخيوط ببعضها، أو أنك بكل بساطة ستصمتين. وأنه سيقطع العلاقة معك، قال هذا، أجل. وقال إن العلاقة ليست متينة، يمكن تركها تموت دون مشاكل. يكفي عدم الاتصال بك مجددًا وعدم الردّ على اتصالاتك المحتملة، أو التسويف معك. مع أنه لم يكن يظن أنك ستُلحّين عليه، «إنها متكتمة جدًا»، هذا ما قاله لي، «لا تنتظر أي شيء أبدًا». وليس هنالك واجبات كذلك. والأمل بأن تنسي ما يمكن أن يكون قد وصل إليكِ من حديثنا. وكان يقول: من الأفضل عدم تقديم معلومات، والزمن سيجعلها تشكك في ما سمعته. «سينتهي الأمر بأن يبدو لها ذلك غير حقيقي، والتفكير بأنها كانت تخيلات منها. تخيلات سماعية»، ولم تكن نظرة سيئة. وهكذا توصلت إلى أن طريقي صار مفتوحًا، أعني إليكِ. وأنك لا تعرفين أي شيء عني. لا شيء من هذه القضية. - صمتَ من جديد. كان يتذكر أو يتأمل، حتى إن ما قاله تاليًا، قاله كمن يحدّث نفسه، لا كمن يتوجه إليّ -: لا يروق لي، لا يروق لي ألا يخبرني، أن يسمح لنفسه بعدم إطلاعي على شيء يؤثر عليّ بصورة مباشرة. ما كان عليه أن يروي هذه القصة لأحد، إنها ليست قصته وحده، وعمليًا هي لي أكثر مما هي له. أنا من تعرضت لمجازفة أكبر، ومازلتُ معرَّضًا أكثر. أما هو فلم يره أحد. لا أجد أي ظرافة عاهرة في تبديله رأيه وإخبارك بالأمر، أتدرين؟، ودون أن يخبرني فوق ذلك. من المؤكد أنني كنت أشبه بمهرج، هنا معك.

كان يبدو محروقًا، بنظرة ذاهلة، أو بالغة التركيز. كانت حماسته نحوي قد تجمدت. انتظرتُ قليلًا قبل أن أرد بأي شيء. ثم قلت:

- حسن، الحقيقة أنه من أجل الاعتراف بعملية اغتيال اقترفها عدة أشخاص... لا بد من استشارة الآخرين، أليس كذلك؟، مسبقًا. هذا أقل ما هو ممكن. - وهنا لم أستطع تجنب السخرية.

قفز كنابض، مُستثارًا.

- إيه، اسمعي، اسمعي. الأمر ليس هكذا، لا تتجاوزي الحدود. ليس اغتيالًا بأي حال. المسألة كلها تتمثل في توفير ميتة أفضل لصديق، وبقدر أقل من المعاناة. حسن، حسن، لا وجود لأي ميتة جيدة، ومدبر مواقف السيارات استشاط في توجيه الطعنات، ولم يكن بمقدورنا التنبؤ بذلك مسبقًا، لم نكن متأكدين من أنه سيقرر استخدام السكين. لكن ما ينتظره كان مرعبًا، مرعبًا جدًا، لقد وصف لي خابيير ما سيسببه له الداء. المِيتةُ التي نالها كانت سريعة على الأقل، الموت دفعة واحدة ودون المرور بمراحل. مراحل شديدة الألم، وتَرَدٍ، ورؤية امرأته وإبناه له وقد تحول إلى مسخ. هذا لا يمكن أن يسمّى اغتيالًا، لا تزعجيني، ما فعلناه كان شيئًا آخر. إنه فعل رحمة، مثلما قال خابيير... قتل رحيم.

لصوته رنّة المقتنع، رنّة الصريح. ولهذا فكرت: «واحدة من ثلاث: إما أن تكون الميلودراما حقيقة، وليست اختلاقًا؛ أو أن خابيير قد خدع هذا الرجل أيضًا بمسألة المرض؛ أو أن هذا الشخص يقدم كوميديا استجابة لأوامر من يدفع له. وفي هذه الحالة الأخيرة، هو ممثل بارع جدًا، يجب الاعتراف بذلك». تذكرت صورة ديسفيرن التي ظهرت في الصحف ورأيتها أنا في الانترنت باستياء: بلا سترة وبلا ربطة عنق وربما حتى بلا قميص - أين انتهى الأمر بزرَّيْ تثبيت معصمَيْ قميصه -، تغطيه الأنابيب ويحيط به عاملون صحيّون يقلبونه، بجراحه المفتوحة، وسط الشارع فوق بركة دم ويلفت انتباه المارة والسيارات، غير واعٍ وواهن ومحتضر. هو نفسه كان سيشعر بالهول لرؤية نفسه أو لمعرفة أنه معروض في تلك الحالة. كان مدبر مواقف السيارات قد هاج فعلًا، ولكن من كان يمكن له أن يتخيل ذلك مسبقًا، فالأمر يتعلق بقتل رحيم، وربما كان كذلك، ربما كان كل شيء صحيحًا وروبيريث ودياث - باريلا قد تصرفا بطيب نية، ضمن ما هو متاح وضمن تشابكاته. أو ضمن نزقه. ولا شيء سوى تقبل تلك الاحتمالات الثلاثة وتذكري تلك الصورة، داخلني نوع من خمود الهمّة، أو أنه ضجر. عندما لم يكن يعرف ماذا يصدق، ولا يكون أحدنا مستعدًا لأن يقوم بدور التحري الهاوي، لأنه سيتعب عندئذ، يرمي كل شيء بعيدًا عنه، يغادر، يتخلى عن التفكير ولا يهتم بالحقيقة، أو بما هو الشيء نفسه، التعقيد والتضليل. فالحقيقة ليست صافية على الدوام، وإنما هي متشابكة دومًا. حتى المكشوفة والسافرة منها. ولكن في الحياة الواقعية لا أحد يحتاج تقريبًا إلى التحري عنها ولا ينهمك في البحث عن أي شيء، فهذا لا يحدث إلا في الروايات الصبيانية. قمتُ بمحاولة أخيرة، على الرغم من كل شيء، وإن يكن بقرف شديد، متخيلة الرد.

- أيوه. وماذا عن لويسا، زوجة ديفيرني؟ هل سيكون أيضًا فعل رحمة أن يواسيها خابيير ويفرِّج عنها؟

عاد روبيريث دي توريس لإبداء مفاجأته، أو لتصنّعها بإتقان.

- المرأة؟ ماذا جرى لها؟ عن أي مواساة تتحدثين؟ سيساعدها بالطبع، يواسيها قدر ما يستطيع، وكذلك الابنين. إنها أرملة صديق، ويتيماه.

- خابيير مغرم بها منذ زمن طويل. أو أنه سعى لأن يكون كذلك، لا فرق. لقد كان بالنسبة إليه تدخل من العناية الإلهية إزاحة الزوج من الطريق. كان الزوجان متحابان جدًا. ولم تكن لتتوافر له

أدنى فرصة مادام الزوج حيًا. أما الآن فبلى، لديه بعض الفرص. بالصبر، وشيئًا فشيئًا. مع وجوده قريبًا منها.

استعاد روبييريث الابتسامة لبرهة، بلا قوة. كانت نصف ابتسامة مشفقة، كما لو أنه يشعر بالأسى لمدى الضلال الذي أمضي فيه، ومدى سذاجتي، ومدى ضآلة فهمي لمن كان عشيقي.

- ماذا تقولين - ردّ عليّ بازدراء -. لم يقل لي قطّ كلمة واحدة من هذا، ولم ألحظه أنا نفسي. لا تخدعي نفسك، أو لا تعزي تفكيرك بأنه إذا كان قد أنهى علاقته معك فإنما فعل ذلك لأنه يحب أخرى. وحتى هذه النقطة مضحكة. خابيير ليس ممن يُخدعون ويقعون في حب نكرات، إنني أعرفه منذ سنوات. لماذا تظنين أنه لم يتزوج قطّ؟ - وأفلت قهقهة قصيرة أراد لها أن تكون ساخرة -. بالصبر، تقولين بالصبر. هو لا يعرف ما الذي يعنيه هذا، في علاقته مع النساء. ولهذا مازال عازبًا، إضافة إلى أسباب أخرى. - قام بحركة استنكار ورفض بيده -. يا للبلاهة، ليس لديك أدنى فكرة. - ومع ذلك، استغرق في التفكير مجددًا، أو أنه كان يتذكر. كم هو سهل إدخال الشكوك إلى أي شخص.

أجل، الاحتمال الأكبر هو أن دياث - باريلا لم يخبره قطّ بأي شيء، ولا سيما إذا كان قد خدعه. تذكرت أنه عند ذكر لويسا خلال الحديث الذي كنت قد تجسست عليه، لم يُشر إليها باسمها. فأمام روبييريث كنت أنا «خالة»، أما هي بدورها فكانت «الإمرأة»، لا شيء أكثر من هذا، بالمعنى الذي يشير بكل وضوح إلى الزوجة. كما لو أنها ليست بالشخص المقرب لديه. كما لو أنه محكوم عليها بأن تكون هكذا وحسب، إمرأة صديقه. كما أن روبييريث لم يتصادف أن التقى بهما معًا، وبالتالي لم يكن ممكنًا أن يقفز إلى بصره ما بدا لي جليًا منذ اللحظة الأولى، في ذلك المساء في بيت لويسا. أتوقع أن يكون البروفيسور ريكو لقد انتبه إلى الأمر أيضًا، ولكن من يدري، فقد بدا مستغرقًا جدًا بقضاياه الخاصة إلى حدّ قد لا ينتبه معه إلى ما هو خارجها، إنه شخص ساه. لم أشأ الإلحاح. كانت نظرة روبييريث ساهية مرة أخرى، أو مركزة. لم يكن هنالك ما يمكن الحديث فيه أكثر. لقد تخلى عن مغازلاته، وهي بكل تأكيد حقيقية على أي حال، فقد تلقى خيبة كبيرة. وأنا لن أتوصل إلى شيء واضح، إضافة إلى أن الأمر لا يهمني. لقد انتهى إلى إساءة فهمي، على الأقل حتى يوم آخر، أو حتى قرن آخر.

- ما الذي حدث لكَ في المكسيك؟ - سألته فجأة، لأخرجه من ذهوله النسبي، لأشجعه. فقد انتبهت إلى أنه ليس من الصعب التوصل إلى تعاطفه. لم يكن ممكنًا، ولم تكن لدي نوايا بالعودة للقاء به في حياتي، وكذلك دياث - باريلا، وكذلك لويسا آلداي، جميعهم. وآمل ألا تتعاقد دار النشر على كتاب مع ريكو.

- في المكسيك؟ كيف تعرفين أن شيئًا قد حدث لي في المكسيك؟ - كانت هذه مفاجأة كبرى له، فمن المحال أن يتذكر -. خابيير نفسه لا يعرف هذه القصة كلها.

- سمعتك تتكلم عنها في بيته، عندما كانت استمع وراء الباب. وأنك قد وقعت في مشكلة هناك، منذ زمن بعيد. وأنهم يبحثون عنك هناك، أو كان لك ملف شرطي، شيء من هذا القبيل قلته أنت.

- يا للعنة، لقد استمعتِ إذًا - ثم أضاف على الفور، كمن يتعجل توضيح شيء مازلتُ أجهله -: لم يكن ذلك اغتيالًا كذلك، ولا بأي حال. محض دفاع عن النفس، إما هو أو أنا. إضافة إلى أنني كنت آنذاك في الثانية والعشرين من العمر... - قطع كلامه، مدركًا أنه بدأ يتكلم أكثر مما يجب، وأنه مازال يتذكر في الواقع أو يكلم نفسه، ولكن بصوت عالٍ وأمام شاهد. لقد أثر فيه تعليقي، عندما أسميت موت ديسفيرن بعملية اغتيال.

ذُعرت. لم يخطر ببالي قط أنه يحمل على كاهله وز جثة أخرى، مهما كانت الطريقة التي حدث بها ذلك. لقد بدا لي أنه محتال عادي، أعجز من أن يرتكب جرائم دموية، كنت أرى مقتل ديفيرني كأمر استثنائي، كشيء شعر بأنه مضطر لفعله، كما أنه في نهاية الأمر لم يمسك سلاحًا، لقد فوَّض سواه، وكان دوره أقل قليلًا من دور ديات - باريلا.

- أنا لم أقل شيئًا - أجبته بسرعة -. لقد سألتك فقط، لا أدري ما الذي تتكلم عنه. ولكنني أفضل عدم معرفة ذلك، إذا ما كان هناك ميت آخر في الموضوع. فلننس الأمر. يبدو أنه يجب عدم توجيه أسئلة بأي حال. - نظرتُ إلى الساعة. وشعرت فجأة بعدم الراحة لجلوسي حيث اعتاد ديسفيرن الجلوس، أتبادل الحديث مع قاتله غير المباشر -. كما أنه يجب عليّ أن أذهب، فقد تأخر الوقت.

لم يولِ اهتمامًا لكلماتي الأخيرة، كان لا يزال يفكر. لقد أدخلتُ إليه الشك، كنت أرجو ألا يذهب الآن لاستجواب ديات - باريلا بشأن لويسا، وطلب الحساب منه، فيؤدي ذلك إلى أن يتصل بي مرة أخرى، وما أدراني أنا، من أجل تأنيبي. أو أن روبيريث قد استغرق في تذكر ما حدث في المكسيك منذ قرون، من الجلي أن الأمر مازال يُثقل عليه.

- حدث ذلك بسبب الفيس بريسلي، أوَتدرين؟ - قال بعد ثوانٍ، بنبرة أخرى، كما لو أنه قد رأى فجأة وسيلة أخيرة لإدهاشي، وعدم ذهابه بلا طائل بالكامل. قالها بجدية كبيرة. فضحكتُ قليلًا، لم أستطع تجنب ذلك؟

- أتعني إلفيس بريسلي شخصيًا؟

- أجل، عملت معه حوالي عشرة أيام، أثناء تصوير فيلم في المكسيك.

الآن أطلقتُ بالفعل قهقهة سافرة، على الرغم من قتامة السياق كله.

- أيوه - قلت وأنا لا أزال أضحك -. وهل تعرف كذلك في أي جزيرة يعيش، ومع من هو متخفٍّ، أمع مارلين مونرو أم مايكل جاكسون؟

انزعج، وجّه إليّ نظرة قاطعة. تضايق حقًا، لأنه قال لي:

- أنت بلهاء أيتها «الخالة». ألا ترين ذلك؟ عملتُ معه، وأدخلني في ورطة كبيرة.

صار أكثر جدّية مما كان عليه في أي لحظة أخرى. لقد انزعج، غضب. لا يمكن لذلك أن يكون حقيقيًا، له وقع الخيال، الهذيان؛ ولكن يبدو واضحًا أنه يأخذه على محمل الجد. تراجعتُ كيفما استطعت.

- حسنًا، حسنًا، اعذرني، لم أكن أريد إغضابك. ولكن للأمر وقع ما هو غير معقول، أليس كذلك؟ أنت تتفهم ذلك. - ثم أضفتُ، كي أبدل الموضوع دون أن أغادره فجأة، ودون أن أقوم بتراجع يدفعه إلى التفكير بأنني أعتبر ما قاله مستحيلًا أو أنني أعتبره مختلًا -: اسمع، كم كان عمرك آنذاك إذًا، إذا كنت تعمل مع الملك لا أقل؟ لقد مات منذ سنوات غير قليلة، أليس كذلك؟ خمسون عامًا؟ - مازالت الضحكة تتفلت مني، استطعتُ كبحها، لحسن الحظ. لاحظتُ على الفور أنه استعاد شيئًا من تودده. ولكنه أنّبني مع ذلك، أولًا.

- لا تبالغي. يوم 19 آب/أغسطس القادم سيكون قد مرّ أربعة وثلاثون عامًا، على ما أعتقد. لا أظنها أكثر - كان يعرف ذلك بدقة، لا بد أنه معجب ورع بكل المقاييس -. فلنر، كم تقدّرين عمري؟

أردتُ أن أكون لطيفة، من أجل تهدئته. دون أن أبالغ في ذلك، كيلا أستثير شكوكه.

- لا أدري. خمسة وخمسون عامًا؟

ابتسم ممتنًا، كما لو أنه قد نسي الإهانة. ابتسم كثيرًا إلى حدّ عادت معه شفته العليا إلى الانفلات عاليًا مرة أخرى، كاشفة عن أسنانه البيضاء المنتظمة والسليمة، وعن لثتيه.

- أضيفي عشر سنوات أخرى على الأقل - ردّ راضيًا -. أجل، كيف ترين الأمر؟

إنه في حالة جيدة إذًا. فيه شيء طفولي، ولهذا يبدو استلطافه سهلًا. ربما هو ضحية أخرى من ضحايا دياث - باريلا الذي أخذت بالاعتياد على التفكير به ليس باسمه الذي قلته وهمست به في أذنه مرات كثيرة، وإنما بلقبه. هذا تصرف طفولي أيضًا، ولكنه يفيد في النأي عن أولئك الذين كانوا محبوبين.

وكان أن بدأتْ منذ ذلك الحين عملية التخفيف حقًا، بعد أول فصل عدم تفاهم، بعد التفكير أول مرة - أو دون الوصول إلى التفكير في الأمر، ربما لم تكن له علاقة بالعقل وإنما بالحالة المعنوية، أو بالشجاعة المحضة -: «وماذا يهمني أنا في الواقع، ما الذي سيمنحني إياه ذلك كله». فهذا في متناول أي شخص دومًا، حيال أي حدث مهما كان قريب العهد وخطيرًا، ومن لا ينفضون عنهم الأحداث فإنما لأنهم، في العمق، لا يريدون ذلك، لأنهم يتغذون عليها ويكتشفون أنها تضفي مغزى على حيواتهم، تمامًا مثل من يحملون بمتعةٍ ثقل الموتى اللجوج، مستعدين جميعهم للمراقبة بفضول، ومتطلعين جميعهم إلى أن يكونوا شابيرات على الرغم من التفاهات والإنكار والإيماءات الملتوية التي سيُستقبلون بها إذا ما تجرؤوا على العودة الكاملة.

العملية بطيئة بالطبع، وهي مكلفة طبعًا ولا بد من الإرادة والجهد، وعدم السماح لأنفسنا بتلمس الذاكرة التي تعود بين حين وآخر متنكرة بهيئة ملاذ وملجأ في معظم الأحيان، لدى المرور في شارع ما أو شم رائحة عطر أو سماع لحن، أو لدى رؤية أنهم يعرضون في التلفزيون فيلمًا جرى الاستمتاع بمشاهدته مع الرفقة. لم أرَ أي فيلم قطّ برفقة دياث - باريلا.

أما في مجال الأدب، وقد كانت لنا فيه تجارب مشتركة، فقد تداركتُ الخطر بتحملي مسؤوليته، وذلك بمواجهته في الحال: فمع إن دار النشر كانت تنشر عادة لمؤلفين معاصرين، إلا أنني لسوء حظ القراء وحظي، أقنعتُ أوجيني بأن نعدّ بأقصى سرعة طبعة جديدة لرواية الكولونيل شابير، بترجمة جديدة وجيدة جدًا (فالطبعة الأخيرة كانت بالغة السوء بالفعل)، وأن نضيف إليها ثلاث قصص قصيرة لبلزاك كي نتوصل إلى كتاب بغلاف مقوى، لأن هذه الرواية قصيرة جدًا، وهي من النوع المسمى بالفرنسية nouvelle. وبعد شهور قليلة صار الكتاب في المكتبات وبهذا تلاشيت أنا من ظله، بإصداره إلى النور بلغتي وفي أفضل شروط، واستطعت بعد ذلك نسيانه. أو أكدت لنفسي على الأقل أنني لن أمسك نفسي قطّ متلبسة في خيانة، ولو بصورة مفاجئة.

كنت على وشك ترك العمل في دار النشر بعد هذه المناورة، كيلا أواصل الذهاب إلى الكافتيريا، بل كيلا أواصل كذلك رؤيتها من مكتبي، حتى ولو كانت الأشجار تحجبها جزئيًا عن ناظري؛ وكيلا يذكّرني أي شيء بأي شيء. وكنت متعبة كذلك من الصراع مع الكتّاب الأحياء - يا لروعة من هم غير قادرين على الازعاج ولا محاولة ترتيب مستقبلهم، مثلما هي حال بلزاك الذي أنهى ما عليه -؛ ومن اتصالات كورتيثو الهاتفية السمجة، ومن مطالب المقيت والبخيل غاراي فونتينا، ومن العجرفة السيبرنتيكية للكتاب الشباب الزائفين، المتبارين في من هو أشد جهلًا وفظاظة وتنطعًا، كل ذلك في آن واحد. لكن العروض الأخرى، من دار نشر منافسة، لم تقنعني على الرغم من تحسين الأجر: ففي كل مكان آخر سيكون عليّ مواصلة التعامل مع كتّاب ذوي طموحات مفرطة ويتنفسون الهواء نفسه الذي أتنفسه. كما أن أوجيني، فوق ذلك، قد صار متكاسلًا بعض الشيء ونَسَّاء، صار يعتمد عليّ أكثر فأكثر ويفوّضني باتخاذ قرارات، وكنت أجاريه في ذلك: واثقة من أنه سيأتي عما قريب اليوم الذي يستطيع فيه صرف النظر عن بلاهة شخص مغرور حتى دون أن يعتذر منه، وبخاصة من سوط الملك كارل غوستاف الوشيك، الذي سيهذب له خطابه باللغة السويدية المعكرونية (من سمعوه وهو يُجري التجارب يؤكدون أن نبرة صوته شنيعة). ولكنني

أدركت، قبل كل شيء، أنه يجب عليّ عدم الهروب من ذلك المشهد، دون أن أسيطر عليه بوسائلي الخاصة مثلما فعلتْ لويسا ببيتها، مجبرة نفسها على مواصلة العيش فيه وعدم الإسراع بالانتقال منه؛ وتجريده من أكثر دلالاته عاطفية وحزنًا، إضفاء لمسات يومية جديدة عليه، إعادة تكوينه. أجل، تنبهتُ إلى أن ذلك المكان قد صبغني بإحساس معين، وهذا أمر من المحال الخداع فيه أو القفز عنه، ولا حتى بما يشبه التخيل. من الممكن فقط التوصل إلى علاقات حسنة معه وتهدئته.

مرت سنتان تقريبًا. تعرفت على رجل آخر استثار اهتمامي وشغلني بما يكفي، يدعى جاكوب (وهو ليس كاتبًا كذلك، الشكر للسماء)، التزمت معه بإلحاح منه، ووضعنا خططًا متمهلة للزواج، وكنت أؤخر ذلك دون إلغاءه، لم أكن ميّالة إلى الزواج أبدًا، وقد أقنعني بذلك عمري - ثلاثون عامًا وعدد كبير من السنوات - أكثر من رغبتي في الاستيقاظ بوجود من يرافقني يوميًا، وهذا ما لا أرى فيه الكثير من الظرافة، ولكنه لن يكون سيئًا كذلك، كما أفترض، إذا كنت أحب من ينام إلى جانبي، مثلما هي - كيف لا - حالتي. هنالك أمور في دياث - باريلا مازلت أشعر بافتقادها، وهذه مسألة أخرى. فهو لا يُشعرني بسوء النية، لا شيء يتحول إلى عدم التوافق في ميدان الذكرى.

كنتُ أتناول العشاء مع مجموعة من الناس في المطعم الصيني بفندق بالاس عندما رأيتهما، على بُعد، فلنقل، ثلاث أو أربع مناضد. كانت إمكانية رؤية كليهما جيدة من موقعي، وكانا يظهران لي جانبيًا، كما لو أنني في فناء مقاعد وهما على منصة، ولكن على مستوى الارتفاع نفسه. الحقيقة أنني لم أرفع عيني عنهما - كانا أشبه بمغناطيس -، اللهم إلا عندما كان أحد المدعوّين يتوجه إليّ بالكلام، وهو ما لم يكن يحدث بكثرة: كنا آتين من حفل تقديم رواية جديدة، عدد من الحضور كانوا من أصدقاء المؤلف المزهو ولم أكن أعرفهم بأي حال؛ ينشغلون فيما بينهم ولا يسببون لي تقريبًا أي إزعاج، كنتُ موجودة هناك كممثلة لدار النشر، وكان عليّ أن أتولى مسألة تسديد فاتورة العشاء، طبعًا؛ معظم الحضور كانوا فلامينكيين بطريقة غريبة، وأخشى ما كنتُ أخشاه أن يُخرجوا جيتاراتهم من مخبأ غريب ما وينطلقوا في الغناء باندفاع، ما بين كل طبق وآخر. هذا الأمر، فضلًا عن الحر الخانق، جعل لويسا ودياث - باريلا، وكان كل منهما متنبهًا للآخر كما لو أنهما يفعلان ذلك ليدققا في حضوري وسط اجتماع حلزونات. مع أنني فكرت في أنها قد لا تتعرف عليّ. كانت هناك لحظة فقط انتبهتْ فيها خطيبة الروائي المحتفى به إلى أنني أنظر دون توقف نحو نقطة محددة. استدارت نصف استدارة دون مواربة وراحت تراقبهما، لخابيير ولويسا. أقلقني أنها قد تنبههما بعينيها العفويتين، ووجدت نفسي مضطرة إلى أن أوضح لها:

- عذرًا، إنهما شخصان أعرفهما، ولم أرهما منذ قرون. لم يكونا زوجين آنذاك. لا تأخذي الأمر على محمل السوء، أرجوكِ. أشعر بفضول غريب لرؤيتهما هكذا، لا بد أنكِ تفهمينني.

- لا شيء من هذا يا امرأة، لا شيء - ردتْ عليّ متفهمة بعد أن ألقتْ عليهما نظرة أخرى متهوّرة. لقد فهمتْ ما هو الوضع فورًا، لا بد أنني أكون في بعض اللحظات شديدة الشفافية -. وسيم هو، أليس صحيحًا؟، لا أستغرب ذلك. لا شيء يا بنية، اهتمي بما يهمك، أنت وشأنك. أما أنا فلا يعنيني شيء من هذا.

أجل، يبدو واضحًا أنهما زوجان، هذا أمر يقفز إلى النظر عادة حتى في حالة الأشخاص المجهولين تمامًا، وأنا كنت أعرف الرجل جيدًا، أما هي فلا، تبادلت معها حديثًا مطولًا مرة واحدة فقط - أو أنها تحدثت فيه هي وحدها، لا بد أنني كنتُ قابلة للاستبدال في ذلك اليوم، محض كراهية -، قليل جدًا في الواقع. لكنني تأملتها في تصرف مماثل طوال سنوات، هذا يعني وهي مع زوجها في ذلك الحين، وقد مضى على موته الآن ما يكفي لأن لا تفكر لويسا بنفسها لأول وهلة، كحالة محددة: «لقد صرت أرملة» أو «أنا أرملة»، لأنها لن تكون كذلك مطلقًا، وكان يمكن لهذا الواقع، ولهذه المعلومة أن يتبدلا، أن يكونا متطابقتين كما في السابق. وهكذا ربما تقول: «فقدت زوجي الأول وفي كل يوم ينأى عني أكثر. منذ وقت طويل لم أعد أراه بينما هذا الرجل بالمقابل موجود هنا إلى جانبي، فضلًا عن أنه موجود دومًا. وأسميه أيضًا زوجي، هذا غريب. ولكنه احتل مكانه في فراشي وحين يكون بجواري يجعله يتلاشى ويمحوه. وبصورة أكثر قليلًا كل يوم، أكثر قليلًا كل ليلة». لقد رأيتهما معًا، مرة واحدة كذلك لكنها كافية للمس العشق واهتمامه هو وعدم مبالاتها وغفلتها. أما الآن فكل شيء مختلف. كل منهما متعلق بالآخر، يتبادلان الحديث بحيوية، يتبادلان النظر بالعيون أحيانًا دون حاجة إلى كلمات، ويمسك كل منهما أصابع الآخر عبر المنضدة. هو يضع خاتم زواج في إصبعه البنصر، لقد تزوجا مدنيًا، من يدري متى، ربما في وقت قريب جدًا، ربما أول أمس، أو أمس بالذات. هي تتمتع الآن بمظهر أفضل، أما هو فلم تتردى حالته، هناك يجلس ديات - باريلا بشفتيه المعهودتين، تابعتُ حركاتهما عن بعد، هنالك عادات لا تُفقد أو أنها تُستعاد على الفور، كما لو أنها تلقائية. ودون إرادة مني قمت بحركة بيدي، كمن تريد لمسهما عن بعد. خطيبة الروائي، وهي الوحيدة التي كانت توجه إليَّ نظرات خاطفة، انتبهت إلى حركة يدي وسألتني بلطف:

- المعذرة، هل تريدين شيئًا؟ - ربما ظنّتْ أنني قد أومأت إليها.

- لا، لا، لا تهتمي. - وحركت يدي كأنني أضيف: «إنها أمور خاصة بي».

لا بد أنني كنت أبدو مرتبكة، ليس بقدر ما أنا غاضبة. لحسن الحظ أن المدعوين الآخرين كانوا يتبادلون الأنخاب دون توقف وتتعالى أصواتهم دون إظهار أي اهتمام. بدا لي أن أحدهم أخذ يترنم بصورة مثيرة للقلق («آي، يا صغيرتي، يا صغيرتي، يا عذراء الميناء»، هذا ما توصلتُ إلى سماعه)، لا أدري لماذا يقدمون تلك الصورة النمطية، الروائي لم يكن هكذا، إنه شخص بكنزة ذات معينات، ونظارة مُغتَصِب أو مهووس ومظهر شخص مُعَقَّد، لا سبيل إلى فهم كيف يمكن أن تكون له خطيبة لطيفة وحسنة المظهر، وأن كتبه تباع بكثرة - غش مع إدعاء، كل منهما -، لهذا السبب جئنا به إلى مطعم غالٍ بعض الشيء، توسلتُ - دعاء إلى عذراء الميناء، على الرغم من أنني لا أعرفها - ألا يمضي الغناء إلى ما هو أبعد من ذلك، لا أرغب في أن أكون شاردة الذهن. لا يمكنني إبعاد عيني عن المنضدة كما لو أنها منصّة عرض، وفجأة بدأت تتكرر جملة واحدة من تلك الصحف التي صارت قديمة، الصحف التي حملتْ الخبر خلال يومين تعيسين ثم صمتت عنه بعد ذلك إلى الأبد: «بعد صراع استمر نحو خمس ساعات بين الحياة والموت، دون أن يسترد الوعي في أي لحظة، توفي الضحية في أولى ساعات الليل، دون أن يتمكن الأطباء من عمل أي شيء لإنقاذه».

«خمس ساعات في غرفة عمليات»، فكرت. «من غير المعقول، بعد خمس ساعات، ألا يكونوا قد اكتشفوا انتشارًا عامًا لداء في الجسد كله، مثلما قال خابيير أن ديسفيرن قد أخبره». وعندئذ ظننتُ

أنني أرى بوضوح - أو بمزيد من الوضوح - أن ذلك الداء لم يكن له أي وجود قطّ، اللهم إلا إذا كانت معلومة الساعات الخمس زائفة أو خاطئة، أخبار الصحف لا تتفق حتى على اسم المستشفى الذي نُقل المحتضر إليه. لا معلومات قاطعة بكل تأكيد، ورواية روبيبريث لم تكذّب رواية دياث - باريلا على أي حال. ولكن هذا لا يعني الكثير أيضًا، فالأمر يعتمد على كمية الحقائق التي كشف له عنها عند تكليفه بالمهمة الدموية. أظن أن النزق هو ما قادني إلى هذا الاعتقاد الآني للحظة - أم أنه استمر أكثر من لحظة، كان ذلك لبرهة في المطعم الصيني - وبرؤيته الآن بوضوح أكبر (لقد عدت فيما بعد لرؤيته أكثر قتامة وأنا في بيتي، حيث لم يعد الثنائي حاضرًا وحيث ينتظرني جاكوب). مضيتُ مغتاظة، هذا ما أظنه، بعد أن تأكد لي أن خابيير قد حقق ما أراد، عندما اكتشفت أنه قد توصل إلى ذلك، مثلما كان يتوقعه. ففي نهاية المطاف كنت أشعر نحوه بشيء من الاستياء، لأنني كنت أحتفظ بآمال أكثر من أي وقت مضى ولا يمكن لي أن أُحمّله وزر أنه كشف لي أنها كانت آمالًا زائفة. لم يكن ما أشعر به سخطًا أخلاقيًا، ولا تعطشًا إلى العدالة، بل شيء أكثر بدائية بكثير، ربما شيء بائس وخسيس. فالعدالة والجَوْر لا يستثيران اهتمامي. لا شك أن غيرة سابقة مستعادة قد داخلتني، أو أنه كان غيظًا، يخيل إليّ أن لا أحد بمنجى من ذلك. وفكرتُ، انظري إليهما، إنهما هناك بعد انقضاء الصبر والوقت: هي مستعيدة حيويتها وسعيدة، وهو مبتهج. إنهما متزوجان، وقد نسيا ديفيرني ونسياني، مع أنني لم أكن أشكل أي عبء عليهما. أمسك في يدي مسألة تقويض ذلك الزواج الآن بالذات، ويمكنني أن أدمر حياته التي بناها، كمغتَصِب، هذا هو المصطلح الدقيق: مغتصِب. يكفي أن أنهض وأقترب من منضدتيهما وأقول له: «ما هذا، لقد حصلت أخيرًا على ما أردته، أزحتَ العقبة جانبًا دون أن تخامرها هي أية شكوك». ليس عليّ أن أضيف أي شيء آخر، ولا أن أقدّم أي تفسير، ولا أن أروي القصة كاملة، بل أستدير وأنصرف. سيكون هذا كافيًا، بنصف الكلمات هذه، سأزرع الريبة في نفس لويسا وهي من ستطلب منه الحسابات العسيرة جدًا. أجل، من السهل إدخال الشك إلى نفس أي شخص».

ما إن فكرت في هذا - لكنني ظللت أفكر فيه لدقائق عديدة، أكرره كأغنية تتسرب إلينا، وهكذا كنت أشتعل بصمت، بعينين مصوَّبتين إليهما، لا أدري كيف لم ينتبها إليهما، كيف لم يشعرا بأنهما يحترقان ويُخترقان، لا بد أن عينيّ كانتا كجمرتين أو كإبرتين -؛ ما إن انتهيت من التفكير في ذلك، دون أن أريده أو دون أن أقوله، بالطريقة نفسها التي لم أشأ أن أقوم بيدي بحركة لمس شفتيه، نهضتُ واقفة دون أن أفلت فوطة المائدة وقلت لخطيبة النَصّاب المحتفى به، وهي الوحيدة التي مازلت موجودة في نظرها ويمكن لها أن تنتبه لغيابي، إذا ما تأخرتُ:

- المعذرة، سأعود بعد قليل.

الحقيقة أنني لم أكن أعرف ما هي النية التي كانت تقودني أم أن تلك النية راحت تتبدل بسرعة كبيرة عدة مرات، بينما أنا أخطو الخطوات - واحدة، اثنتان، ثلاث - التي تفصل بين منضدتي ومنضدتهما. أعرف أنه قد خطرت لذهني تلك الفكرة العابرة، والتي تحتاج إلى بطء أكبر بكثير للتعبير عنها، بينما أنا أمشي دون أن أنتبه - أربع، خمس - إلى أنني أحمل فوطتي المجعدة والملوثة في يدي: «هي لا تكاد تعرفني وليس لديها ما يدعوها لأن تحدد من أكون إلى أن أقدّم نفسي وأقول ما سأقوله، فبعد انقضاء كل ذلك الزمن الطويل، سأكون في نظرها مجهولة تقترب. إنه هو من يعرفني جيدًا وسيتعرف عليّ في الحال، ولكن نظريًا، أمام عيني لويسا، ستكون لديه أسباب أقل لتذكري. فأنا وهو، نظريًا، لم يرَ أحدنا الآخر سوى مرة واحدة ودون أن نكون قد تبادلنا ولو كلمة واحدة، عندما كنا كلينا في زيارة لبيتها، ذات مساء قبل أكثر من سنتين. عليه أن يتظاهر بأنه يجهل من أكون، خلاف ذلك سيبدو غريبًا في حالته. وهكذا فإن في يدي نزع القناع عنه من هذه الناحية أيضًا، نحن النساء ننتبه عادة على الفور إذا ما دنت امرأة أخرى منا لتسلم على من هو معنا ونعرف إذا ما كانت قد أقامت علاقة سابقة معه. اللهم إلا إذا كان الاثنان يداريان ذلك بإتقان كامل ولا يكشفان نفسيهما. واللهم إلا إذا أخطأنا، فصحيح أيضًا أن بعضنا نميل إلى أن ننسب إلى أزواجنا علاقات مع حشود عشيقات سابقات، ولا نكون على صواب دوامًا».

مع تقدمي - ست، سبع، ثمان، كنت قد مررت بمحاذاة بعض المناضد وتجاوزتُ ندلًا صينيين مسرعين، لم يكن الطريق خطًا مستقيمًا - صرت أراهما بصورة أفضل، ورأيتهما سعيدَيْن ومطمئنين، مستغرقين في حديثهما، وأقرب إلى أن يكونا غير عابئين بكل ما هو ليس منهما. شعرت لدى لويسا، خلال إحدى خطواتي، شيئًا يشبه السعادة، أو ربما الرضا، أو أنه شعور بالراحة. المرة الأخيرة التي رأيتُها فيها، منذ زمن طويل، أوحت إليّ بأسى عظيم. تكلمتْ إليّ في أذني بأنها لا تستطيع أن تشعر بالكراهية نحو مدبر مواقف السيارات «لا، كراهيته لا تنفع، لا توفر عزاء ولا تمنح قوة»، قالت لي. وما كان يمكن لها أن تشعر بالكراهية نحو قاتل مأجور، شخص تجريدي وصل للتو، لو أن واحدًا منهم هو من قتل ديفيرني، بتكليف. ثم أضافت: «ولكن بلى، تجاه من دفعوه»، وكنتُ قد قرأتُ جزءًا من تعريف معجم كوباروبياس لكلمة «حسد»، الذي يرجع إلى العام 1611، متحسّرة أنه لا يمكن حتى أن يكون هذا هو السبب في موت زوجها: «الأسوأ هو أن هذا السّم - الحسد - يتولد عادة في صدور من هم أقرب الأصدقاء إلينا، ومن نتعامل معهم كأصدقاء ونثق بهم؛ بينما هم أشد أذى من الأعداء المعلنين». وبعد ذلك مباشرة اعترفتْ لي: «إنني أشتاق إليه دون توقف، أتدرين؟ أشتاق إليه عندما أستيقظ وعندما أنام وعندما أحلم وطوال النهار، وكأنني أحمله معي بلا توقف، كما لو أنه مُتَضمّن في جسدي». وعندئذ فكرتُ، بينما أنا أقترب - تسع، عشر -: «لن تكون كذلك الآن، لقد تحررتْ من جثته، تحررت من ميتها، من شبحه، وأنه أحسن صنعًا، لأنه لم يرجع. لديها الآن أحدهم أمامها ويمكن لكليهما أن يخفيا قدرهما بالتبادل، مثلما يفعل العشاق حسب بيت شعر أتذكره بصورة سيئة، شيء كهذا ما يقوله بيت الشعر القديم ذاك الذي قرأته في مراهقتي. لن يكون فراشها محزونًا، ولن يكون مُفجعًا، ففيها سيدخل جسد حي كل ليلة، أنا من أعرف جيدًا وزنه، وكم كان لطيفًا جدًا الإحساس به».

رأيت أنهما قد التفتا بينما كنت أخطو الخطوات الأخيرة ولمحا كتلتي وظلي - إحدى عشرة، اثنتا عشرة وثلاث عشرة -، نظر هو بذعر، كمن يتساءل: «ما الذي تفعله هذه هنا؟ من أين خرجتْ؟ وما سبب مجيئها، أتريد كشف أمري؟». أما هي فلم ترَ ملامحه تلك، لأنها كانت تنظر إليّ بمودة، وبابتسامة بلا تحفّظ، ابتسامة واسعة جدًا ودافئة، كما لو أنها قد تعرفت عليَّ فورًا. وقد كان الأمر كذلك فعلًا، لأنها هتفت:

- الشابة الرصينة! - بدا مؤكدًا أنها لا تتذكر اسمي.

نهضتُ واقفة على الفور لتُقَبّل وجنتي وتعانقني تقريبًا، مودتها تلك كبحت بقوة كل نية محتملة لدي للقول لدياث - باريلا أي شيء يمكن أن يحوّل لويسا ضده، أو يجعلها تنظر إليه بارتياب أو بذهول أو بقرف، أو يحملها على كره المحرّض مثلما كانت قد أخبرتني؛ لن أقدم على شيء يدمر حياته هو وبالتالي يدمر حياتها هي من جديد ويدمر زواجهما معًا، لقد خطر لي فعل ذلك، منذ قليل. وفكرت: «من أكون أنا كي أعكر صفو الكون؟ حتى لو كان آخرون يفعلون ذلك، مثل هذا الرجل الذي يجلس أمامي، يتظاهر بعدم معرفتي بالرغم من أنني قد أحببته ولم أُلحق به أي أذى قطّ. وإذا كان آخرون يثيرون في الكون القلاقل، يزعزعونه وينتهكونه بأسوأ أساليب العنف، لن يضطرني ذلك إلى أن أحذو حذوهم، ولا حتى بذريعة أنني، على العكس منهم، أقوم بتصويب فعل خاطئ وأعاقب مذنبًا محتملًا، وأنجز فعل عدالة». لقد قلت من قبل إن العدالة والجَوْر لا يعنيان لي شيئًا. لماذا يجب أن يكونا موضع اهتمامي، إذا ما كان دياث - باريلا محقًّا في أمر ما، ومثله المحامي ديرفيل في عالمه الروائي المتخيل وفي زمانه الذي لا ينقضي ويظل راكدًا، فإن ذلك في هذا الكلام الذي قاله لي: «عدد الجرائم التي تفلت من العقاب يفوق كثيرًا عدد تلك التي يُعاقَب عليها؛ دون الحديث عن الجرائم المجهولة والخفية، ولا بد لهذه أن تكون بكل تأكيد أكثر بما لا يقاس من الجرائم المعروفة والمسجلة». وربما في هذا القول أيضًا: «الأسوأ أن كثيرًا من الأفراد المختلفين من أي عصر أو بلاد، كل منهم لحسابه ومسؤوليته، غير معرَّضين من حيث المبدأ للعدوى المتبادلة، وتفصل فيما بينهم كيلومترات أو سنوات أو قرون، وكل منهم بأفكاره وأهدافه الخاصة، يتفقون في الاجراءات نفسها للقيام بالسرقة، والاحتيال، والقتل أو الخيانة ضد أصدقائهم، رفاقهم، أخوتهم، آبائهم، أبنائهم، أزواجهم، نسائهم أو عشاقهم الذين يريدون التخلص منهم. ضد أولئك الذين من المحتمل أنهم كانوا الأحب إليهم ذات يوم. جرائم الحياة المدنية مقنَّنة وموزعة، واحدة هنا، أخرى هناك؛ وحين تحدث بطريقة التنقيط تبدو كما لو أنها تهدئ السماء بقدر أقل ولا تتعالى موجات الاحتجاج مهما توالى حدوثها: كما لو أن المجتمع قد تعايش معها وتطبع بطابعها منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة». لماذا عليَّ أنا أن أتدخل، أو ربما أخالف، أن يُعالج نظام الكون بهذه الطريقة. لماذا يجب الوشاية وربما يجب الوشاية بواحد منفرد ليس لدي دليل راسخ ضده، لا شيء مؤكد بالكامل، فالحقيقية متشابكة على الدوام. وإذا ما كانت جريمة حقيقية مع سبق الترصد وبدم بارد، بهدف وحيد هو شغل مكان مشغول، فإن المتسبب يتولى، على الأقل، تقديم العزاء للضحية، أعني الضحية التي تظل حية، أرملة ميغيل ديسفيرن، رجل الأعمال الذي لم تعد تشتاق إليه كثيرًا: لا عند الاستيقاظ ولا عند النوم، لا عند الحلم ولا طوال النهار. فلسوء الحظ أو لحسن الحظ أن الموتى ثابتون كما لوحات الرسم، لا يتحركون، لا يضيفون شيئًا، لا يقولون شيئًا ولا يردّون قطّ. ويسيؤون التصرف إذا ما رجعوا، من يستطيعون ذلك منهم. وهذا ما لا يستطيعه ديفيرني، وهو أفضل له.

زيارتي لمنضدتهما كانت قصيرة جدًا، تبادلنا بضع جمل قليلة. دعتني لويسا للجلوس معهما قليلًا، اعتذرتُ متذرعة بأن هناك من ينتظرونني على منضدتي، لا شيء أكثر زيفًا من هذا القول، اللهم إلا من أجل دفع الحساب. عرَّفتني على زوجها الجديد، لم تكن تتذكر نظريًا أننا، هو وأنا، قد التقينا في بيتها، فقد كان بالنسبة إليها في الظل آنذاك. لم ينعش أي منا الذاكرة، لا فرق، فلا حاجة إلى ذلك. نهض ياث - باريلا معها في الوقت ذاته تقريبًا، تبادلنا قبلتين مثلما هي العادة في إسبانيا بين رجل وامرأة لا يعرف أحدهما الآخر، عندما يجري تقديم كل منها للآخر. امّحت ملامح الذعر عن وجهه، حين رأى أنني متكتمة وأؤدي دور تمثيل إيمائي. عندئذ نظر إليّ أيضًا بمودة، وبصمت، بعينيه المشقوقتين والغائمتين والمُطوَّقتين غير القابلتين للتفسير. نظرا إلي بمودة، لكنهما لن يشتاقا إليّ. لن أنكر أنني أحسست بغواية التأخر لبعض الوقت معهما على الرغم من كل شيء، وبألا أغيّبه عن نظري بعد، بأن أتلكأ هناك بفتور. ليس عليّ ذلك، يجب ألا أفعل، فكلما تأخرت أكثر معهما يكون هناك احتمال أكبر بأن تلتقط لويسا أثرًا ما، بقية ما، جذوة ما في نظرتي: تفلت مني لتتجه إلى حيث اعتادت التوجه دومًا، إنه أمر لا مفر منه وغير إرادي بكل تأكيد، وأنا لا أريد التسبب بأي أذى.

- يجب أن نلتقي ذات يوم، اتصلي بي، مازلتُ أسكن في المكان نفسه - قالت لي بمودة صريحة، دون أن ترتاب بأي شيء. كانت واحدة من تلك العبارات التي يقولها الناس لدى تبادل الوداع وينسون بعضهم بعضًا على الفور بعد الوداع. فأنا لن أعود إلى ذاكرتها، إذ إنني مجرد شابة رصينة عرفتها بالرؤية، أكثر من أي شيء آخر، وخلال حياة أخرى. وأنا لم أعد حتى شابة الآن.

أما هو، ففضلت عدم الاقتراب منه للمرة الثانية. بعد تبادل القبلات الجديدة الواجبة معها، خطوتُ على الفور خطوتين باتجاه منضدتي، بينما كنت لا أزال أرد عليها ملتفتة برأسي نحوها («أجل، بالطبع، سأتصل بكِ ذات يوم. لا تدرين كم أنا سعيدة بكل هذا»)، كي أصير على مسافة قريبة، وعندئذ قلت له وداعًا بحركة من يدي. هذه الحركة في عيني لويسا كانت وداعًا موجهًا لكليهما، أما أنا فكنت أودع خابيير، الآن أجل، الآن بصورة نهائية وحقيقية، لأن لديه امرأته إلى جانبه. وبينما أنا راجعة إلى بلاهة عالم النشر الذي تركته للتو، قبل دقائق فقط - لكنها بدت لي فجأة أنها طويلة جدًا -، فكرتُ، كما لو أنني أبرر لنفسي: «أجل، أنا لا أريد أن أكون زهرة زنبقِهِ الملعونة على كتفه، ذلك الوسم الذي يشي ويشير ويحول دون اختفاء حتى أقدم جريمة؛ فلتكن المادة الماضية بكماء ولتَذُب أو تختفي وليُسكت عنها فلا تُروى ولا تُستحضر نكبات آخرى. ولست أريد كذلك أن أكون مثل الكتب الملعونة التي أمضيت حياتي بينها، فزمنها راكد ويترصد مغلقًا على الدوام، ومطالبًا بأن يرفع الغطاء عنه كي يتكرر حدوثه مجددًا ويروي مرة آخرى قصته القديمة المكرورة. لا أريد أن أكون مثل تلك الأصوات المكتوبة التي كثيرًا ما تبدو زفرات مكتومة، تأوهات أنين منطلقة من عالم جثث نرقد وسطه جميعنا، حين نسهو. ليس كثيرًا ولا فائضًا أن بعض الأحداث المدنية، إذا لم يكن معظمها، تظل بلا تسجيل، تظل مجهولة، مثلما هو العُرف. سعي البشر يكون مناقضًا عادة، ومع ذلك، وبالرغم من أنهم يُخفقون مرات كثيرة: فإن وسم زهرة الزنبق بالنار، هذا الوسم الذي يؤبد ويتهم ويدين، ربما يؤدي كذلك إلى توالي مزيد من الجرائم. ومن المؤكد أن هذا هو ما كانه هدفي أيضًا مع أي شخص آخر، أو معه هو نفسه، لو لم أقع في الغرام وأعشق من قبل، ببلاهة وبصمت، ومازلت اليوم أحبه قليلًا، على ما أتوقع، على الرغم من كل شيء، وكل شيء أمر كبير. سينقضي، إنه يمضي، ولهذا لا يهمني أن اعترف به. يتوافق مع إفراغ

شحنتي أنني رأيته للتو حين لم أكن أتوقع ذلك، بمظهر جيد وسعيد». وواصلتُ التفكير، بينما أنا أوليه ظهري وأبتعد عنه إلى الأبد بخطواتي وكتلتي وظلي إلى الأبد: «أجل، لن يحدث شيء بتعرفي عليه. ففي نهاية المطاف لن يحاكمني أحد، ولا وجود لشهود على أفكاري. صحيح أنه عندما تمسكنا شبكة العنكبوت - ما بين الصّدفة الأولى والثانية - نتصور تخيلات بلا حدود وفي الوقت ذاته نقنع بأي فتات، بسماعه هو - كما هذا الزمن ما بين مصادفات، الشيء نفسه -، بشمّه، بلمحه، بالإحساس به، وبأنه مازال موجودًا في أفقنا ولم يختفِ تمامًا، وبأنه مازال لا يُرى، من بعيد، غبار قدمية اللتين تمضيان هاربتين».

يناير/كانون الثاني 2011

Contents

Notes

[←1]

هذا النوع من المرأة الإسبانية، كان شائع الانتشار في القرن الماضي وظل وجوده مستمرًا حتى وقت متقدّم من القرن الحالي، ويمكن تسميته «الأرملة الاستباقية «previuda»»، لأنها تمضي حياتها مستبقة موت زوجها ومتنبئة به..